

عبد الرحمن الخطيب

عمر بن الخطاب

الوثيقة الخالدة - للدين الخالد
(دراسة كاشفة وعميقة بالغة)

الطبعة الأولى ١٩٧٨

مستخدم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نُحْمَدُكَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَالْعَلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ

سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَالمُؤْمِنِينَ

المقدمة

(١)

منذ نحو عشر سنوات نازعتني نفسي أن آخذ بنصيبى مع الذين كتبوا فى سيرة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بعد أن قطعت معظم العمر فى صحبة الرسول الكريم . مستمعاً إلى سيرته العطرة ، ودارساً لما يقع ليدى من دراسة الدارسين ، ومدح المادحين من أوليائه ، وناظراً فى مفتريات المفتريين ، وأباطيل المبطلين ، من أعداء الإسلام وبنى المسلمين .

ولأنه مع ما اجتمع لى من سيرة الرسول من هذا الفيض الكثير من المشاعر التى اختزقتها فى صدرى ، وسكبتها فى وجدانى ، ومع ما كان يمدنى به القرآن الكريم من إمداد لانتهى من أنوار النبوة التى تطلع مع كل آية من آيات الكتاب الكريم . ومع كل كلمة من كلماته - أقول : مع هذا كله فقد رأيتنى أقف متردداً بين يدي هذا الموقف المهيّب الجليل ، الذى أريد أن أقوم عليه ، وأن ألقى بنفسي فى عبابه الزخار ! ومع هذا ،

فالشوق غالب ، والرغبة دافقة . . وبين الشوق والرغبة ، والإشفاق
والرهبة وقف القلم حائراً . .

أقدم رجلاً رغبة في رغبة وأؤخر أخرى رهبة للمعاطب

إنها لجرأة تكاد تبلغ حد الخروج عن الأدب ، أن أقترح جلال هذه
المقام الجليل ، وأن أحوم حول هذا الحمى الطهور ، بنفس أقتحم الأوزار ،
وبقلب عصفت به الأهواء ، وبقلم مازال يستملى من أباطيل الحياة وترهاتها ،
فإن استقام على طريق الحق يوماً لم يلبث إلا قليلاً حتى تحتله الأمانى الباطلة
والآمال الكاذبة ، فيرد الموارد التي يصطاد منها ما ضنت به الحياة عليه
من متاعها الغرور . .

وهكذا طال بي الوقوف المتردد بين الإقدام والإحجام . لا أجد
عندى قوة تنتصر لهذا الاتجاه أو ذاك . فأستريح من هذا القلق الذي
استبدني ، وأسكن إلى المرفأ الذي ألتقت به سفينة القدر ومراسيها
عليه ! !

(٢)

وفي هذا الموقف الحائر المتأزم ، طلع على خاطر لم أكن قد راودت
نفسى عليه ، بل ولم يكن مما ورد على فيما توارد من أمواج الخواطر
المادرة أو المادئة ، خلال هذه المعاناة . . ولكنه طرق فجأة ، ولمع كما
يلمع البرق . . ثم اختفى في غمار هذه الخواطر المتدافعة ، ثم عاد فظهر خافئاً
واهيماً ، يندو ويروح في رؤى المنام ، وأحلام اليقظة .

وهنا أمسكت به ، حيث وقع في نفسي أن لهذا الخاطر شأنًا ، وأنه
لأمر ما دفع بي في عباب هذه المشكلة ، ثم ها هوذا تهتف بي سائلاً : .

فلماذا تصر على الكتابة في المسيرة النبوية ، ولماذا لا تكتب في سيرة عمر؟
وإذا كنت تهيب ركوب هذا البحر العظيم ، فلماذا لا تسمج على
سواحله وشطآنه . . ؟ ذلك هو الخاطر الذي كان عنه هذا
الحديث آفقا .

ووقع لي في أول الأمر أن هذا خاطر أئيم متهم ، يريد أن يصرفني
عن موقعي حيال السيرة النبوية ، وأن يعطني بهذه الخلدعة ، وكأنه
يقول لي :

إذا لم تستطع أمراً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيع

وحقا إن الكتابة في سيرة « عمر » رضى الله عنه — رغبة نفسى ،
ومهى فؤادى .. ولكن ذلك بعد أن أقفى ما لرسول الله — صلوات الله
وسلامه عليه — من واجب أراه حياة نفسى ومسكن قلبى ، ودعوة دينى ،
وغذاء إيمانى .

وهنا أسفر لي هذا الخاطر عن وجهه ، ليدفع تهمة عجلت برميه بها ..
وإذا بي أجده وجها مقبولا فيما يدعونى إليه ، من الانصراف —
مؤقتا — عن الكتابة في المسيرة النبوية إلى الكتابة في سيرة الخلفاء
والراشدين .. حتى يكون أشبه برحلة إلى السيرة النبوية ، يتزود لها القلم
بما يجد في سيرة الصحابة من آثار النبوة فيهم ، إذ كانوا نمار غرسه ،
وتلاميذ مدرسته ، وصنعة تربيته .. فإذا أنس المرء إلى هذا الجوار الكريم
الصحابة رسول الله واطمأن إلى الحياة الطيبة من سيرتهم ، وتنفس في أجوائها
العطرة ، وقبس من أنوارها المضيئة ، وطعم من مجانيها المباركة — كان له

أن يجد الطريق مهدياً إلى حيث السناء العالمة ، والأفق المبين ، فلا تعشى عينيه
أضواء النبوة ، ولا يصعقه جلال جلالها ..

(٣)

ورضيت عن هذا الخاطر في جلته .. ولكن بقى في نفسي
منه شيء !!

إذا كان من الحكمة أن أبدأ الكتابة عن السيرة النبوية بالكتابة
في سيرة الخلفاء الراشدين - كقائمة لها ، وكدليل لارتداد الطريق إليها -
فلماذا يكون البدء بعمر بن الخطاب ؟ ولماذا لا يكون ذلك حسب الترتيب .
الزمني في خلائهم لرسول الله .. أبوبكر ، فعمر ، فعثمان ، فعلى ؟

وقلت لنفسي - بعد لأي - هذه مسألة شكلية أكثر منها موضوعية ،
مادام الأمر سينتهي بك إلى الكتابة فيهم أو عنهم جميعاً .. إنه يستوى
في ذلك من يتقدم أو يتأخر .. فهم جميعاً في الفضل سواء ..

ولئن وعلى بركة الله - فلنبدأ في سيرة « عمر » .. وليقض الله أمراً
كان ممنوعاً ..

وعشت مع سيرة عمر - رضى الله عنه - أياماً وليالي .. وجرى القلم
على الورق بخط ما وعيت من سيرته ، وما وقع لخاطري من ملامح صورته ،
وإذا بي أجد أن ما صنعت لا يعدو أن يكون قصيدة شاعر علق عينه بمنه
رائع من مشاهد الطبيعة ، فرأى فيه من آيات الله ما مالك له ، وأهاج
مشاعره ، فجعل ينظم من كلماته ما ينظم البستاني من أنواع الزهر ، تحية لعظيم
دخل عليه يستقاه !!

والواقع أنى - إزاء شخصية عمر - لم أستطع أن أكون كاتب سيرة ،
أرصد الأحداث ، وأحلل المواقف ، وأستخلص النتائج ، وأنتهى إلى
مقررات وأحكام .. لم أستطع أن أملك على مشاعرى إزاء هذه الشخصية ،
التي تسكاد - لولا الواقع المشاهد - أن تكون أسطورة من عالم الأساطير ،
فكنت - في مواجهة هذه السيرة العظيمة - شاعراً ، ولم أكن مؤرخاً ،
وكنت مشاهداً همه متعة القلب وروح النفس ، ولم أكن دارساً ، مطلبه ،
التحليل والتعليل !

لهذا لم يكن ما كتبت من سيرة عمر سيرة بالمعنى الكامل للفظ سيرة ،
ولإنما هو - كما قلت - مجرد خطرات وقعت لنفسى وأنا بين يدي تلك المشاهد
الرائعة التي ضمت عليها صحف التاريخ من سيرة هذا الرجل العظيم !

كان ذلك منذ عشر سنوات - كما قلت - أو بالتحديد كان ذلك في سنة
١٩٦٦ يوم أن كتبت في سيرة عمر هذا الكتيب تحت عنوان « عمر بن الخطاب
الوثيقة الخالدة للدين الخالد » وها نحن أولاء الآن في سنة ١٩٧٧ .

ومع هذا ، فقد كانت هذه الخطوات القليلة التي خطوتها في هذا العالم
الرحيب من حياة عمر - كانت هذه الخطوات القليلة ، كافية لأن تملأ قلبى
طمأنينة ، وأن تقيم وجهى مستقيماً على سيرة الرسول - صلوات الله وسلامه
عليه - وإذا بي - ودون تردد - أطرق باب السيرة العطرة ، بجنان
ثابت ، وعزم وثيق ؛ بمجرد أن ودعت عمر بن الخطاب ، بعد هذه الوقفة
القصيرة التي وقفتها بين يديه .. ثم إذا بي أفرغ من كتابة ما بلغ جهدى ،
وما طالت يدي من سماء هذه السيرة المباركة ، وكان أن أخرجت كتاباً
تحت هذا العنوان : « البى محمد » صلى الله عليه وسلم : « إنسان الإنسانية

ونبي الأنبياء » ومع أن عدد صفحات الكتاب قد تجاوزت أربعمئة صفحة، من القطع الكبير، فإنها لم تنفع منى صدى، ولم تروى غليلاً.. وإنه على الرغم مما بذلت من جهد في تصوير مشاعري، وفي نقل أحاسيسي، وما أجد بين جوانحي من أدوار النبوة وجلالها — فإن غاية ما استطاعت الكلمات أن تجمله من مشاعري وأحاسيسي لم يكن إلا الرغبة التي طفت على السطح من فوران المشاعر، والنهاب الأحاسيس.. أما جوهر هذه المشاعر، وخالص تلك الأحاسيس فقد بقي قاراً في الأعماق، لا تناله الكلمات، ولا تكشف عن وجهه العبارات.

وهنا بدا لي أن أمضي في الكتابة في سيرة الخلفاء، لعل ذلك يفتح لي سيرة الرسول الكريم طرقاتاً، ويرفعني إلى آفاق أشهد منها ما لم أستطع أن أشهده من جلال النبوة وبهاؤها.

وقد كان، فأخذت وجهتي إلى الكتابة في سيرة الخلفاء الراشدين — رضوان الله عليهم — وكان في تقديري أن أبدأ بسيرة الخليفة الأول — أبي بكر رضي الله عنه.. ولكن جاء الأمر على خلاف ما تصورت وقدرت! وإن تلك لقصة أخرى، من قصص القدر الغالب!!

(٤)

لقد وجدت أنني لم أمض بعد هذا في كتابة سيرة الخلفاء الراشدين، على نحو ما أوحى به لي هذا الخاطر الذي كان قد صرفني — مؤقتاً — عن الكتابة في سيرة الرسول، إلى أن أرد أولاً سيرة الخلفاء الراشدين، وأتزود منها الزاد الذي يعينني على لقاء السيرة النبوية الكريمة.. وهنا أدركت أن هذا الخاطر لم يكن يريد مني ما وقع في نفسي منه أول ما طرقتي، وإنه إنما وقع في نفسي لقاء عربن الخطاب بالذات ليأخذني من أقرب طريق

إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. إذ ما كان لقائى مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى سيرته إلا مجرد استئذان منه للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سيرته المباركة .. فقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه — فيما وقع لى من سيرته أشبه بمجندى يقوم على حراسة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حراسة دائمة ملازمة ، إذ كان ذلك شأن عمر منذ دخل فى دين الله إلى أن لحق رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالرفيق الأعلى ، يأخذ بهذا المكان الأول بين أصحاب رسول الله الذين كانوا كلهم جنودا من حوله ، وحرسا أميناً قائماً من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، إذ كان عمر فى شدته وصلابته وصرامته أجهرهم فى هذا المقام صوتاً ، وأجرأهم قلباً ، وأطولهم يداً ولساناً على من يحوم حول حى الرسول الكريم من المشركين ، والكافرين ، والمنافقين .. فأكثر ما كان يجرىء صوت عمر فى حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً : يا رسول الله ، دعنى أضرب عنق هذا المنافق ! .. يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

وإذن فلم يسكن هذا الوقوف الذى وقفته مع عمر — رضى الله عنه — فى سيرته إلا وقفة على باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع الجندى القائم على هذا الباب ولم يكن ما كتبت من سيرة عمر إلا مجرد صورة له من « الذاكرة » لما وقع فى عيني من ملامح وجهه وأنا بين يديه أطلب الإذن للقاء النبي الكريم فى سيرته الزكية المباركة ! !

ولهذا فإننى قد كنت على نية — وأنا لم أفرغ بعد من كتابة سيرة الرسول الكريم — أن أعود إلى عمر رضى الله تعالى عنه ، فأكتب سيرته من جديد ، على النحو الذى يرضى مشاعرى ، بمجرد أن أنهى من كتابة السيرة النبوية ، إذ كان ما كتبه عن عمر لا يعدو أن يكون لمحة

خاطفة في صفحة محيط لاساحل له ، لم تمسك بشيء من جلاله وعظمته ، ولم تسبر غورا من أغواره ، ولم تطلع على شيء مما في أعماقه ، من كرم الجواهر ، وعظيم اللآلئ ، وفي هذا — حسب ما وقع في نفسي — عدوان على هذا المقام العظيم ، وجور على الحقيقة يعرضها هذا العرض الباهت الهزيل .. ولأنه لن يصحح هذا الموقف ، ولن يرد إلى هذه الحقيقة بعض اعتبارها إلا أن ألتقي بسيرة عمر لقاء مجددا ، وأن أبدأ بكتابة سيرته ، إذا كنت على نية الكتابة في سيرة الخلفاء الراشدين .. فهو وإن لم يكن أول الخلفاء الراشدين ؛ فإنه كان أول من طرقت بابه ، واتخذت منه الوسيلة التي أنوسل بها لقاء سيرة رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه .

(٥)

هكذا قدرت ، ولكن جرى القدر معي على غير هذا التقدير .. فلم أعد إلى الكتابة من جديد في سيرة عمر كما أردت وقدرت ، بعد أن أنهيت ما قدرت عليه من سيرة الرسول ، بل وجدتنى بين يدي سيرة على بن أبي طالب - كرم الله وجهه - دون من سبقه من خلفاء رسول الله : أبي بكر وعمر وعثمان .. والحق أنني لم أراجع نفسي هذه المراجعة حينذاك ، بل مضيت مع سيرة على مرسلا نفسي على سجيته ؛ مقدراً أن هذا الأمر يراد لأعلم لى بتأويله في حينه ، وإن يكن بما قد يأتى تأويله بعد حين !!

ومضيت فكتبت سيرة على كرم الله وجهه : تحت هذا العنوان « على ابن أبي طالب .. بقية النبوة .. وخاتم الخلافة » تصحبنى في هذا نية قائمة على الكتابة في سيرة الخليفة الراشدين ، أبي بكر وعثمان ، رضى الله عنهما ، حتى إذا فرغت من هذا عدت إلى ما كتبت من سيرة عمر ، فأعدته على منهج جديد ، حسب تصورى له .. ولكن جرى القدر - مرة أخرى -

في خط هذه المسيرة ، فقير من وجهها ، وعد بي عن طريقها ، وإذا أنا بين
يدى القرآن الكريم ، أعرض نفسي عليه ، وأدعوها إلى أن ترد موارد ،
وأن تدفع بسفينتها في عبابه ، وأن تلقى بشبا كها في محيطه ، ثم تعرض مايقع
فيها من لآلئه . وجواهره على الأنظار .. وقد كان .. فأخرجت من كنوز
القرآن الكريم ما عرضته باسم : « التفسير القرآني للقرآن » والذي اشتمل
على تفسير القرآن الكريم ، في سنة عشر كتابا ، في نحو إثنتي عشرة
ألف صفحة .

وأشهد أنني خلال تلك السنوات التي كنت فيها مع كتاب الله لم ألتفت
إلى أي أمر سواه ، من شئون نفسي ، أو اتجاهات تفكيري .. وهل يترك
القرآن الكريم لمؤمن اتصل به ، وحل ضيفا عليه - شيئا غير القرآن يشغل به
نفسه ، أو يصرف إليه تفكيره !

(٦)

والآن ، وقد قطعت بسلام هذه الرحلة المباركة ، مع كتاب الله ، فإلى ،
أين يأخذ القلم طريقه . وإلى أية غاية يكون مقصده ؟
وهل طريق بعد هذا إلا الطريق المتجه إلى خلفاء رسول الله ، وهل
غاية - بعد صحبة القرآن - إلا الغاية - التي نلتقي عندها مع هؤلاء الصفوة
المتخيرة من صحابة رسول الله ، إنهم هم التفسير الحى للقرآن الكريم ، وهم
- في سيرتهم - البواكير الطيبة الناصجة لمفارس كتاب الله في قلب الإنسانية
وعقلها ، وفي ضميرها ووجدانها ..

ولكن بمن يبدأ القلم رحلته معه ، من هؤلاء نفر الكرام ؟

إنه لا خيار ..

فلقد وجدتني - على غير ما قدرت ودبرت - بين يدي عمر بن الخطاب -
- حمرة أخرى لا لأستأذنه في لقاء رسول الله ﷺ - على بساط سيرته الزاكية ،
- المهادية بل للقائه هو لقاء صامناً ، على طريق حياته ، من مولده ، إلى وفاته ،
- في جاهليته وإسلامه . في صحبته لرسول الله ، وفي وزارته لأبي بكر ، ثم
إمارته للمسلمين ، وفي قيامه على دولة الإسلام ..

ولا أدري إن كان ابن الخطاب - رضى الله عنه - سيرضى أو يسخط
على تلك الصورة التي سيرسمها القلم له .. ودل يراها أقرب إلى الحق فيه ،
وأشكل بالواقع منه ، أم أنها قد دخلها كثير أو قليل من السبات والألوان
والظلال ، التي جاوزت الحق ، أو جارت عليه ، وليس عند ابن الخطاب -
رضى الله عنه - ما هو أعظم من الحق ! الذي هو حرم الله ، والذي لا يقبل
ابن الخطاب فيه مهادنة ، ولا يقيم في الانحراف عنه عذراً لمعتذر . . إنه
لا يرحم أحداً عثرت به قدم على طريق الحق ، هكذا هو عمر ، وتلك هي
- شخصيته التي دان بها نفسه ، وأخذ بها أهله وولده ، وأجرى عليها حكمه
في رعيته ، حتى لقد قيل فيه : « إن الحق ماترك لعمر صاحباً » !!

وماذا أفعل لإقامة شهادة الحق على وجهها في سيرة عمر ، وفي الأحداث
التي وقعت في حياته ، وفي المقولات التي قيلت فيه .. له أو عليه .

كيف السبيل إلى هذا ، وليس بين يدي إلا ما ضمت عليه صحف
التاريخ من أخبار ، وما رواه الرواة من مقولات ؛ وما ذكره من أحداث
وفي تلك الأخبار ، وهذه المقولات ، وتلك الأحداث ، شيء ليس بالتقليل
من الكذب والتلفيق ، ومن الدس والكيد ، مما اختلط فيه الحق بالباطل
.. والرأى بالموى ..

وإذا كان هذا هو الشأن في كثير من أحداث التاريخ التي اصطفت بألوان غريبة ، غيرت وجه الحقيقة فيها - فإن تاريخ العظماء من الرجال يذهب بأوفر نصيب من هذا التحريف والتبديل لوجه الحقائق المتصلة بهم ، والأحداث التي لا بست حياتهم ، فيضاف إليهم الكثير مما لبس لهم ، ويدفع عنهم الكثير الذي لهم .

ولا شك أن عمر قد أخذ أوفر نصيب من هذا وذاك ، إذ كان فوق عظمته عنيداً عنيفاً في الاتصاف للحق ، وفي حمل الناس منه على مركب خشن ، لا هوادة فيه ولا رحمة معه ، فاتسع للناس مجال القول فيه ، بالحق وبغير الحق ، حتى لقد اجتمع في سيرته من ذلك ما لا يكاد يمسكه حصر ، أو يحيط به جمع .. وهذا من شأنه أن يشق على طالب الحقيقة ، وأن يخرج الباحث عن الكلمة الصادقة ، والخبر الصحيح ، من بين هذه المقولات الكثيرة المتناقضة المتضاربة التي جمعتها كتب السيرة والأدب ، مضافة إلى عمر رضى الله عنه ..

وعذرى عند ابن الخطاب - في الصورة التي يخطها قلبى له - أنى متبع غير مبتلع .. بمعنى أنى إنما أنظر إليه من خلال هذه الصورة التي احتفظ له التاريخ بها ، مع ما حملت من ألوان وأصباغ ، وما تشكلت به من أصيل أو دخيل .. ثم أحتكم في هذا إلى الشواهد الصادقة من سيرته ، فأرد إليها كل ما يقع عندى موقع شك أو ريب ، فأقيمه على ميزانها ، فإن استقام أخذت به ، وإن انحرف عدلت عنه ..

وأن مما يسر على هذه المهمة ، أن شخصية ابن الخطاب - رضى الله عنه - تكاد تكون خطأ واحداً ، ولوناً واحداً ، أشبه بالنهر العظيم ، الذي

- استقام مجراه على وجه واحد ، وطبيعة واحدة .. فلبس في شخصية عمر -
رضي الله عنه ، مرتفعات ومنخفضات ونجود وسهول . إنما هو نجم ثاقب ،
يتحرك في فلك لا يجاوزه أبداً ، حيث رصده الراصد رآه كما عهده ، على
: أى أنقى كان مطلقه .

(٧)

بقي بعد هذا تدبير آخر ، لا أدري ماذا أنا محمول عليه منه .. وهو
هذه السيرة الموحزة غاية الإيجاز التي كتبتها من قبل عن عمر بن الخطاب
تحت عنوان : « عمر بن الخطاب .. الوثيقة الخالدة للدين الخالد » -
إنها كانت في تقديرى - يوم أخرجتها فريدة دون غيرها من سير الخلفاء
الراشدين - كانت في تقديرى مجزية في تحقيق الغاية التي انتصبت لها ، ثم
إننى حين بدالى أن أكتب سيرة الخلفاء الراشدين : أبى بكر ، وعثمان ،
وعلى - رضى الله عنهم - أزمعت في نفسى أن أبدأ بسيرة أبى بكر ، ثم
أتناول ما كتبت من سيرة عمر فأقيمه على الوجه الذى يستوفى - ما أمكن -
سيرته .. ثم أمضى مع سيرة عثمان ، ثم على - رضى الله عنهما - ولكن
كان الذى أشرت إليه من قبل ، وهو ما انتهى بى إلى كتابة سيرة على !!
- وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » .

وها أنذا بين يدى سيرة عمر ..

فهل أعود إلى ما كتبت من سيرته ؛ فأجعل منه ركيزة للكتابة فى
سيرته تلك التى أنا آخذ طريقى معها الآن ، أم أصرف النظر عن هذا الذى
كتبته من قبل ، وأبدأ فى كتابة السيرة الجديدة دون اللتفات إلى ما كتبت
وكان شيئاً لم يكن ؟

لا أدري - وأيم الحق - إلى هذه اللحظة - أى الطريقين أسلك ، وبأى
الرأيين آخذ .. وإنه ليهمس فى خاطرى وأنا أكتب الكلمة الأخيرة من
الجلية السابقة ، أن عمر بن الخطاب لا يرضى بهذه المرقعات فى كتابة سيرته
التي تمس الصميم من حقيقة الإسلام فى كثير من جوانبها ، وإن كان قد
رضى بالمرقات ثوباً يلبسه ، ويستتر به جسده فى حياة الخاصة .

إننى أحكى هنا مشاعرى ، وخواطرى ، وأسجل إيماءات وإشارات
ربما حسبها البعض مدعيات ، أو تخيلات ، أو أحلام يقظة أو نحو هذا ..
ولست أقطع بأنها ليست تخيلات أو أحلام يقظة .. ولكن الذى أقطع به
أنها ليست مما يدخل فى باب الادعاء من قريب أو بعيد !!
وإذن ، فأنا ماض بإذن الله فى سيرة عمر رضى الله عنه أصوغها من
جديد ، فى دراسة مستقلة ، عن الدراسة السابقة .

وإذن فهما كتابان أو دراستان عن عمر بن الخطاب .

هذه الدراسة التى صدرت منذ أكثر من عشرين عاماً ، ولتكن
أشبه بأنظام الموسيقى التى يستفتح بها عروض رواية تاريخية على مسرح
الحياة !!

ثم تلك الدراسة التى نبدأ كتابة السطور الأولى منها الآن ، ولاندرى
تأليف الذى يكون لها بعد أن تستكمل وجودها ، وتخرج إلى الحياة .

ومن الله نستمد العون . وهو ولى التوفيق

والصلاة والسلام على سيدى وحببى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وعلى آله وصحبه ، وسلام على عباده الذين اصطفى

عبد الكريم الخطيب

القاهرة
جمادى الثانية ١٣٩٦
يونيو سنة ١٩٧٧

تمهيد

وها نحن أولاء بين يدي عمر ، يطامع عاينا بكل ما خاف وراءه من آراء الناس فيه ، ومقولاتهم عنه ، وولاء الموالين له ، وثمة النافين عليه ومغالاته المغالين في التشيع له ، ومبالغة المبالغين في التشنيع عليه .

وعمر وإن بلغ ما بلغ من الكمال التقدير للناس ، في صدق دينه ، ووثاقة إيمانه ؛ وفي عزته . وعدله ، واستقامته ، وسلامة صدره ، ورجاحة عقله ، ونفاذ بصيرته ، وصدق حدسه ، وفي كل صفة يتجلى بها أهل الكمال ويتمستها أولو الفضل من الرجال - فإنه لا يسلم مع هذا كله - من أن يجد فيه الذين يطلبون العايب والمآخذ ، ما يعاب منه ، وما يؤخذ عليه
وقديما قيل : « من طلب عيباً وجده » . . . فالكامل المطلق صفة لا تنفرد بها الله سبحانه وتعالى ، لا يشاركه فيها مخلوق من خائمه . .

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى للمرء نبيد أن تعد معايبه

هذا إذا نظر إلى الإنسان - أي إنسان - مهما بلغ من الكمال - بعين العدل والإصاف ، والتجرد - على القدر الممكن - من الهوى الغالب أو الشهوة المتحكمة . . فكيف إذا كان النظر هنا ، بعين حواء ، وبقلب سقيم ، وبضمير منحرف ؟ إن المفنات حينئذ تتضخم وتكبر ، وتبدو شنائع من الخطايا وكبائر الآثام ، حتى لكأنها البعوضة بنظر إليها من خلال مجهر ، فإذا هي صورة فيل عظيم !!

أما الحسنات فيخف ميزانها هنا ، وتسكد تكون هباء منثورا ،
(٢م - عمر)

لا حساب له ، ولا غناء فيه .. هذا إذا لم تنقلب الحسرات - في هذا الميزان الجائر - فتوضع في كفة السيئات ، وتحسب في حسابها .

والعظماء ، الناس ، هم أكثر الناس تعرضاً لهذا الابتلاء ، أحياء وأمواتاً .. إذ كانوا وهم القمم العالية ، والرؤوس البارزة في المجتمع ، بحيث تتعلق بهم الأبصار ، وتتحدث عنهم الألسنة ، وتسمع إليهم الآذان .. فكل حركة لهم مرصودة عليهم ، وكل عمل منهم مشهود لهم ، وكل قول مسوع فيهم .. ومن هنا يخضع العظماء لما لا يعد من الأحكام الواقعة على كل حركة من حركاتهم ، أو عمل من أعمالهم ، أو قول من أقوالهم ، من استحسان واستهجان ، ورضى وسخط ، وقبول ورد .. حتى ليكاد يكون ذلك الجمع الكثير من المتناقضات ، محسوباً بحساب عظمة العظيم ، وما يجتمع إليه من الناس ، وما يدور في فلسكه من أولياء وأعداء .

وفي القرآن الكريم شاهد لهذا .. ففي ما كان من امرأة العزيز مع يوسف - عليه السلام - كان يمكن أن يقع مثله في غير بيت العزيز من عامة الناس ، ثم لا يدري به أحد .. ولكن لأن هذا الحدث قد وقع في بيت رجل له مكانته في قومه ، فإنه سرعان ما انتشر في الناس وتناقلته الألسنة ، همساً خافتاً ، ثم أصبح حديثاً عالياً ، طرق بيت العزيز نفسه ، وفي هذا يقول الله تعالى : « وقال نسوة في المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها في ضلال مبين » .. وهكذا يصبح هذا الحديث حديث الدنيا كلها إلى يوم الدين .

ثم ما ظنك بإنسان قد امتد سلطانه على شطر هذا العالم ، واحتمل ضديره مسئولية الحياطة والرعاية له ، والحماية ، والأمن واللامة ، وكفالة

العمل ، وتوفير الطعام لكل ذى نفس حية عاش تحت راية الدولة الإسلامية حتى لقد امتد ذلك إلى عالم الحيوان ؟

لقد حمل عمر هذه الأمانة ، وأخذ نفسه على القيام بها ، ووطنها على آدائها كاملة إلى أهلها ، بل ودعا كل إنسان أن يطالبه بأداء هذه الأمانة وأن يحاسبه حساب المقصرين إذا هو قصر قليلا أو كثيراً فى حق ذوى الحقوق عليه ..

ومن هنا فلا غرابة أن كثرت الأنظار المتجهة إلى عمر ، وكثر الراصدون لحقوقهم ، أو حقوق غيرهم .. ومن هنا أيضاً تواردت عليه المشكلات ، صغيرها وكبيرها ، وتوافدت إلى ساحته الشكايات باطلها وحقها ، فكان عمر يلتقى كل هذا الفيض الزاخر بالحزم والحسم . ويأخذ الناس جميعاً يالعدل الذى يقيمهم على ميزان واحد ، لا فرق بين حاكم ومحكوم ، وغنى وفقير ، ومسلم وذمى .

وطبيعى أن يرضى كثيرون بعدل عمر ، وشدة عمر ، واستقامة عمر ، وخاصة والناس فى بقية من أضواء شمس النبوة التى غربت منذ قليل .. وطبيعى أيضاً أن يغص بعدل عمر وبسلطان عمر غير قليل من الذين انتزع للإسلام ما كان لهم من سيادة على الناس ، وتحكم فى رقابهم ، ولم يكن لهم من إخلاص لإيمانهم ما يحرسهم من أهواء النفس ووساوس الشيطان ! !

وبادئ ذى بدء ، فإن الدارسين لشخصية عمر دراسة محايدة ، من غير المسلمين ، يرون فى عمر صورة - نكاد مثالية - للحاكم الرشيد العادل ، والسياسى الحكيم البارِع ، الذى يستعلى حكمه على الأحداث ، وعلى الأشخاص ، وبالإخلاص المطلق للحق ، وبالرعاية المطلقة للصالح العام ،

وبالتطبيق الدقيق ، والالتزام التام لحدود الشريعة .. وهذا من شأنه أن يطلق الملكات الفطرية في الإنسان ، وأن يجعل نظرتَه إلى الأمور مستوية عليها ، نافذة إلى الصميم منها ، وذلك من غير معاناة ، ومن غير مكابدة في دراسة أحكام المنطق ، ومقولات الفلسفة .. ذلك لأن منطق الفطرة ، هو من منطق الحياة ، فإذا كانت الفطرة على الصحة والسلامة ، كان حكمها على الأشياء حكماً صحيحاً سليماً .. أشبه بالحواس السليمة في حكمها البدهي الصحيح على ما تلتقي به من محسوسات !!

والقرآن الكريم والهدى النبوي ، والصحبة اللازمة للنبي - لا شك أن ذلك كله هو الذي أطلق ملكات عمر من أسر الهوى المتسلط على النفوس ، وهو الذي جعل له تلك الحاسة الملهممة التي عرفت عن عمر ، والتي يسميها علم النفس « حدساً » ويسميها الإسلام « تحديثاً » وهي إلهام رباني يفيضه الله تعالى على خاصة المؤمنين ، كما يقول الرسول الكريم : « إن فيكم محدثين ، وإن منهم لعمر » .

والمسلمون في جملتهم على رأي واحد في عمر ، وهو أنه قمة في الإسلام ورجل دولته ، لا يَنَازَعُه في هذا غير أبي بكر الصديق .. ومن هنا يأخذ عمر في نفوس المسلمين مكان القدوة والأسوة ، يتمثله كل مسلم في كل ما يدعو إليه دينه ، وتتسع له همته من فضائل وكالات ، إذ كان عمر خير من يدل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما دلاه به ربه من كمال وجلال تقطع دونه أعناق البشر .. ومن هنا أيضاً أحاط المسلمون عمر - رضي الله عنه - بالحب المشبوب بمواطن الولاء ، الذي يرى مجمع الفضائل كلها فيمن يصفه المرء الحب والولاء !

وفي المسلمين جماعة قليلة ذات هوى ، يرى في عمر رأياً غير هذا الرأي
ناذى عليه جماعة المسلمين فيه ، وتقيمه على ميزان غير هذا الميزان ، وهى
جماعة من فرق الشيعة التى أفرطت فى حب على - كرم الله وجهه - فحملها
هذا الإفراط على أن تفرده بالفضائل كلها لا تبقى على شىء منها لأى من
صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى عن صحابته . . ثم ذهب بها
هذا الإفراط - بمد سلب المحاسن - إلى اصطیاد المعایب ، وجلب المنكرات
تلقى بها فى ساحة كل من نازعوا عليها صفة من صفاته ، أو فضيلة من فضائله
حتى لكان دولة الإسلام تضيق بالعطاء من رجالها ، ولا تحتل أن يكون
فيها غير عظيم واحد ، يحمل كل فضائلها ، ويمتص فى كيانها كل منافع
الخير والإحسان فيها .

وعمر - فى ميزان الشيعة - معتد ، طالم ، انتهارى ، حسود ، سلب آل
البيت - غدراً وخيانة - حقهم فى ميراث الرسول ، وفى قيامهم على خلافة
على المسلمين من بعده .. وذلك هو أعدل مواقف الشيعة عموماً فى عمر -
إذا كان لأى موقف جائر أن ينسب إلى العدل بالنسبة لما هو أشد جوراً
منه - وهناك آراء كثيرة لبعض فرق الشيعة تكفر عمر ، بل وتتقرب إلى
الله بلعنه وسبه ، رضى الله تعالى عنه ، وأرضاه .



هذه ثلاث نظرات ينظر بها الناس إلى عمر رضى الله عنه :

نظرة حيادية ، ينظر بها إليه أولئك العلماء الدارسون لعظماء الرجال
ليكتشفوا مواقع العظمة فيهم ، وذلك لحساب العلم ونعرفة ، غير باطرين
إلى عقيدة ، أو وطن ، أو جنس ، أو لون ..

ونظرة متعاطفة ، مع صاحب السيرة رضى الله عنه ، هي التى ينظر بها
إليه كتاب السيرة من المسلمين ، فهم إاد يبحثون عن مواقع العظمة فى عمر
لا ينسون أبداً ، فى أى موقف من المواقف أو حدث من الأحداث ، أن
عمر هو ابن الإسلام ، وأن عظمته من عظمة الإسلام ، فهم يدرسون
سيرة عمر كشاهد يقدمونه مع الشهود الكثيرة التى تشهد لصدق الرسالة
الإسلامية ، وللآثار الطيبة التى نتركها فىمن يؤمنون بها . ويتربون
فى حجرها . .

ونظرة ثالثة مجافية ، متهمة لصاحب السيرة ، وهى نظرة الشيعة ، وهى
نظرة - كما قلنا - متناوئة بين الاقتصاد والإفراط فى الجفاء والاثام ، حسب
موقف كل فرقة من فرق الشيعة من على بن أبى طالب ، ورأىها فيه .

فبأى هذه النظرات الثلاث سكون نظرنا إلى عمر فى سيرته ؟

وبغير تردد ، فإن نظرنا لن تستقيم مع نظرة الشيعة أبداً فى عمر . .
إذ كان لما مذهب يخالف مذهبنا فى النخبة التى فى بكر وعمر بوجه خاص ،
وهو مذهب يمس العقيدة من قريب أو بعيد . . ومن أجل هذا فإن خطتنا
فى دراسة السيرة العمرية هى ألا نقول على نبيءنا نقول به الشيعة فى عمر
وما ترميه به من تهم ، إلا إذا كان ذلك لتصحيحه ، وإقامته على ميزان
الحق والإنصاف .

أما النظرة الحياضية ، وإن كانت أعدل النظرات فى الدراسات المجردة
للحق ، ولطلاب الحقيقة ، إلا أننا لا يمكن أن نلتزمها فى سيرة عمر ، حتى
لو أردنا ذلك ، واجتهدنا فيه . إذ لابد أن يكون العاطفة الدينية التى تجمعنا

إلى عمر ، أثر ، في موقفنا من سيرته ، ومن تعاطفنا معه ، وإعجابنا به ،
ورجائنا في الله أن نتأسى به فيما نأخذ من دنيانا ، وما نتزود به لآخرتنا .

والذى نرجو أن نلتزمه في سيره عمر ، هو أن نكون أقرب إلى الدراسة
الحياضية ، وذلك بالاقتصاد ما أمكن من العاطفة الدينية ، فلا تطنى على
الحقيقة ، ولا أن تدير وجهها ، ذلك ما نرجوه ، ونسأل الله تعالى أن
يعيننا عليه .



ولكن ماذا نأخذ أو ندع من سيرة عمر ؟ أو قل ماذا نقبل أو نرفض
من المرويات عن سيرة عمر ؟

إننا - كما أشرنا من قبل - بين يدي مرويات كثيرة متضاربة ، تذهب
كل مقولة منها مذهبا في عمر ، تعطيه أو تأخذ منه !

على أنه مما يهون الأمر ويخفف العبء في هذا المقام ، هو أن لعمر
- رضى الله عنه - سمة طاهرة ، وقسمات واضحة ، قد فرضت وجودها على
الزمن ، وأنزلت الأولياء والأعداء على حكمها ، بحيث ترى كل إضافة
جديدة إليها - من محمود أو مذموم ، أو تجريح - عملا محسوبا على أصحابه
لا يغير قليلا أو كثيرا مما يمكن أن نطلق عليه «الشخصية العمرية» .. ذلك
أن الذى لا شك فيه هو أن لعمر - رضى الله عنه - شخصية ذات طابع
ميز لا يخطئه الناظر إليه من خلال المواقف والأحداث التى حفظها التاريخ
من سيرته ، سواء فى هذا ما روى عن واقع فى أمانة وصدق ، وما جاء عن
غير الواقع من محب مغال فى الحب ، أو شائى غير مقتصد فى الدس والكيد .

ذلك أن للعظماء من الناس - وعمر من غير جدال فة في هؤلاء العظماء -
تقول إن للعظيم من الناس أسلوب حياة ، ومنهج تفكير ، ومنزع سلوك ،
هي دلائل يستدل بها عليه ، ويعرف منها ما يصح أن يضاف له ، ويحسب
عليه ، وما لا ينبغي أن يكون منه ، أو يصدر عنه .. تماما كما تعرف أعمال
الفنان الأصل بالروح السارية منه في فنه ، وبأدائه العالقة بكل أثر من
آثاره ، وببصمائه المطبوعة على كل عمل من أعماله .. وبهذا استطاع نقاد
الفنون أن يكشفوا عن الزيف المدخول على أرباب الفنون ، وأن يميزوا
بين ما يصح أن يكون من عمل هذا الفنان أو ذاك ، وما لا يصح .. وأقرب
مثال لهذا ما كان من صنيع النقاد في الشعر الجاهلي ، الذي دس عليه كثير
من شعر المولدين ، كما اختلط فيه شعر الشعراء الجاهليين أنفسهم بعضه
ببعض .. فكانت دراسة الحياة الجاهلية ، ومنازع الناس فيها ، ثم دراسة
الشاعر الجاهلي ، وظروفه ، والنظر في وجه الشعر المقطوع به من شعره -
كان ذلك هو المعيار الذي استطاع به نقاد الشعر أن يجمعوا ديوان الشعر
الجاهلي جملة ، ثم ديوان كل شاعر على حدة ، وقد كان هذا أقرب إلى الحق
وأدنى إلى العدل والإنصاف .

وبهذه الشخصية المتميزة للعباقرة من الفنانين ، قامت حراسة قوية
على أعمالهم ، فلم يجرؤ أحد على نسبتها إليه ، أو محاولة محاكاتها ، فإن
البصمات التي يتركها العبقرى الفنان على روائع فنه ، تقضح كل متطفل عليها ،
أو متمسح بها .

بمثل هذا ، أو قريب منه ستكون دراستنا لشخصية عمر ، ونفارتنا إلى الأحداث والمواقف التي حفظتها صحف التاريخ عنه .. بمعنى أننا سنواجه هذه الأحداث وتلك المواقف كلها ، ونفترض بادية ذى بدء أنها تراث عمر ومخلفاته .. ثم نعرض كل حدث وكل موقف ، على ما أسميناه « بالشخصية العمرية » ، فساتجاوب منها مع هذه الشخصية ، ووجد في جوارها أنسا وسكنا ، قبلناه ، وجعلنا منه لبنة تضاف إلى بنائها ، وما لم يكن كذلك صرفنا النظر عنه ، وأحلبا أيدينا منه .

ولكن هذا الأسلوب من الدراسة يفرض علينا أن نرد على اعتراض من شأنه أن يثار هما ، وهو : على أى أساس أقيمت هذه الشخصية العمرية ، التي يحتمك إليها في قبول أو رفض ما يروى عنها من المواقف والأحداث ؟ إن هذه الشخصية لا يمكن أن تتحدد وتشخص إلا من خلال هذه المواقف والأحداث .. فكيف تكون هى السبب والمسبب معا ، ثم كيف - وهى حسب لأسباب - تسبق أسبابها .

ونقول رداً على هذا : إن الشخصية العمرية التى أشرنا إليها هى شخصية قد فرصت نفسها على التاريخ .. ولم يعد أحد بقادر على أن يغير من وجهها ، أو يبدل من صورتها .. وكل ما يمكن الدارسين للشخصية العمرية هو أن يقنوا بين يدى هذه الشخصية ، وأن يطوفوا بها ، وأن يقرأوا الأحداث والمواقف المسطورة عنها ، ثم إذا هم جميعا على موقف سواء من تلك الشخصية ، وأنهم جميعاً قد التقوا بعمر ، وأعجبوا به ، وراعى منه تلك العظمة الإنسانية ، التى تلبها البشرية فى فائات أزمانها وأجيالها ، لتسكون شاعداً على مدى اتساع الحال الذى تتحرك فيه الإنسانية ، ذلك

المجال الممتد من بين الأرض والسماء .. فيتنا يكون من بنى آدم من هم
على مستوى التراب الذى يمشون عايه إذ يكون أفراد منهم قد لامست
هاماتهم مدارات الكواكب والنجوم !

أما الذين لم يكن عمر موصع إعجاب وبهرلم ، فإنهم إذ ينظرون
إليه ، إنما تشخصأ بصارهم إليه حيث هو فى هذا الأفق البعيد العالى ، وإن.
ضائق صدورهم به ، وازورت نفوسهم عنه ، كما تضيق الصدور أحيانا
بالنظر فى وجه الشمس ، وتزور النفوس عنها .. ومع ذلك فهى هى الشمس^{٢٢}
لا يرفع من قدرها رصا الراضين ، ولا مدح السادحين ، كما لا يزيلها عن
مكاتها سخط الساخطين ، ولا قدح القادحين .

ما كلام الناس فى الشمس إلا هى شمس ليس فيها كلام ١١

وإذن فالشخصية العمرية ، التى تقوم بهذه الدراسة لها ، شخصية
مفروغ من البحث فى الاستدلال على عظمتها ، أو مواطن هذه العظمة فيها
وإنما نحن منها فى موقف أشبه بموقف بين يدي راتئة من روائع الطبيعة.
تقع من النفوس جميعها موقعا من الإعجاب والانبهار لا يكاد يختلف روعة
وجلالا ، وإن اختلف مذاقا وطعما .

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصغى له ركب تلاحى
شجا قلب الخلى قليل غنى وروح بالشجى قليل ناحا

وعظمة عمر ليست نفما واحداً ، وإنما هى لحن ينتظم كثيراً من الأنعام
بعضها قوى عنيف ، وبعضها خفيض هلمس ، وبعضها هادر صاخب ،
وبعضها ناعم حالم ، أشبه بأوتار العود . لكل وترنمه ، ومقامه .. ولكن

لا تخطيء الأذن نغم العود مهما اختلفت أنغام أو تاراه، وتباعدت مقاماتها !

والقوة ، هي النبرة الواضحة العالية في الشخصية العربية ، لا نغنى بها القوة التي تضبط بالمسكايل والوازين ، ويستدل عليها بالعد والحساب ، وإنما نغنى بها تلك القوة التي ييسط بها الإنسان سلطانه على الأمور التي تهجم عليه من داخل نفسه أو خارجها ، فيحتويها بشخصيته ، ويستولى عليها بكيانه ؛ ويملك زمانها برأيه وحزمه ، تلك هي قوة عمر ، وهي ملاك عظمتة وسر هذا الإعجاب الذي حظى منه بأوفر نصيب عند المسلمين وغير المسلمين . . . ولعل تلك القوة هي التي أشار إليها أبو بكر حين عزم على قتال المرتدين . ومانعى الزكاة بعد وفاة الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وقد أراد عمر على ألا يغامر بالمسلمين في هذه الحرب التي يواجه بها معظم قبائل العرب بعد أن لحق الرسول الكريم بالرفيق الأعلى ، وتألّبت معظم قبائل العرب على قريش التي استأثرت بالنبوة ، ثم هاهي ذى تريد أن تستأثر بالخلافة ! فكان رد أئى بكر عليه : « أجباراً في الجاهلية ، خواراً في الإسلام يا عمر » .

إن أبا بكر لينكر هذا الموقف من عمر لأنه موقف لم يمهده من عمر في جاهلية أو إسلام ، فلقد كان المعروف عن عمر أنه في جانب القوة . دائماً .. اقوة التي تستغنى باستنادها إلى الحق عن كل قوة ، والتي تستخف مع الحق بكل قوة . . فاقم واجه عمر قريشا كلها يوم أن أسلم ، فأعلن بصوت جهور أنه قد آمن !! ثم لم يقف عند هذا ، بل دعا النبي صلى الله عليه وسلم ، والجماعة المؤمنة التي لم تكن تتجاوز الأربعين عدداً إلى الصلاة جهرة وجماعة في المسجد الحرام على مرأى ومسمع من قريش ، فاستجاب له النبي وخرج إلى المسجد في صفين من أصحابه ، على رأس أحدهما عمر ،

وعلى الآخر حمزه ! وكان لهم كديد وضجيج هز منازل المشركين ، دون
أن يقف أحد في طريقهم .

ثم كانت هجرة عمر على هذا الوجه الواضح الصريح القوى .. فما هاجر
مهاجر قبل عمر إلا مستخنيا عن أعين المشركين ، متسللا من بينهم ، حتى
جاء دور عمر ، فأعلن في قريش أنه مهاجر غداً ، فمن أراد أن تشكله أمه
فليلقه خلف الوادى على طريق هجرته .. وعمر هو الذى نادى بتتل أسرى
بدر من المشركين ، وفيهم أهله وذوو قرابته .

وعمر ، هو الذى لم يكن مه رضى بمهادنة المشركين فى صلح الحديبية ،
بعد بيعة العتبة ، بل نادى بدخول مكة عنوة على المشركين ، ولو كانت
الحرب ١١

هذا بعض من مواقف عمر التى أملت لها عليه « قوته » التى كانت
طبيعة مركوزة فيه ، والتى جعلته يأخذ موقفاً فى الحياة يكاد ينفرد به وحده
دون جماعة المؤمنين .. ولم يكن عمر أقوى أبطال المسلمين فى الحرب ،
ولا أربطهم جأشاً ، وأشجعهم قلباً .. بل كان يشاركه ، ويزيد عليه فى هذا
كثير من الأبطال ، كعملى ، وطلحة ، والزبير ، وغيرهم ممن عرف بلاؤهم
وصبرهم فى القتال .. ولكن قوة عمر كانت قوة رأى ووضوح رؤية تقطع
عليه كل شك فى الأمر الذى يعرض له .. فلا يكون منه بعد هذه الرؤية
الواضحة الكاشفة ، ارتياب أو تردد ، ومن هنا كان إيمانه بما يقع فى
قلبه من أمور الدين ، إيماناً راسخاً متمكناً ، يستولى على كل حاجة من
خلجات نفسه ، وعلى كل منزع من منازع سلوكه ، فلا يملك أن يعدل
بوجهه عن الغاية التى استهانت له ، واجتمع عليها رأيه ، وأمسك بها قلبه .

والرسول صلى الله عليه وسلم قوله في عمر رضى الله عنه ، وهى قوله
صلوات الله وسلامه عليه - فيما رواه البخارى ومسلم ، عن السيدة عائشة رضى
الله عنها : « كان فى الأمم محدثون ، فإن يكن فى أمتى ، فعمر » .

والحدث - بتشديد الدال وفتحها - هو من يهمس فى خاطره من عالم
الغيب بحديث ، كأنما ينزل عليه من السماء ، فتشرق به جوانب نفسه ،
ويجد منه برد السكينة والطمأنينة فى قلبه . إنه - أى التحديث - درجة فوق
درجة الإلهام ، حيث يقع الإلهام دون أن يشعر صاحبه بأن قوة خفية ألفت
به إلهه ، أو أن شيئاً جديداً قد دخل عليه ، على حين يجد الحدث كأن كان شيئاً
خفياً يعيش فى كيانه ويخالط عقله ووجدانه ، ثم لا يزال حتى يلقى إليه بالحدث
الذى يعيه منه وعى السامع لمن يتحدث إليه .. وهذا التحديث - كما أشرنا -
وارد من عالم الحق ، فكل ما يحمله من معان ومن أخبار ، وأحكام على
الوقائع والأحداث - كل هذا حق صريح ، لا يخالطه باطل أبداً .

ومن هنا كان ما يقع فى نفس عمر من رأى ، أقرب نبي إلى الوحي ،
حيث يملك عليه كل سبيل إلى التأويل فيه أو الانحراف عنه أو التحلل منه
حتى لكان قوة قائمة وراء هذا الرأى تأبى على عمر إلا أن يجهر به ، وإلا أن
يشكل منه واقعاً ، وإن وقف به وحده فى وجه الناس جميعاً ..

روى البخارى ومسلم عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه ، أن رسول
الله ﷺ قال لعمر : « والذى نفسى بيده ، ما عليك الشيطان قط سالكا
فجاً إلا سلك فجاً غير فجك » . وهذا يشرح حقيقة قول الرسول الكريم فى
عمر وأنه من المحدثين . فإن من كان من المحدثين فلن يكون للشيطان سبيل
إليه ، لأن الحق الذى أضاء جوانب نفسه يأبى عليه أن يهادن أو يساوم فى
هذا الحق ، وإن هذه القوة لتبلغ غايتها عند رسول الله ﷺ ، حيث واجهه

الشرك والمشركين وحده ، وحيث أوقع اليأس في قلوب المنتهكين يوم جاءوا إليه يترضونه بما يشاء من ملك أو مال في مقابل أن يدع الأمر الذي في يده من الدعوة إلى الله ، فكانت قوله الخالدة لعمه أئى طالب : « والله ياعم لو وصعوا الشمس في يميني ، والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر حاتركته ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه »

وبعد ، فقد آن لنا أن نلتمى بسيرة عمر ، في الجاهلية والإسلام .. وأنه إذا كان يعنينا من عمر الجانب الاسلامى منه ، وهو الجانب الذى لولاه ما كانت لعمر تلك الشخصية الفذة التى أطلق منها الإسلام بتعاليمه وآدابه ، تلك الطاقات الخلاقة التى كان من شأنها أن تظل حبيسة في ظلام الجاهلية وضلالها ، إلى أن تموت بموت صاحبها ، فلا يحس بها أو بصاحبها أحد .. نقول إنه إذا كان يعنينا من عمر الجانب الإسلامى منه ، فإن المورد الذى مورد منه عمر على الإسلام ، لابد أن يكون له حساب في الحياة الجديدة التى لبسها عمر بالإسلام .. ذلك أن انتقال الإنسان من حياة إلى حياة ، وتحوله من حال إلى حال ، لا يقطع حاضره عن ماضيه ، ولا يعزل يومه عن أمسه أو غده .. فالإنسان إنما هو مدارك ومشاعر ، وعواطف ، وهى جميعها ثمرة هذا الإنسان ، الذى هو ابن الحياة التى نضج أو ينضج فى بوتقة أيامها ولياليها جميعاً ..

على أننا لا ننق كثيراً عند جاهلية عمر ، وحسبنا أن نعرف البيئة التى نشأ فيها ، والظروف الخاصة أو العامة التى مرت به ، وأثرت فى تكوينه الجسدى أو العقلى ، ثم يكون لقاؤنا - بعد هذا - بعمر الذى دخل فى دين الله ، وعاش فى صحبة رسول الله .. ثم بعمر بعد وفاة رسول الله ، وموقفه من الخلافة والدعوة بها لأبى بكر . ثم بعمر وقد اختاره أبو بكر خليفة

من بعده ، وكيف اضطلع عمر بأمر الخلافة .. ثم بعمر وقد حضره الموت بطعنة من أئى لؤلؤة المجوسى - لعنه الله - وأسلوبه فى اختيار الخليفة من بعده ..

هذه هى الوجوه البارزة فى سيرة عمر .. وعلى قسمآ كل وجه من هذه الوجوه نٓتهد ما انفرد به عمر من صفات خاصة ، فى زهده ، وفى عدله ، وفى شدته ، وفى لينه ، وفى تطبيقه لأحكام الشريعة ومراعاة تغيير الأحكام بتغير الظروف .. إلى غير ذلك مما يمكن أن يطلق عليه « العمرىات » نسبة إلى عمر ، إذا كان هو الذى أفامها على هذا الوجه ، وطبعها بهذا الطابع العمرى .

وحول هذه الوجوه البارزة من شخصية عمر ، وفى تلك القسمآ العمرية المطبوعة على هذه الوجوه سيكون مدار بحثنا إن شاء الله تعالى ..



الباب الأول جاهلية عمر

ولد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى الجاهلية ، وقطع فيها طفولته ، وصباه ، وقطعة غير قليلة من شبابه ، قبل أن يدرك الإسلام ، ويدخل فى دين الله . .

وقد عاش عمر جاهليته على ولاء كامل لعادات الجاهليين وتقاليدهم ، بحيث تتمثل فيه كل سمات الجاهلية ، من حمية ، وغيره ، وعصبية ، وفتوة ولعب باليسر . ومعاقرة للخمر ، وعبادة الأصنام . . فلم يؤثر عنه أنه خرج على مألوف قومه ، أو أنكر عليهم شيئاً مما هم فيه من ضلال ، وعى . . إن ولاء عمر لعروبته ، وعصبيته لقومه قد بلغ به الغاية التى نجدها عند قادة الجماعات وزعمائها ، الذين يمثلون خصائص قومهم ويحملون فى كيانههم أبرز ما فى القوم من صفات جسدية ، وعقلية ، ونفسية ، ومن عادات وتقاليدهم وموروثات . . وعلى الرغم من أن ابن عمه زيد بن نفيل ، كان ممن نظر فى حياة قومه ، فأنكر عليهم عبادة الأوثان ، فكان لا يلم بها ، ولا يغشى أماكنها ، ولا يأكل ما ذبح على النصب ، وكان يطلب دين إبراهيم ، وينتظر ظهور النبي الذى أظل زمانه ، وطهرت البشرات بين يدي مولده - على الرغم من هذا . فإن عمر لم يلتفت إلى هذا الاتجاه الذى اتجه إليه ابن عمه « زيد » هذا ، بل ربما كان قد اتجه إليه اتجاه النكر لله ، ولكنه لم يقف منه موقفاً عدائياً ، إذ لم يكن يرى فيه أكثر من مزاج منحرف ذهب بصاحبه هذا المذهب لا يعنى أحداً غيره . . ولو أنه كان يرى فى موقف زيد حركة تهدد النظام الذى قام عليه بناء قومه ، لموقف فى وجهه ، وأخذ عليه كل سبيل ، كما فعل مع رسول الله صلى الله

عليه وسلم قبل أن يدخل في الإسلام ، وكما فعل مع ابن عمه « سعيد بن زيد » ، وأخته (أم جميل) بنت الخطاب ، زوج سعيد هذا ، وقد سبقاه إلى الإسلام ، كما سرى ذلك في خبر إسلامه . .

وهذا الوفاء من عمر لحياة الجاهلية التي كان يحياها لا يدخل منه شيء من الضيم على مكاتته في الإسلام ، ولا يحسب عليه شيء منه . . لأن الناس يولدون في الإسلام ميلادا جديدا من يوم أن يدخلوا فيه ، حيث يطوى الإسلام كل صحائف أعمالهم قبل الإسلام ، ويفتح لهم كتابا جديدا ، تسجل في صحفه أعمالهم التي يعملونها في طله . .

وإذا كان لنا أن ننظر في حياة عمر في الجاهلية وفي حفاظه على موروثات عاداتها وتقاليدها ، فليس ذلك إلا للتعرف على مقومات شخصية عمر ، التي دخل بها في الإسلام . . فالإنسان السوى لا تغير الأحداث من شخصيته ، ولا تذهب باللامح البارزة فيها . . فالشجاع ، شجاع في الحرب وفي السلم ، والكريم ، كريم في الجذب وفي الخصب . . وهكذا يلبنى الإنسان السوى الحياة بوجوده كله ، ويواجه الأحداث بشخصيته جميعها . . وهذا ما يشير إليه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه في قوله : (الناس معادن : خيارهم في الجاهلية ، خيارهم في الإسلام إذا رشدوا) . . فالمعدن الكريم ، هو معدن كريم حيث كان ، لا ينقص من قيمته أن يكون آنية محملة بالأقذار الكريهة ، ولا يرفع من قدره أن يكون عيبة مسك وإن كان في الحال الأولى مصدر أذى وضر لمن يدنو منه ، وكان في الحال الثانية مبعث بهجة ورضا لمن يلم به . . ولهذا كان من دعاء الرسول الكريم في مطلع الدعوة الإسلامية : (اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك ، أبو جهل بن هشام ، أو عمر بن الخطاب) .

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يرى في الرجلين - مع شدة عداوتهما للإسلام - كسباً عظيماً للدعوة الإسلامية ، إذا هي ظفرت بأى منهما ، لأنهما - في أصلهما معدن كريم من معادن الرجال ، ولكن غطى على هذا المعدن ما غشيه من ظلام الجاهلية ، وضلالها . فلو أن هذا الظلام والضباب قد انجلى عنها ، لعاد إليها صفاؤها ، ولانكشفت حقيقتها ، ولبان في الناس أثرها وخطرها .. كالذهب يعلو صفحته التراب ، فلا يعرف جوهره إلا إذا انكشف التراب عنه ، والإسلام كفيلاً بأن يعيد إلى هذه النفوس وجودها ، وأن يرد إليها اعتبارها ، إذا هي وردت موارده ، ورويت من ينابيعه .

ولعل سؤالاً يرد على الخاطر هنا ، وهو ، لماذا كانت دعوة الرسول الكريم قاصرة على أحد الرجلين ، عمر بن الخطاب ، أو أبى جهل ابن هشام .. ولماذا لم تكن طالبة للرجلين معاً ؟ أليس ذلك مما يزيد جبهة الإسلام قوة لو ظفر الإسلام بالرجلين معاً أكثر مما لو ظفر بأحدهما .

والجواب على هذا يحتمل أموراً :

أولها : أن يكون الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - قد وعد من ربه سبحانه وتعالى بدعوة مستجابة له بإيمان أحد أولئك الجبابرة الذين يقعون سداً عاتيقاً في وجه الدعوة .. فكان أن نظر الرسول الكريم في وجوه القوم لينتار الرجل الذى يختصه بدعوته ، فتساوى لديه في هذا المقام عمر ، وأبو جهل ، فكانت دعوته لهما ، وكان إلى الله أن يستجيب لفتن في أحب الرجلين إليه سبحانه وتعالى .. فكانت الدعوة مستجابة لعمر ..

ثانيهما : أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - يعلم - بما علمه ربه ،
بما نزل عليه من آياته - أن أكثر هؤلاء المشركين قد حق عليهم القول ،
وأنهم لا يؤمنون بل سيءوتون على شركهم الذي هم فيه ، كما يقول
سبحانه وتعالى : (لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون) ومن ثم
لم يكن للنبي أن يدعو الله تعالى لهم بالدخول في الاسلام ، وإنما عليه أن
يلقاهم بالدعوة إلى الاسلام ، وأن يتلو عليهم آيات الله ، ليقم الحجة عليهم
فإذا دعا ربه لهم بعد هذا كان دعاؤه في أضيق الحدود ، في واحد يتخير
أو في واحد من اثنين ، يدع الله سبحانه وتعالى الأمر فيه . .

وثالثهما : أن دعاء النبي صلى الله عليه وسلم مستجاب عند ربه ، فلو أنه
- صلوات الله وسلامه عليه - دعا ربه بما يشاء في قومه لاستجيب له -
ولكنه يعلم أن له رسالة في قومه ، وجهاذاً في سبيل الله لإبلاغ تلك
الرسالة ، والذود عنها ، وأن إيمان قومه بدعوة مستجابة من الله تعالى له
فيهم ، هو مما يبطل الحكمة من رسالته التي هي ابتلاء واختبار ، يميز الله
تعالى بها الخبيث من الطيب ! !

وندع هذا ، لنقول إن إسلام عمر ، كان حدثاً فريداً في الاسلام ،
لم يشاركه فيه أحد من المسلمين ، ممن سبقوه أو جاءوا بعده . . فلقد
كان لإيمانه بدعوة مستجابة فيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأمر
الذي لم يكن لمسلم غيره .

فهل لهذا الأمر من تأويل ؟ وهل هو مما يفرد عمر بمزية خاصة
ترتفع بإسلام عمر إلى درجة غير درجة السابقين من المهاجرين والأنصار
من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ولقد يقول قائل ممن ينتقصون فضل عمر ، ويتصيدون له العثرات والزلات — إن هذا الخبر — إن صح — فإنه يعد منقصة في حق عمر ، لافضيلة . . . لأنه لم يؤمن عن بلاء وتمحيص ، وعن جهد ذاتي ، ونظر في وجه الحق الذي بين يدي الرسول ، وإنما جاءه الإيمان بدعوة من يدخفيه لم يملك معها دفعا . . . فإيمانه هذا أشبه بإيمان المضطر ، إذ لا خيار له فيه ، ولا رأى له معه !!

ونقول : إن في هذا القول عدوانا على الحق ، ومجافاة للعدل . . . وأنه إذا كان عمر قد أسلم بدعوة مستجابة من رسول الله فيه ، فإن ذلك لا يخرج عن كونه توفيقا من الله سبحانه وتعالى لعمر ، شأنه في هذا شأن كل من استقام على طريق الحق ، وهدى إلى صراط مستقيم ، إذ لا يكون ذلك إلا بتوفيق من الله ، كما لا يكون انحراف المنحرفين وضلال الضالين إلا بخذلان من الله ، نعوذ بالله منه . . . والله سبحانه وتعالى يقول : «من يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء .. »

فالدعوة المستجابة من رسول الله ﷺ في عمر ، كانت توفيقا من الله سبحانه وتعالى أصاب عمر ، فشرح الله به صدره للإسلام . وملا قلبه إيمانا وقيينا به . . . إنه توفيق ممدود بعناية خاصة من الله سبحانه وتعالى : « والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم » (١٠٥ : البقرة) .

✽ قسمه : اسمه ولقبه :

يلتقى نسب عمر بن الخطاب برسول الله ﷺ في الجد السابع ، « كعب ابن لؤى » وأبوه هو الخطاب بن فضل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله . ابن قرط بن زراع بن عدى بن كعب بن لؤى . .

وأمه « حنتمه » بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ..
وهاشم هذا هو أخو هشام بن المغيرة « أبو جهل » .. ولهذا كان عمر في
الجاهلية يدعو أبا جهل خاله ، لأنه ابن عم أمه ، ومن هنا دخل على بعض
المؤرخين أن أبا جهل هو خال عمر ، على الحقيقة لا على سبيل التوسعة ،
في تسمية العم أبا ، وابن العم أخا ..

واسم « عمر » هو اسمه في الجاهلية والاسلام ، هو اسم أحد أجداد
أمه ، عمر بن مخزوم .. وقد كناه رسول الله ﷺ « أبا حفص » وكان
ذلك يوم بدر ، على ما ذكره ابن إسحق ..

والذى نرجحه هو أن عمر كنى بأول ولده ، وأن هذا الولد كان
اسمه « حفصاً » وأنه قد مات صغيراً ، وشاهد هذا أن عمر سمي إحدى بناته
« حفصة » وهى أم المؤمنين ، رضى الله عنها ..

فاسم « حفص » و « حفصة » من الأسماء الواردة على خاطر عمر ،
في تسمية أبنائه أو بناته بها .. ومن عادة العرب أن يكنوا بعضهم بأول
مولود يولد للرجل منهم ، وقد كنى رسول الله ﷺ بأبى القاسم ، الابن
الثانى له ، ولعل الولد الأول وهو « عبد الله » لم يعيش إلا أياماً بعد ولادته ،
ولم ير الناس وجهه !

أما لقب « الفاروق » الذى اشتهر به عمر ، فقد اختلف فيمن لقبه به ،
فقيل إن رسول الله ﷺ هو الذى لقبه بالفاروق ، وقيل إن الله تعالى هو
الذى خلع عليه هذا الوصف الكريم ، ونزل جبريل مخبراً عن الله تعالى
النبي صلى الله عليه وسلم به ..

فيروى عن ابن عباس أن عمر قال : « إنما سماني رسول الله ﷺ بالفاروق يوم أسلمت ، وإذ قلت يا رسول الله : ألسنا على الحق إن متنا وإن حيننا ؟ قال بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حينتم .. » . قلت : فنيب الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن ، فأخرجناه صلى الله عليه وسلم في صفيين ، حمزة في أحدهما ، وأنا في الآخر ، ولي كديد ككديد الطحين حتى دخلنا المسجد . . فظرت قريش إلى وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصيبهم مثلها ، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ يالفاروق . . فرق الله بي بين الحق والباطل » .

ويروى عن الشعبي أن رجلا من المنافقين ويهوديا اختصما ، فقال اليهودي ننطلق إلى محمد بن عبد الله - ليقضى بيننا ، وقال المنافق : بل إلى كعب بن الأشرف ، فأبى اليهودي ، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فتنهى لليهودي ، فلما خرج ، قال المنافق ننطلق إلى عمر بن الخطاب فأقبلا إليه فقضا عليه القصة ، فقال رويدا حتى أخرج إليكما ، فدخل البيت ، واشتمل على السيف ثم خرج فضرب عنق المنافق ، وقال : هكذا أقضى بين من لم يرض بقضاء النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزل جبريل ، فقال : إن عمر فرق بين الحق والباطل فسمى الفاروق . . » .

ويروى عن ابن عباس - غير ما روى عنه من قبل - أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بينما أنا جالس في مسجدى أتحدث مع جبريل ، إذ دخل عمر بن الخطاب ، فقال : ألبس هذا أخوك عمر بن الخطاب ؟ فقلت : بلى يا أخي : أله اسم في السماء كما له اسم في الأرض ؟ فقال والذي بعثك بالحق إن اسمه في السماء أشهر من اسمه في الأرض . . اسمه في السماء فاروق ، وفي الأرض عمر ١١ »

وهناك روايات أخرى كثيرة تدور في هذا المجال ، وقد اختلفت وتضاربت في الوقت الذي سمي فيه عمر بهذا الاسم ، أو وصف فيه بتلك الصفة .. « الفاروق » فبعض الروايات ، كما رأينا في رواية ابن عباس - الأولى - تقول إن ذلك كان لأول يوم دخل فيه الإسلام ، وعلى حين أن الرواية عن الشعبي تصرح بمفهومها أن ذلك كان بعد الهجرة ، حيث كانت خصومة بين يهودى ومنافق ، والنفاق لم يظهر إلا بعد الهجرة ، حيث قويت شوكة الإسلام ، وعلت كلمة المسلمين .. وأما الرواية الثانية عن ابن عباس ، فهي تصرح بمنطوقها ومفهومها أن ذلك كان ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في مسجده بالمدينة يتحدث مع جبريل عليه السلام ..

ولا يمكن القطع بصحة أية رواية من هذه الروايات ، وإن كنا نستبعد روايه الشعبي التي نرى فيها عمر يقتل رجلا من المسلمين ، عده منافقا ، ولم يرجع في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن بين يديه سابقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل فيها أحد المنافقين الذين نزل القرآن الكريم فاضجأ لهم ، معلنا من نفاقهم . : فبعيد غاية البعد أن يقتل عمر هذا الذي قيل إنه قتله حين تبين له أنه منافق .

وقد يمكن حمل هذا الخبر على عمر رضى الله عنه رأى في عدم رضا هذا المؤمن الذي استبطن النفاق بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم - أن ذلك ردة عن الاسلام ، وكفر صريح ، وقتنة معلنة بين المسلمين واليهود فقتله .

ولا نستبعد كذلك أن يكون هذا الوصف قد خلفه المسلمون على عمر في خلافته لما اشتهر به من علله ، وإن يكون هذا الوصف قد نطق به ناطق

في حال مأثم وجدله قبولاً في نفوس المسلمين، فجري على ألسنة الناس، وتداولوه فيما بينهم . . . كما لا يستبعد أن يكون هذا الوصف قد لحق بعمر بعد وفاته ، وبعد أن نجمت في المسلمين تلك الأحداث التي كانت في أواخر خلافة عثمان - رضي الله عنه - والتي انتهت بقتله ، أو تلك التي ظهرت في خلافة علي ، وأدت إلى موقعة الجمل ، وإلى تلك الحروب التي كانت بين علي ومعاوية . . . حيث كانت عيون الناس شاخصة - في مواجهة هذه الأحداث إلى عمر ، وإلى ما وجد الناس في خلافته من سلام ، وأمن وسكينة ، فكان ذلك مدعاة إلى استحضار سيرة عمر ، وتقليب صحف خلافته ، وكيف أقام ميزان العدل والأمن ، والسلام في كل مواطن الإسلام على اتساع رقعتها ، وامتداد آفاقها . . . فكانوا يشيرون إليه بكلمة الفاروق .

وعلى أي ، فإن هذا الوصف هو أليق الأوصاف بعمر ، وأقربها نسباً إليه ، وأكثرها دلالة عليه . .

صفاته الجسدية .

هذا ، ويذكر المؤرخون من صفات « عمر » الجسدية أنه كان آدم - أي أسمر - شديد الأدمة ، وأنه كان طويلاً جسيماً أصلع شديد حمرة العينين ، خفيف العارضتين . . وأنه كان أعسر أي يعمل بكنتا يديه . . وأنه إذا مشى يتباعد صدره قدميه ويتدأى عقباه . .

صفاته النفسية :

وإذا كان لنا أن نستدل من هذه الأوصاف الجسدية على شيء من صفات

حمر النفسية أو العقلية ، فإن لنا أن نقول إن حمرة العينين تنبئ عن صراع :
قوى بين الجسد والروح ، بحيث يقع الجسد تحت وطأة الأرق من هذا الصراع .
إذ تحاول الروح دائماً أن تستشف ما وراء العالم المادى ، وتكتشف شيئاً
تما وراء حجبها . . وذلك غالباً ما يغلب على أصحاب المجاهدات ، وأهل
الكشف ، حيث يكون من سمات الكثير منهم تلك الحمرة التى تفشى بياض
العينين وتحاططه . وليس يعنى هذا أن هذه الحمرة يلازمها دائماً أن يكون
ساحبها ذا قدرة على الكشف . . ولكن يكون سمة دالة على أنه إذا وجد
هذا الوصف فى إنسان عرف عنه أنه من ذوى البصائر النافذة كعمر ابن
الخطاب ، وكان من شأن هذه الصفة الجسدية أن نكون قرينة مادية على
صدق هذا الاستقراء فى بعض أفرادها ، وإن لم يكن منسحباً على جميع
الأفراد . .

وقد عرف حمر بصدق النراسة ، وبصحة التظنى للأمور . . فكان إذا
تظنى أمراً وقع كما تظناه . . إنه ملهم تتكشف له غايات الأمور ، وتستدير
له عواقبها ، فيرى غائبها حاضراً وقريبها بعيداً ، وقد روى عن عائشة رضى
الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « قد كان فى الأمم محدثون -
أى ملهمون - فإن يكن فى أمتى أحد - فهو عمر بن الخطاب » وسرى .
فى فصول هذا الكتاب - إن شاء الله - مصداق قول رسول الله صلى الله
عليه وسلم فى عمر ، وأنه كان من المحدثين . .

ونسأل ، أذلك الإلهام . وصدق الفراسة كان طيبة قائمة فى نفس عمر ،
وجبلته مستقرة فيه ، أم هو كسب جاءه عن طريق الإسلام بما سكب هذا
الدين فى قلبه من نور ، وبما أفاض عليه من روحانية وصفاء ؟

ونستطيع أن نجتمع بين الأمرين في عمر ٥٠ فنقول : إنها طبيعة جلاها
الإسلام في عمر ، وكشف الفطاء عنها ، فكانت موارد هذا الإلهام عنده
طبيعة وكسباً معاً ..

فلقد كان عمر في جاهلية من النساين المعدودين ، شأن كثير من حكماء
العرب ، وذوى الفراسة فيهم . وقد ورث هذه الصفة عن أبيه الذى ورثها
عن جده . يقول الجاحظ : «لثة في نسب واحد كانوا أصحاب نسب :
عمر بن الخطاب رضى الله عنه أخذ ذلك عن الخطاب أبيه ، وكان كثيراً
ما يقول : سمعت هذا من الخطاب ، ولم أسمع هذا من الخطاب ، والخطاب
ابن نفيل ، ونفيل بن عبد العزى .. وتنافر إلى نفيل عبد المطلب بن هاشم ،
وحرب بن أمية ، فنفر عبد المطلب ، أى حكم له على صاحبه » (١) ،
فهو من أهل بيت لهم استطلاعات في حياة الناس ، ودراسات في
فروعهم وأصولهم ، تشد الفروع إلى الأصول ، وتجمع الخلف إلى السلف ،
فيما ينتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء .. ولاتهيأ هذه الدراسة لكل
إنسان ، وتسعجيب له .. إنها تحتاج إلى ذكاء ، وفراسة ، وألمعية .. وكان
لعمري من هذه الصفات حظ غير قليل ، عرف بها في الجاهلية ، وأجالها في
مجالات كثيرة .. فكان له معرفة بالقراءه والكتابة - وهو أمر كان نادراً
في حياة الجاهليين - وكان يحفظ الكثير من الشعر ويرويه ، وينقده نقد
الصيرفي البصير .. فقد روى عن محمد بن سلام الجحى أن عمر بن الخطاب ،
كان لا يعرض له أمر إلا تمثل فيه بيت شعر ..

ورسائل عمر وخطبه ؛ ومحاوراته ، ومقاطع كلماته ، تكشف عن ثقافة

(١) البيان والبيان : الجاحظ - تحقيق السندوني ج ١ ص ٢٤٤ .

واسعة ، ونظر نافذ ، وبصيرة كاشفة .. كما سنرى لهذا شواهد كثيرة ، فيما-
يلقانا من فصول هذا الكتاب ، إن شاء الله . فهذا كله مما يعين على تنمية-
موروثه من آبائه ، وما عرف لهم من فطنة وذكاء ..

كذلك مما وصف به عمر من أنه كان أيسر أعسر ، أى يعمل بكلماته
بديه ، اليمين والشمال ، وهذا الذى يسمى (الأضبط) . فهذا التكوين
الجسدى ليدى عمر من شأنه أن يعطى دلالة خاصة على إرادة قوية ، وهمة-
مهيأة للاطلاع بعظام الأمور بحيث يرى صاحبها أن عليه أن يلتقى الحياة
بكل قوة مندسة فى كيانه وأن يطلق كل طاقة مستقرة فيه ، وألا يسمح
لأى عضو من أعضائه أن يأخذ دوراً ثانوياً فى معركة الحياة ..

واليدان هما أكثر أعضاء الإنسان وجوارحه ، عملاً وأُتراً فى الحياة ،
بهما يأخذ ويعطى ، وبهما يصول ويحول ، وبهما يصنع ويبدع ، إنهما أشبه-
بالجنّاحين للطائر ، وإنه بقدر ما يعمل الجناحان ويقويان على التحليق بقدر
ما يملك الطائر من مملكة السماء ، وبقدر ما يكون له من سلطان هناك ..

وإذن فهذه الظاهرة الجسدية فى عمر إن أمكن إغفالها ، وعدم الالتفات
إليها عند كثير ممن شاركوا عمر فيها ، ولم يشاركوها فى العظمة التى تفرد
بها - فإنه لا يمكن إغفالها عند الدراسة لشخصية عمر ، والبحث عن موارد
عظمته الطبيعية ، أو السكسية ، إذ ينبغى أن يكون لكل صغير أو كبير
حسابه فى هذه الظاهرة أو الخارقة العجيبة ، فى ميزان العظمة لهذا الإنسان .
العظيم الذى يمكن سر عظمته فى طاقة خلاقة مبدعة ، تضبط هذه الأجهزة-
التي اشتمل عليها بناؤه الجسدى ، وتديرها على الوجه الذى يفجر منها ما
يفجر « الدينامو » من حرارة ونور عندما تثيره الأحداث ، وتحركه-
المواقف المتأزمة ، على حين أن كثيراً من الناس الذين يشاركون « عمر » فى،

صفاته الجسدية تلك - كلها أو بعضها - وليس فيهم هذا السر الذي يبعث في كيانهم الجسدى هذا التجاوب بين قواه الكامنة في كل عضو - هؤلاء أشبه « بالدينامو » الذى انتقطع عنه التيار الكهربى ، فيظل هكذا صورة بلا حركة ، وجسداً بلا روح ..

فالعذل الذى اشتهر به عمر ، يمكن أن يقوم له شاهد من تلك المساواة بين يمينه ويسراه ، فى العمل له ، على خلاف ما عليه الناس . قد كانت يمينه ويسراه أشبهما بكنتى ميزان استقامة وضبطا .. والصلابة التى عرف بها عمر فى مواقف الحق ، هى صلابة إنسان ليس فيه جانب لين إلى جوار جانب قوى .. وإنما جانباه معا على سواء فى القوة التى لا يدخل عليها ضعف من أية ناحية منه ..

ويتحدث التاريخ عن عمر أنه كان فى جاهليته رأساً من رؤوس قريش ، وأشرافهم ، وإليه كانت سفارتها ، فإذا أوقع بين قريش وبين غيرهم حرباً ، ثم كان صلح بين الفريقين ، بعثوا عمر سفيراً يقول كلمة قريش فى هذا الصلح - ما إلى هذا .. وإذا نافر قريشاً منافراً ، أو فاخرهم مفاخر ، من ينافرهم أو يفاخرهم ^(١) .

وفى هذا دلالة على أن عمر كان يمثل الوجه البارز فى قريش ، من حيث اعتدادها بنفسها ، وفخرها بحسبها ونسبها ، وقوة عارضتها فى الجدل .. والخصام ..

يقول ابن أبى الحديد ، عن عمر - رضى الله تعالى عنه - : « وكان فى أخلاق عمر وألفاظه جفاء وعنجهية ظاهرة » ^(٢) .

(١) انظر الرياض النضرة فى مناقب العشرة . الدج الطبرى . ج ٢ ص ٢٤٨

(٢) شرح نهج البلاغة ، لابن أبى الحديد ج ١ ص ١٨٣

وهذا الجفاء وتلك العنجهية هما من واردات الاعتزاز بالنفس، والاعتداد بها ، فيؤثر صاحبها ركوب الخشن ، وإيثار الحزن على السهل من كل شيء في قول أو عمل ، فالصلابة ، والخشونة ، والغلظة ، والنبرة القوية ، مما تحمده للعرب ، وتنشئ عليه أبنائها ، وتستعرضه في مواقف الخصومة ، ليكون هذا المظهر أروع لأهله ، وأقفل لكثير من منازع طمعه في خصمه .. وذلك أشبه باستعراض الأمم لجيوشها ، ومعدات قتالها .. وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في عمرة القضاء ، وهم يطوفون بالبيت ، ويسمعون بين الصفا والمروة ، وعيون قريش ترصد لهم - أمرهم أن يمدحوا في سيرهم ، وأن يزلزلوا الأرض بأقدامهم ، حتى تشهد قريش ما بهم من بأس وقوة . فيقول صلوات الله وسلامه عليه يومئذ « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة »

هكذا كانت تنظر العرب من خلال المظاهر الجسدية إلى ما وراءها من قوى مادية ومعنوية معاً . .

فالنفوس القوية لا يوانمها من الأمور إلا ما كان مثلها في القوة والصلابة . . فأكاة اللحوم من الحيوان لا تقارب النبات وما يخرج منه لأن جهازها الهضمي لا يعمل إلا مع الطعام القوي الذي يمد فيه قوة وقدرة على تحريك تلك الأعضاء العاملة في هضم الطعام .. وكذلك النفوس الكبيرة لا يحركها إلا عظام الأمور ولا يكشف عن معدتها إلا الاحتكاك بالخشن الصعب منها - وإلى هذا المعنى يشير المتنبي بقوله :

سبحان خالق نفسى كيف لذتها فما النفوس تراه غاية الألم !!

وفي هذا المعنى يقول أيضاً :

وشر ما قنصته راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

وقد صحب هذا الجناء وتلك العنجهية ، عمر في إسلامه ، قولاً وسلوكاً ، فكان في ألفاظه كثير من الغريب الجافى ، الذى تجنبه القرآن الكريم .. إذ قد أثر عن عمر في محاوراته ، وفي مقاطع تشريعاته وأحكامه من غريب الكلام ما يصح أن يطلق عليه (القاموس اللغوى) لعمر بن الخطاب .. ولا بأس هنا من أن نذكر بعض الشواهد لهذا ، بما احتفظ به التاريخ من سيرة عمر بعد الإسلام ، ففيه إشارة واضحة إلى أن هذه القوة ، وتلك الخشونة طبيعة ملازمة لعمر في جاهليته وإسلامه ..

جاء إلى عمر رجل فى سنة جدياء يسأله ، فقال الرجل : هلكت وأهلك : فقال له عمر : أهلك وأنت تنث ثيث الحميت ؟ أعطوه ربعة من الصدقة^(١) .

نكلمات : تنث ، وثيث ، والحميت ، من الكلمات الغليظة الجافية ، التى تجنبها الطباع اللينة ، وتتجاوزها إلى غيرها مما هو أرق وألين .. ويقول عمر ، وقد دعى إلى أن يتخذ له طعاماً غير ما اعتاد من طعامه الخشن : لو أشاء لدعوت بصلاء ، وصناب ، وصلائق ، وكراكرة وأسمنة وأفلاذ .. والصلاء ، هو الشواء من اللحم ؛ والصناب : الخردل بالزبيب ، والصلائق : الخبز الرقيق ، والأفلاذ : جمع فلذ ، وهو القطعة من الكبد ، ونحوه ..

فانظر كيف استدعى عمر هذه الكلمات : صلاء ، وصناب ، وصلائق ،

(١) الحميت : الإناء فيه اللبن أو السمسم .. واثيث : العرق .. والمعنى : أعطوه أنك هلكت من الجوع وأنت سمير يمشح - سمك عرقاً من كثر اللحم ، والربعة من الإبل ما ولد من أول النتاج والذكر روح .

وكر اكرة ، وأسمنة ، وأفلاذ ، وحشدها جميعاً بين يديه ، كأنما يحشد
كتيبة لمركة حاسمة ، يتخير لها أقوى الأبطال قوة ، وأشدهم
مراساً ١١٠٠

وفى حديث له ، وهو يذكر صباه فى الجاهلية ، وخشونة الحياة التى
كان يحياها . .

لقد رأيتنى مرة وأختى على أبويننا ناضجاً لنا ، وقد ألبستنا
أمناء ثيابنا^(١) ، وزودتنا بيمينتيها من الهبير ، فخرج بناضجنا ، فإذا طلعت
الشمس ألقيت النقرة إلى أختى ، وخرجت أسعى عريان ، فترجع إلى أمناء
وقد جعلت لنا لفينة من هذا الهبير ، فياخصباه ١١

والناضج : الهبير الذى يستخدم فى رفع الماء من البئر . . والنقرة :
القطعة من الثوب . . واليمينتين ، مثنى يمين . . ولم يقل يديها ولا كفيها ،
لأنه لم يرد أنها جمعت كفيها ثم أعطتهما بهما ، وإنما أراد أنها أعطت كل
واحد كفا كفا بيمينها ، فهاتان يمينان . . والهبير : حب الخنظل ، يعالج
حتى يمكن أكله . . واللفينة : ضرب من الطيبخ ، كالخساء .

وهذا يعنى أن بيت عمر كان فقيراً ، وأنه لم يكن من أبناء ذوى
اليسار فى قريش . . ومع هذا امتلأت نفسه بالعزة العربية ، وشمخ أنفه
بالنسب القرشى ، فكان فى الجاهلية رأساً من رؤس قريش ، وسيدا
من ساداتها ، وصاحب كلمة مسموعة فيها . .

ثم يعنى هذا - من جهة أخرى - أن تلك الحياة الموحشة القاسية ،

(١) النقرة : ما يلبسه المرأة على وجهها ، لتستره به ، وهو الخمار .

قد استلّانها عمر منذ مطلع حياته ، وراض نفسه عليها ، وأمسك بها أن .
تتطلع إلى ماوراءها ، مما كان يذكره أبناء ذوى اليسار من طعامهم ،
وما يخرجون به على أعين الصبيان من أزياء مجلوبة من تجارات الشام .
واليمين .. لقد وجد عمر في ذات نفسه أنه في جوعه وعريه أثقل ميزانا ،
وأرفع شأننا من لداته هؤلاء الذين يأكلون طيب الطعام ، ويلبسون لين
الثياب .. حتى إنه ليجد في هذا الطعام الخشن أنه طيب لين ، لا تطلب
نفسه طعاما أشهى منه ، وحتى إنه ليجد هذه الخرقه التى يابسها هو وأخته
معاً ، واتى لانكاد تستر إلا القليل من جسديهما - يجد في هذه الخرقه ما يزيد
عن حاجته ، بل إنه في غير حاجة إليها ، أو إلى غيرها من الملابس ، فيلقى
بها من جسده ، استعلاء على ضرورات الحياة ، وكسراً لقيودها التى تلزم
الناس الخضوع لسلطانها .. !!

هكذا النفوس الكبيرة . تستغنى بمشاعر العظمة . التى تتحرك في كيائها .
عن كل ما يرد عليها من خارج داتها ، وتأنف أن تكون مستنده إلى .
غير وجودها ، أو قائمة على غير أصولها ..

يروى أن جماعة كانوا على سفر وقد مرت بهم ليلة قد عصفت ريحها ،
واشتد بردها ، حتى لكادت تتلف من ذلك نفوسهم ، فأوقدوا ناراً ،
ولصقوا بها ، وفيهم أعرابي أقام حيث هو بعيداً عن النار ، فقيل له :
« ألا تستدفئ ؟ » فقال : « إنما يدفئنى حسبي !! » ..

إنها مشاعر نفس عظيمة ، متعالية عن الحاجة ، مترفة عن أن تحكها
الضرورة ..

وإذا ذكرناها تكشف عمر ، وزهده ، وترفعه عن طيب الطعام ولين

اللباس ، وبين يديه خزان كسرى وقيصر - فلنذكر أن عظمة نفسه تلك التي صحبتته منذ صباه هي التي أثبت عليه أن يغير جلده ، وأن يبدل لونه الذي ولد به ، وأن ذلك بما أعانه على أن يتأسي برسول الله صلى الله عليه وسلم ، في هذا ، وأن يكون مضرب المثل في الوفاء لهذه الأسوة ، وعزل نفسه عن الحياة الجديدة التي دخلت على المسلمين ، مما أفاء الله عليه من غنائم . وسيطالعنا في سيرة عمر كثير من مواقفه مع نفسه ، وحسابه الحساب المسير لها ، وحملها على حل هموم المسلمين في دولة الإسلام كلها . وقد امتدت أوطانها ، وتعددت شعوبها ، وحتى ليكون منه أن يرى أنه مسئول عن كل ذى نفس ، ولو كان من عالم الحيوان في هذه الدولة ذات العرض والطول » . . يقول عمر : « لو مات جدى بطف (١) العراق لخشيت أن يطالب الله به عمر » ا .

وليس هذا القول من عمر على سبيل المجاز ، بل هو الحقيقة التي يعينها عمر ، ويؤمن بها ، ويعمل جاهداً على الوفاء بها . .

عن عيسى بن طلحة ، قال قلت لابن عباس : أخبرني عن أي بكر ، قال : كان خيراً كله ، على الحدة ، وشدة الغضب (أي كان خيراً كله ، مع ما فيه من حدة وشدة غضب) قال : قلت أخبرني عن عمر : قال : كان كالطائر الحذر ، قد علم أنه نصب له في كل وجه حباله (أي شبكة صيد) (٢) .

ومن اعتزاز عمر بنفسه كما التقى بها ، أو كما التقت به على تلك الحال

(١) ملئت العراق : طف الفقيه . . أعلاه . ويريد به عمر أبعد مكان في العراق بالعبية إلى المدينة حيث كان مقبلاً .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ، ج ٣ ص ٢٦٦ تحقيق عبد السلام هارون .

من الفقر ، في الجاهلية ، الأمر الذى أبى عليه أن يخرج بها عن مألوفها
بما اعتادت من لقيات الطعام وخشن اللباس - من هذا الاعتزاز أنه لم يغير
لون شعره ، ولم يصبغه بأى صبغ ، فقد روى عن ابن عمر ، أن عمر كان
لا يغير شيبه ، فقيل له يا أمير المؤمنين : ألا تغير ؟ - وقد كان أبو بكر يغير -
فقال عمر : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من شاب شيبه في
الإسلام كانت له نوراً يوم القيامة . . وما أنا بمنفرد . . وإذا لم يصح هذا
الخبر ، فأحر به أن يكون صحيحاً ، لأنه يستقيم مع طبيعة عمر ، ويمرئى مع
أسلوب حياته المادية التى عاشها في الجاهلية والإسلام . . في الفقر والغنى ،
في العسر واليسر . .

لأنه عمر كما عرف نفسه منذ طفولته . : لأنه يأخذ من الحياة ما يزيد في
بنائه الجسدى ، دون أن يأخذ منها ما يغير من فطرته التى فطره الله تعالى
عليها . . فكان عمر الطفل ، هو عمر الصبي ، وهو عمر الفتى ، وهو عمر
الكهل ، وهو عمر الشيخ . . وكان عمر ابن الجاهلية هو عمر ابن الإسلام ،
في قوته ، وشده ، وصراحته ، وصرامته ، كانت الجاهلية ليل عمر ، وكان
الإسلام نهاره ، وهكذا اختصر عمر حياته كلها في يوم واحد ، ليله جاهلية
لا ضوء فيه ، ونهاره إسلام ليس فيه بقية من ظلام !!

الباب الثاني
عمدة في الإسلام

الفصل الأول:

كيف دخل عمر في الإسلام

لم يكن من القريب المسور أن يستجيب عمر لدعوة الإسلام ، كما أنه لم يكن من العسير المستبعد أن يستجيب لتلك الدعوة ، وأن يكون من السائقين إليها ..

أما أنه لم يكن يستجيب لدعوة الإسلام من قريب ، ويدخل مع الداخلين في دين الله لأول داع يدعوهم إليه ، فذلك لما عرف عن عمر من اعتزاز بنفسه ، والاحتفاظ بها في القالب الذي صعب بها الحياة فيه ، والذي أقام في كيانه شعوراً بأنه أكبر من أن يكون تابعاً لإنسان في أى موقع من مواقع الحياة .. وذلك فضلاً عن المكانة التي كانت له في قريش ، تلك المكانة التي تفرض عليه أن يقف مع ساداتها في وجه كل حدث يعرض لها ، ويؤثر في مجرى حياتها ، ويغير من موروث عاداتها ، وتقاليدها .. فكان لا بد أن يستقبل عمر دعوة الدين الجديد بما استقبلها به رؤوس قومه ، كأبي جهل ، وأبي سفيان ، وأبي لهب ، والوليد بن المغيرة وغيرهم .. ممن قاموا في وجه الدعوة الإسلامية ، وحاولوا بكل ما لهم من قوة ، التصدى للنبي ، والإمساك عن استجاب له .. ليحولوا بينهم وبين اللحاق به ، والاتباع له .. إنه يمثل في قريش كبرياءها ، وعنادها وتشامخها على الناس ، وأدلالها عليهم بأنهم تبع ، لها ، ومنقادون لرأيها ، ومقلدون لما تأخذ أو تدع من الأمور ، إذ كان إلى قريش قيام البيت الحرام الذي يحج إليه العرب جميعاً ، حيث

يأخذون عن قريش أعمال الحج ومناسكها ! فإذا جاء من يزحزح قريشا عن هذا الموضوع ، وأن ينزلها والناس منزلة واحدة حتى ولو كان هؤلاء الناس السلاطين ، والأمراء فذلك ما تلقاه قريش بكل وجه من وجوه الإنكار له ، والقضاء عليه ، وأن يتولى قيادة الحملة على هذا الذي يحاول أن يزحزحها عن مكانها هذا - أولو الناس ، والقوة والحماية من أبنائها الذين ترجوهم لمثل هذا ، وتفرغ إليهم عند كل مكروه .. وكان عمر ممن لا تخطئه عين قريش في هذا المقام .. ومن أجل هذا كان عمر في أول لقائه للدعوة الإسلامية مباعداً لها ، متربصاً بها ، راصداً للعدوان عليها ، وعلى من يستجيب لها ، ويسير في اتجاهها ، وذلك ليحفظ على قومه موروثاتهم ، وما يعيشون فيه ، حتى ولو كان الشوك والقتاد ، فذلك هو جلداهم وصيفته . فلن يستبدلوه بأي جلد آخر تغير به ملاحظهم ، وتذهب معه شخصيتهم ، ولأن يلبس الإنسان ثوباً مهلهلاً من صنع يده خير ألف مرة من أن يلبس ثوباً مستعاراً ولو كان من ثياب الملوك .. إنه ثوب أشبه بما يلبسه الممثل ليظهر به على المسرح وهو يؤدي دور ملك أو قائد ، لا يلبث أن ينزعه بعد أن يؤدي دوره الذي يمثله ، ثم إذا هو بعد هذا إنسان آخر غير هذا الإنسان الذي كان على المسرح منذ قليل .. وإليه لتأني على العربي الحر نفسه أن يكون في حال ما غير دانه التي ولد بها وعاش فيها .

هذا ما كان يتابس بكيان عمر وستولى على مشاعره وهو في وجه الدعوة الإسلامية ، وما تقرض عى العرب من متغيرات يتبدل بها وجودهم كله ، طاهراً وباطناً .

..وأما أنه لم يكن من المسير المستبعد أن يأخذ عمر مكانه في الدين الجديد ، وأن يكون من السابقين إليه ، فذلك لما عرف عن عمر من فطنة

وركاة ، إلى شفافية نفس ، وصفاء روح ، ونفاذ بصيرة .. فهو بهذا أقدر
الناس على النفاذ إلى حقيقة الدعوة الإسلامية والتعرف على مواقع الخير الذي
تحمله إلى الناس .

فعمر الذي واجه الإسلام لأيامه الأولى ، كان بعيداً من الإسلام
قريباً منه وقت مماً .. كان بعيداً من الإسلام بماطفته المشدودة إلى قومه
وإلى ناموس الجماعة الذي هو أحد عمدتها وممسك زمامها .. فهو والأمر
كذلك .. لا ينظر إلى هذه الدعوة ، ولا يتعامل معها لحسابه الشخصي
| وحده ، وإنما يدخل في هذا ، أو قبل هذا حساب الجماعة التي ارتبط بها
وارتبطت به ارتباطاً عضوياً . ليس من اليسير إغفاله ، أو التغافل عنه ..
وكان عمر قريباً من الإسلام بعقله الحر ، ورأيه السديد ، ونظره الكاشف .
لما في دعوة الإسلام من الحق والخير ..

ومن هنا كانت تلك الوقفة التي وقفها عمر قبل أن يدخل في الإسلام .
وقفة التحضر والثوب ، وقفة استجمع لها كل قواه ، ونبه لها كل وجوده ،
ثم إذا اجتمع له من ذلك ما يستطيع أن يكسر به هذا السد العظيم من
العادات والتقاليد التي رسخت جذورها في كيانه اندفع اندفاع التيار العتي
وقد انهار من وجهه الصخر الذي كان يأخذ الطريق عليه !!

إنها لم تكن وقفة اللامبالاة ، التي تكون من الذين يلقون الأمور
الجادة باستهانة واستخفاف ، ولسكنها وقفة الرجل الذي يزن الأمور بميزان
دقيق ، ثم لا يهرب من مواجهة الموقف ، بل يتصدى لحمل تبعاته بكل قوته .
ولو كان في ذلك هلاك نفسه ..

إنها وقفة القائد الذي يريد أن يدخل معركة حاسمة ، فلا بد له من أن
يتخذ قراره ، هجوماً أو دفاعاً ، بعد أن يدرس جميع الاحتمالات بعين
ساهرة لا تنام ، وبقلب مهتاج لا يهدأ ...

كانت الفترة التي قضاها عمر منذ طرقت أذنه دعوة الإسلام إلى اليوم الذي دخل فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم دار « الأرقم » معنا إسلامه - كانت هذه الفترة من أشق الفترات التي واجهها عمر في حياته ، إذ كانت معركة مشبوبة الأوار بينه وبين نفسه لا تدع له سبيلاً إلى السكينة ساعة من نهار أو ليل ، وإن بدا أنه ساكن هادىء فإن باطنه كان يغلي كغليان القدر ، إنه وقد لح شمعاعات الحق في هذا الدين ، يريد أن يستوثق لنفسه منه استيثاقاً لا تبقى معه ذرة شك في نفسه .. إنه يرى أن دخوله في الإسلام هو معناه عنده أن يعفى - وفي الحال - على كل أثر من آثار الجاهلية ، وما تتخبط فيه من أمواج الشرك والوثنية ، وقد كان هو أحد الحافظين لها ، والقائمين عليها .. فإذا تحول عن هذه الحياة ، كان لابد - حسب تفكيره - أن يتحول الجميع معه ، وأن تخرج قريش كلها من جلدها ، لتلبس ثوب هذا الدين الجديد ظاهراً وباطناً ، فإذا هي اليوم غيرها بالأمس .. إنها تولد ميلاداً جديداً لأمة جديدة .

وإن عمر لا يفامر هذه المغامرة الكبرى بنفسه ، ويقومه ، إلا على طريق واضح للعالم ، وإلا على بيئة مشرقة من الأمر الذي هو قاصد إليه .. فإذا بلغ من ذلك غايه وقامت بين يديه الحجة على صدق الرسول وسلامة الرسالة التي يدعو إليها لم يكن لأية قوة أن تقف في وجه عمر لمناصرة الرسول والتمكين لدعوته ، ولهذا فإنه ما إن استبان له طريقه إلى الإسلام حتى اندفع إليه بكل قوته ، وجرف في طريقه كل من حاول أن يقضدئ له ، بل إنه كان يعمد إلى بعض تلك الصخور التي كانت تعترض طريق الذين يريدون الإسلام فيحاول الاحتكاك بها ، والاصطدام معها ، دون أن يدور من حولها ، أو أن يدخل من وراء ظهرها ، فالأمر عند عمر إما حق أو باطل

ولأننا نرى وراء هذا .. وأما وقد عرف الحق ، وانتظم بجهته ، فهو حرب على الباطل حتى يزول ، وتصفو للحق سماؤه التي يطلع منها ..

اسلام عمر :

وتختلف الروايات التي تروى عن دخول عمر في الإسلام ، ولكنها تتفق جميعاً في الحديث عن الأسلوب الذي دخل به ، وهو أسلوب التحدي لقريش ، والمواجهة الصريحة لها ، والمهجوم العنيف العنيد عليها ..

أسلم عمر في السنة السادسة من البعثة النبوية ، ونستطيع أن نقطع بأن عمر كان طيلة تلك السنوات في صراع عنيف مع نفسه ، وأنه كان يكسب كل يوم أرضاً جديدة للإسلام في كيانه ، ويضيف رصيماً جديداً من مشاعر التعاطف مع الإسلام في ضميره ، حتى إذا أخلص وجوده كله للإسلام ، وملاً كل قلبه به ، جاء إلى الإسلام وقد تفرغ له ، وأخلى نفسه من كل شيء يشغله عنه ، فكان إسلامه على هذا الوجه الذي جعل منه حدثاً من تلك الأحداث البارزة في تاريخ الدعوة الإسلامية والذي ظل يذكره المسلمون كعلم من معالم التاريخ ، فيقولون كان هذا الأمر قبل أن يسلم عمر ، أوفى السنة التي أسلم فيها عمر ، أو بعد أن أسلم عمر بكذا وكذا من السنين .. وهكذا ..

روى عن أنس بن مالك — رضى الله عنه — عن عمر — رضى الله عنه — وهو يذكر خبر إسلامه .. قال : « خرجت متقلداً سيفي ، فلقيت رجلاً من بني زهرة ، فقال : أين تعمد ؟ قلت أقتل محمداً ! قال : وكيف تأمن في بني هاشم وبني زهرة ؟ فقلت : ما أراك إلا صبوت ؟^(١) قال : أفلا

(١) صبا ، يصبو ، وهو الميل مع الهوى ، وكان المتركبون يطلقون هذا اللوصف على من دخل في الإسلام ، وعندهم أنه اتبع هواه ، وانحرف عن دين آبائه .

أذلك على العجب ؟ إن أختك وزوجها قد صبوا ؟ . . فدخل عمر عليهما
 ذامراً^(١) وعندهما رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، يقال له
 خباب بن الارت . . فلما سمع خباب حس صر نوارى ، فقال عمر : ما هذه
 المهينة^(٢) التي سمعتها عنكم ؟ وكانوا يقرءون سورة « طه » على خباب ،
 فقالا ، ما عندنا شيء ، إنما هو حديث كنا نتحدثه بيننا ، قال فلعلكما قد
 صبوتما . . فقال ختنه (أى زوج أخته) : أرأيت يا عمر إن كان الحق في
 غير دينك ؟ فوئب عمر على ختنه فوطئه وطئاً شديداً ، فجاءت أخته فدفعته
 عن زوجها ، فنفضها عمر بيده ، فأدعى وجهها ، فجاءته قائلة : إن الحق في
 غير دينك ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فاصنع
 ما بدا لك ! فلما يئس ، قال : أعطوني هذا الكتاب الذى عندكم فأقرؤه .
 وكان عمر يقرأ الخطب . فقالت أخته إنك نجس ، وإن هذا الكتاب لا يمسه
 إلا المطهرون ، فقم فتوضأ ، فقام فأصاب ماء ، ثم أخذ الكتاب فقرأ :
 « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى . . » إلى قوله
 تعالى : « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى » . .
 فقال عمر : « دلوى على محمد » . . فلما سمع خباب قول عمر ، ورأى منه الرقة
 في قلبه لما قرأه خرج من البيت ، فقال : أبشر يا عمر ، فإني لأرجو أن
 تكون دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الخميس ، لك . . سمعته
 يقول : « اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ، أو بعمر بن هشام » . .
 وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الدار التى فى أصل الصفا ، فانطلق
 عمر حتى أتى الدار ، وعلى الباب حمزة بن عبد المطلب ، وطلحة بن عبيد الله ،
 وناس من أهل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأى الناس عمر قد

(١) ذامراً : أى مهدداً ، يقال ذم فلان فلاناً ، يذمره ، بضم الميم ، أى صفه ، وتوهمه .

(٢) المهينة : الصوت المهييس .

أقبل ، كأنهم وجدوا - أى حزنوا - وقالوا : قد جاء عمر !! فقال حمزة :
قد جاء عمر ، فإن يرد الله به خيراً يسلم ، وإن يرد غير ذلك كان قتله علينا
هيناً . . قال : والنبي صلى الله عليه وسلم من داخل البيت ، يوحى إليه ،
نسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام القوم ، فخرج مسرعاً حتى انتهى
إلى عمر ، فأخذ بمجامع ثوبه ، وحماثل سيفه ، وقال : أراك منتهياً يا عمر
حتى ينزل الله بك ما أنزل بالوليد ابن المغيرة ^(١) ثم قال : اللهم هدا عمر ،
اللهم أعز الإسلام بعمر ؛ فقال عمر : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد
أنك رسول الله » ، فكبر أهل الدار ومن كان على الباب تكبيرة سمعها
كل من كان في المسجد من المشركين ^(٢) .

وواضح من هذا الخبر، أن عمر كان قد انتهى إلى رأى في الإسلام
قبل أن يلتقى بأخته وزوج أخته وخياب بن الأرت . . وأن هذه الدورة
التي كان يدورها هنا وهناك إنما هي دورة من حمل بين جنبيه أمراً
عظيماً ، وأراد أن يضرب ضربته الحاسمة فيه ، وأن ينهى موقفه معه ، فجعل
يحوم حول الهدف ويطوف به ، ويلتمس أوهى الأسباب ليلقى بنفسه
عليه ، لأنها أشبه بدورة ماء السيل حول الصخر الذي يعترض طريقه ،
حتى إذا وجد صدعاً ، جرى فيه متدفقاً ، وجرف كل ما يلقاه في طريقه . .
أو هي دورة الحامل ، وقد جاءها الخاض ، لتلد مولودها الذي تم خلقه في
بطنها ، ويريد أن يخرج إلى الحياة . . فلقد نضجت في كيان عمر تلك الشاعر

(١) ما أنزل بالوليد بن المغيرة هو ما أنزل الله تعالى فيه من قرآن ينذره بأنه يموت على
ضلالة ويوعده بالعذاب الأليم في الآخرة « أسأليه سفر ، ويا أدراك ما سفر ، لا تبقى
ولا تنذر ، لواء العصر » .

(٢) الرافعي القنطرة : ١ ص ٧٤٨ — ٢٤٩ وشرح نهج البلاغة ، لابن أبي
الحديد ١٢ ص ١٨٢ — ١٨٣

التي تطوف بنفسه عن الإسلام ، ثم التأم شملها ، وتكامل خلقها ،
فوجد لها - والحال كذلك من أن تخرج من كيان عمر إلى واقع الحياة !

لقد كانت الأسباب كلها مجتمعة في نفس عمر للدخول في الإسلام ، ولم
يكن ينتظر أكثر من لسة خفيفة أشبه باللسة التي تجمع بين طرفي التيار
الكهربى ، فتنتطلق منه القوة الكهربائية التي تشع النور، وتبعث الحرارة!!
عن أسامة بن زيد ، قال : قال عمر بن الخطاب : أتحبون أن أخبركم كيف
كان إسلامى؟ قال ، قلنا نعم ا قال : كنت من أشد الناس على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فبينما أنا في يوم حار شديد الحر في المهاجرة في بعض طرق مكة ،
إذا لقينى رجل من قريش ، فقال : أين تريد في هذه الساعة يا ابن الخطاب :
قلت : أريد هذا الرجل الذى يزعم أنه نبي : فقال : عجبا لك يا ابن الخطاب :
إنك تزعم أنك هكذا ، وقد دخل هذا الأمر في بيتك قال : قلت وما ذاك؟
فقال : أختك.. قال : فرجعت مغضبا ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
قد ضم إلى زوج أختي رجلين من المسلمين يعلمانه ويصيبان من فضل طعامه..
فقرعت الباب ، فقبل من هذا ؟ فقلت : ابن الخطاب .. قال ، وكانوا
يقرءون كتابا في أيديهم ، فقاموا مبادرين ، واختبثوا منى ، وتركوا الصحيفة
على حالها.. فلما فتحت لى أختي ، قلت لها : يا عدوة نفسها.. أصبوت؟ أو أرفع
شيئا في يدي فأضرب به رأسها ، وسال الدم .. فلما رأت الدم بكيت ، وقالت
ما كنت فاعلا فاعله ، فقد صبوت !! قال : فدخلت وأنا مغضب حتى جلست
على السرير ، فنظرت ، فإذا صحيفة في وسط البيت.. فقلت لها : ما هذه الصحيفة؟
فأعطيتها . . قالت : إنك لست من أهلها ، إنك لا تغتسل من جنابة ،
ولا تطهر ، وهذا لا يمس إلا المطهرون .. قال : فلم أزل بها حتى أعطيتها ،
فأخذتها ، ففتحتها فإذا فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم » فلما قرأت « الرحمن الرحيم »

ذعرت وألقيت الصحيفة من يدي ، ثم رجعت إلى نفسي ، فأخذتها ، فإذا فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم . سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » .

قال : فكأما مررت باسم من أسماء الله تعالى ذعرت ، ثم ترجع إلى نفسي ، حتى بلغت : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه »^(١) قال : قلت : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله .. قال : فخرج القوم مستعشرين ، فكبروا ، وقالوا : أبشر يا ابن الخطاب فإن رسول الله ﷺ ، دعا يوم الإثنين — وفي رواية أنس أنه دعا يوم الخميس — فقال : « اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : أبي جهل بن هشام ، أو عمر بن الخطاب » ولما نرجو أن تكون دعوة رسول الله ﷺ لك ، فأبشر ، قال . قلت دلوني على مكان رسول الله ؛ فأخبروني أنه في بيت بأسفل الصفا ، فخرجت حتى جئت الباب فقرعته ، فقالوا : من هذا ؟ قلت ابن الخطاب قال : فما اجتأ أحد منهم أن يفتح لي ، قد علموا شدتي على رسول ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ افتحوا له ، فإن يرد الله به خيراً يهده ، ففتحوا ، ثم أخذ رجلان بمضدي حتى أجلساني بين يدي رسول الله ﷺ ، قال : « تخلوا عنه » ثم أخذ بمجمع قميصي ، فجذبني إليه ، وقال : « أسلم يا ابن الخطاب .. اللهم اهده .. قال ، قلت . أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله .. قال فكبر المسلمون تكبيرة حتى سمعت من مكة ، وكانوا قبل ذلك مستخفين »^(٢) .

(١) سورة الحديد آية ١ — ٧

(٢) الرياض النضرة ج ١ ص ٢٥٠ — ٢٥١

ويروى ابن إسحق في تاريخه عن عمر ، أنه كان يقول (كنت للإسلام مباحداً ، وكنت صاحب خمر في الجاهلية ، أحبها وأشربها ، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال قريش بالخرورة عند دور آل عمر بن عمر بن الخزومي قال : فخرجت ليلة أريد جلساً أولئك في مجلسهم ذلك ، فجنثهم ، فلم أجد منهم أحداً .. قال : قتل لو أني جنث فلاناً - وكان بمكة يبيع الخمر - لعل أجد عنده لخرأ فأشرب منها .. قال : فخرجت فجنثه ، فلم أجد .. قال : قتل فلو أني جنث الكعبة فطفت بها سبعاً أو سبعين ؟ قال فجنث المسجد أريد أن أطوف بالكعبة ، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي ، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام ، فكان مصلاه بين الركنين : الركن الأسود ، والركن اليماني .. قال ، قتل حين رأيت ، والله لو أني استمعت من محمد الليلة حتى أسمع ما يقول !! قتل لئن دنوت لأسمع منه لأروعه ، وبحث ورسول الله ﷺ قائم يصلي يقرأ القرآن ، حتى قمت في قبلته مستقبلاً ، وما يبني ويدينه إلا ثياب الكعبة . فلما سمعت القرآن رقت قلبي فبكيت ، ودخلني الإسلام ، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله ﷺ صلاته . ثم انصرف . فنبعته حتى إذا دخل - بيته - من دار العباس ودار ابن أزهر - أي من طريقهما - أدركته ، فلما سمع رسول الله ﷺ وقع أقدامي عرقى ، فظن أني إنما أتبعته لأؤذيه فنهني^(١) ثم قال : ما جاء بك يا ابن الخطاب هذه الساعة ؟ قلت . جنث لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، فحمد الله ثم قال : قد هداك الله يا عمر . ثم مسح صدرى ودعا لي بالثبات^(٢) .

(١) نهى : أي زجرني ، ومنه نهم الإبل ، ينهمها ، أي زجرها تسرع في سيرها .

(٢) الرياض النضرة ج ١ ص ٢٥٢ - ٢٥٣

ولا نحسب أن هذه أول مرة استمع فيها عمر إلى القرآن ، ولا أول مرة رق فيها قلبه الإسلام ولكن الذى نكاد مجزم به هو أن عمر قد استمع إلى القرآن مرات كثيرة قبل هذا ، من رسول الله ﷺ ، ومن جماعة المسلمين ، الذين كان يلقيهم عمر ، محاسبا ، أو معاتبا ، أو معننا ، أو متوعدا ، أو من جماعة المشركين الذين يلقونه عارضين ماسموا من رسول الله ، ليكون ذلك مادة سخرية واستهزاء منه ومنهم . وما كان لعمر أن ينتظر طويلا والأحداث تدور من حوله ، دون أن يعرف مصدر هذه الأحداث ودون أن يطلع على ماتحمل الدعوة الإسلامية التى أثارها هذا الهياج العاصف فى مكة وما حولها . وإلا فما كان جديرا بأن يكون فى هذا المقام من قريش ، وقد هب سادتها وزعمائها لمواجهة هذا الحدث العظيم !!

وأكثر من هذا ، فإن عمر — كما يروى التاريخ — كان موعوداً مبشراً بما وصل إليه فى الإسلام قبل أن يظهر الإسلام . وذلك من شأنه أن يجعل التفات عمر قويا إلى الأحداث التى تظهر فى محيطه ، حيث يكون وقوفه بين يدي كل حدث وقوفا فاحصا متأملا ، لأنه كان يبحث عن نفسه فى كل حدث ، لعله يصادف فيه تأويل ما بشر به . وليس هناك أعظم من هذا الحدث الذى هز الجزيرة العربية كلها وما حولها بظهور نبي يوحى إليه من السماء بقرآن يعلوه على الناس ..

يروي أن عمر خرج عسيفا^(١) مع الوليد بن المغيرة إلى الشام فى تجارة الوليد .. وعمر يومئذ ابن ثمانى عشرة سنة ، فكان يرعى للوليد إبله ،

(١) عسيف : الأجير

ويرفع أحواله ، ويحفظ متاعه .. فلما كان بالبقاء^(١) لقيه رجل من علماء
الروم ، فجعل ينظر إليه .. ويطيل النظر ، ثم قال : أطن اسمك يا غلام
« عامرا » أو « عمران » أو نحو ذلك ؟ قال اسمي : « عمر » قال : اكشف
عن فخذيك ، فكشف ، فإذا على أحدهما شامة سوداء في قدر راحة الكف ،
فسأله أن يكشف عن رأسه ، فكشف فإذا هو أصابع ، فسأله أن يعتمل
بيديه ، فإذا هو أعسر أيسر .. فقال له : أنت ملك العرب ، وحق مريم
البنول .. قال فضحك عمر مستهزئاً ، فقال : أو تضحك ؟ وحق مريم
البتول إنك ملك العرب ، وملك الروم ، وملك الفرس ، فتركه عمر مستهيناً
بكلامه ، وكان عمر يحدث بعد ذلك ، ويقول : تبعني ذلك الرومي ، وهو
راكب حماراً ، فلم يزل معي حتى باع الوليد متاعه ، وابتاع بشمه عطراً
وثياباً ، وقفل إلى الحجاز ، والرومي يتبعني لا يسألني حاجة ، ويقبل يدي
كل يوم إذا أصبحت كما تقبل يد الملك ، حتى خرجنا من حدود الشام^(٢) ..
وسواء صح هذا الخبر أو لم يصح ، فإنه يدل على شيء من الاستطلاعات
والتوقعات كانت قدور في خاطر عمر ، وقد كان ذلك طبيعة فيه ، تلك
الطبيعة التي استضاءت بنور الإسلام ، فصارت « تمهيداً » اختص به عمر ،
وأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

وطبيعة كطبيعة عمر هذه التي تكاد تخترق حجب الغيب ، لا يمكن أن
تظل بعيدة عن مجرى الأحداث ، دون أن تأخذ أعدل المواقف فيها ، وأن
تضع يديها على أكبر قدر من الخير الذي تحمله بين يديها .. وهذا ما كان

(١) الملقاء : موضع يشمل الصف الجوبي من شرقي الأردن ، وحاصرتها « السلط »

وبضرب بها المثل في جودة حنطتها .

(٢) شرح نهج اللافة أبي المديد .. الجزء الثاني عشر من ١٨٣ - ١٨٤

(٣) م . هـ — عمر بن الخطاب

من عمر ، فإنه ما كاد يرى طريقه واضحاً إلى دعوة الإسلام حتى أسرع
الخطا إلى دين الله ، وحتى أعطاه وجوده كله ، فأعطاه الإسلام بدوره من
الخبر ما يرجح ميزانه بالأمة الإسلامية كلها . بعد رسول الله ، وبعد
أبي بكر الصديق ، كما جاء ذلك في الخبر الصحيح عن رسول الله صلوات الله
وسلامه عليه . .

ولابد من وقفة هنا بين يدي هذه الروايات المختلفة التي تحدثت عن
إسلام عمر ، فهي إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن إسلام عمر كان
حدثاً من الأحداث العظام ، التي يلتفت الناس جميعاً إليها ، والتي يتشكل
منها كثير من التصورات ، التي تتلون بها الأخبار ، ويضاف إليها كثير
من الذبول والواثي ، ولا نظن كذلك أن هذا الخبر الذي يرويه الرواة
عن هذا الراهب الذي التقى بعمر في طريقه إلى الشام ، وأخبره عن اسمه ،
ثم كشف عن ملامح جسدية فيه أخذ منها الراهب دلالة على أنه ملك
العرب ، والفرس والروم . . ما نظن هذا الخبر إلا وارداً من موارد
الأساطير التي تنسج حول سيرة عظماء الرجال .

الفصل الثاني

ما بعد إسلام عمر

دخل عمر في الإسلام ، كما يقول الرواة وهو ابن ست وعشرين سنة ، وكان ابنه عبد الله بن عمر ابن ست سنين . . وكان إسلامه مقبلاً أربعين إنساناً دخلوا في دين الله ، من رجال ، ونساء وصبيان . .

ومنذ أن دخل عمر في الإسلام بدأ الصراع بين المشركين والمسلمين . يأخذ طابع الجدل ، ويقوم الأمر بين الفريقين على خلاف لا سبيل إلى مصالحة معه . أو موداعة فيه ، وإنها لهي القوة التي تحمل أحد الفريقين على إخلاء الميدان للفريق الآخر . .

فأما المشركون فقد رأوا أن إسلام عمر ، بعد إسلام حمزة ، يؤذن بأن محمداً ينتزع كل يوم سيده من ساداتهم ، ويملك بدأً قوية من أيديهم الضارية ، وأنهم لو صبروا على ذلك لرجعت عما قليل كفة محمد وأصحابه وأصبحت له اليد الغالبة عليهم . . وإذن فليتهجلوا ، وليأخذوا محمداً وأصحابه قبل أن يأخذوهم ، وإلا اتسع الخرق على الراقع ، وخرج السهم من الرمية .

وأما النبي — صلوات الله وسلامه عليه — والمسلمون معه ، فقد رأوا في إسلام عمر قوة لهم ، وإعزازاً لدينهم . وأن الله تعالى قد استجاب لتحييه صلى الله عليه وسلم فيما دعا به ربه في قوله : « اللهم أعز الإسلام بأحب

الرجاين إليك ، عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام » .. وإذن فلن يصبر المسلمون منذ اليوم على ضيم ، ولن يجمعوا عن لقاء المشركين ورد العدوان بالعدوان ، ولن يعيشوا مع دينهم في خفاء ، بل يجب أن يعلنوا على الملأ أمرهم ، وأن يكشفوا عن وجوههم .. وإيكن ما يكون ..

وقد بدأ عمر بنفسه ، ليفتح الطريق للمسلمين ، وليحصل الصدمة الأولى من قريش حتى تكون دعوته للمسلمين بعد ذلك للقاء قريش دعوة تقوم من ورائها تجربة حية أجراها على نفسه .

هكذا كان أسلوب عمر في حياته ، لا يدعو إلى أمر حتى يكون هو آخذاً نفسه به ، في غير هواة أولين . فلم يحمل عماله وولاته على التعفف والاستعلاء على شهوات النفس ، إلا بعد أن أراهم من نفسه كيف تصعر الدنيا في عينيه ، وكيف يملكها ويعف عنها ، فهان عليهم بعد هذا أن يملكوا وأن يزهدوا فيما ملكوا .. فالتاس - كما يقولون - على دين ملوكهم !

عن عبدالرحمن بن الحارث ، عن عمر بن الخطاب أنه قال : لما أسلمت تلك الليلة التي أسلمت فيها تذكرت أي أهل مكة أشد عداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . حتى آتني فأخبره أنني أسلمت ، فذكرت أبا جهل - وهو عم أمه - فأقبلت حين أصبحت فضربت عليه بابه ، فخرج إلى ، فقال : مرحباً وأهلاً يا ابن اختي .. ما جاء بك ؟ قلت . جئتك أخبرك أنني آمنت بالله ، ورسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ، وصدقت بما جاء به قال : ف ضرب الباب في وجهي ، وقال : قبحك الله ، وقبح ما جئت به !! وعن ابن عمر ، قال : لما أسلم عمر لم تعلم قريش بإسلامه ، فقال : أي أهل مكة أفشى للحديث ؟ ، قالوا : جيل بن معر الجمحي .. فخرج إليه .

وَأَنَا مَعَهُ - أَيْ ابْنُ عَمْرِو - أَتَبِعُ أَثَرَهُ ، وَأَعْقِلُ مَا أُرَى وَأَسْمَعُ . . فَأَتَانَاهُ ، فَقَالَ : يَا حَبِيل . . إِنِّي قَدْ أَسْلَمْتُ !! قَالَ ، فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيْهِ بِكَلِمَةٍ ، حَتَّى قَامَ عَامِداً إِلَى الْمَسْجِدِ ، فَنَادَى أُنْدِيَّةَ قُرَيْشٍ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ . . إِنْ ابْنُ الْخَطَّابِ قَدْ صَبَأَ ، وَعَمْرٌ وَرَاءَهُ يَقُولُ : كَذَبْتَ ، وَلَكِنِّي أَسْلَمْتُ ، وَآمَنْتُ بِاللَّهِ ، وَصَدَقْتَ رَسُولَهُ . . قَالَ : فَتَأَوَّرُوهُ ^(١) ، فَقَاتَلَهُمْ حَتَّى رَكَدَتِ الشَّمْسُ عَلَى رُؤُوسِهِمْ ، وَحَتَّى فُتِرَ عَمْرٌ ^(٢) فَجَلَسَ قَامُوا عَلَى رَأْسِهِ ، فَقَالَ : «افْعَلُوا مَا بَدَأَ لَكُمْ ، فَوَاللَّهِ لَوْ كُنَّا ثَلَاثِمِائَةَ رَجُلٍ أَتَرَكْتُمُو هَؤُلَاءِ - أَيْ مَكَّةَ - أَوْ تَرَكْنَاهَا لَكُمْ . . » .

وَلَقَدْ صَدَقَتْ فِرَاسَةُ عَمْرِو ، إِذْ لَقِيَ الْمُسْلِمُونَ قُرَيْشًا فِي بَدْرٍ ، وَكَانَتْ عِدَّتُهُمْ نَحْوَ ثَلَاثِمِائَةِ رَجُلٍ ، عَلَى حِينٍ كَانَتْ قُرَيْشٌ فِي أَكْثَرِ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ وَوَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ تَعَالَى النَّصْرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ، وَالْخِزَاءَ وَالْحِذْلَانَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ !! وَهَكَذَا صَدَقَتْ فِرَاسَةُ عَمْرِو ، فَإِنْ هَزِيمَةُ الْمُشْرِكِينَ فِي بَدْرٍ كَانَتْ مُقَدِّمَةً لِفَتْحِ الطَّرِيقِ إِلَى مَكَّةَ ، وَدُخُولِ النَّبِيِّ وَالْمُسْلِمِينَ عَلَى أَهْلِهَا فَاتِّحَاحًا بَعْدَ سِتِّ سِنِينَ !!

وَعَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّهُ لَمَّا أَسْلَمَ عَمْرٌ ، قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَامَ تَخْتَنِي دِينَنَا وَنَحْنُ عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنَّا قَلِيلٌ . . فَقَالَ عَمْرٌ : وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لَا يَبْقَى مَجْلِسٌ جَلَسَ فِيهِ بِالْكَفْرِ إِلَّا جَلَسْتُ فِيهِ بِالْإِيمَانِ . . ثُمَّ خَرَجَ فَطَافَ بِالْبَيْتِ ، ثُمَّ مَرَّ بِقُرَيْشٍ وَهُمْ يَنْظُرُونَهُ ، فَقَالَ أَبُو جَهْلٌ بْنُ هِشَامٍ : زَعَمَ فُلَانٌ أَنَّكَ صَبَوْتَ ، فَقَالَ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، فَوُثِبَ عَلَيْهِ لِلْمُشْرِكِينَ ، فَوُثِبَ عَمْرٌ عَلَى عَتَبَةِ بْنِ رَبِيعَةَ فَبَرَكَ عَلَيْهِ ، وَجَعَلَ يَضْرِبُهُ ، وَأَدْخَلَ إِصْبِعَهُ

(١) تَأَوَّرُوهُ : هَجَّبُوا عَلَيْهِ .

(٢) فُتِرَ : هَمِدَ ، وَسَكَنَ مِنَ الْإِجْهَادِ .

في عينيه ، فجعل « عتبة »^(١) يصيح ، فتنحى الناس عنه ، فقام عمر فجعل لا يدنو منه أحد إلا أخذ شريف^(٢) من دنانمه حتى أحجم الناس عنه .. ثم انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو ظاهر عليهم ، فقال : يا رسول الله ما يحبك ؟ بأبي أنت وأمي !! فوالله ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا ظهرت فيه بالإيمان ، غير هائب ولا خائف .. فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعمر وحمة بن عبد المطلب بين يديه حتى طاف بالبيت ، وصلى الظهر معلناً . ثم انصرف النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه إلى دار الأرقم .. » .

وفي البخاري ، عن ابن مسعود ، قال : « مازلنا أعزة منذ أسلم عمر » . وعن ابن مسعود أيضاً : « كان إسلام عمر فتحاً ، وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة . : لند رأيتنا ولم نستطع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر ، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا » .

وعن ابن عباس ، قال : « أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة واثون رجلاً .. ثم إن عمر أسلم ، فصاروا أربعين رجلاً ، قتل جبريل عليه السلام بقوله تعالى : « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين »^(٣) .

وهذا الخبر الذي يروى عن ابن عباس إن صح أوله ، فإنه لا يصح آخره ، لأن قوله تعالى « يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين » . هو قرآن مدني في سورة الأنفال ، التي نزلت في أعقاب غزوة بدر . . .

(١) أي نظر إلى سجد الجماعة فأسبك به واشبك معه . - أو نظر إلى الشخص الذي وهو من منسبك بأشرف من فيه ، كوجهه ، أو رأسه .

(٢) سورة الأنفال : ٢٦٤

فنزول هذه الآية لم يكن مقارناً لإسلام عمر ، حتى يمكن القول بأنها نزلت يوم أن أسلم عمر !

على أنه إن صح هذا الخبر يمكن أن تكون الآية قرآناً مكياً ، وضع في سورة مدنية ، كما حدث ذلك من وضع آيات مدنية في سور مكية .. وذلك بأمر سماوى .. كما هو معروف ..

وعلى أى فإن إسلام عمر رضى الله عنه - كان حدثاً بارزاً من أحداث الدعوة الإسلامية ، ومعلماً من المعالم المضيئة على طريقها .. لقد كان إسلامه فتحاً ، كما يقول ابن مسعود ، لقد قويت به شوكة المسلمين ، وعزز به جانب المستضعفين منهم ، قويت نفوسهم ، ورأوا في مسيرة الدعوة الإسلامية اتجاهاً إلى مواقع العزة يوماً بعد يوم ، وأنها تكسب كل يوم أنصاراً ، دون أن تخسر شيئاً مما كسبت .

الفصل الثالث

هجرة عمر

نبه إسلام عمر في قرش دواعى العدوان الذى كانت ترصده للنبي والمسلمين الذين آمنوا به منذ اليوم الأول للدعوة الإسلامية ، ولفتها إلى هذا الخطر الذى يهددها من محمد ودعوته ، وإن المطاولة والصبر لا يجديان عليها فى دفع هذا الخطر الذى استشعرته من تلقاء هذا الدين الجديد ، الذى إن مضت الأيام به على تلك الحال ، دون أن تعاجله بالضربة القاضية ، أفلت الأمر من يدها ، ووقع بها ماتخشا من ذهاب هيبتها وسلطانها بين العرب . . . ولهذا أخذت قريش منذ إسلام عمر تشدد من قبضتها على المسلمين ، بعد أن تداولت الأمر فيما بينها ، وألزمت أهل كل بيت فيها أن يتولى دوره فى تأديب من دخل فى دين محمد من رجاله ، أو نسائه، أو عبيده أو إمامته . . . وبهذا التدبير اشتد البلاء على المسلمين ، فكان فى كل بيت معركة ، بين أب أو أم أو إخوة وبين من دخل عليهم بدين محمد.. فكانت القطيعة والعدوان والحرمان .

لقد كان كثير من المسلمين يخفون إسلامهم قبل أن يعلن عمر إسلامه فلما أسلم عمر أعلن هؤلاء إسلامهم ، حتى العميد منهم قد وجدوا أن من تمام إيمانهم أن يجهروا بدينهم ، وأن يحتملوا الأذى فى سبيله كما احتمله عمر ، وغيره من المسلمين . وبهذا عرفت وجوه المسلمين ، وهم قلة بين المشركين ، فوقعوا فى حصار شديد ، حيث كان الواحد منهم فى مواجهة

عشرات أو مئات من أهله وعشيرته ، إن سلم من أيدي بعضهم لم يسلم من أيدي البعض الآخر ، وإن سلم من أيديهم جميعاً لم يسلم من ألسنتهم ، وهو مرتبط معهم في سكنه ، ومعاشه ، بحكم رابطة القرابة والنسب ، أو التبعية بالرقعة !

ولم يكن للمسلمين والأمر كذلك - إلا أن يلتمسوا طريقاً للخروج من هذا الحصار المصروب عليهم ، وذلك بالهجرة من مكة إلى أى مكان يمكن ألا تنالهم فيه يد أهليهم المبسوطة عليهم بالبنى والعدوان .

وكيف هذا ، وقريش وافقة بالمرصاد على باب هذا السجن الكبير الذى ضربته على كل من دخل فى الإسلام منها ؟

وإلى أية قبيلة من قبائل العرب يهاجر المسلم ، ولقريش مكانة ، عند كل قبائل العرب ، ولها - بحكم قيامها على سدنة البيت الحرام - توقير واحترام عند العرب جميعاً ، ولها الكلمة النافذة على كل من يخرج على دين الآباء والأجداد ؟ فإذا هاجر قرشى إلى أية قبيلة لم يكن للقبيلة التى هاجر إليها أن تمسكه إذا طلبته قريش وأرادت رده إليها ..

ومن أجل هذا ، فقد رأى النبی صلى الله عليه وسلم أن تكون وجهة الذين يهاجرون من المسلمين لا إلى إحدى القبائل العربية ، بل إلى خارج الجزيرة العربية كلها ، فكانت الحبشة البلد الذى اختاره النبي صلى الله عليه وسلم ليكون مهاجر المسلمين إليه لأن أهل الحبشة كانوا أهل كتاب يدينون بالنصرانية ، فهم - والحال كذلك - أقرب إلى المسلمين ، وإلى دين الله الذى يدينون به .. ومع هذا ، فقد عملت قريش جاهدة على أن تنتزع هؤلاء الذين هاجروا إلى الحبشة من هذا الملجأ الذى لجئوا إليه ، فبعثت يرسلاً إلى النجاشي تطلب إليه أن يرد إليها هؤلاء الخارجين عليها من

أبنائها ، لتتولى حسابهم وتأديبهم .. وكان على رأس وفد قريش إلى النجاشي عبد الله بن أبي ربيعة ، وعمر بن العاص .. ولكن النجاشي أبى أن يخذل جماعة من المؤمنين لجثوا إليه ، وأن يسلط يد الوثنيين عليهم ، وهو على دين المسيح عليه السلام !

وقد كان في إسلام عمر - رضى الله عنه - إذنا بفتح طريق الهجرة للمهاجرين من المسلمين ، وباعتنا على مواجهة قريش وتحديها بموقف اعتزالها ، والبعد عنها حين لم يمكن الاتصاف منها ، برد عدوانها .. فهاجر كثير من المسلمين إلى الحبشة ، رجالا ونساء . ولكن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه ، أبى أن يهاجر إلى الحبشة ، وأن يخرج من موطنه ، وأن يقبل حكم قريش فيه ، بل ظل صامداً في مكة ، يتحدى المشركين ، ويلقاهم جبهة بما يسوؤهم ويكبتهم ، ثم إن كثيراً من المستضعفين والعبيد ممن أسدوا لم يكن لهم إلى الهجرة سبيل ، فإذا خرج من مكة عمر وأمثاله من الأقوياء القادرين وهنت عزائم هؤلاء المستضعفين ، واستشعروا الوحشة والغربة بين المشركين .. لهذا آثر عمر أن يبقى في مكة مع جماعة المؤمنين ، ياتى ما يلقون من عنت وكيد إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً ..

ثم إنه لما بايع الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام ، وعلى النصرة له وللمسلمين الذين يهاجرون إليهم وكان ذلك في بيعة العقبة الأولى والثانية - لما كان هذا أذن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لأصحابه أن يهاجروا إلى المدينة.. وأن ينزلوا منازل إخوانهم الأنصار.. فكان ذلك داعية إلى كثير منهم أن يهاجر إلى المدينة ، حيث يستبدل أهلاً بأهل وبلداً ببلد ، دون أن يخرج من الجزيرة العربية أو أن يغير من لسانه وزيه العربيين .

• وهنا يفكر عمر في الهجرة إلى المدينة لا فراراً من مواجهة قريش ، ولكن ليكون في مواجهتهم ، وليرصد ليوم يلتاقم مع المسلمين فيه ، ثم ليكون قوة المهاجرين في مهاجرهم الجديد ، حيث يأمنون به ، وبغيره من وجوه قريش الذين دخلوا في دين الله .

وجاء اليوم الذى عقد فيه عمر النية على الهجرة إلى المدينة . . فكان يوم هجرته حدثاً مزلزلاً للمشركين كيوم إسلامه ، وكان فعلة من فعلات عمر التى يكاد يفرد بها .

فعمر حين أسلم لم يخاف بإسلامه ، ولم يجعله أمراً بينه وبين نفسه ، أو بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وجماعة المسلمين ، بل نادى بإسلامه في قريش ، وطرق به أبواب ساداتها ، وزعمائها ، وصك به أسماعهم ، وألقى به الحسرة في قلوبهم .

وكذلك فعل عمر حين أزمع الهجرة إلى المدينة . . فلقد كان الذين يهاجرون إلى المدينة من المسلمين يهاجرون إليها في ستر وخفاء ، ويلتمسون لذلك الوسائل التى تخفى عن قريش أمرهم حتى يهلفوا مأمهم في دار هجرتهم . . أما عمر فإنه أعلنها صريحة مدوية على الملأ من قريش ، وكأنه بهذا إنما يعذر لنفسه من أن يخرج من بلده وكأنه ينذر قريشا بحرب يمانها عليها قبل أن يهاجر ، فإن هي استطاعت أن تمنعه من الهجرة ، فقد كسبت الحرب ، وانتصرت عليه وإن هي لم تستطع أن تحول بينه وبين أن يهاجر ، فقد أوقع بها الهزيمة ، وانتصر عليها ، وكانت هجرته هي المنعم الذى وقع ليده من هذه الحرب . . وإذن فهو لم يفر من قريش بهذه الهجرة ، وإنما هو قد انتصر عليها ، وأرغم أنفها ، فاستسلمت لحكمه الذى أمضاه فيها ، فلم تستطع أن تنقض عليه هذا الحكم . . وما أصدق قول ابن مسعود - رضى الله عنه - حين قال عن هجرة عمر :

«وكانت هجرته نصراً» .. وأى نصر أبلغ من أن يتحدى عمر قريشاً هذا التحدى ، ويفريها به هذا الإغراء ، ثم تنكص على أعقابها ، فلا تجرؤ على مواجهته ؟

هكذا كان حساب الهجرة عند عمر - رضى الله عنه - و تلك كانت مشاعره التى ارتبطت بها نيته التى انعقدت عليها .

عن ابن عباس - رضى الله عنه - قال ، قال على بن أبى طالب - كرم الله وجهه : ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً ، إلا عمر بن الخطاب ، فإنه لما أراد الهجرة ، تقلد سيفه ، وتنكب قوسه^(١) ، وانتفضى فى يده أسهماً^(٢) ، واختصر عنزته^(٣) ، ومضى قبل الكعبة ، والملا من قريش بنفائها .. فطاف بالبيت سبعة متمكناً ، ثم أتى اقام فصلى متمكناً ، ثم وقف على الخلق^(٤) واحدة واحدة ، فقال لهم : شأنت الوجوه^(٥) ؛ لا يرغم الله إلا هذه المعاطس^(٦) من أراد أن بشكل أمه ، أو يتيماً ولده ، أو يرمل زوجه ، فليلقني وراء هذا الوادى .. فما اتبعه أحد ، إلا قوم من المستضعفين عليهم ما أرشدكم ، ثم مضى لوجهه .

ويروى ابن اسحق فى سيرته رواية أخرى فى هجرة عمر .. يقول ابن اسحق : خرج عمر بن الخطاب مهاجراً ، وعياش بن أبى ربيعة .. قال عمر : انعدت (أى تواعدت) أنا وعياش بن ربيعة ، وهشام بن العاص

(١) أى جملة على ذكائه ، أى كفه .

(٢) انتفضى أسهماً : أى استظها من كسائته ، وجعلها فى يده .

(٣) عنزته : أى حربته .

(٤) المالى : جم حاقة ، وهم الجماعة من القوم ، يمسكون فى دائرة أشبه بالخلفة .

(٥) شأنت الوجوه : دعاء عليها بأن تشوه وتفتج .

(٦) المعاطس : جمع مطس ، كجلس وهو الأنف وإرغام الأنوف لصوقها بالارغام وهو

الارب ، كناية عن إذلالها .

ابن وائل السهمي - المناصب من أضاء بني غفار فوق سرف^(١) وقلنا أينما لم يصبح عندها فقد حبس (أى منه المشركون من الخروج) .. فليمنض صاحبه .. فأصبحت أبا وعياش عند المناصب ، وحبس عنا هشام ، وقتن فافتتن ، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء .

وظاهر هذا الخبر يدل على أن عمر خرج متخفيا ، كسائر المهاجرين ، ، ولكن الخبر المروي عن ابن عباس أقرب إلى القبول عندنا ، لأن طبيعة عمر تأتي عليه أن يهاجر على هذا الأسلوب الذي لا يلتقي فيه قريشاً مواجهاً متحدياً ، كما لقيها بإسلامه مواجهاً متحدياً .

ويمكن أن يكون لما رواه ابن إسحق وجه من التأويل ، وهو أن عمر أراد أن يكون له رفيق سفر ، أو رفيقان من المسلمين ، وأنه سيخرج معلنا خروجه في قريش على حين يكون رفيقه اللذان ينتويان الخروج معه قد خرجا من وراء قريش ، وأن يلتقيا به عند المكان الذي تواعدوا عليه وقد أمكن أحد الرجلين أن يجد فرصة مواتية نخرج في غفلة من قريش ، على حين أن الآخر لم يجد تلك الفرصة ، أو أنه رجع إلى نفسه فعدل عن الهجرة لضعف في دينه وهذا هو الأرجح فإنه قد ارتد ، كما تقول الرواية .

ويمكن أن يوفق بين الروایتين ، وذلك بأن يقال إن عمر حين عزم على الهجرة ، وأن تكون هجرته على أعين الناس ، أراد أن يصحب في سفره . رققة للاثناس بها في وحشة هذا الطريق الطويل ، فدبر الأمر مع صاحبيه عياش بن أبي ربيعة ، وهشام بن العاص ، واتعدوا على اللقاء ظاهر مكة ، وذلك حتى لا تكون هجرتهم على تلك الصورة الجماعية التي تكون بمثابة إعلان الحرب السافرة على قريش . وقد خرج عمر مهاجراً معلناً هجرته .

(١) المناصب : هم أصاب ، والأنصاب جمع نصب وهو ما يذبح عليه للأضنام ، والأضاة المجازاة الصغيرة . وهذه كلها أسماء . واسع خارج مكة .

على ما جاء في الخبر المروى عن ابن عباس . . فلما خرج من مكة انتظر صاحبيه الذين كان على وعد معهما ، فجاءه أحدهما ، أما الآخر فقد تخلف لسبب أو لآخر .

وإذن ، فقد هاجر عمر على هذا الوجه الذى تحدى فيه قريشا ، وأدل به كبرياءها ، والذى فتح به الكثير من المسلمين ذريق الهجرة . فلم يكن لقريش بعد هذا أن تمسك أحداً عن هذا الطريق ، حتى لا تفتضح على الملأ بخروج عمر رغم أنها . . وكأنها تقول بعد هذا ، إنها هى التى تركت عمر يمضى ، وهى ذى تترك غيره يمضون إلى حيث يريدون . . وكأنها تقول إن خروج هؤلاء الانصارين هو دعوة منها إليهم ، وأنها هى التى ترغب فى طردهم من بينها . . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فلها معه شأن غير هذا الشأن ، ولها فيه رأى غير هذا الرأى . . إنه — صلوات الله وسلامه عليه — هو رأس هذه الجماعة ، وهو نظام عقدها ، وإن فى إمساكها به ، وعدم إفلاته من يدها هو ضمان لها بالقضاء على دعوته ، وخنق أنفاسها بيدها القابضة عليه ، وإن فى هجرة من هاجر من أصحابه إضعافاً له ، وزيادة فى التمكن لها منه .

والذى يؤيد مذهبنا إليه من الأخذ برواية ابن عباس — رضى الله عنه — عن على كرم الله وجهه من أن عمر رضى الله عنه ، قد خرج مهاجراً . معالنا بهجرته — الذى يؤيد هذا ما يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه من قوله فى عمر — رضى الله عنه — « كان إسلام عمر فتحاً وهجرته نصراً ، وإمارته رحمة » ولن تكون الهجرة نصراً ولن تختص بهذا الوصف من بين الهجرات إلا إذا كانت بهذه الصفة التى هاجر بها عمر .

الباب الثالث
عمر في صحبة الرسول ﷺ

الفصل الأول

في دار الهجرة

هاجر عمر إلى المدينة مع من هاجر إليها من المسلمين ، قبل أن يهاجر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونزل في بني عمرو بن عوف من الأنصار . . وقد ظلى هناك يرقب أخبار رسول الله ﷺ في مكة ، ويستمع لما ينقله إليه القادمون منها من المهاجرين وغير المهاجرين الذين كانوا يأتون مكة ، ثم يمرون بها من قبائل العرب .

وما قدرى ما كان يعتل في صدر عمر غير مشاعر الألم لما يلتقى رسول الله ﷺ من ضيق ومن عنت . وهو صلوات الله عليه وسلامه مقيم في مكة بين هذه الوجوه المنكرة له ، الآخذة عاياه كل سبيل يصل بينه وبين الناس داعياً إلى دين الله .

و'هل كان مما يدور في خاطر عمر أن يعود إلى مكة ، وأن يقف إلى جوار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يحمل معه بعض ما يحمل من أعباء الدعوة ؟ ربما كان ذلك أو شيء منه .. ولكن اتصال هجرة المهاجرين من مكة إلى المدينة ، كان يحدثه بأن المدينة هي دار الإسلام ، ومجتمع المسلمين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يدعو المسلمين إلى الهجرة إليها لأمر أمره الله تعالى به ، وأطلعه عليه .. وإذن - فليقيم عمر حيث هو ، وليحتمل ما يحتمل من ألم يبعده عن مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولينتظر ما تأتى به الأيام !!

ولم يذكر التاريخ أن عمر رضى الله عنه قد كان له دور خاص

فى دار الهجرة قبل هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان من غير المستبعد أن يكون وجهاً بارزاً من وجوه المسلمين هناك ، وأن يكون بموضع الاحترام والتقدير من المهاجرين والأنصار على السواء .. فإن شخصية عمر جدير بها أن تحله محل الصدارة حيث كان ، وأن تجعل منه الرجل الذى إذا غاب افتقده الناس ، وإذا حضر تعلقت به الأنظار ، وشخصت نحوه القلوب .

وحين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مهاجراً إلى المدينة ، سكنت نفس عمر ، واجتمعت مساعره الممزقة .. فأضاف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوده كله ، لا يتجه متجهاً ، ولا يعمل عملاً ، ولا يقول قولاً ، إلا لحساب رسول الله ومن أجل رسول الله .. فكان عمر ، واحداً من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين علقت نفوسهم بنفسه الشريفة ، وتواصلت أنفاسهم بأنفاسه الزكية ، لا يرون لهم حياة إلا فى حياة الرسول ، ولا يشعرون لهم بوجود إلا فى وجوده ، أشبه بالزهرة فى شجرتها ، إذا هى انفصلت عنها لا تلبث أن تزوى ، وتبجف ، وتموت .

ولقد برزت شخصية عمر بروزاً واضحاً فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، وفتح الإسلام بأنوار هديه مغالق العظيمة التى كانت تبحش بها نفس عمر ، ولا تجد لها متنزلاً فى حياة الجاهلية وأوضاعها .. وقد وجد الرسول الكريم فى عمر أرساً بكرأ مشبوبة الخصب ، طيبة المعلن ، فبذر فيها بذور الحكمة ، وصاها بفيض مدرار من أدب النبوة وحكمتها .. وسرعان ما استجاب عمر لهذا التوجيه العلوى ، فأطلع أطيب الثمرات الإنسانية وأكملها ، مما تجود به العقول من حكمة ورأى ، وما تنبض به القلوب من فضل ونيل .

كان عمر منذ أسلم أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ ، وألزمهم له ، لا يكاد يفارقه إلا لحظات محدودة من ليل أو نهار .. كان ظر رسول الله ﷺ لا يتحول عنه أبداً ، ولو استطاع أن يقضى الأيام والليالي لحظة لحظة مع رسول الله ﷺ لنفعل .. ولكن لا رسول - صلوات الله وسلامه عليه - وهو شر - ساعات يخلو فيها إلى أهله ، أو يريح فيها بدنه ، أو يناجى فيها ربه .. أما في غير هذه اللحظات فقد كان عمر أحرص الناس على ملازمة رسول الله ﷺ ، وإرواء روحه من النظر إليه ، والاستماع له .

وقربه الرسول الكريم إليه ، وأدناه منه ، وخالطه مخالطة الأخ الودود لأخيه ، وتزوج رسول الله ﷺ أم المؤمنين حفصة بنت عمر - رضى الله عنهما - ، توثيقاً لهذه الرابطة ، وتمكيناً لها ، وتكريماً لعمر ، وتعريفاً بمنزلته عنده ، وفتحاً لبيته ، بدخله حيث شاء ، وفيه ابنته حفصة !

وبهذه الصلة الوثيقة برسول الله ﷺ استطاع عمر أن يتلقى عن النبي الكريم قيضاً زاهراً من نفعات النبوة ، وأن يكسو روحه من أنوارها ، ويملا قلبه وعقله من هذبها ، فكان له من هذا زاد طيب ، مكن له أن يأخذ طريقه في قوة وعزم ، متأسيماً برسول الله ﷺ ، مستظلاً بصحبته ، مانوساً بهديه .

ومن هذا كله ، قامت لعمر بين المسلمين شخصية لها كيانها المستقل ، وطابعها العمرى الذى انفردت به .

هذا وكان عمر في ملازمته لرسول الله ﷺ مع أولئك النجوم المختارة من صحابة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - يرصد كل حركة من حركات الرسول ، ويقرأ كل إحساس يحده في نفسه ، أو شعور يظهر

على قَمَمَات وجهه الشَّريفِ .. فيستبشر ، ويسعد بما يستبشر ويسعد به الرسول ، ويألم ويضيق أشد الضيق بما يألم ويضيق به الرسول .. ومن هنا كانت حِدَّة عمر ، وشدته واندفاعه في غير مبالاة في دفع كل ما يعرض للرسول - صلوات الله وسلامه عليه - مما يؤذيه ، أو يكدر خاطره .. ومن هنا كانت تلك المواقف الكثيرة التي ذكرها التاريخ لعمر ، والتي سنذكر بعضاً منها فيما يليقنا من فصول هذا الكتاب . والتي كان عمر فيها دَيْدَبَانًا حارساً للنبي ، لا يعرف غير السيف يشهره في وجه كل من يعترض طريق رسول الله ﷺ ، بكلمة نابية ، أو سلوك منجرف حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يُمسك عمر ، ويطلق . حمرة غضبه .. وهذا ما يشير إليه قول رسول الله ﷺ : « أَسَدٌ أُمِّي فِي أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَمْرٍ » وأخرج أحمد بن حنبل في مسنده عن الأسود بن سُريع ، قال . أَى الأسود : أَتَيْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ يَا رَسولَ اللَّهِ : إِنِّي قَدْ حَدَّثَ اللَّهُ تَعَالَى بِمُحَمَّدٍ ، وَمَدَحَ ، وَإِيَّاكَ ^(١) . فَقَالَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْمَدْحَ ، هَاتِ مَا امْتَدَحْتَ بِهِ رَبَّكَ تَعَالَى » قَالَ : فَجَعَلْتُ أَنْشُدُهُ ، فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْتَأْذِنُ ، أَدْلُمُ ^(٢) طُوال ، أُعَسِرُ أُيسِر ^(٣) .. فَاسْتَنْصَتِي لَهُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ ^(٤) .. وَوَصَفَ لَنَا أَبُو سَلَمَةَ كَيْفَ اسْتَنْصَتَهُ ، قَالَ كَمَا يَصْنَعُ بِالْهَرَّةِ (أَى أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ رَبَّتَ عَلَيْهِ كَمَا يَرْتَبُ عَلَى الْهَرَّةِ ، فِي عَطْفٍ وَرَقَةٍ) .. فَدَخَلَ الرَّجُلُ ، فَتَكَلَّمَ سَاعَةً ثُمَّ خَرَجَ ، ثُمَّ أَخَذَتْ أَنْشُدُهُ أَيْضًا ، ثُمَّ رَجَعَ (أَى الرَّجُلُ) بَعْدَ ، فَاسْتَنْصَتْنِي رَسولَ اللَّهِ ﷺ ، فَقُلْتُ يَا رَسولَ اللَّهِ :

(١) أَى وَفَدَ مَدَحَكَ أَيْضًا بَعْدَ أَنْ حَدَّثْتَ اللَّهَ وَمَدَحْتَهُ .

(٢) أَدْلُمُ : الْأَدْلَمُ ، الَّذِي يَعْمَلُ لَوْنَهُ إِلَى السَّوَادِ .

(٣) أَى يَعْمَلُ بِكَلْمَا هَدِيَا : الْيَمَى وَالْيُسْرَى .

(٤) أَى دَعَانِي إِلَى أَنْ أَسْكُتَ ، وَأَمْنَكَ مِنَ الْقَوْلِ .

مَنْ ذَا الَّذِي تَسْتَنْصِتُنِي لَهُ ؟ فقال : « هذا رجل لا يُحِبُّ الباطل ، هذا عمر ابن الخطاب » .

ووصف رسول الله ﷺ ، لما كان يُنْصِده الأسود بن سريع ، وصفه له بالباطل ، لا لأنه باطل في حقيقته ، وإنما لأنه من موارد الشر ، الذي يغلب عليه الباطل ، وإلا فما كان رسول الله ﷺ يستمع إلى باطل ، ثم يعود فيستمع إليه مرة أخرى .. ولكن عمر - رضى الله عنه - وإن كان يُحِبُّ الشر ، وينقد جيده من رديئه وحقه من باطله ، ولا يرى بأسا في الاستماع إليه . إذا كان ذلك شأن عمر ، وموقفه من الشر مع نفسه ، فإنه يرى أن مقام رسول الله ﷺ فوق أن يكون للشر فيه مكان .. ولأذنه منه موضع .. ولكن عظمة الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه - وسعة نفسه الشريفة ، كانت أقوى وأرحب من أن تضيق بمثل هذه الأمور التي قد يضيق بها أوسع الناس صدراً .. إنه بحر لا يُعَكِّر صفوه تلك العوارض التي تمرّ به .

ما يضير البحر أمسى زاخرا أن رَمَى فيه غلام بحجر 11

لقد كان صلوات الله وسلامه عليه ينزل من سمائه العالية إلى مستوى أصحابه يخاطبهم يخاطبة الصديق للصديق ، على أرض البشر ، ليُطِيب بذلك نفوسهم ، ويرضى مشاعرهم ، فيكون من ذلك سكن منهم إليه ، ومُدافاة منهم له .. ولو ظل النبي الكريم في سمائه العالية ، لانقطعت بينه وبين الناس الأسباب ، ولما تقبل من أقوالهم وأعمالهم إلّا ما يُسامت بهما النبوة ويَطُول آفاقها العالية .. الأمر الذي لن يكون أبداً ..

وعن سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - فيما رواه البخاري ومسلم

قال : دخل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - على رسول الله ﷺ ، وعنده نسوة من قريش يسألنه ويستكثرنه رافعات أصواتهن ، فلما سمعن صوت عمر انقمن^(١) وسكنن ، فضحك رسول الله ﷺ ، فقال عمر : يا عَدُوَاتِ أَنْفُسِهِنَّ ، تَهَبَّنِي وَلَا تَهَبْنِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، فقال : رسول الله ﷺ : « يا عمر ما لَئِيكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا جَفَا إِلَّا سَلَكَ جَفَاً غَيْرَ جَفَاكَ » .

والأمر هنا ، كما أشرنا من قبل ، هو سماحة رسول الله ﷺ ، ومداناته للناس ، وقربه منهم ، هذا القرب الذى لا يجور على شيء من مقام النبوة ، ولا يعكّر من صفو سمائها ، وحرص عمر على ناموس النبوة أن يطوف به طائف من غبار الحياة البشرية التى يتقلب فيها الناس .

هذا عمر فى نظرته إلى رسول الله ﷺ ، وفى موقفه من الأحداث الدائرة حوله ، فيما يكون بينه - صلوات الله وسلامه عليه - وبين الناس . . . المرأة ، والصرامة فى محاسبة الناس بين يدي رسول الله ، ومراجعة رسول الله ﷺ فى كثير من تلك الأمور ، كما فعل فى صلح الحديبية ، وكما كان منه حين صلى رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي بن سلول ، يوم مات . . . أرايت إلى موسى والعبد صالح ، وما كان منهما من تلك المنفارقات البعيدة فى نظرتهما إلى الأحداث ؟ .

لقد كان موسى يمشى على أرض الواقع ، وينظر إلى الأمور بعيني بشر سوى ، يقيسها برأيه ، ويحكم فيها بعقله ، على حين كان صاحبه يستعمل حكمه على الأحداث من عالم الغيب ، بما علمه الله من لدته .

ومن هنا كان هذا التصادم الحادّ المزلزل الذى وقع بين موسى وصاحبه ، والذى آدن بقطع الصحبة بينهما وهما على أول الطريق .

إن شيئاً كهذا كان فى موقف عمر من رسول الله ﷺ مما كان يعرض لرسول الله ﷺ من أمور .. لقد كان صلوات الله وسلامه عليه - بما آتاه الله تعالى من لدنه من العلم - يرى الأمور بنظرة شاملة تجمع بين مبادئها وخواتيمها ، نظرة تنفذ بها من ظاهر الأمر إلى باطنه ، على حين كانت نظرة عمر - مهما عمقت - لا تتجاوز الظاهر الذى تقف عند حدوده . قدّرات البشر ، وتنحصر عن أعماقه رؤى البصائر .

فلا عجب إذا كان الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - يجرى من الأمور أو يقبل منها ما يضيق به صدر عمر بما يراه عدواناً على حرّم النبوة ، وافتياناً على مقام النبي ا .

ثم لا عجب أن يكون من رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المواقف التى يحجب فيها عن عمر أموراً لو رآها فى حضرة النبي لأنكرها على أهلها ، ولقامت نفسه منها ، ولضاق صدره بها ، كما حجب عنه ما كان ينشده إياه الأسود بن سريع من شعر ا

ذلك هو أدب النبوة ، وذلك هو الأسلوب النبوى فى تربية أصحابه ، وفى أخذهم بالرفق واللين ، وفى سكبه الهدى قطرة قطرة فى عقولهم ، وقلوبهم ، دون أن يهجم عليهم بما لا تحتمله مدرّكاتهم ، ولا تتسع له صدورهم .

إن البحر هو الذى يستقبل ما تحمل الأنهار ، والجداول من ماء ، فلا تفسد طبيعته ، ولا تخرج به من حدوده ، على خلاف ما لو جرى الأمر .

بالعكس ، فكان البحر هو الذى يدفع بمياهه فى مجرى الأنهار والجداول ،
إنن لا حنواها فى كيانه ، ولذهب بكل معلم من معالمها .

روى البخارى ومسلم ، عن ابن عمر ، قال : لما مات عبد الله بن أبي
ابن سؤل ، جاء ابنه عبد الله إلى النبی صلى الله عليه وسلم ، فسأله أن يعطيه
قيصه ليكفنه فيه ، وسأله أن يصلى عليه ، فقام النبی صلى الله عليه وسلم ليصلى
عليه ، فقام عمر فأخذ ثوب النبی صلى الله عليه وسلم ، وقال : أتصلى عليه ،
وقد نهاك الله أن تصلى عليه ؟ فقال - الرءوف الرحيم - : « إنما خيرنى »
فقال : « استغفر لهم أو لا نستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة ، فلن يغفر
الله لهم » وسأزيده على السبعين ، قال : إيه مفاق !! فصلى عليه رسول الله
صلى الله عليه وسلم : فأنزل الله عز وجل : « ولا تصل على أحد منهم مات
أبدأ ، ولا تقم على قبره » .

وفى البخارى ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن عمر ، رضى
الله عنه ، قال لما مات عبد الله بن أبي بن سؤل ، دعى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ليصلى عليه - فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت
إليه ، فقلت : يا رسول الله أنصلى على ابن أبي ، وقد قاتل يوم كذا ، كذا
وكذا^(١) ، أعدد عليه قوله .. فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال :

(١) يشير عمر - رضى الله عنه - إلى ما كان من عبد الله بن أبي ، فى غزوة بدر
للصطاني ، والتي تسمى غزوة الرسيح ، من قوله يؤمئذ ، بعد أن حدث ما حدث من فتنه كاد يقتل
فها المهاجرون والأنصار : « لقد كاثرونا فى يائنا ، وكادوا يمحوننا غرباء فى بلدنا ، والله لئن
رجعنا إلى المدينة ليخرجن لأذن منها الأدل » . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم
بذلك ، وعلم أصحابه بما قاله ابن أبي : قال عمر : يا رسول الله لا تبعث إلى هذا المنافق من
يضر به ؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه ، « كلا .. أترى يا عمر كيف يقول الناس ،
مدينة أصحابه ؟ » وفى هذا نزل قوله تعالى فى عبد الله بن أبي وأصحابه المنافقين : —

آخر عني يا عمر ، فلما أكرثت عليه قال : أما إني خيرت فاخترت ، ولو أعلم أنني زدت على السبعين يغفر له زدت عليها ، قال فضلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم انصرف ، فلم يمكث يسيرا حتى نزلت الآيتان من براءة « ولا تصل على أحد منهم مات أبدا .. » قال : « فمجبت بعد من جراتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ » .

إن وقعة عمر هنا إنما هي صن برسول الله صلى الله عليه وسلم - حسب تقدير عمر - أن يعطى منافقا مثل عبد الله بن أبي غير ما يدعحق من غضب الله ولعنته ، وأن يلبسه الخزي حيا وميتا .. ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى وصنه ربه بأنه رؤوف رحيم ، لن يرض برأفته ورحمته على أحد من عباد الله ما وجد إلى ذلك سبيلا ؛ وهو - صلوات الله وسلامه عليه - انبوث هدى ورحمة للعالمين .. ولقد أصابه المشركون يوم أحد بجراح ، وقتلوا كثيرا من أصحابه ، ومثلوا بعمه حمزة ، ولو أنه دعا عليهم دعوة لأخذهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولكنه - صلوات الله وسلامه عليه - رفع وجهه إلى السماء ، وبسط يديه إلى ربه داعيا : « اللهم إهد قومي ، فإنهم لا يعلمون » وقد غفر - صلوات الله وسلامه عليه - لوحشى قاتل عمه حمزة ، كما غفر لهند بنت عتبة امرأة أبي سفيان

= « لكن رجعا إلى المدينة ، ليخرجن الأعرس منها الأذل » ، وقفة المؤنة ، ورسوله ، والمؤمنين » - وكان لبيد الله بن أدر ، ابن اسمه عبد الله ، وكان من أسدق الناس لرعايا ، ولما علم بمقالة أبيه ، رصد إياه على مشارف المدينة ، فلما دنا ليدخلها جرد ابنه سيفه ، وشهره في وجهه ، وقال له : والله لا أدخلها حتى يأذن لك رسول الله ، لتعلم من الأذل ، ومن الأعرس ؟ فجاء إلى رسول الله يشكو به ، إليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دعه يا سيد الله يدخل ، وترقى به ا « .. » فاعظمك أيها النبي ، والله تعالى يقول فيك : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ويتول سبحانه « فبها رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . فاعف عنهم ، واستغفر لهم » .

وقد مثلت بعمه حمزة بعد قتله يوم أحد ، وبترت بطنه ، وانتزعت كبده ، ولاكت بعضاً منه في فيها نسفياً وانتقاماً ، لما أصيب به أهلها يوم بدر .

وعبد الله بن أبيّ ، وإن كان على رأس المناقنين ، فإن ابنه عبد الله من خيار أصحاب رسول الله ﷺ ، ولقد جاء يوماً إلى رسول الله ﷺ يسأله أن يضرب عنق أبيه ، فدعاه رسول الله ﷺ أن يرفق بأبيه ، ويحسن صحبته .

فإذا استجاب رسول الله ﷺ لدعوة هذا الإبن المؤمن التقي ، بالصلاة على أبيه ، طامعاً في أن يغفر الله تعالى بهذه الصلاة ما كان من أبيه - كان ذلك مما تسمح به نفس النبي ، وتسجيب له .. عزاء لهذا الصحابي في أبيه .. ثم من يدري ، لعل الله تعالى أحسن خاتمة هذا المنافق ، فكأن منه توبة خالصة لله ، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .. ولعل هذا هو بعض السر في أن النهي للنبي عن الصلاة على المناقنين لم يحمى إلا بعد أن صلى رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبيّ ، وذلك لإرادة نافذة وفرد مقدور ، حتى يصلى النبي ﷺ على عبد الله بن أبيّ هذا ، ثم لا يصلى على أحد من المناقنين بعد هذا .. ولو كان عبد الله بن أبيّ هذا ممن لا يجوز للنبي أن يصلى عليهم ، لجاء النهي قبل موته ، أو لنزلت الآية حين دعى الرسول إلى الصلاة عليه . فإن الصلاة هنا مما يتصل بأمور الدين التي إن أخذ النبي باجتهاده فيها ، وكان في اجتهاده ما لا يجوز العمل به ، جاء الوحي السماوي من الله سبحانه وتعالى لإقامة اجتهاد الرسول ﷺ على الوجه الصحيح .. أما أن يترك النبي يمتضى اجتهاده على وجه غير جائز ، ثم يحمى الوحي بتصحيحه - فذلك ضرب من العنوبة للنبي ، ووجه من وجوه إعفائه ، الأمر الذي لا ياتقى بوجه من الوجوه مع مقام الرسول

الكريم عنده ، ذلك المقام الذى يعلو به فوق هامات المقربين من أولياء الله وأحبابه . وإلا فكيف يكون صنيع الله تعالى بأعدائه ؟ وهل نافع أن يترك المرء يتخبط في طريقه إلى غاية من الغايات ، والدين الحارسة له تدعه يمضى في هذا الطريق ، حتى يضل ويتوه ، ثم تقول له تلك العين الحارسة ، إنك كنت مخطئاً ، وإن الطريق الذى ركبته هو طريق الخاطئين ؟

لقد كانت عين الله دائماً ترقب رسول الله ، وترعاه ، وتسدد خطاه ، وتقيم وحبه على الحق دائماً .. فلا يحطو خطوة إلا على طريق الحق ، سواء كان ذلك باجتهاد منه ، أو بتوجيه الوحي السماوى له ..

ويحضرنا هنا أكثر من شاهد لهذا ..

فالذين بنوا مسجد الضرار ، حينما أتموا بناءه ، جاءوا إلى النبی ﷺ فقالوا إنا قد بنينا مسجداً لله ، يصلى فيه من تدركه الصلاة ، ويظل به العريب ، وإنا ندعوك أن تصلى لنا فيه .. وكان الرسول صلوات الله وسلامه عليه قد تجهز للخروج بالمسلمين إلى غزوة تبوك .. فقال لهم : إني على جناح سفر ، فلو قدمنا أتيناكم إن شاء الله ، فصاينا لكم فيه .

فهذا اجتهاد من الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لترك فيه وشأنه - لصلى في هذا المسجد ، بعد أن عاد من تبوك ..

ولكن الله سبحانه وتعالى يعلم حقيقة هذا البناء الذى أقامه المنافقون ، وسموه باسم المسجد ، في حين أنه مأوى منافقين ، ومجتمع ضلال ، الأمر الذى لا يجوز للنبي أن يغشاه - فكان أن نزلت آيات الله تنهى النبي عن الصلاة في هذا المسجد قبل أن يتجه إليه ، وتكشف عن وجهه المنكر قبل أن يستجيب لدعوة الداعين إلى الصلاة فيه ، وذلك في قوله تعالى : «والذين

اتخذوا مسجدا ضارارا ، وكفرا ، وتفرقا بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون .. لا تقم فيه أبداً لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ... » وبهذا قامت حاية سماوية لرسول الله ﷺ من أن يضع قدمه في هذا المكان الذى أقيم للكيد للمسلمين ، ولم يترك النبي حتى يصلى ، ثم يحىء الوحي منها إلى ما وقع فيه النبي ﷺ من خطأ بالصلاة في هذا المكان ..

مخلص من هذا إلى القول بأن عمر بن الخطاب ، كان في مواقفه تلك التى ينلهم فيها على وجهة غير وجهة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - كان واقعاً تحت مشاعر قوية ضاغطة عليه من تعلقه برسول الله ﷺ ، وحرصه على أن يكون رسول الله دائماً حيث هو في مقامه الجليل الرفيع ، الذى رفعه إليه ربه ، وأن على الناس أن يرتفعوا إلى هذا اللقاه ، وأن يسعوا إليه ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى ينزل إلى مستواهم ، ويمشى على أرضهم ..

هذا ما كان من مواقف عمر من رسول الله ﷺ فيما هو من شأنه النى مع الناس ، ومن شئون الناس معه .. أما ما كان من شأن النبي ﷺ ، مع ربه .. وفيما ينصل بصميم العقيدة أو الشريعة ، فقد كان عمر على الولاء المطلق ، والتسليم الكامل ، يقبل الأمر كما هو ، لا يسأل ، ولا يتوقف ، ولو كان الأمر داعياً إلى مراجعة واستنصار ..

روى أبو داود في سننه عن أبي هريرة قال : « صلى بنا رسول الله ﷺ ، إحدى صلاتي العشي - الظهر أو العصر - قال ، فصلى بنا ركعتين ، ثم سلم ، ثم قام إلى خشبة في مقدم المسجد فوضع يديه عليها ، إحداها على الأخرى ، يعرف في وجهه الغضب .. ثم خرج سرعان الناس ، وهم يقولون :-

« قمصت الصلاة ، وفي الناس أبو بكر وعمر ، فهاياه أن يكلفناه ، فقام رجل كان رسول الله ﷺ يسميه ذا اليدين ، فقال : يا رسول الله .. أنسيت أم قصرت الصلاة ، فقال : « لم أنس ولم تقصر الصلاة » .. قال : بل نسيت يا رسول الله ، وأقبل رسول الله على القوم فقال : « أصدق ذو اليدين ؟ » فأومئوا ، أي نعم ، فرجع رسول الله إلى مقامه فصلى الركعتين الباقيتين ثم سلم ثم كبر وسجد مثل سجوده أو أطول ثم رفع فكبر » .

والشاهد من هذا ، أن عمر كان من بين المصلين مع النبي ، ولا شك أن كثيراً من الخواطر والتساؤلات دارت في رأسه ، ولكنه وقد وجد نفسه مع أمر هو من خاصة النبي وحده فيما يتلقى من ربه من شريعة الدين ، فإنه لم يجرؤ على أن يسأل النبي : لم صلى هذه الصلاة الرباعية ركعتين ؟ وهل كان ذلك عن سهو أم أن أمراً سماوياً قد نزل عليه بقصد الصلاة ؟ لم يسأل عمر ، وانتظر أن يبين رسول الله ﷺ حقيقة هذا الأمر ، ويكشف المسلمين عنه .. ولا يحسب إن عمر ترك ذا اليدين يسأل سؤاله هذا من غير أن يهم بمساورته ، وردعه ، أو أن تناارعه نفسه بالوثوب عليه ووضع يده على فمه كما كان يفعل دائماً في مثل هذه المواقف !

وأمر آخر من عمر ، وهو تقبيل الحجر الأسود .. فلقد رأى عمر أن النبي ﷺ يقبل هذا الحجر في طوافه بالكعبة ، فلم يسأل عمر النبي - صلوات الله وسلامه عليه - في هذا ، إذ عده من أمور الدين ، فكان عمر يقبل الحجر ، ويقول أنا أعلم أنك حجر ، لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يتبأك ما قبلتك !

وهكذا كان عمر ينفق بين ما هو من أمر السماء متصل بالدين ، وما هو من شئون الحياة متصل بالدنيا !!

الفصل الثاني

في السلم والحرب

بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، بدأ بوضع اللبنة الأولى في بناء دولة الإسلام ، فكان أول ما بدأ به أن آخى بين المهاجرين . ثم آخى بين المهاجرين والأنصار .. فكان لكل مهاجر أخوان .. أخ من المهاجرين ، وأخ من الأنصار .. أخوة في دين الله ، يملأ بها المسلم فراغ مشاعره التي خلت من مشاعر الأخوة وعلائق النسب التي قطعها الإسلام بين المسلمين وذوي قرابتهم من المشركين .. هذا إلى الأخوة العامة التي تجمع المسلم إلى المسلمين جميعاً ..

أما عمر فكان أخوه من المهاجرين الذي آخاه به رسول الله ﷺ ، أبا بكر .. وكان أخوه من الأنصار عتب بن مالك من بني سالم ابن عوف ..

وقد أثمرت هذه الأخوة بين أبا بكر وعمر ، ثمرة مباركة ، فكانا أشبه بكيان واحد ، في مكانهما من رسول الله ﷺ وقربهما منه ، وتأسيهما به . وقياهما على أمر المسلمين من بعده .. فاختصا من بين المسلمين جميعاً بأن ضمهما قبر واحد إلى جوار رسول الله ﷺ .

أما أخوة عمر لعتبان بن مالك . فلم يذكر التاريخ شيئاً ذا بال عن عتب بن مالك هذا .. ولربما يكون قد مات في زمن متقدم ، فلم يشارك

في أحداث الإسلام ، وفي غزوات الرسول ، ولم يشهد يوم السقيفة ، وبيعة أبي بكر بالخلافة .. ولكن الذى قطع به أن عتب بن مالك كان أشكل الناس وأشبههم بعمر بن الخطاب ، إذ كان رسول الله ﷺ إنما يواخى بين المتوافقين خلقاً وطبيعة ..

لم يكن عمر ممن برزوا من أبطال المسلمين في الحرب ، شأنه في هذا شأن أبي بكر ، حيث لم يعرف لها ماعرف لعلى ، وطلحة ، والزبير ، وحزة وغيرهم من النكابة بالعدو في ميدان القتال .. وليس هذا لأنهما لم يكونا ذوى بأس وقوة ، أو لأنهما كانا يضنان بأنفسهما عن الاستشهاد في سبيل الله ، ولكن الذى حجزهما عن الضرب بسيفهما في وجوه المشركين ، هو أنهما كانا وزيرين لرسول الله ﷺ وأنه - صلوات الله وسلامه عليه - كان يضمن بهما عن تلك المواقف ، ليكونا إلى جواره ، كما أن ذلك كان أَرْضَى لهما حيث يظللان إلى جوار رسول الله ، يدفعان عنه كل خطر يطوف به .

عن محمد بن عقيل ، عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أنه قال يوماً وهو في جماعة من الناس : من أشجع الناس ؟ قالوا أنت يا أمير المؤمنين .. قال : أما أنى ما بارزت أحداً إلا انتصفت منه .. ولكن أشجع الناس أبو بكر .. لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله ﷺ عريشاً ، وقلنا من يكون مع النبي ﷺ لئلا يصل إليه أحد من المشركين .. فوالله ما دنا منه أحد إلا أبو بكر شاهراً السيف إلى جوار رسول الله ﷺ .

وروى ابن إسحاق في تاريخه أنه بينما كان رسول الله ﷺ بالشعب يوم أحد مع أولئك النفر من الصحابة ، إذ علت عالية من قريش الجبل ،

يقال ﷺ : « إنه لا ينبغي أن يملونا » فقام عمر ورهط معه من المهاجرين حتى أنزلوهم من الجبل .

فأبو بكر وعمر — رضى الله عنهما — لم يضا بنفسيهما عن الموت في سبيل الله ، وفي سبيل الدفاع عن رسوله ، ووقايته بحياتهما . . . ولكن رسول الله ﷺ كان يرضن بهما عن موطن الخطر ، إذ كان البلاء بهما عظيما ، وخالو مكانيهما من جوار رسول الله ﷺ لا يقوم أحد بملكته بعدها .

عن السيدة عائشة رضى الله عنها قالت « لما خرج أبى شاهرأ سيفه راكبأ راحلته ، يعنى يوم الردة جاء على بن أبى طالب ، فأخذ بذمام راحلته ، فقل : إلى أين يا خليفة رسول الله ﷺ ؟ أقول لك ما قال رسول الله ﷺ يوم أحد : شم سيفك — أى أعده — لا تفجعنا بنفسك فارجع إلى المدينة ، والله إنن أصبنا بك لا يكون من بعدك نظام أبداً . . فرجع » .

والذى يسير إليه على بن أبى طالب — كرم الله وجهه — من قوله ﷺ لأبى بكر يوم أحد : « شم سيفك لا تفجعنا بنفسك » هو ما ذكره أصحاب السير من أن عبد الرحمن بن أبى بكر — وكان مع المشركين يوم أحد — خرج شاهراً سيده ، يدعو إلى النزال ، فقام إليه أبو بكر يريد أن يلقاه مبارزاً . فقال له النبي ﷺ : « يا أبا بكر ، شم سيفك ، لا تفجعنا بنفسك » . .

نعم كان أبو بكر وعمر وزبرين لرسول الله ﷺ ، فى السلم وفى الحرب . ومن هنا كانت لها تلك السكامة المسووعة فى كل أمر يعرض لرسول الله ﷺ . فما عرض له صلوات الله وسلامه عليه أمر لم ينزل القرآن الكريم بحكم فيه إلا كانا على رأس من يستشيرهم النبي فيه ، ثم يمتنى الأمر على ما اجتمع عليه رأى أصحابه ، وارتضوه . .

وكان عمر رضى الله عنه في هذا المقام أكثر أصحاب رسول الله ﷺ مشورة عليه، إن لم يستشره رسول الله ﷺ، عرض هو عليه الأمر، وأراه رأيه فيه ..

وقد كان رسول الله ﷺ ينزل رأى عمر من نفسه منزلة خاصة، أنه كان يعلم أنه من الחדثين، وأن الله تعالى قد جعل الحق على لسانه وقلبه .. كما يقول صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه أحمد في سننه. عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه .. » .

روى الترمذى عن على كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ قال : « رحم الله عمر يقول الحق وإن كان مرأاً، تركه الحق وماله من صديق » ١١

وليس ينبغي أن يفهم من قول رسول الله ﷺ : « إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه » أن عمر معصوم من الخطأ، وأنه لا يقول ما لا يمكن أن يكون بمظنة الخطأ .. وكلا، فإن عمر قبل كل شيء بشر خالص البشرية، لا يوحى إليه، وإن كان من الחדثين أى للمهمين. ذوى القرينة اللماحة، والبصيرة النافذة - ولكن الذى يفهم من قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه، هو أن عمر قد برىء من النفاق، وأنه لا يجرى على لسانه إلا ما يعتقد في قلبه، وأنه لا يعتقد في قلبه إلا ما يراه حقاً، وصدقا، وما يغلب على ظنه أنه الصواب، وإن كان خطأ .. فهو خطأ مجتهد، يتحرى مواقع الحق، والعدل، وينشد طريق الصواب .. ولهذا كان قول رسول الله ﷺ : « إن الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه » كان هذا شهادة من رسول الله ﷺ عن وحي من ربه بأن عمر

قد برىء براءة تامة من النفاق ، وأن هذا الداء لا يجد له سبيلا إلى عمر ..
فما يقول عمر بلسانه قولا إلا إذا كان هذا القول كاشفا عما في قرارة
قلبه .. وهذا على غير ما يقول للتناقضون الذين يقولون بأنفواهم ما ليس
في قلوبهم ..

ومن هنا كانت الصراحة المطلقة في حياة عمر هي الخط الواضح في
شخصيته ، وهي مظهر القوة النفسية والشجاعة القلبية لعمر ، ولما وقفه الائمة
التي لا تقبل شيئا من المودة أو اللين فيما هو حق ، أو فيما يراه هو أنه
حق .. سواء أ كان في سلطان رسول الله ﷺ ، أو في إمرة أبي بكر
رضي الله عنه ، أو كان هو صاحب السلطان .. إنه لا يعرف الجمالة أو اللين
في طريق الحق .. فالحق عنده طريق مستقيم أشبه بالخط الهندسي ، إذا
أنحرف قيد أنملة تغير وجهه ، وتبدلت حقيقته .. وقد كان هذا الخلق العنيد
المتين في الانتصار للحق سببا في ضيق كثير من النفوس المربضة من عمر ،
ومن ازوارها عنه ، ونفورها منه ، وعدم السكن إليه .. ذلك أن الحق
مر لا يستسيغه للناس عامة إلا على كره ، وإلا مع معاناة ومشقة .. ولهذا
كان التلطف واللين سياسة من سياسة الحكماء ، والقادة والمصلحين ، بل كان
أدبا من أدب السماء لأنبياء الله ورسله في مواجهة للناس بالحق ، وفي دعوتهم
إليه وأخذهم به ، أشبه بالدواء الناجع لمن ألم به عارض من علة ..
يقول الله تعالى لنبيه الكريم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة
وجادلهم بالتى هي أحسن » ويقول جل شأنه في وصف الرسول الكريم ،
وأسلوب دعوته الذى جمع به القلوب إليه : « ولو كُنتَ ظفرا غليظ القلب
لا نفضوا من حولك .. فاعف عنهم ، واستغفر لهم وشاورهم في الأمر » (٩) ..

() ٢ عمران الآية ٥٩ .

رُوى أن عمر بن عبد العزيز - رضى الله عنه - كان يقول : « والله
إني لا أريد أن أخرج لهم - أى للناس - بالمرّة من الحق ؛ فأخاف أن
يففروا عنها ، فأصبر حتى تجيء الخلوة من الدنيا ، فأخرجها معها . . فإذا
نفروا لهذه ، سكنوا لهذه » . . ويقول أبو الدرداء رضى الله عنه : « إني
لأستجم نفسى بالشئ من الباطل أستعين به على الحق » ! والمراد بالباطل
هنا ما كان من اللّهم بحوائش الباطل ، دون اقتحامه ، كما يشير إلى ذلك
قوله تعالى : « وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ،
والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ^(١) »

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقد كان على طبيعة واحدة مع
الحق ، لا يعرف فيه هوادة ولينا ، ولا يقبل مهادنة ، أو موادعة معه ...
فالأمر عنده ، حق ، أو لا حق .

فرجلٌ جعل الله الحق على لسانه وقلبه ، ورجل أوتى من شجاعة
القلب ، وثبات الجنان ما يجعله يجهر بكلمة الحق ، ولو كانت مرّة ، ولو
أثارت عليه السداوة والبغضاء - رجل كهذا وذلك رأى البى ﷺ
فيه - لا بد آخذ مكانه من قلب رسول الله وسمعه ، وأن يكون عنده
الرجل الذى يدعى لمهمات الأمور ، ويلتفت إليه حين لم يكن إلا القطع
والحسم .

وكذلك كان عمر . . فاعرض للسدين أمر فى حياة الرسول - صلوات
الله وسلامه عليه - إلا كان لعمريه مكانه ، ورأيه ، وحسابه ، وإلا
كان موقفه حيث وقف ، هو الإشارة إلى الموقف الذى ينتهى إليه أصحاب

الخلق بعد أن تميمهم وسائل اللين واللفظ ، وإن كان عمر يأخذ هذا الموقف
للبتداء لم يعالجه بشيء من لين أو لطف .

وهنا نحب أن نقف قليلاً عندما كان من مشورة النبي ﷺ لأصحابه
في كثير من الأمور ، والمواقف التي ربما وقع في ظن بعض الناس أن هذه مما يُنزل
من مقام النبوة ، وأن النبي لو كان موصولاً بالسما لا احتاج إلى مشورة
أحد ، ولا استبانت له الأمور على وجهها الذي هو أعدل وجوها ، من غير
استعانة بمشورة أحد أو نظير في رأي أحد .. وأما والنبي يعرض له الأمر
خيالاً من حوله عن وجه الرأي فيه ، ثم يأخذ بما يُشار عليه به فهذا من
شأنه أن يجعل كثيراً من الظنون والشكوك تحوم في قلوب الذين في قلوبهم
مرض حول القول بعصية النبي ، وبأنه ما ينطق عن الهوى .. وذلك ظن
الجاهلية الذين لا يعرفون طبائع الناس . ولا يحسنون شيئاً من سياسة
النفوس وديارها ، ولا يدرون الطريق إلى جذب القلوب وتألقها ، ثم هم
من جهة أخرى أبعد ما يكونون من التهدي إلى وظيفة الرسول ، وإلى
كفوى رسالته التي غايتها مداواة أدواء النفوس والاستشفاء لعلل القلوب ..
الأمر الذي لا يكون إلا مع الحكمة والموعظة الحسنة ، ومال المشورة في هذا
المقام من فتح مغالقات العقول والقلوب والنفوس ، وشدها إلى من يستشورها .
ويطلب حضورها في كل أمر يعينها ويعنى من استشارها ، حيث يرفع ذلك
من شأنها عند نفسها ، ويعلوها إلى ألا تكون من الإجماعات الذين
يضيع وجودهم في دنيا الناس .

ومهمة الرسول الكريم إنما تقوم أساساً على إبراز معالم الإنسانية الكريمة
في الإنسان ، لتبني به وبأمثاله تلك الأمة التي وصفها الله تعالى بقوله : « كُنْتُمْ
خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ »^(١)

ولهذا ، فإن رذبا على الذين ينكرون على الرسول - وهو رسول مؤيد
 بوحى السماء - أن تكون للشورة محملا من محامل رسالته . أن نقول :
 أولا : إن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - إلى جانب أنه
 رسول ، هو أيضاً بشر . ومن حق هذا الجانب البشرى منه أن يأخذ
 مكانه فيه ، وأن يؤدى وظيفته عنده ، وأنه إذا كان الله سبحانه وتعالى
 حمله ورسالته ، وزوده بما هو أهل له من علم ، وحكمة ، فإن ذلك لا ينفى
 أن يكون الرسول دائما موحى إليه من ربه بكل ما يقول ، وما يعمل من أمور
 الدنيا ، إن ذلك من شأنه أن يطل قواه للدركة ، ويأتى على كل جهد
 ذاتى له ، فيكون أشبه بمن يُغذى تنذية صناعية عن طريق الوريد ، دون
 أن يدخل فى جوفه طعام أو شراب عن الطريق الطبيعى من الفم والمعدة ..
 إنه سرعان ما تضمر أجهزته الهضمية ، ثم لا تلبث أن تقسد ، ولا تصلح
 لاستقبال طعام أو شراب .

... فكان من تدبير الحكيم العظيم أن أعطى النبي الكريم حقه كاملا فى
 هذا المقام ليحيى حياته البشرية الكاملة نحو ما يحيا البشر حياتهم فى أرفع
 مستوى وأعلاه ، ثم جعل له إلى جانب ذلك حياته النبوية الخاصة الخاصة
 التى يلقى فيها ما يتلقى من أنوار الحق فيما يوحى إليه من ربه ، لا يشاركه
 فيه أحد من أمته .

وثانها : إن نزول النبي الكريم إلى هذا المستوى البشرى ، الذى
 يلقى فيه مع أصحابه ، ويتبادل فيه الرأى والشورة فيما يمرض من أمور ،
 هو تدريب عملى للمسلمين على مواجهة الحياة على امتداد الأزمان ، وعلى
 التصرف على وجوه الأمور التى تمرض لهم بما يجد من صور الحياة وأحداثها .

جما لم يكن للشرية رأى فيه . . إذ أنه من الحال أن تحمل تلك الشريعة
للجماعة الخالدة كل ما تله الحياة من أحداث على مر الأزمان ، وإن جاءت
بالمبادئ العامة التي تؤمى إلى الجزئيات التي تندرج تحتها هذه الأحداث
دون أن تكشف عنها ، الأمر الذي يحتاج إلى رأى ، ونظر ، ومشورة ،
وبهذا يظل المسلمون متصلين بالشرية قائمين على مواردها ، يلقون
ببلاهم فيها ، يأخذون ما يفتح الله لهم منها من أنوار هداية
ورحمته . . .

وثالثا : قامت هذه الشريعة على أساس من العقل ، وإنه لفرض على
أمن يدين بها أن يستعمل عقله في كل ما يعرض له من أمور دينه ، عقيدة
أو شريعة ، دون أن تقوم عليه وصاية من أحد بعد كتاب الله وسنة
رسول الله .

ومن هنا كان أمر الله سبحانه وتعالى لقلبه بمشورة أصحابه ، وتداول
الرأى معهم ، إقراراً لهذا الحق للمؤمنين ، وم في حضرة رسول الله ﷺ
وفي هذا يقول الله تعالى : « فبإذنه من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ
القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم في
الأمر . . فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » (١)

فاستشارة النبي للمسلمين اعتراف لهم بحق النظر معه ، وفي هذا تكريم
للإنسان ، وللعقل الذي كرمه الله تعالى به ، الأمر الذي لا ينبغي لأحد أن
يفرط فيه ، كما لا ينبغي لحاكم أياً كان أن ينكره على أى فرد من أفراد
الجماعة التي تحت سلطانه ، بعد أن وضع الرسول الكريم هذا الحق في يدها
بأمر من ربه !

رابعاً : هذا التشاور في الأمر بين النبي - صلوات الله وسلامه عليه - وبين جماعة المؤمنين ، إنما هو فيما لم يكن لله سبحانه وتعالى ، أو لرسوله حكم قاطع فيه .. فإذا كان ذلك عن أمر من الله ورسوله لم يكن ثمة مجال للمشورة ، ولم يكن لمؤمن ولا مؤمنة إلا الامتثال والقبول ، دون تردد ، أو توقف .. والله سبحانه وتعالى يقول : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يصح الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ^(١) » .

خامساً : ليس من الحتم اللازم في كل أمر يُعرض للشورى أن يقع التشاورون على الرأي الصحيح فيه .. فقد يُصيبون وقد يخطئون ، وإن كانت مواقع الصواب أكثر من الخطأ .

إن المشورة عمل بشري ، وأعمال البشر غير منزهة عن الخطأ .

ومع هذا ، فإن خطأ المشورة أحسن من صواب التفرد بالرأي ، والاستبداد به ، إذ كان ما ينجم عن خطأ المشورة من ضرر واقعاً على الجماعة كلها ، فتشمل تبعاته وتتقاسم آثاره الضارة ، فيخفّ بمحله ، ويهون ضرره ، وليس كذلك ما يكون من صواب الرأي المتفرد المستبدّ ، وما يجنى من ورائه من ثمرات طيبة .. حيث تُفقد فيه المشاركة الوجدانية ، فتقع آثاره فاترة باردة ، لا يكاد يشعر بها أحد . أما إذا وقع الأمر الذي لم يخرج عن مشورة ، موقع الخطأ ، فإنه يقع على من استبدّ به وحده ، فلا يجد من أحد عذراً ولا يستقبل من نظرات الناس إليه إلا النظرات اللائمة أو الشامتة ، وإلاّ الملوب المليئة بالنكراهية والضعينة .. الأمر الذي يجعل مقامه في الجماعة حرجاً مضطرباً .. فإذا كان ذلك الإنسان على رأس الجماعة ، والتصرف في

شئونها كانت عثرته التي تقع عن غير مشورة خطبها بلاؤه . دون أن يشارك أحد في إصلاح ما فسد !!

وعلى هذا ، فإنه ليس بالمستبعد أن تجيء المشورة التي يجرىها النبي ﷺ على غير الوجه الصحيح ، لأنها كما قلنا عمل بشري ، اشترك فيه النبي — صلوات الله وسلامه عليه — ببشرتيه ، لا بنبوته ، لأنه بنبوته ﷺ ، لا يحتاج إلى أن يشارر .. أما وقد عُرض الأمر معرض المشورة ، فعنى هذا أنه أمر لا تتدخل فيه السماء ، بل تدعه للناس يقضون فيه بما يدلهم عليه تفكيرهم وتقديرهم .

عن معاذ بن جبل ، أن النبي ﷺ لما بعثه إلى اليمن ، استشار ناسا من أصحابه ، فيهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ، وأسيد بن حضير ، فقال أبو بكر : لولا إنك استشرتنا ما تكلمنا ، فقال النبي ﷺ : « إني فيما لم يوح إلى كأحدكم » فحكّم كل إنسان برأيه . . . فقال رسول الله ﷺ :

« ما ترى يا معاذ ؟ » قال : أرى ما قال أبو بكر ، فقال ﷺ : إن الله يكره من فوق سـائه أن يُخطأ أبو بكر ، أو قال أن يُخطئ أبو بكر » !!

والأمر الذي يصدر عن مشورة واجتهاد لا يمكن أبداً أن يكون موضع لوم أو مؤاخذه مهما كان الوجه الذي صدر عنه ، ومهما كان من الخطأ والبعد عن الصواب ، لأنه غاية الجهد والإنسان ، ومبلغ ما بلغ العقل من الإحاطة به .. والله سبحانه وتعالى يقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » غاية ما هنالك هو أن ما يقع من الرسول — صلوات الله وسلامه عليه —

من خطائي رأيي صدر عن المشورة أو الاجتهاد ، لا يمضي هكذا من غير تصحيح ، بل إنه سرعان ما يأتيه وحى السماء كاشفاً عن الوجه الصحيح له .

هذا ويلاحظ أن هذا التصحيح يحىء أكثر ما يحىء - كما يقول المفسرون والفقهاء - في صورة عتاب للنبي ﷺ وأنهى له عن العودة لمثل هذا الأمر أو استبعاد لأن يقع منه هذا الأمر ... وذلك كما في قوله تعالى : « عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لَمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ^(١) » وقوله سبحانه : « وَلَا تَصِلْ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ .. إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَانُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ^(٢) » . وقوله جل شأنه : « مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَشْخَنَ فِي الْأَرْضِ تَرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ، لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمُسْكُمْ فَمَا أَخَذْتُمْ عَذَابَ عَظِيمٍ ^(٣) » .

وقد ذهب كثير من المفسرين والفقهاء إلى أن هذه الآيات وأمثالها هي عتاب للنبي ﷺ بل ذهب بعضهم إلى أنه عتاب يبلغ حد المؤاخظة، ولهذا جاء مشفوعاً بالمغو والمغفرة .

وهذا ما لا يقبله منطق ، فضلاً عما فيه من العدوان على مقام النبوة ، ووضع النبي ﷺ موضع الاتهام والتقصير .

والنبي - صلوات الله وسلامه عليه - فيما يتصرف فيه أو يقضى به مما لم يأمر الله به أو لم ينه سبحانه وتعالى عنه ، هو في هذا كسائر حكام الناس وحكامهم . ليس له إلا أن يتدخل رأى أصحابه ، ويجهد رأيه ،

(١) التوبة الآية ٨٤ .

(٢) التوبة الآية ٤٣ .

(٣) الأعدال الآية ٦٧ .

ويتحرى ما استطاع الرأى الصحيح .. وهو الحمود فى كل حال ، أصاب أو أخطأ ، لأنه لم يميل مع هوى ، ولم يقصد إلى بنى أو ظلم ، وحاشاه — صلوات الله وسلامه عليه — أن يطلب غير الحق ، وأن يتجه إلى غير العدل والإحسان .. فكيف يُلام ، أو يُعاتب على أمر لم يدخر له من جهده شيئاً ؟ إن المقرر فى الشريعة الإسلامية ، هو أن « من اجتهد فأخطأ فله أجر ، وإن أصاب فله أجران » .. وهذا هو الحق والعدل .. إن له على أى حال أجر ، هو أجر اجتجاده وطلب وجه الحق .. فإن هو أخطأ فلا عليه ، ويبقى له أجر اجتجاده ، وإن أصاب كان له أجر اجتجاده ، مضافاً إليه الصواب الذى وفق إليه ، والحق الذى اقتصر له فكيف لا يكون لرسول الله ﷺ هذا الأجر فى اجتجاده ، إن أصاب أو أخطأ ؟ وكيف يتحول الأجر إلى لوم أو عتاب ؟ ذلك ما لا يقبله عقل ، ولا يتسع له منطق بحال أبداً !

ثم إن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » والسيئة هنا هى ما يسوء النبىؑ فى نفسه ، أو فى أصحابه كما حدث فى وقعة أحد .. وليس على النبىؑ فى هذه الموقعة من لوم أى لوم ، بل إن الحمد كل الحمد له ، والثناء كل الثناء عليه ﷺ ، لما كان منه من بلاء وصبر ، حتى ثبَّت وحده فى وجه المشركين ، والرماح فتوشه ، والسيوف تموم حوله ، وليس معه إلا نفر يعد على الأصابع من أصحابه الذين ثبتوا معه .. وواضح من الآية للكريمة أن النبىؑ الكريم — صلوات الله وسلامه عليه — قد يقع له ما يسوؤه ، لا ما يُعد ذنباً عليه — نتيجة رأى رآه ، أو عمل عمله ، حسب ما أداه إليه رأيه واجتجاده تماماً كما يحدث لأى قائد أو زعيم صدر فى عمل من أعماله عن رأى أصحابه ،

ثم وقع لهم من الأمر ما يسوء .. إن ذلك هو كسب إيديهم وغاية اجتهدهم! ونعود فنكرر القول بأن هذا كله فيما يتصل بأمور الدنيا ، وتقلب الناس فيها ، أما ما يتصل بأمور الدين فإنه - صلوات الله وسلامه عليه - لا يقول إلا ما يأذن الله له به ، من دينه .. فإذا تأول أمراً من أمور الدين ثم كان على غير ما يريد الله تعالى أن يكون من شريعة - إذا حدث شيء من هذا جاء الوحي إلى رسول الله ﷺ بما هو الحق من دين الله في هذا الأمر .

روى أن أوس بن ثعلبة الأنصاري ظاهر من زوجته ، أى قال لها : « أنت على كظهر أمي » وكان هذا من طلاق الجاهلية . ثم ندم أوس على ما حدث ولكنه اعتزل زوجته ، وقال لها لقد حرمت على .. فجاءت المرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : يا رسول الله : إن أوساً ظاهر مني وهو زوجي ، وأبو عيالي .. فقال لها ﷺ : ما عندى شيء لك .. وما أراك إلا قد حرمت عليه .. فجعلت المرأة تراجع رسول الله ﷺ ، وتقول ، إن أوساً لم يرد طلاقاً وقد ندم على ما كان منه .. وهو أبو عيالي : إن تركتهم صاعوا ، وإن أخذتهم جاعوا ورسول الله ﷺ يقول لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه .. ثم أخذ النبي ﷺ ما يأخذه من الوحي .. فلما قضى الوحي ، قال أين المرأة ؟ فقالت ها هنا يا رسول الله ؟ فقال لها - صلوات الله وسلامه عليه - « ادعى زوجك فدعته ، فتلا عليه الرسول الكريم الآيات الأولى من سورة المجادلة التي نزلت عليه في هذا الحدث . وهي قوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم . إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور .. والذين يظاهرون من

نساءهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يمتاعها ذلكم توعظونكم به والله بما تعملون خبير .. فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يمتاعها فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم^(١) ثم قال له - صلوات الله وسلامه عليه - « اعتق رقبة » فقال : لا أجد : فقال « فصم شهرين متتابعين » فقال : لا أستطيع ، إني إذا جمعت كل بصرى وخشيت أن تعشى عيئى .. فقال : « فهل تستطيع أن تطعم ستين مسكينا » : فقال : لا ، والله إلا أن تعيننى . على ذلك ، فأعان رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً .

وقد يسأل سائل :

وما تأويل الآيات التي تكاد تصرح باللوم ، أو العقاب .. في مثل قوله تعالى : عفا الله عنك لم أذنت لهم ! وقوله تعالى : « وما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » ، وقوله تبارك اسمه « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » ... ما تأويل هذا ؟ ونقول — والله أعلم — .

إن هذا الذى يلوح من لوم أو عتاب ، هو فى صميمه موجه إلى أولئك الذين أخذهم رسول الله ﷺ باللين والرفق ، وأنهم ليسوا أهلاً للين أو الرفق .. فالنبي — صلوات الله وسلامه عليه — إنما يلقي هذا العتاب من ربه ، فى صورة حمد له ، وتخليقه الكريم ، على حين أن هذا تجريم لمن عوتب النبي فى شأنهم .. وذلك مثل قوله تعالى « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » وقوله سبحانه « فملك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » فهذا وإن بدا فى ظاهره أنه نهى ، ولوم ، أو عتاب ، هو فى صميمه حمد ومدح .

موتناه على رسول الله ﷺ ، وعلى ما طبع الله تعالى نفسه الشريفة عليه ، من لين ورحمة وإحسان ، وهو مثل قولك في عتاب إنسان نبيل كريم أتحنس إلى هذا الذي يفسده الإحسان ! أتعفو عن هذا الذي لا يعرف قدر العفو؟ وذلك في مواجهة أهل اللوم والخسة ، دون أن تتجه باللوم إليهم ، لأنهم ليسوا أهلاً لأن تتجه إليهم بحديثك ، استصغاراً لهم ؛ واستخفافاً بهم . فهؤلاء الأسرى يوم بدر من رهوس المشركين الذين أخذ رسول الله ﷺ بشورة بعض أصحابه فيهم ، يقبول الفدية منهم بدلاً من قتلهم ، هؤلاء يواجهون بعتاب النبي فيهم بأنه لم يقتلهم ، إنما يرون ما فعله النبي معهم كان فضلاً معه وإحساناً وشفاعة له مقبولة من ربهم فيهم ، ولا شك أن هذا من شأنه أن يضعهم أمام اللوم من أنفسهم ، وما تحمل من جرم غليظ يستحقون القتل عليه ، أما النبي ﷺ وأصحابه فيهم في هذا في مقام الحد والإحسان .. ولهذا يختمهم قول الله تعالى فيما أخذوا من فداء هؤلاء المشركين ﴿ فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً ﴾ فهل يتفق اللوم على أخذ الفدية والدعوة إلى أكلها حلالاً طيباً ؟

وأرانا قد أطلنا هذه الوقفة التي كنا نقدر أنها لا تطول إلى هذا المدى ، ولكن الذي حملنا على هذا - ونحن مع سيرة عمر بن الخطاب ، هو أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كان أبرز صحابة رسول الله ﷺ في مواقف المشورة ، وأنه كان ينفرد كثيراً بالرأى الذي يأخذ النبي ﷺ بغيره بما يراه أصحابه ، ثم يحيى القرآن موافقاً لرأى عمر ، مما عرف عنه أهل القرآن والفقه بمواقفات عمر .

ومن تلك المواقفات ، مما كان في أسرى بدر ، وما كان من رأى عمر في قتلهم ، دون قبول الفدية منهم .

ففي صحيح مسلم عن ابن عباس ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. قال : لما كنا يوم بدر قال رسول الله ﷺ : ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ فقال : أبوبكر : يا رسول الله ، بنو العم ولعل الله يهديهم إلى الإسلام ويكونون لنا عضداً .. قال : فأتري يا ابن الخطاب ؟ قلت : يا رسول الله ما أرى الذي رأى أبو بكر ، ولكن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدهم ، فنضرب أعناقهم .. فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ، ولم يهو ما قلت وأخذ منهم الفداء .. قال عمر فلما أصبحت غدوت على رسول الله ﷺ فإذا هو وأبو بكر قاعدان يبكيان .. قلت يا نبي الله : أخبرني من أي شيء تمكم أنت وصاحبك .. فإن وجدت بكاء بكيت ، وإلا تابكيت لبكائكما . فقال : لقد عرض على عذابكم أدنى من الشجرة ، والشجرة قريبة حينئذ — فأنزل الله « ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

وقد روى البخاري هذا الحديث بهذا المعنى ، وزاد عليه قوله : « فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا — أي المسلمون — بما صنعوا يوم بدر من أخذهم للفداء ، قتل منهم سبعون ، وفر أصحاب رسول الله ﷺ عنه ، وكسرت رباحيته وجهمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه .. »

وفي مسند أحمد عن أنس بن مالك ، قال استشار النبي ﷺ الناس في الأسارى يوم بدر ، فقال : « إن الله قد أمكنكم منهم » ، فقام عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله أضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ .. ثم عاد رسول الله ﷺ فقال : « يأيتها الناس إن الله قد أمكنكم منهم ، وإنعام

إخوانكم بالأمس» ققام عمر فقال : يا رسول الله أضرب أعناقهم ، فأعرض عنه النبي ﷺ ، ثم عاد النبي ﷺ فقال للناس مثل ذلك ، ققام أبو بكر فقال : يا رسول الله ، نرى أن تعفو عنهم ، وأن تقبل الفداء منهم .. قال فذهب عن وجه رسول الله ﷺ ما كان فيه من الغم ، فقفا عنهم ، وقبل الفداء منهم .. فأنزل الله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ^(١) » .

ويعلق صاحب « الرياض النضرة » على هذه الأخبار فيقول : وفي هذه الأحاديث دليل على أنه ﷺ كان يحكم باجتهاده ^(٢) .
ونعم كان رسول الله ﷺ هنا يحكم باجتهاده ، وبما يروى مما يشير به أصحابه عليه .. وقد أشار عمر - رضى الله عنه - بقتل الأسرى . وأشار أبو بكر بقبول الفدية .. ولا شك أن رأى عمر كان رأياً لبعض صحابة رسول الله ﷺ كما أن رأى أبا بكر - رضى الله عنه - كان رأياً لبعض الآخر منهم .. وأن رسول الله ﷺ أخذ برأى أبو بكر ، ومن كان على رأيه ، لأنه رأى الذى يوافق رأى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - كما يشير إلى ذلك ما جاء في مسند أحمد من إعراض النبي ﷺ عن عمر ؛ حين أشار بقتل الأسرى ، ومن أنه ﷺ قد ذهب ما كان على وجهه من غم حين أشار عليه أبو بكر بقبول الفداء ، كما يشير إلى ذلك أيضاً قوله : « إنما هم إخوانكم بالأمس ، فهذه كلها أمارات تدل على اتجاه رأى النبي ﷺ في هذا الأمر ، وأنه لم يقطع به حتى رأى في أصحابه من يرى رأيه هذا .

(١) الا فقال الآية ٦٧ .

(٢) وقد هدى الله كثيراً منهم إلى الاسلام ، ومنهم أبو طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد كان من هؤلاء الأسرى .

ولا شك أن كلا الرأيين قتل الأسرى ، أو قبول الفدية منهم ، كانا واردين على خاطر رسول الله ﷺ ، ولكنه كان يميل إلى الرأي الثانى ، وهو قبول الفدية ، وذلك لما طبعه الله تعالى عليه من الرحمة ، والسماحة ، واللفظ .. إن الشدة واللين جانبان متوازنان فى النفوس السوية ، فلا تلين إلا فى حق ، ولا تشدد إلا فى حق .. ولهذا قال رسول الله ﷺ تعقيباً على رأى كل من أبى بكر وعمر فى هذا الحدث : « أنت يا أبابكر مثلك مثل عيسى ، إذ يقول فى قومه : « إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم » وأنت يا عمر مثلك مثل نوح إذ يقول فى قومه : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً » .

فانظر كيف شبه الرسول الكريم صاحبيه من لان أو اشتد منهما ، بنبيين كريمين - هما عيسى ونوح عليهما السلام - فى لين أحدهما ، وشدة الآخر .

وهذا رأى الذى مال إليه الرسول الكريم وأخذ به ، هو الذى يجرى مع ما طبعه الله تعالى عليه من السماحة ، وما ملأ به قلبه الكبير من الرأفة والرحمة ، إذ وصفه سبحانه بقوله « لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم »^(١) ، ورحمته ورأفته بالمؤمنين لا تتخطى عنه صلوات الله وسلامه عليه فى أى موقف يرى فيه الرأفة والرحمة موضعاً .

ونظائر هذا العتاب الذى وجه للبنى والمسلمين فى قوله تعالى « ما كان لبنى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » . هو كما أشرنا من قبل تجريم هؤلاء المشركين ، الذين آذوا رسول الله ﷺ ، وآذوا المسلمين وأخرجوا

الرسول والمهاجرين معه ، من ديارهم وأهليهم ، إنهم في شريعة العدل لا يستحقون غير القتل . . . ولكن الرحمة فوق العدل ، إذا كانت لا تجور على حق للغير ، وكانت تكريماً وتفضلاً من صاحب الحق . . . والله سبحانه وتعالى يقول :

« وجزاء سيئة سيئة مثلها . . . فمن عفا وأصلح فأجره على الله »^(١) ويقول تبارك اسمه : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »^(٢) ويقول جل شأنه : « وإن عاقبتهم فاعقبوا بخلاف ما عوقبتهم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين »^(٣).

ومن أولى من رسول الله ﷺ بالأخذ بما هو أوفى وأتم في كل خير؟ قول السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها : « ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ، ما لم يكن فيه مآثم » .

هكذا رسول الله ﷺ يقوم أمره كله على الرفق ، والرحمة ، واليسر وقد وضع الله سبحانه وتعالى هؤلاء الأسرى بين يديه - صلوات الله وسلامه عليه - ليستبقيهم لا ليقتلهم ، لأن فيهم كثيرين ممن سيدخلون في الإسلام ، ويجاهدون في سبيل الله ، وقد كان ، فإن كثيراً من هؤلاء الأسرى ، قد أسلموا ، ودخلوا في دين الله ، وكان من المجاهدين في سبيل الله ، ومنهم العباس ، عم النبي ﷺ !!

وأما هذا العتاب ، فهو كما قلنا : موجه في صميمه إلى هؤلاء المشركين في صورة تجريم وتهديد لهم وأن العفو عنهم ، وإعفاءهم من القتل كان مكرمة

وفضلاً من النبي ﷺ ، الذي آذوه وأخرجوه من بلده وأهله ، كما أنه أصل من أصول الشريعة السمحاء التي يدعون إليها ، وهي الشريعة السمحة التي أمهل الله تعالى المدعوين إليها ، وطاول لهم في الزمن ، ولم يجعل لهم المذاب في الدنيا ؛ حتى يراجعوا أنفسهم حياتهم كلها ، فيهدى الله منهم من أقبل على دعوة الله ، وشرح لها صدره ، وقيم الحجة على من كذب وتولى .. وهذا من فضل الله تعالى على رسوله ، وعلى الأمة للبعوث فيها ، حيث لم يأخذ الله المكذبين بما جل عذابه ، كما فعل مع أقوام الرسل من قبله ، وفي هذا يقول الله تعالى : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ^(١) » .

وأما ما يشير إليه قوله تعالى : « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » فهو تأكيد لتجريم هؤلاء المشركين وتهديد لهم ، بحيث كاد جرّمهم يصيب الذين مدّوا أيديهم إليهم بالرفق والإحسان .

والكتاب الذي سبق من الله تعالى والذي يشير إليه في قوله جل شأنه : « لولا كتاب من الله سبق » هو أنه سبحانه لا يحاسب إلا بعد بيان وبلاغ ، ولا يعاقب إلا بعد إنذار وإعذار .. وفي هذا يقول سبحانه : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ^(٢) » ويقول جل شأنه : « وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ^(٣) » ويقول تبارك اسمه : « وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون ^(٤) » ويقول سبحانه : « ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ^(٥) » .. فهذا هو كتاب

(٢) الإسراء الآية ١٥ .

(٤) التوبة الآية ١١٥ .

(١) الأنفال الآية ٣٣ .

(٣) القصص آية ٥٩ .

(٥) الأنعام الآية ١٣١ .

الله الذى كتبه على نفسه ، وهو أنه سبحانه لا يحاسب ولا يعاقب إلا بعد
بلاغ وبيان بما يرسل من رسل ، يندرون الغافلين ، ويوقظون النائمين ، وبهذا
يقيمون الحجة على الناس : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »^(١) .

وهذا يدنى أن هذا الذى حدث فى أسارى بدر ، وفى قبول الفدية منهم
هو أمر لم يلق فيه النبي والمسلمين بياباً من السماء ، فأجروه على ما أدى إليه .
اجتهادهم فيه ، وهذا بما لا يقع فيه لوم أو مؤاخظة . . ولهذا جاء بعد قوله
تعالى « لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم » جاء قوله
تعالى « فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله إن الله غفور رحيم » . . فقد
دعا الله سبحانه للمسلمين إلى أن يأكلوا من هذا الذى غنموه ومنه ما أخذوه
من فداء الأسرى ، وهو حلال طيب ، حيث أخذ بحقه . ولو كان هذا الذى
فعلوه مع الأسرى بوجوب لوماً أو ذمماً ، لما كان ما أخذوه من فدية حلالاً
طيباً ، ولجأ أمر الله تعالى بحرمة هذا المال الذى أخذه النبي والمسلمون من
فداء الأسرى . . ثم يحىء بعد هذا قوله سبحانه فى شأن هؤلاء الأسرى :
« يا أيها النبي قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يعلم الله فى قلوبكم خيراً
يؤتكم خيراً مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم »^(٢) ، فكما نظر الله تعالى إلى
المؤمنين نظرة عطف ، ورحمة ، ومغفرة ، نظر كذلك إلى هؤلاء الأسرى
للمشركين نظرة داعية إلى المغفرة والرحمة لمن نزع لباس الشرك عنه ، وأنه
سبحانه وتعالى سيؤتى من آمن منهم خيراً مما أخذ منه من فداء . . وذلك
لأن من هؤلاء الأسرى من سيدخل فى دين الله ، ويحسن مقامه فى المؤمنين
بالله ، جهاداً وبلاء فى سبيل الله . . فهل فى مثل هؤلاء الأسرى يقع لوم
أو عتاب على أن عصموا من اقتتل بأخذ الفدية منهم ؟ .

(١) الأمل الآخرة ٧٠ .

(٢) النساء الآية ١٦٥ .

إن الأمر - كما قلنا - لم يكن - والله أعلم - إلا تذكرياً لهؤلاء الأسرى بما كان منهم من عدوان على النبي والمسلمين ، وإلا تنديماً لهم على ما فعلوا ، وإلا حثاً لهم على مراجعة أنفسهم ، وإصلاح ما أفسدوا .

ومن جهة أخرى ، فإن قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ترتدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » قد ذهب في تأويله المفسرون إلى رأى كادوا يجمعون عليه ، وهو أنه ما كان ينبغي أن يكون لنبي أسرى حتى يثخن في الأرض ، أى حتى يتمكن سلطانه في الأرض ، وتكون له شوكة غالبية وقوة قاهرة لأعدائه .. عندئذ يحق للنبي أن يكون له أسرى .. أما قبل هذا ، فلا يكون له مطمع في الأسرى ، بذلك بالمدول عن قتلهم إلى أسرهم ، ليؤخذ منهم الفداء ..

وهذا ما وقف عنده رأى المفسرين لهذه الآية الكريمة ، ولم نر أحداً - فيما أطلعنا عليه من كتب التفسير - ذهب إلى أبعد من هذا .. فلم يشر أحد إلى هؤلاء الأسرى في موقعة بدر ، وقد وقعوا أسرى فعلاً .. فما هو الرأى فيهم ؟ وما موقف الشريعة الإسلامية منهم ، أ يقتلون ؟ وكيف يصح قتلهم ؟ وعلى أى وجه يقام هذا الحكم ؟ إن قتل الأسرى أمر تأباه شريعة المتحاربين ، حتى أولئك الذين لا يدينون بدين سماوى ، فكيف يباح في هذا شريعة سماوية ، وفي شريعة الإسلام بالذات ، تلك الشريعة العامة للناس جميعاً على امتداد الأزمان ؟ أف تكون الجاهلية أ بر بالإنسانية من الإسلام ؟ ألم يقل الشاعر الجاهلى :

ولا تقتل الأسرى ولكن نفكهم
إذا أثقل القوام حل للغارم
إلانة - والأمر كذلك - لا سبيل إلى قتل هؤلاء الأسرى الذين وقعوا
ليد النبي ﷺ والمسلمين في غزوة بدر ، أو الذين سيقمون أسرى فيما بعد .

وقد يمتزج على هذا ، بأن يقال : إن عمر بن الخطاب رأى في هؤلاء الأسرى أن يقتلوا ، وأن هذا رأى استوحاه عمر من الشريعة التي يدين بها !!

ونقول : إن هذا رأى من عمر ، لم يكن قطعاً - مستوحى من الشريعة ، وإلا لكان ذلك إلى رسول الله ﷺ ، ولم يكن عنده محل استشارة فيه .. وإنما للذى كان من عمر هو من دواعي الغيظ والفتنة من هؤلاء المشركين ، الذين آذوا رسول الله ﷺ ، وآذوا أصحابه وأخرجوه من ديارهم وأموالهم . فأخرج هذا رأى على إطلاقه ، وعلى ما كان يعمل في نفسه من حنق . وموجدة على هؤلاء المشركين ، الذين حادوا الله ورسوله ، وفي يقين عمر أن الأمر في هذا إلى رسول الله ﷺ ، وأنه لا بأس - والأمر كذلك - أن ينفس عن نفسه بهذا القول في المشركين .. أما رأى السليم فرجعه إلى رسول الله ﷺ .. ونجزم بأنه لو كان مرجع الرأى في هذا الموقف إلى عمر وحده لما أشار به ، ولما رضى بقتل هؤلاء الأسرى لا في جاهلية ولا في إسلام .. وأما وهو في سعة من الأمر فليقل ما بداله ، وليشر بما يرى ، ما دام ذلك سيوضع على ميزان الحق والعدل ، الذى يمسك به رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

أما قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » - فهو .. إلى ما فيه من إشارة صريحة إلى أن هؤلاء الأسرى لم يكونوا أهلاً لأن يؤسروا ، بل كان الحكم فيهم هو أن يقتلوا ، ولكن لا أن يقتلوا بعد الأسر ، بل كان الواجب قتلهم في ميدان القتال ، ورحى الحرب دائرة ، لا أن يستبقوا ليكونوا أسرى - نقول أن قوله تعالى : « ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » - إلى ما فيه

من تغليظ الجرم المشركين ، فيه أيضاً لوم للمؤمنين الذين آثروا أن يقتلوا على هؤلاء المشركين ، وقد أمكنتهم الفرصة في قتلهم في المعركة وكان الواجب قتلهم في المعركة ، لا ليكونوا أسرى في أيديهم ، ومنعماً من مغائهم ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى في الآية الكريمة : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » . . . فاقع في الآية من لوم على المسلمين في هؤلاء الأسرى ، إنما هو لوم على أسرهم دون قتلهم وقد كانوا في معرض القتل بأيدي المسلمين في المعركة .. وأما وقد وقعوا أسرى ، فلا سبيل بعد هذا إلا المن عليهم بإطلاق سراحهم أو قبول الفدية منهم ، كما يقول سبحانه : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ^(١) » . . . وهذه الآية من سورة نزلت قبل سورة الأنفال ، حيث أنها نزلت في طريق هجرة النبي ﷺ ، على حين نزلت سورة الأنفال بعد غزوة بدر . . . فالأمر الذي كان مع المسلمين من ربهم قبل أن يلتقوا بالمشركين في بدر هو قوله تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء » . . . وقد كان على المسلمين في غزوة بدر ألا يحرصوا على إبقاء بعض المشركين أحياء طمعاً في أسرهم ، بل كان عليهم أن يقتلوا كل ما أمكنهم قتله في المعركة . وعلى هذا يكون قول النبي ﷺ : « لقد عرض على عذابكم أدنى من الشجرة » - مشيراً به إلى أولئك الذين حرصوا على أن يستبقوا من المشركين ما أمكنتهم الفرصة من قتله ، ليكونوا أسرى في أيديهم ، دون أن يسمى أحداً منهم .. وأما بكاؤه ﷺ ، وبكاء صاحبه أبي بكر معه ، فهو رحمة وإشفاق على هؤلاء الذين كان منهم ذلك

الحرص على استبقاء بعض المشركين أحياء ليأخذوهم أسرى .. أما حكم الرسول ﷺ في هؤلاء الأسرى ، الذين وقعوا في الأسر فعلا ، فهو الحكم الذي قضى به ﷺ بعد مشورة أصحابه ، لأن في هؤلاء الأسرى من كان أسره عن قصد وتدمير ولم يكن جاريا على حكم الآية السكرية : « حتى إذا ائتمتمهم فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد ، وإما فداء » ولو كان هؤلاء الأسرى جميعا ممن أئتمتهم الجراح ، وسقطوا في ساحة المعركة لما استشار النبي أصحابه فيهم .. فلاستشارة هنا - والله أعلم - إنما كانت لما دخل على هؤلاء الأسرى ممن حقه ألا يكون أسيرا ، بل قتيلا .. !

هذا ، ويؤيد ما ذهبنا إليه في تأويل قوله تعالى : « ما كان لنى أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض » - من أن المراد بالأسرى ، هو طلب أسر المقاتلين أثناء القتال ، والحرص على وقوعهم في الأسر بدل قتلهم ، حتى تؤخذ الفدية منهم ، كما حدث ذلك في غزوة بدر - يؤيد ما ذهبنا إليه ، هو ما حدث بعد ذلك في غزوة أحد ، فقد وقع في يد المسلمين بعض الأسرى من المشركين ، ومع ذلك فقد قبل النبي منهم الفداء ، ولم يقتل إلا واحدا منهم ^(١) .. على الزعم مما أصاب المسلمين في هذا اليوم من هزيمة ، ومن قتل لكثير من وجوه الصحابة ، وفيهم حمزة عم النبي . فلأن الآية كانت تعني الأسرى الذين يقعون في الأسر من غير قصد لأسرهم ، كما حدث في أحد ، لما كان للنبي أن يقبل منهم الفداء . وقد عوتب من قبل في أسرى بدر ^(٢)

(١) في غزوة أحد وقع في الأسر عمرو بن عبد الله بن عمير بن وهب ، وهو الأسير الوحيد ، الذي أسره المسلمون في تلك الموقعة ، وكان قد أسرى يوم بدر ، وكان من فقراء قريش ، وله ثبات يمولن ، فن عليه رسول الله ، وأخذ عليه الأظهار على المؤمنين أحدا ، ولم يكن له ما يعطيه من الفدية يوم أحد ، عاريا لرسول الله فوقع في الأسر ، وقال آمين ، على يامحمد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن المؤمن لا يلدع من جهر مرتين ، ثم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بضرب عنقه : ولو لم يكن هذا للمعرك قد نفس الهدف لقبلى الرسول مع الفداء ، أو من عليه .

إن أسرى بدر ، هم ممن أسروا قصداً ، بقصد الإبقاء على حياتهم ، وكان في يد المسلمين قتلهم .. أما أسرى أحد ، فلم يكن حال المسلمين يومئذ بالذي يجعل لهم في المعركة خياراً بين قتلهم وأسرهم .

تلك هي قضية الأسرى ، التي كثرت الأقوال فيها ، وهي كما رأينا لا تخرج عن مسألة عارضة ، أخذ فيها النبي والمسلمون بما أدى إليه النظر والاجتهاد ، إذ لم يكن لله سبحانه وتعالى سابق بيان لها ، أو حكم فيها .. إنها أشبه بما كان من موقف رسول الله ﷺ من المشركين يوم بدر ، حين نزل منزلاً ، رأى أن يقاتل المشركين فيه ، ثم جاءه بعض أصحابه وهو — الحباب بن المنذر — فقال يارسول الله : أهذا منزل أنزلكه الله ، فليس لنا أن نعدل عنه ، أم هو الحرب ، والرأي والمكيدة ؟ فقال - صلوات الله وسلامه عليه - « بل هو الحرب والرأي والمكيدة » ..

وهنا أشار الحباب بن المنذر إلى المكان الذي نقضى به الحرب والمكيدة ، فأخذ - صلوات الله وسلامه عليه - بما أشار به الحباب بن المنذر ، وتحول عن موضعه إلى الموضع الذي أشار به الحباب بن المنذر .. وقد صح هذا الرأي ، وانتفع به المسلمون أيما انتفاع في قتال العدو ، ثم في كسب المعركة .. فاذا يكون لو أن هذا الرأي لم يكن صحيحاً وقد أخذ به النبي ؟ إنه لا شيء على النبي ﷺ ، ولا على المشير الذي أشار عليه ، إذ كانت مشورته عن مناصحة مخلص ، لا عن خيانة وخديعة ، وإن الموقف في أسرى بدر ، هو مثل هذا الموقف سواء بسواء ..

إن موقف عمر في أسرى بدر هو الموقف الذي يتفق مع طبيعة عمر في الشدة والصرامة ، التي لا تتسع لشيء من اللين ، في مواجهة أهل الشرك والضلال .. إنه ليس إلا الإيمان ، أو السيف ، ولا شيء بينهما من الموازنة ولو لوقت قصير تسكن فيه النفوس النائرة ، وترجع فيه العقول العازبة ..

ولو كان عمر في جادايته ، لما رأى في الأسرى ما رأى من قتلهم ، ولكنه حين أشار بتل أسرى بدر ، كان لا يرى غير الإسلام الذي كاد له هؤلاء المشركون ، ولا يرى طريقاً للإسلام إلا بالقضاء على الواقفين في سبيله .

روى البخاري ومسلم ، في قصة الحديبية . وفي الصلح الذي أجراه النبي ﷺ مع المشركين : أنه لما أتى النبي ﷺ عينه^(١) ، قال : إن قريشا جمعوا لك جوعاً ، وهم مناتلوك وصادوك عن البيت ، وما نموك .. فقال ﷺ : أشيروا علي أيها الناس .. أترون أن أميل إلى عيالهم وإلى ذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت^(٢) ، فإن قاتلونا كان الله قد قطع عينا من المشركين ، وإلا تركناهم محرمين ؟ فقال أبو بكر : يا رسول الله ، خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتال أحد ، ولا حرباً ، فتوجه له^(٣) ، فن صدنا عنه ، قاتلناه .. فقال ﷺ : « امضوا على اسم الله عز وجل .. » فلما كان أمر الصلح ، ولم يبق إلا أن تكتب وثيقته ، وثب عمر إلى أبي بكر فقال : يا أبا بكر : أليس برسول الله . أولسنا بالمسلمين ، أوليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى .. قال : فمَن نعطي الدنية في ديننا ؟ فقال أبو بكر : « ألزم غرزَه^(٤) » حيث كان ، فإني أشهد أنه رسول الله ، فقال عمر : « أنا أشهد أنه رسول الله . ثم أتى — أي عمر — رسول الله ﷺ : فقال : يا رسول الله : أولسنا بالمسلمين ؟ أوليسوا بالمشركين ؟ فقال ﷺ : بلى .. قال : فمَن نعطي الدنية في ديننا ؟ فقال ﷺ : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ،

(١) العين هو الذي يكون بينا للجيش على العدو ، يتصرف أحوالهم وأخبارهم .. أشبه بعمل المخابرات اليوم .

(٢) وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جاء في المسلمين معتمراً ، يسوق الهوى أمامه إلى البيت الحرام ، لا يريد إلا ..

(٣) أي توجه لبيت المرام .

(٤) ألزم غرزَه : أي اتبع أمره ، وسر وراء خطوه (أي النبي صلى الله عليه وسلم) .. وأصل الغرز ركاب الرجل من جلد ، فإن كان من خشب أو حديد ، فهو ركاب ..

ولن يضيعني .. فسكت عمر عند ذلك وسكن .. لأنه رأى هذا الموقف من النبي - ﷺ - بقبول التصالح مع قريش ، عزمة من رسول الله ، فأمسك عمر عن القول في هذا الأمر بعد ما رأى من رسول الله ، وما سمع من قوله - صلوات الله وسلامه عليه - : « أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني » .. ومعنى هذا أن قبول الصلح كان بأمر من السماء تلقاه الرسول الكريم ، وإذن فلا مراجعة في هذا الأمر من عمر أو غيره ١١

وفي البخاري ومسلم - واللفظ للبخاري - عن عمر رضى الله عنه قال : خأنيت النبي ﷺ ، ققلت يا رسول الله : أأنت نبي الله حقا ؟ قال : بلى ١١ قلت ألسنا على الحق وهم على الباطل ؟ قال : بلى ١١ قلت : فلم تعطى الدنيا في ديننا ؟ فقال : « إني رسول الله ، ولست أعصيه ، وهو ناصري ، قلت : أو لست كنت تحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : أو أخبرتك أنا نأتيه الدام ؟ قلت : لا . قال : فإنك آتية ومطوف به . قال فأتيت أبي بكر فقلت : يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقا ؟ قال : بلى ! قلت ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى ، قلت فلم تعطى الدنيا في ديننا ؟ قال : أيها الرجل .. إنه رسول الله ١١ وليس بعصيه وهو ناصره ، فاستمسك بفرزه ، فوالله إنه على الحق .. قلت أو ليس كان يحدثنا أننا سنأتي البيت فنطوف به ؟ قال : أفأخبرك أنا نأتيه العام ؟ قلت لا .. قال : فإنك آتية ومطوف به ، قال عمر فعملت لذلك أعمالا .

هذا ، وفي قول رسول الله ﷺ : « إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري » — إشارة إلى أنه صلوات الله وسلامه عليه ، إنما قبل صلح قريش ومهادنتها بأمر من ربه ، وأن استشارته لأصحابه ، وإشارتهم عليه بقتال المشركين إن هم صدوم عن المسجد الحرام الذي جاءوا إليه معتمرين لامقاتلين إنما كانت تلك الاستشارة قبل أن يتفق أمر ربه بالصلح والمهادنة ، وفي هذين

الخبيرين الذين رواها البخارى عن موقف عمر من صلح الحديبية ، اختلاف .
 فى ترتيب الأحداث ، فبينما الخبر الأول ، يتحدث عن عمر بأنه أتى أبا بكر
 أولاً معترضاً على الصلح ، ثم جاء إلى النبي ﷺ بعد ذلك ، فلما أخبره
 النبي الكريم بما أخبره به اطمأن ورضى وسكن ، على حين أن الخبر الثانى
 يحمل عمر يعود بعد أن سأل رسول الله ﷺ ، فيسأل أبا بكر . . وهذا
 مالا يكون من عمر ولا مسلم . . فالخبر الأول هو الأصح المتبول عندنا .

• قالوا ، ولما كان فتح مكة فى العام التالى ، ودخلها رسول الله ﷺ
 فاتحاً ، بعث بلالا ، ثم أبا بكر وعمر إلى عثمان بن طلحة ليأتياه بمفتاح الكعبة
 فجاء عثمان بن طلحة إلى النبي ﷺ به . . فلما أخذ رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة .
 وضعه فى يد عمر وأمره أن يفتح الكعبة ، وأن يكسر ما بها من تماثيل
 وصور . . وكان الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - يقول لعمر مذكراً
 إياه بما كان منه فى صلح الحديبية : لقد عجبت يا عمر فى أمر كان لله سبحانه
 وتعالى فيه ما رأيت . ولقد صدق الله سبحانه وتعالى النبي وعده ، وما أراه
 من دخول المسجد الحرام ، كما يقول سبحانه : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا
 بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين
 لا تخافون . . فلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً . . »^(١)

• والذى يلاحظ من مواقف عمر بين يدي رسول الله ﷺ أنه كان على
 سجيته من الصراحة والقوة ، وأنه كان يأخذ الجانب العنيف الصارم الذى
 لا هوادة فيه ولا مهادنة . . لأنه كان على علم بأن رسول الله ﷺ سيقبل
 منه ما يقبل ، ويرد منه ما يرد ، وأنه لا يدعه يمضى على الوجه الذى يريد ،
 حتى يقيمه الصراط المستقيم من حكمة النبوة وهديتها . . إن عمر هنا بين يدي
 رسول الله ﷺ أشبه بالضبط الذى يتعلم السباحة بين يدي والده ، فيهجم

على السباحة فيما وراء الحد الذي حدده له والده وهو على ثقة من أنه في
 حى والده الذى سرعان ما تمتد يده إليه لا تقاذه ، إذا هو تعرض للغرق !
 يقول عمر : « قد كنت مع رسول الله ﷺ فكنت عبده وخادمه ،
 وكان — صلوات الله وسلامه عليه — ممن لا يبلغ أحد صفته من اللين
 والرحمة ، وقد سماه الله تعالى بذلك ، ووهب له إسمين من أسمائه سبحانه :
 « رؤوف رحيم » فكنت سيفاً مسلولا ، حتى يغمدنى أو يدعى فأمضى ، حتى
 قبض رسول الله ﷺ وهو عني راض .

وهذا أصدق وصف لعمر .. وما كان يعقل في نفسه من مشاعر وهو
 في صحبة رسول الله ﷺ إنه كان بين يدي النبي سيفاً مسلولا في يد رسول الله ،
 وهل يكون السيف سيفاً إلا إذا كان ماضياً قاطعاً ؟ إنه سيف ، واليد التي
 تمسك به ، هي التي تضرب به ، وهي يد رحيمة حكيمة ، لا تضرب به
 إلا بالحق . والحق . إنها يد رسول الله ﷺ .

أما رضا رسول الله ﷺ عن عمر ، فقد جاءت به أخبار كثيرة عن
 رسول الله ﷺ تحدث عن فضل عمر ووثاقة إيمانه ، وصدق نيته ، وإخلاص
 طويته في النصيحة لله ولرسول الله ولدين الله ، لا يألو في ذلك جهداً ، ولا
 يدخر وسعاً من كل ذرة من ذرات وجوده .. وقد أشرنا من قبل إلى قول
 رسول الله ﷺ في عمر « قد كان في الأمم محدثون فإن يكن في أمتي أحد
 فهو عمر بن الخطاب » وقول رسول الله ﷺ فيه أيضاً : « رحم الله عمر ،
 يقول الحق وإن كان مرأ .. تركه الحق وماله من صديق » .

وها نحن أولاً نذكر بعض ما روى عن رسول الله ﷺ في فضائل
 عمر ومناقبه .

ففي البخاري ومسلم وغيرها عن أبي سعيد الخدري ، عن النبي ﷺ قال :

حينئذ أنا نائم ، رأيت الناس يعرضون على وعليهم قمص ، منها ما يبلغ الثدي ومنها ما هو أسفل من ذلك ، وعرض على عمر وعليه قميص يجره ، فقال من حوله رسول الله : ما أولت يا نبي الله ذلك ؟ قال : « الدين » .. قالوا وفسر الثوب بالدين — والله أعلم — لأن الدين يشمل الإنسان ويحفظه ، وبقيته المخالفات — أى الوقوع فى الآثام — كوقاية الثوب وشموله .. وقد لبس عمر الإسلام فكان له منه رداء يكسوه من رأسه إلى إخمص قدميه ١١

وفى البخارى ومسلم وغيرها أيضاً عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « بينا أنا نائم إذ رأيت قدحاً أتيت به ، فيه لبن فشربت حتى إنى لأرى الرى يجرى فى أظفارى ، ثم أعطيت فضلى — أى ما بقى منى — عمر ابن الخطاب قالوا فما أولت ذلك يا رسول الله ؟ قال : « العلم » .

وفى البخارى ومسلم عن حذيفة بن اليمان قال : كنا عند عمر فقال : أياكم يحفظ حديث رسول الله ﷺ فى الفتنة وما قام ؟ قلت : أنا . فقال : هات إنك لحرى ^(١) وكيف قال ؟ قلت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « فتنة الرجل فى أهله ، وماله ، ونفسه ، وولده ، وجاره ، يكفرها الصيام والصلاة والصدقة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فقال عمر : ليس هذا أريد ، إنما أريد التى تموج كوج البحر — أى التى تشتعل على الناس جميعاً — قال قلت مالك ولما يا أمير المؤمنين .. إن بينك وبينها باباً مغلقاً .. قال : أفيسكر أو يفتح ؟ قلت لا بل يكسر قال : ذاك أحرى ألا يفتلأ ^(٢) .

(١) أى لجدير أن تحفظ قول الرسول ، وأن تحدث به ، وأن يقبل منك ما تقول ..
(٢) أى أن كسر الباب الذى نجي منه الفتنة يجعل غلظه أمراً خارجاً عن الإمكان ، وهو فتح لا يمكن غلظه ، لأن الكسر لا يكون إلا بفتنة عامة هائلة تأتى على كل شيء ، فلا يجيل إلى خير بعدها .

وهناك أحاديث تروى عن رسول الله ﷺ في غير الصحيح منها :

- « إن السكينة لتنطق على لسان عمر » .

- « إن الله تعالى ضرب بالحق على لسان عمر وقابه » .

- « إن بين عيني عمر ملكا يسدده ويوقته » .

- « لو لم أبعث فيكم لبعث عمر » .

- « لو كان بعدى نبي لكان عمر » .

- « وزنت بأمتي فرجعت ووزن أبو بكر بها فرجع ، ووزن بها عمر فرجع ، ثم رجح ، ثم رجح » ومعنى هذا الحديث أن النبي ﷺ وزن بأمنته وفيها أبو بكر وعمر فزاد عليها ، وأن أبا بكر وزن بالأمة دون رسول الله ﷺ وفيها عمر فرجح عليها ، وأن عمر وزن بالأمة دون النبي ، ودون أبي بكر ، فرججها ثلاث مرات ١١

وهذه الأحاديث ما صح منها وما لم يصح قد جاء عمر في سيرته - وخاصة في حال خلافته - بما يصدق ما صح منها ، وبقبول ما لم يصح ، مضافاً إلى التاريخ الحى الواقع من سيرة عمر ، ومن شهادة صادقة يشهد بها التاريخ له .
هو لم يكن شيء من هذه الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ وللصراحة إليه -
لو لم يكن شيء منها في عمر ، لكان جديراً أن يكون .

وسرى في خلافة عمر ، وفي قيامه على دولة الإسلام ، أنه أهل لكل هذه الأوصاف وتلك الفضائل ، وأنه كان عند حسن ظن رسول الله ﷺ به ، فرأيه فيه ، وإعداد له هذا الدور العظيم الذى قام به في بناء الدولة الإسلامية ، وإرساء قواعدها على أسس وطيدة من كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسول الله ﷺ .

الفصل الثالث

مع شمس النبوة العازية

مع العلم اليقيني عند كل إنسان بأنه ميت ، وأن الموت لا بد أن يلقاه يوماً من الأيام ، بعد هذا اليوم أو قرب ، فإنه قل أن يذكر الإنسان هذه الحقيقة إلا لاما ، وإلا كخطوة عابرة ، لا يلبث أن يعمل على الفرار منها . وعلى إغراقها في أكثر من تيار من تيارات الحياة للتدافعة في كيانه ، فيمضى في طريقه ، وكأنه لن يموت أبداً .

إن حب الإنسان للحياة وحرصه على البقاء ، وكرهه للموت ، أو خوفه منه ، كل هذا يدعوه إلى أن يعمل بكل جهده على تجاهل هذا العد والراصد له والترصد به ، لينتزع من الحياة في أية لحظة .. من ليل أو نهار ، في منام أو يقظة ، في مرض أو صحة ، في شيخوخة أو شباب ، في فقر أو غنى ، في شقاء أو سعادة .. ومن هنا تتولد في كيان الإنسان مشاعر ، تنسيه هذه الحقيقة ، وتذهله عنها ، كما يذهل الخمور عما بين يديه وما خلفه من حقائق ، وفي هذا يقول الله تعالى فيمن أخذتهم سكرة الحياة ، فلم ينظروا فيما وراءها من موت وبعث وحساب ، وجزاء . « اعمر كإنهم لفي سكرتهم يعمهون »^(١) وهذا بعض ما يشير إليه قوله ﷺ : « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا » .

والحياة وحبها وتعلق الإنسان بها ، يكون كل شيء يحرص المرء عليه . يؤثره بحبه ، وبالحياة معه . من زوج ، أو ولد ، أو أخ ، أو صديق . بحيث لا يكاد يتبع في تصويره ، أن الموت سيفرق بينه وبين من يحب .

فإذا وقعت الواقعة واختطف الموت تلك الزوجة ؛ أو هذا الولد ؛ أو ذلك الأخ ؛ أو ذلك الصديق لم يكذب تصور هذا الواقع أو يقبله ؛ بل هو يدفعه دفعاً قوياً عن مجال تفكيره وتصوره ، وتشهد الحياة صوراً كثيرة من تلك الأحوال التي يخاطب فيها الأحياء الأعزاء من أمواتهم مخاطبة الأحياء ؛ فيهتفون بهم ؛ ويتحدثون إليهم ؛ وينطقون عنهم بما يمليه عليهم الوهم والخيال وهو عندهم حقيقة واقعة مجسدة .

وما أكثر ما نسمع من قائل يقول فيمن بلغه موته من أحبائه : أنا لا أصدق أنه مات !

وقد صور الشاعر المتنبى هذا الإحساس ؛ وهو يعزى أحد ممدوحيه في موت عزيز لديه . فيقول :

طوى الجزيرة حتى جاء في خبر
فرغت فيه بآمالى إلى الكذب
فلما لم يبق لى فى صدقه أمل
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

ولقد كان رسول الله ﷺ من صحابته السمع والبصر والفؤاد . كان أنفاس الحياة التي ينفسونها ؛ ونور العيون التي يبصرون بها ، ونبض القلوب التي تمسك الحياة عليهم ؛ ولهذا ، فإن ذكر موت رسول الله ﷺ كان أبعد شيء يطوف بهم ؛ أو يطرق أفكارهم . وكيف يفكر الإنسان فى أن ينتزع نفسه من هذا الحلم المسعد الذى يعيش فيه ، ويخرج نفسه طائفاً من تلك الجنة التي يقيم فيها وينعم بها ؟ .

ولا بأس أن أذكر هنا طرفة من تلك الطرف التي رأيتها في عصرنا هذا مع أحداث السياسة التي كانت تداس بها مصر فترة من الزمان حيث كان رئيس الدولة ؛ وقد جمع لديه كل سلطان يتصرف به في مقاليد الحياة وفي مصائر الناس حتى خيل إليه من ذلك أنه لا يزحزح عن هذا المكان المسكين بموت أو تقلب أحوال ؛ وكان بين هذا الرئيس وبين أحد العاملين معه صلة وثيقة ، مكنت له من مكان مكين عنده ، حتى أن الذين كانوا يحسدون على هذه المكانة التي له عند هذا الرئيس لم يستطيعوا أن يزحزحوه عن تلك المكانة على كثرة ما قالوا فيه ؛ وما تقولوا عليه عنده ؛ على مدى سنوات كثيرة حتى كان ذلك اليوم الذي جاءوا فيه إلى الرئيس . يقولون له : إن فلاناً هذا قد تحدث في أحد مجالسه . فقال : هناك الرجل الأول في الدولة يقصد الرئيس . ولكن أين الرجل الثاني ؟ أهنالك دولة لا يكون فيها الرجل الثاني الذي يخلفه إذا خلا مكانه يوماً منه ؟ أهنالك الدولة بعده إلى الرجل لذي لم يعد من قبل لهذا الأمر ولم تتهبأ النفوس له ؟ إن ذلك يوقع الناس في فتنة واختلاف !

وهنا كانت قاصمة الظهر ، فما أن سمع الرئيس هذا القول حتى امتلأت نفسه غمة وتنكيلا لهذا الرجل الذي كان أقرب الناس إليه ، إذ كيف يتصور هذا الرجل أن تكون له حياة بعد الرئيس ؟ وهل يتوقع اليوم الذي يحلّ فيه الرئيس مكانه من هذا المكان الذي هو فيه ، وأن يحلّ غيره محله ؟ لأنه لو كان على حب وولاء للرئيس لما طرقت هذه الأفكار ، ولما امتد به نظره إلى غير الرئيس في يوم من أيام الدهر . . . وسرعان ما تبدلت حال الرجل ، فصعب عليه النقم صعباً ، حيث عزل من منصبه مطروداً منه ، ثم ألبس أثواباً من الشاعات التي انطلقت بها الشائعات عنه بما هو حق وباطل . حتى لا كفه الألسن بالسباب واللعنات ، تمزق كل ما يعتز به الإنسان من دين ، أو خلق ، أو عرض ، فلم يرفع بعد ذلك رأساً ، ومشى في الناس .

مطأطأ الرأس خامل الذكر ، تقتحمه العيون بنظرات الاتهام في دينه وخلقه وعرضه ! وإن في ذلك لعبرة لمعتبر !

* * *

ونعود فنقول إنه من أجل هذا الشعور القوي القائم على نفوس الصحابة من حب رسول الله ، ومن تعلقهم به تعلق الجسد بالروح — كانت آيات القرآن الكريم تنزل حيناً بعد حين تذكر المسلمين ، في رفق بهذه الحقيقة وهي أن رسول الله ﷺ بشر ، وأنه سيذوق كما يذوق البشر ؛ وأن له أجلاً تنتهي به حياته في هذه الدنيا كما تنتهي حياة كل حي .. ومن ذلك قوله تعالى : « إنك ميت وإني ميتون ^(١) » ، هكذا يبيء الحكم قاطعاً ينعي النبي ﷺ إلى المسلمين وهو حي بينهم « إنك ميت » . . . وقوله سبحانه : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون ^(٢) » « إنك بشر وإنه لا خلود لبشر ؛ وإذن فلا يظن أحد بك الخلود في هذه الحياة الدنيا . وقوله تبارك اسمه : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ^(٣) » .

وعن أبي سعيد الخدري قال : جلس رسول الله ﷺ مرجعه من حجة الوداع على المنبر فقال : « إن عبداً خيرته الله عز وجل بين أن يؤثيه من زهرة الدنيا وعزها والخلد فيها ثم الجنة ؛ وبين ما عنده والجنة ، فاختر ما عند الله والجنة ؛ فبكى أبو بكر وقال : « فدينك بآبائنا وأمهاتنا » فكان رسول الله ﷺ هو الخبر — أي بموته — ولكن لم يفجعنا — أي لم يصرح بالموت حتى لا تنزع ؛ وكان أبو بكر أعلمنا بالأمر .

وهكذا يعد القرآن الكريم والرسول — صلوات الله وسلامه عليه ؛

(٢) الأنعام الآية ٣٤

(١) الزمر الآية ٣٠

(٣) آل عمران الآية ١٤٤

نفوس المسلمين لا تتركهم في هذا الأمر الذي لا بد منه ، من موت النبي ، قبل أن يموت ، حتى يأخذوا للأمر عدته ، وحتى يروضوا أنفسهم على احتمال هذه الصدمة القاسية ، التي تطيش لما الأحلام ، وتذهب بها العقول .. وإلى جانب الآيات الكريمة التي كانت تنزل مدكرة المسلمين بأن الرسول بش ، وأن له أجلا في هذه الدنيا سينتهي عنده ، وأنه لا بد مفارق المسلمين يوما ، إلى جانب تلك الآيات كانت تقع عليه الأحداث تتعرض فيها حياة النبي ﷺ لخطر الموت ، في تلك المؤامرات التي كان يدبرها له اليهود ، تارة بدس السم له ، وتارة بالقامر على إلقاء حجر عليه وهو جالس إلى جانب أحد الجدر .. ثم كانت التجربة الكبرى التي واجه فيها رسول الله ﷺ الموت عيانا ، وذلك في معركة أحد ، حيث وصلت سيوف المشركين ورماحهم إلى رسول الله ﷺ ، وأصابته منها جراح لولا عناية الله تعالى به لأصابته منه مقتلا .. وحتى لقد نادى منادى المشركين يومئذ أن محمداً قتل ، وحتى لقد صدق بعض المسلمين هذا الخبر ، فصعقوا له ، وأخلوا أيديهم عن كل شيء ، وانطلقوا هائمين على وجودهم إلا قراء قليلا منهم ثبت إلى جوار رسول الله .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » (١) .

لقد سمع المسلمون كلمة الموت مضافة إلى رسول الله ﷺ ، فقال المشركون يومئذ : ألا إن محمداً قد قتل .. وقال المسلمون يومئذ ، لاخير في الحياة بعد موت رسول الله .

ولا شك أن هذا الموقف يوقظ المسلمين على تلك الحقيقة التي صرح بها القرآن في أكثر من موضع ، وهو أن محمداً . . صلى الله عليه وسلم . . إن لم يكن قد مات اليوم ، فإنه سيموت غداً ، أو بعد غد فيما يستقبلون من أيام .

ثم إنه قبيل وفاة الرسول . . صلوات الله وسلامه عليه . . تنزل آخر آيات القرآن مشيرة إلى خاتم رسالة النبي ، كما في قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً »^(١) وكما في قوله تعالى : « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً »^(٢) وقد فهم كثير من الصحابة من هذه الآيات وأمثالها قرب وفاة رسول الله ﷺ ، بعد أن أدى رسالته ، وقالوا إن الله ينص إلينا رسول الله ، وإنه يدعو إليه بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وإنه لا بقاء له في هذه الدنيا بعد هذا .

ومن تدبير الحكيم العليم لهذا الأمر ، ولطف اللطيف الخبير بصحابة رسول الله ﷺ . أن لم يحىء موت رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — في صورة مفاجئة لهم ، بل لقد مرض رسول الله ﷺ لأول مرة مرضاً اضطر معه إلى أن يقطع به عادة اعتادها المسلمون منه ، وهي إقامة الصلاة بهم ، فيخلى صلوات الله وسلامه عليه هذا المكان لأبي بكر ، وإذا المسلمون لأول مرة في حياتهم يشهدون الصلاة في مسجد رسول الله بغير رسول الله ، تلك الصلاة التي لم يمكث بعدها الرسول إلا قليلاً حتى لحق بالرفيق الأعلى !!

(١) - سورة المائدة الآية ٣

(٢) سورة النصر

ولا شك أن هذا لا يردون أن يذكر المسلمين باليوم الذي يخلى فيه رسول الله ﷺ مكانه من هذه الدنيا . وأن يستقبل المسلمون الحياة بعده في غير صحبته ، وإن ظلوا في صحبة ملازمة مع سيرته فيهم ، يتأسون بها ، ويعيشون في طلبها !!

ثم يطول مرض رسول الله ﷺ ، فيكون بضعة أيام ، يشدد فيها المرض حيناً ، ويخف أحياناً ، والقلوب واجفة ، والنفوس مضطربة هالعة ، يتنازعها اليأس والرجاء ، ويعتامها الخوف والاطمئنان . . ثم تكثر الوسواس ويشدد الجزع ، كلما اشتد المرض برسول الله ﷺ ، وكلما غشيه منه ما يفشى الذين يحضرهم الموت من دلالات وإشارات تنبئ عنه ، وتشير إليه .

ومالت شمس النبوة للغروب ، وأخذت تلطم خيوطها ، وتجمع أشعتها شيئاً فشيئاً ، حتى اختفى آخر شعاع لها ، وبدأ الظلام ينسج من خيوطه السوداء ثوب الحداد للموكب الحزين الذي ينتظم معالم الوجود — عندئذ انبعث من قلب هذا الصمت الرهيب الذي خيم على المسلمين صوت صارخ : « مات رسول الله » !!

هكذا الأمر إذن ؟ أقد مات رسول الله حقاً ؟

والناس بين مصدق ومكذب ، قد كدهم الحزن ، وعقد ألسنتهم . الهول ، وذهب بمقولهم للصاب ، وحلت عزائمهم النازلة . . وجد الناس على الحال التي لقيهم هذا الخبر الصاعق عليها . . فاجلس من كان قائماً ، ولا قام من كان جالساً ، ولا نزل من كان راكباً ، ولا تحرك من كان ساكناً . . لقد استحال الناس إلى ما يشبه الدمى ، لا تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا .

ويفيق الناس شيئاً فشيئاً ، ويتحركون في تناقل وتباطؤ ، وتقلت العيون في ذهول وشروء ، وتتحرك الشفاه في خفوت وذبول . . . ويسمع عمر همهمات وهمسات ، أن رسول الله ﷺ قد مات . ويصحو عمر صحوة المحموم ، ويمسك سيفه في يده يتهدد به كل من يقول إن رسول الله ﷺ قد مات .

عن سالم بن عبيد الأشجعي قال : « لما مات رسول الله ﷺ كان أجزع الناس كلهم عمر بن الخطاب . . . قال : فأخذ بتأم سيفه وقال : « لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا . . . قال الناس يا سالم : اطلب صاحب رسول الله ﷺ — يعني أبا بكر — قال : فخرجت إلى المسجد فإذا بأبي بكر ، فلما رأيت أجهشت بالبكاء ، فقال : مالك يا سالم : أ مات رسول الله ﷺ ؟ قلت : هذا عمر بن الخطاب يقول : لا أسمع أحداً يقول مات رسول الله ﷺ إلا ضربته بسيفي هذا . . . قال ، فأقبل أبو بكر ، فلما رآه الناس وسعوا له ، فدخل على النبي ﷺ وهو مسجى ، فوضع البردة عن وجهه ، ووضع فاه على فيه واستنشا الريح ^(١) . — أى شمه — ثم سجاه . . . والتفت إلينا ، فقال : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين » ^(٢) . وقال « إنك ميت وإنهم ميتون » ^(٣) . « ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت » قال عمر : والله فكأنى لم أقرأ هذه الآيات قط . قالوا : يا صاحب رسول الله ﷺ : أ مات رسول

(١) أى أنه أراد أن يبعد أنفاس رسول الله ليستدل منها على حياته ، فلما لم يجد له

فلسا عرف أنه مات ! !

الله قال نعم ؟ قالوا : يا صاحب رسول الله ﷺ : من يغسله ؟ قال رجال أهل بيته ، الأذننى فالأذننى . . قالوا يا صاحب رسول الله ﷺ : أين يدفن ؟ قال فى البقعة التى قبضه الله عز وجل فيها ، لم يقبضه إلا فى أحب البقاع إليه (٢).

وعن جعفر بن محمد . . قال : قبض رسول الله ﷺ ، وأبو بكر غائب بالسنح (٤) « عند زوجته بنت خارجة ، فسل عمر سيفه ونوعد من يقول : مات رسول الله ﷺ ، وكان يقول : « إنما أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عاياه السلام ، فلبث — أى غاب — عن قومه أربعين ليلة ، والله إنى لأرجو أن يقطع أيدى رجال وأرجلهم » فأقبل أبو بكر من السنح حين بلغه الخبر إلى بيت عائشة ، فأذنت له ، فدخل ، فكشف عن وجه رسول الله ﷺ ، فجننا يقبله ويبكى . ويقول : توفى رسول الله ﷺ والذى نفسى بيده . . صلوات الله عليك يا رسول الله . . ما أطيبك حيا وميتا » ثم خرج سريعا إلى المسجد ، حتى جاء المنبر ، فقام عليه ، ونادى الناس : اجلسوا ، فجلسوا وأنصتوا ، فشهد شهادة الحق ، ثم قال : إن الله تعالى : نعى نبيكم وهو حى بين أظهركم ، ونعى لكم أنفسكم ، وهو الموت ، حتى لا يبقى أحد إلا الله

وفى البخارى ومسلم ، عن أبى سدة ، عن ابن عباس ، أن أبا بكر خرج وهو يكلم الناس ، فقال — لعمر — اجلس ، فأبى ، فقال : اجلس ، فأبى

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٢) سورة الزمر : ٣٠ .

(٣) الرياس النضره جزء ١ / ص ٩٢٥ — ١٣٦ .

(٤) السنح : بضم السين ، مكان على أطراف المدينة .

فتشهد أبو بكر ، فقال إليه الناس وتركوا عمر ، فقال : أما بعد ، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً ﷺ قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت . . قال الله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . . إلى قوله تعالى . . وسيجزى الله الشاكرين » . . فوالله لكان الناس لم يكونوا يعلمون أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر ، فتلقاها منه الناس ، فما نسمع بشراً إلا يتلوها ، وفي البخاري ، عن عائشة — رضى الله عنها — أن رسول الله ﷺ مات ، وأبو بكر بالسنح — تعنى العالية — فقام عمر يقول : والله مامات رسول الله ﷺ ، فجاء أبو بكر ، فكشف عن رسول الله ﷺ قبله ، وقال : بأبي أنت وأمي طبت حيا وميتا . . ثم خرج ، فقال أيها الخالف — يقصد عمر — على رساك . . فلما تكلم أبو بكر ، جالس عمر ، فحمد — أى أبو بكر — الله وأثنى عليه ، وقال : ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت . . ثم تلا الآيات . فتشج^(١) الناس فيكون .

لم يكن إذن عمر وحده الذى أدهلته هذه الصدمة العاتية ، بل إن هذا الموقف قد أخذ بقول المسلمين جميعا ، وأطوار صواب كثير منهم ، وربما كان من ذلك ما هو أشد من الإنكار لموت رسول الله الذى تلفظ به عمر ، ليجد منه المزاء الذى يمسك عاياه بعض نفسه ، إلى أن يستجمع وجوده ، ويواجه هذا الأمر العظيم . . ولسنا نستبعد أن يكون بعض المسلمين قد مات صعباً في هذا اليوم ، أو طار عقله ، فارتد كافراً بالله الذى أمات محمداً !!

(١) تشج من المفزع ، وهو صوت يسمع من الباكي حين يشهد في البكاء .

وإذا كانت الأخبار قد تواردت بأن عمر هو الذى وقف هذا الموقف شاهرا سيفه مهددا متوعدا من يقول إن رسول الله قد مات - فذلك إلا لأن عمر قد كان أبرز وجوه المسلمين ، وقد غاب أبو بكر ، وشغل على تجهيز رسول الله ﷺ ، والإقامة بشثونه بعد موته . . فكان على عمر والأمر كذلك أن يحفظ نظام الجماعة الإسلامية ، وأن يمسك وجودها ، وألا يدع خبر موت رسول الله - فى هذه اللحظة الحرجة أمراً واقعاً ، وذلك إلى أن يتحقق هذا الخبر أولاً ، ثم ليسكن لأصحاب رسول الله ﷺ التدبير الذى يواجهون به هذا الموقف الرهيب .

وهذا الذى كان من عمر لم يكن بالذى يغيب عنه ، أو يقع منه موقع الشك والارتياب لو أثير هذا الأمر فى حياة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بل إن عمر هو الذى كان يجرّد سيفه على من يقول إن رسول الله ﷺ لا يموت كما جرده اليوم على من يقول إن رسول الله ﷺ قد مات .. ولكن وقع الصدمة - كما قلنا - كان شديداً على نفس عمر ، وأمله كان فسيحاً كبيراً ، فيما سوف يتحقق للمسلمين فى حياة الرسول ، بعد أن دخل العرب جميعاً فى دين الله . . إن الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأصحابه معه كانوا إلى ما قبل فتح مكة ، فى صراع متصل مع المشركين والمنافقين فلم يسكن صحابة رسول الله - والأمر كذلك - يستطيحون أن يستصفوا وقتهم كله إلى جوار رسول الله ﷺ ، والسكن إليه ، والاستغلال بظله . وإنما كان ما تسمعهم الحياة به لحظات خاطفة من لحظات السلم يقضونها فى ظل رسول الله ، ثم لا يلبثون إلا قليلاً حتى يستدعيهم داعى الجهاد .

كان عمر رضى الله عنه يدخر الجزء العزيز من حياته للحياة مع رسول الله ﷺ فى هذا الجو الذى ررفت فيه أعلام السلام ، وخذت فيه نار الحرب ..

ذلك ما كان قد ترسب في مشاعر عمر ، وأصبح بعضاً من نبضات قلبه ،
ومسارب وجدانه . .

وإذا كان كثير من الصحابة يشارك عمر هذا الإحساس المسعد ،
ويدبر في نفسه مثل هذا الأمل العزيز - فإن الأمر عند عمر كان أكثر
من مجرد إحساس أو أمل . . إن ذلك كان عنده أمراً لازماً ، وحقيقة
مقررة ، بما استقرأه من بعض آيات القرآن ، وبما استنبأه من إشاراتنا .
وكما جادل رسول الله ﷺ وأبا بكر في صلح الحديبية ، وأن الرسول
صلوات الله وسلامه عليه كان يومئذ قد وعد المسلمين بدخول مكة ، ثم هم وأولاء
يصدون عنها ولا يدخلونها - كذلك جادل عمر في موت النبي ، وكيف
يموت ولم يحىء مصداق قوله تعالى « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين
الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »^(١) فلقد وقع في نفس عمر
أن هذا أمر لا بد أن يتم في حياة الرسول - صلوات الله وسلامه عليه -
كما وقع في حسابه - من قبل - أن النبي والمسلمين معه سيدخلون مكة في
هذا العام الذي صدوا فيه عن البيت الحرام . . وقد دخل النبي والمسلمون
مكة في العام التالي فاتحين ظافرين ، وسيظهر دين الله على الأديان كلها
في دورة من دورات الزمن ، أشبه بدورة من دورات العام . . ولكن
عمر بطبيعته الجازمة الحاسمة استعجل الزمن ، ولم يقبل أن يكون الزمن
بعضاً من العلاج ، وعنصراً من عناصر النجاح ، بل لا بد أن يكون هذا
الوعد منجزاً وفي حياة الرسول !!

ماذا يؤخذ على عمر في هذا الموقف ؟

وقد كان موقف عمر هذا ، من إشهار سيفه في وجه من هتفوا بموت

النبي يوم مات كان هذا مطعنا من المطاعن التي عددها عليه بعض فرق الشيعة ، ممن همهم كله هو اصطيداد العيوب فيه ، وتلفيق التهم له .. وقديماً قيل : من طلب عيباً وجده .. وكل هم — بعض فرق الشيعة في هذا — هو تجريح عمر ، وأنه لا يصلح للخلافه ، وأنه هو وأبو بكر اغتصبا الخلافه من علي !!

وناخص هنا ، ما طعن به الطاعنون على عمر في موقة هذا ، فيما أورده العقبة المعتزلي « عبد الجبار » في كتابه الغنى « وما كان للشریف المرتضى ، من رد عليه ، ثم ما كان لابن أبي الحديد - المعتزلي ^(١) وشارح نهج البلاغة - من تعقيب على الشریف المرتضى :

قال عبد الجبار :

أول ما طعن به عليه — أي على عمر — قول من قال : إنه بلغ من قلة علمه ^(٢) أنه لم يعلم أن الموت يجوز على النبي ﷺ ، وأنه أسوء الأنبياء في ذلك ، حتى قال — أي عمر — « والله مامات محمد ، ولا يموت حتى تقطع أيدي رجال وأرجلهم » فلما زاد عليه أبو بكر قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وتلا قول الله تعالى : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم .. » الآية .. قال : أيقنت بوفااته ، وكأني لم أسمع هذه الآية .

(١) والمعتزلة أقرب فرق الإسلام إلى الشيعة ، وأكثر رجال الشيعة من المعتزلة .
(٢) وعمر ممن شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعلم ، و قوله — صلوات الله وسلامه عليه فيما رواه البخاري ، عن ابن عمر . قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا أنا نائم إذ رأيت قدحاً أميت به ، فيه لبن ، فصربت حتى لقي لأرى الرمي يجري في أطفاري ، ثم أعطيت فضلي — أي ما فضل مني — عمر بن الخطاب » قالوا فما أول ذلك يا رسول الله ؟ قال « العلم » .. فكيف يتهم عمر بعد هذا بأنه على غير علم ، وقد شرب من العلم الإلهي الذي شرب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

ثم يقول عبد الجبار ، على لسان الطاعنين في عمر :
فلو كان يحفظ القرآن ، أو يفكر فيه لما قال ذلك ، وهذا يدل على
بعده من القرآن وتلاوته ، ومن هذا حاله لا يجوز أن يكون إماما !

ويرد عبد الجبار على هذا بقوله :

« هذا لا يصح ، لأنه قد روى عنه - أى عن عمر - أنه قال « كيف
يموت ، وقد قال الله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وقال تعالى :
« وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

ولذلك نقى - أى عذر - موته عليه الصلاة والسلام ، لأنه حمل
الآية على أنها خبر عنه - صلوات الله وسلامه عليه ، في حال حياته ، .
حتى قال له أبو بكر : إن الله وعده بذلك وسيفعله ، وتلا عليه ما تلا ،
فأيقن عند ذلك بموته . . وإما ظن أن موته يتأخر عن ذلك الوقت ،
لا أنه منع من موته .

وقوله - أى عمر - كأنى لم أقرأ هذه الآية أو لم أسمعها تنبيه على
ذهوله عن الاستدلال بها ، لا أنه على الحقيقة لم يقرأها ولم يسمعها .

وبعترض الشريف المرتضى من الشيعة - على ما أورده « عبد الجبار »
ردا على هذا المظن ، فيقول ليس يخلو خلاف عمر في وفاة رسول الله .
صلى الله عليه وسلم من أن يكون على سبيل الإنكار لموته على كل حال ،
والاعتقاد بأن الموت لا يجوز عليه على كل وجه ، أو يكون منكرا لموته
في تلك الحال من حيث لم يظهر دينه على الدين كله .

فإن كان الأول - وهو إنكار موت النبي أصلا - فهو مما لا يجوز
خلاف العقلاء في مثله ، والعلم يجاوز الموت على سائر البشر لا يشك فيه عاقل

والعلم من دينه عليه الصلاة والسلام ، بأنه سيموت كما مات من قبله —
خرورى ، وليس يحتاج فى مثل هذا إلى الآيات التى تلاها أبو بكر

وإن كان خلافه على الوجه الثانى — وهو أن النبى لا يموت فى هذا
الوقت — فأول ما فيه أن هذا الخلاف لا يليق بما احتج به أبو بكر من
قوله « إنك ميت وإنهم ميتون » لأنه لم ينكر على هذا جواز الموت ،
ولمّا خالف فى تقدمه — أى تقدم الموت ومجيئه قبل أوأنه — وقد كان يجب
أن يقول — أى عمر — وأى حجة فى هذه الآيات على من جوز عليه — صلى
الله عليه وسلم — الموت فى المستقبل ، وأنكره فى هذه الحال ^(١) .

ثم يقول المرتضى : وبعد ، فكيف دخلت هذه الشبهة البعيدة على
عمر من بين سائر الخلق ^(٢) ؟ ومن أين زعم أنه لا يموت — أى النبى —
حتى يقطع أيدي رجال وأرجلهم ؟ وكيف حمل معنى قوله تعالى : « ليظهره
على الدين كله » وقوله تعالى « وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » على أن ذلك
لا يكون فى المستقبل بعد الوفاة ؟ وكيف لم يخطر هذا إلا لعمر وحده ؟
ومعلوم أن ضعف الشبهة إنما يكون من ضعف الفكرة ، وقلة التأمل والبصيرة !!
وكيف لم يوقن بموته لما رأى ما عليه أهل الإسلام من اعتقاد موته ، وما
ركبهم من الحزن والكآبة تفقده ؟ وهلا دفع بهذا اليقين ذلك التأويل
البعيد ، فلم يحتج إلى موقف ومعرف ؟

(١) أى أن قوله تعالى « إنك ميت وإنهم ميتون » لا يرد على إنكار عمر موت النبى
حتى هذا الوقت قبل أن يصح قوله تعالى « ليظهره على الدين كله » .

(٢) ومن قال إن هذا الموقف كان من عمر وحده دون سائر المسلمين حين بلّغهم موت
النبى ؟ إن عمر — كما قلنا — كان أبرز وجوه المسلمين — قبل مجيء أبى بكر — وتحققه من
موت النبى — ولهذا كان الحديث منه فى هذا المقام ، ولم يشر إلى أحد غيره ، وقد قلنا إنه
لا يستبعد أن يكون الأمر قد بلغ بعض المسلمين أن يموت صاعقاً من هذه الصدمة !!

ويقول ابن أبي الحديد تعقيباً على هذا كله :

« الذى قرأناه ورويناه من كتب التواريخ يدل على أن عمر أنكر موت رسول الله ﷺ من الوجهين المذكورين : أنكر أولاً أن يموت إلى يوم القيامة ، واعتقد عمر أنه يقمر ، كما يعتقد كثير من الناس فى الخضر ، فلما حابه أبو بكر بقوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون » وبقوله تعالى « أفان مات أو قتل » « رجع عن ذلك الاعتقاد » .

ثم يقول « وليس يرد على هذا ما اعترض به المرتضى ، لأن عمر ما كان يعتقد استحالة الموت عليه كاستحالة الموت على البارى تعالى - أعنى الاستحالة الذاتية - بل اعتقد استمرار حياته إلى يوم القيامة .

« فأما قول المرتضى رحمه الله : وكيف دخلت هذه الشبهة على عمر من بين الخلق ؟ فهكذا تكون الخواطر والشبه والاعتقادات ، تسبق إلى ذهن واحد دون غيره .

وأما قوله : « كيف لم يؤمن بموته لما رأى من كآبة الناس وحزنهم » فذلك لأن الناس يبنون الأمر على الظاهر ، وعمر نظر فى أمر باطن دقيق ، فاعتقد أن الرسول لم يموت ، وإنما أتى شبهه على غيره ، كما ألقى شبه عيسى على غيره ، فصلب ، وعيسى قد رفع ولم يصلب^(١) .

ونقول إن الأمر أهون من ذلك - لو نظر إلى موقف عمر فيه نظراً مجرداً من التعصب .. إنسان أحب إنساناً بروحه ، وعقله ، وقلبه ، وبكل خلية فى جسده ، وبكل قطرة دم فى عروقه ، ثم يراه وقد آذنه بفراق طويل ،

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .. الجزء الثانى عشر ص ٢٩٥ وما بعدها

«وسفر لا لقاء بعده في هذه الدنيا . . فكيف تكون حال هذا الإنسان ؟ وكيف يتلقى هذه الصدمة المزلزلة ؟ وهل ينكر عليه أن يفشاه في تلك الحال ذهول - ولو لساعة من الزمان - يشرذ فيها عقله ، ويعزب فيها عنه وعيه ؟ ذلك أقل ما يكون في هذا الموقف من رجل كعمر ، وتعلمته برسول الله ﷺ وارتباطه الروحي به .

أن عمر - كما قلنا - لم ينب عنه لحظة واحدة أن رسول الله - ﷺ - واقع تحت حكم الموت الواقع على كل حي . . ولكن ما كان منه في إنكار موت النبي ، هو أن يموت النبي ، ولم يحقق ما كان عمر يطمع في تحقيقه على يده . من إظهار دين الله على الدين كله . . وهذا ما صرح به عمر بعد بيعة أبي بكر . .

فقد روى ابن إسحق ، عن أنس بن مالك قال : « لما بويع أبو بكر في السقيفة ، وكان من الغد جلس أبو بكر على المنبر ، فقام عمر ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أيها الناس . إني قد كنت قلت لكم بالأمس مقالة ، ما كانت ، ولا وجدتُها في كتاب الله عز وجل ، ولا كانت عهداً عهداً إلى رسول الله ﷺ ، ولكنني كنت أرى رسول الله ﷺ سيدبرنا - أي يكون آخرنا موتاً - وأن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي هو هدى رسول الله ﷺ ، فإن اعتصمتم به هداكم لما كان هداه له . »

إن موقف عمر هنا ليدل على أنه كان يحمل من هموم الإسلام والمسلمين ما لا يحمله ، أو يحمل بعضه كثير غيره ، وإذا كان رسول الله ﷺ هو نظام عقد الإسلام ، وجامعة أمره ، فإن إخلاء النبي مكانه من

بين المسلمين يلقى على مشاعر عمر من الهم ما لا يليق على غيره ، لأن طبيعة عمر تفرض عاياه أن يحمل عن الإسلام والمسلمين كل عارض ، ولو كان في ذلك هلاك نفسه . . وموت الرسول يضع عمر أمام تجربة رهيبة ، ويلقى عليه من الأعباء ما تنوء به الجبال . . فلا عجب إذا أخذه من هول الصدمة ما يزلزل وجوده ، ويذهب بصوابه ، ولو لاحظنا عابرة من الزمن !!

أما ما يذهب إليه ابن أبي الحديد من أن عمر أنكر موت النبي يومئذ لأنه كان يظن أنه لن يموت إلى يوم القيامة ، وأنه سيعمر كما يعتقد كثير من الناس في الخضر ، أو أنه كان يعتقد أنه ألقى شبهه على غيره — وأن الله تعالى رفعه إليه كما رفع المسيح إليه بعد أن ألقى شبهه على غيره — فهذا كله أبعد ما يكون عن اعتقاد عمر أو ظنة .

وكيف يكون هذا من اعتقاد عمر أو ظنه ، وقد جاءت آيات القرآن تنعى النبي إلى المسلمين ، وكان هذا حديثاً مداراً بين المسلمين ؟ ثم ألم يسمع عمر قول رسول الله ﷺ في خطبة الوداع ، وهو يقول : « اسمعوا أيها الناس ، فلعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا ؟ » إنه لو وقع في نفس عمر شبهة في هذا لقام إلى رسول الله ﷺ يسأله : كيف يقول هذا والله سبحانه وتعالى يقول : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؟ »

وكيف يتمجّل النبي لقاء ربه ولم يظهر دينه على الدين ؟ . إن عمر قد راجع النبي وحاجه في الرؤيا التي رآها بدخول المسجد الحرام ، فلما لم يدخل النبي بالمسلمين المسجد الحرام عام الحديبية لم يسكت عمرو قال للنبي : ألم تقل لنا إننا سندخل المسجد الحرام ؟ فإذا كان هذا هو موقف عمر مع الرؤيا التي رآها النبي ، أفلا يكون هذا مع ما نطق به قوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » — إذا كان عمر قد فهم تلك الآية على

هذا الفهم الذى أزموه إياه ؟ — ذلك ما لا يستقيم على أى وجاه من وجوه المنطق أبداً .

ثم إنه لو صححت النيات فى تأويل هذا الموقف من عمر — رضى الله عنه — لكان له متأولاً آخر ، وهو أنه رضى الله عنه ، حين بلعه موت النى ، خاف الفتنة على المسلمين ، فتتفرق بهم السبل ، ويقوم فيهم المنافقون الذين كانوا يستبطلون الكفر بالردة عن الإسلام ، وانفراط عقد المسلمين ، فكان منه هذا الموقف ، حتى يمسك على المسايين وحدثهم ، ولا يجعل للمناقين سبيلاً إلى المهاجرة بكفرهم ، حيث يتمثل لهم أن رسول الله ﷺ لا يزال باقياً بين المسلمين ، على عهدهم به .. فما أكثر الذين التى تقوم بين الجماعة حين يموت الزعيم الذى كان قائماً عليها بعد موته !

هذا ما كان يحول بخاطر عمر حين أمسك بسيفه ، ونادى بقطع أيدي رجال وأرجلهم ممن خيل إليهم أن موت رسول الله ، يفتح لهم الطريق إلى إعلان الثورة على الإسلام والمسلمين !

ولقد صدقت فراسة عمر ! ! لم يكن اجتماع المجتمعين يوم السقيفة — والرسول الكريم لم يدفن بعد — كاد يكون فتنة ، لولا أن الله تعالى سد بابها بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة بن الجراح حيث تمت البيعة بالخلافة لأبى بكر ، والنابى يقول عنها عمر « إن بيعة أبى بكر كانت فاتته ، وفى الله الناس شرها » ؟ ثم ألم يكن ارتداد المرتدين بعد موت رسول الله ﷺ فتنة كادت تعصف بالإسلام ، لولا أن قيض الله لها أبا بكر ومن معه من صحابة رسول الله ؟ فإذا لو حل موقف عمر فى موت الرسول الكريم على هذا الحمل ؟ وما فيه من حيطة للحفاظ على وحدة المسلمين ، وهم فى مواجهة هذا المصاب العظيم ؟

الفصل الرابع

يوم السقيفة .. وما بعده

« اللهم أعز الإسلام بأحب العمرين إليك »

« اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ١١ » [حديث شريف]

دعوة مستجابة من رسول الله ﷺ في عمر بن الخطاب . كسب بها الإسلام كسباً عظيماً في هذا الدور من بزوغ شمس في هذا الدنيا ، وسط هذا الضباب المتكاثف ، وبين تلك الغيوم المتركة من الجهل والضلال .

دعوة مستجابة نذكرها دائماً كلما غشيت الإسلام غاشية ، وألم بالمسلمين خطب ، قرئ عمر بن الخطاب يطلع كما يطلع القدر المسعد ، فيجلى عن وجه الإسلام الغشاوة ، ويدفع عن المسلمين عواذى الخطب النازل ١١

هكذا كان عمر مع أول يوم دخل فيه في دين الله ، إلى يوم وفاته ... وهكذا كان عمر منذ وفاته وإلى اليوم ... حيث كانت سيرته ، وكانت مواقفه الرائعة الخالدة أسوة للمتأسى ، وقدوة للمقتدى ، لمن تغفاه من أولى الأمر غاشية ، أو تلم به نازلة ، تهدده في سلطانه ، وتزلزل قواعده بنيانه ، ثم يكون له من نفسه واعظ يدعو إلى طلب السلامة ، وارتياح طريق النجاة ، والاستضاءة بنور الحق والعدل والحزم ، فيرتفع له حينئذ من عمر ابن الخطاب وسيرته ، لواء يلوذ به ، وحى يلتجئ إليه ، إذ يجد في (١٠ م - عمر بن الخطاب)

مواقف عمر العادلة الحاسمة ، الهادى الذى يهديه ، والمثل القويم الذى يمثله .

وعمر فى عطاء الرجال أشبه ببيت القصيد فى القصيدة العصماء ، تجود بها شاعرية شاعر ملهم . فيكون بيت قصيدها هذا مثلاً سارياً ، وحكمة جارية ، يُستدعى عند كل موقف ، ويُهتفُ به عند كل خصومة ، فيكون فيه مقطع الرأى ، وفصل القول .

وقد ذكرنا من قول كيف كان التقاء عمر بالإسلام لأول مرة ، وفى لحظة كانت قد ضاقت فيها على المسلمين الأرض بما رحبت ، وكيف جاء عمر فى هذا اليوم فدعا رسول الله ﷺ والمسلمين معه إلى الخروج من معزلم فى بيت الأرقم ، إلى مواجهة قريش ، وتحديها ، والجر بدعوة الإسلام فى وجهها .. ولأول مرة يخرج النبى ﷺ بموكب المسلمين ، ويطلع به على قريش ، ولأول مرة تنفذ أضواء الإسلام إلى شعاب مكة وطرقاتها ، فتنبهر بجلال هذا النور عيون وتغشى به عيون ١١

واليوم ، وقد غربت شمس النبوة ، وأخلى رسول الله ﷺ مكانه من هذه الدنيا ، اليوم وقد أظلمت دنيا المسلمين ، بعد غياب نبينهم ، واستولت عليهم حال من الحيرة والاضطراب ، لا يدرون معها إلى أين تتجه بسفينةهم رباح المستقبل ١١ إن خطر التيه محقق بهم ، وإنهم لن يخرجوا من هذا التيه إلا أن يهتدى الله تعالى لهم من أمرهم رشداً ، وإلا أن يقوم من بينهم الربان الماهر الذى يسك زمام السفينة ، ويقم وجهها على الاتجاه الذى كان النبى ﷺ قد وجهها إليه .

وندع هذا الحديث الذى يعتمد على لغة الشعر ، أكثر من اتكائه على لغة العلم ، ورسم صورة الواقع كما هو ، من غير ألوان أو ظلال لنقول :

لم يخف على المسلمين الخطر الذى كان يهددهم بعد وفاة النبي ﷺ ، كما لم يقب عن كثير منهم أن أعظم الخطر وأشدّه عليهم ما يأتيهم من جهة أنفسهم ، وتنازعهم جماعات وأفراداً في أمر الخلافة على المسلمين بعد النبي العظيم . . .

فهناك الأنصار والمهاجرون ، وهناك القبائل العربية من غير الأنصار والمهاجرين . . .

والأنصار ، ولهم حجتهم على أنهم هم أولى الناس بالخلافة على المسلمين بعد رسول الله ﷺ . . فهم الذين آووا رسول الله ﷺ ونصروه ، وقاسموا المهاجرين دورهم وأموالهم . . فهم لهذا أولى الناس بالنبي ، لأنهم أولى به من أهله الذين أخرجوه من بلده ، وآذوه في نفسه ، وأهله وصحبه .

والمهاجرون . . ولهم حجتهم ، على أنهم أولى الناس لإسلاما ، وأنهم أقرب قرابة إلى رسول الله من الأنصار ، وأنه إذا كان الأنصار قد نصروا الإسلام ، وآووا المهاجرين ، فإن المهاجرين قد تركوا الدنيا كلها وراء ظهورهم ، وباعوا أهلهم ، وقطعوا أرحامهم ، بل قتلوا بسيفهم أقرب الناس إليهم في سبيل إعزاز دين الله ، ونصرة رسول الله ﷺ .

ثم إنه إذا كان للأنصار رجلهم الذى يجتمعون عليه ، إذا سلم له المهاجرون بهذا الأمر ، فإن المهاجرين كان لهم أكثر من رجل يصلح لهذا الأمر ، ويتصدى له ، وينازع فيه .

فإذا ذكرت الصحبة لرسول الله ، والسبق إلى الإسلام ، ذكر على ، وأبو بكر ، وطلحة ، والزبير ، وعثمان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعيد ابن أبي وقاص ، وعمر بن الخطاب . . .

وإذا ذكرت الهجرة ، فهؤلاء كلهم قد هاجروا ..
وإذا ذكر البلاء والجهاد .. فهؤلاء كلهم قد ابتلوا وجاهدوا ..
وإذا ذكرت القرابة من رسول الله ﷺ ، فكلهم فرع من شجرته
الباركة الميمونة .

وإذا ذكر رضا الله ورسوله ، فكل هؤلاء ممن رضى الله ورسوله عنهم ،
وكلهم ممن بشره الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بالجنة .
الأمر إذن كان معقداً أشد التعقيد ، والخروج منه لا يكون إلا بمعجزة
تكون آخر معجزات رسول الله ﷺ التي يشهدها المسلمون ، وهو بينهم لم يدفن
بعد ، ولم يوار جسده الشريف ، ولم يغب وجهه الكريم عنهم .. وقد جاءت
المعجزة ، فاهتدى المسلمون ورشدوا ، واجتمعت كلهم على الرجل الذي
يخلف رسول الله ﷺ .

رسول الله . ومن يخلفه ؟

وهنا سؤال يعرض في هذا المقام ، وهو : هل أوصى رسول الله ﷺ
قبل وفاته بمن يخلفه على المسلمين من بعده ؟ .

هذا سؤال قد كانت الإجابة عليه ، بلا ، وبنعم . وبين لا ، ونعم ،
تضاربت الآراء ، وتصارعت الحجج ، وكثرت المقولات والموضوعات على
رسول الله ﷺ وعلى كثير من أصحابه ، وذلك بعد أن صار الأمر إلى
أهله ، وبعد أن أصبح تاريخاً من التاريخ ، فأتسع مجال القول للقائين ،
وانفسح المجال للمقولين على رسول الله ، بتقديم بعض الصعابة على بعض ،
وبالنص على استخلاف بعضهم دون بعض ..

ولا نريد هنا أن نزع بأنفسنا في مزدحم هذا المعترك ، إلا بالتقدير الذي

نلح فيه موقف عمر ، وأثره في حسم هذا الأمر ، وقطع الطريق على الخلاف فيه ، الأمر الذى لو وقع لتغير به وجه الإسلام ، ولذهب ربح دولته ، قبل أن تعمق جذورها ، وتمتد فروعها . . .

في البخارى ومسلم ، عن ابن عباس ، أن عمر قام على المنبر خطيباً ، فقال : لا يفتري امرؤ أن يقول إن بيعة أبى بكر كانت فلتة^(١) ألا وإنها كانت كذلك ، ألا وإن الله وفى شرها ، وليس فيكم اليوم من تقطع له الأعناق مثل أبى بكر ، وأنه كان من خيرنا حين توفى رسول الله ﷺ . . . إن علياً ، وأبا بكر ، ومن كان معهما تخلفوا في بيت فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، وتخلفت عنا الأنصار بأجمعها في سقيفة بنى ساعدة ، فاجتمع المهاجرون إلى أبى بكر ، فقلت : يا أبا بكر ، انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار ، فانطلقنا نؤمهم ، حتى لقينا رجلاً - صالحاً ، فذكرنا لنا الذى صنع القوم ، فقالا : أين تريدون يا معشر المهاجرين ؟ فقلت نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار فقالا : لا عليكم ألا تقربوهم ، واقضوا أمركم يا معشر المهاجرين . فقلت : والله لئن أنيهم . . . فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بنى ساعدة ، فإذا هم بجمعة معون . وإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل^(٢) فقلت من هذا ؟ قالوا : سعد بن عباد . فقلت : ماله ؟ قالوا : وجيع . . . فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ، وقال : أما بعد ، فنحن

(١) كانت فلتة ، أى جاءت على غير روية أو تدبير . . . وأمر عظيم كهذا لا يجرى إلا من روية وتدبير ، ولكن هكنا وقعت بيعة أبى بكر وكان الظن بها — وقد جاءت هكنا — ألا يجتمع المسلمون عليها ، ولكن الله تعالى وقى المسلمين الضر ، وأمضى لأبى بكر بيعته .

(٢) أى ملفف في ثوبه . . . ومنه قوله تعالى « يأبى المزمل » خطاباً للنبي الكريم ، وقد دخل بيته بعد أن فاجأه الوحى في غار حراء ، فجاء أهله يرجف فؤاده ، وقال : زملونى ، دثرونى .

أنصار الله ، وكتيبة الإسلام ، وأنتم يا معاشر المهاجرين رهط منا ، وقد دفت دافة منكم^(١) تريدون أن تختزلونا^(٢) من أصلنا ، وتحضنونا^(٣) من الأمر ، فلما سكت أردت - أي عمر - أن أتكلم ، وكنت قد زورت مقالة أعجبتني^(٤) أريد أن أقولها بين يدي أبي بكر ، وقد كنت أداري منه بعض الحدة - أي أمسك بعض الحدة التي عندي - وهو كان أحلم وأوقر ، فقال أبو بكر على رسلك ، فكرهت أن أغضبه ، وكان أحلم مني وأوقر .. والله ما ترك كلمة أعجبتني في تزويري إلا قالها في بديهة ، وأفضل ، حتى سكت .. فقال قائل من الأنصار : منا أمير ، ومنكم أمير . فكثرت اللفظ ، وارتفعت الأصوات ، حتى خشنا أخلاف ، فقلت : أبسط يدك يا أبا بكر ، فبسط يده ، فبايعته وبايعه المهاجرون ، ثم بايعه الأنصار .

هذا مجمل ما حدث يوم السقيفة ، وقد بايع الأنصار جميعاً ، أو سهم وخزرجهم ، إلا ما كان من سعد بن عباد ، فإنه لم يبايع ، ولم يكن لخلافه كبير شأن حيث كان وحده ، على خلاف ما أجمع عليه الأنصار جميعاً من بيعة أبي بكر ..

وهنا يفتح باب الخلاف بين المهاجرين ، بعد أن أغلق بابه من جهة الأنصار .. وتختلف بالمختلفين مذاهب الخلاف ودوافعه .

ولقد كان بنو هاشم وبنو عبد شمس يتقاسمون الزعامة على قريش في الجاهلية ويتنافسون عليها . فلما جاء الإسلام ، أصبح لبنى هاشم المكان

(١) دفت دافة : أي دبت دببياً خفياً ، يشير بذلك إلى أبي بكر وعمر وأبي عبيدة ابن الجراح .

(٢) تختزلونا : أي تقطعونا .

(٣) تحضنونا : أي تضعونا في أحضانكم كما تحضن الأم وليدها .

(٤) زورت مقالة : أي ألفتها وربيتها وحسنت وجهها بالحجة والمنطق .

الأول في العرب جميعاً . بل في الناس كلهم ، لا في قريش وحدها ، إذ كانوا بيت رسول الله ﷺ وآبائه الأقربين ، وكانوا المناخين عنه ، والمحتملين في سبيل دعوته أعباءها وشدائدها ، سواء منهم من دخل في الإسلام ، أو ظل على الشرك ، فمن لم تعطفه عاطفة الدين ، عطفته عصبية الدم والقرابة ، ولهذا دخل بنو هاشم جميعاً في شعب عبد المطلب ، حين قاطعتهم قريش ، لموقفهم من النبي ، فكتبت قريش بذلك وثيقة لمقاطعة بني هاشم : لا يعطونهم ، ولا يأخذون منهم ولا يزجونهم ولا يتزوجون منهم فكان أن اعتزل عبد المطلب قريشاً ، وجمع أهله في شعب سمى شعب عبد المطلب الذي كان أشبه بسجن ، دخل فيه بنو هاشم جميعاً ، مسالمهم ومشركيهم .

وكان اختيار أبي بكر خايفة للمسلمين — وهو يمي ، أى من غير بني هاشم ، وعبد شمس — كان داعية إلى تحريك العصبية الجاهلية عند كثير ممن أسلموا يوم الفتح ، إسلاماً لم يتمكن من قلوبهم بعد ، كآبي سفيان ومن على شاكلته .

وإذا لم يكن لأبي سفيان — وهو على رأس بني عبد شمس أن يطمع في الخلافة لأكثر من سبب يحول بينه وبين هذا المقام الذي للدين المكان الأول فيه — فقد سعى إلى إثارة بني هاشم ، وتحريضهم على أن يقولوا هذا الأمر بعد رسول الله ﷺ إذ هم أولى الناس بميراثه ، وأحقهم بتولى أمر المسلمين من بعده .

روى أنه لما بويج أبو بكر بالخلافة في سقيفة بني ساعدة دخل أبو سفيان على بن أبي طالب ، وعمه العباس بن عبد المطلب ، فقال لهما :

ما بال هذا الأمر في أدل قبيلة من قريش وأقلمها^(١)؟ والله إن شئت لأملأها عليه خيلا ورجلا ولأورثنها^(٢) عليه من أقطارها ، فقال على : ما تريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا ، ولولا أنا رأيت أهلكا ما خليتاه وإياها . يا أبا سفيان ، المؤمنون قوم نصيحة بعضهم لبعض متوادون وإن بعدت ديارهم ، والمناقون غششة بعضهم لبعض وإن قربت ديارهم^(٣) .

وفي قوله « على » هذه لأبي سفيان تعريض ولما كان لا يزال في قلبه من آثار الجاهلية ، ومن موقفه من الإسلام ، الذي انتزع ما كان له من مكانة في قريش .

وإذ يقتل « على » هذه الفتنة في مهدا حين يطلع بها أبو سفيان عليه ويربده أن يعمل الأمر إلى العصبية الجاهلية - فإن عليا كرم الله وجهه - كان مع ذلك يرى كما يرى معه بعض من المهاجرين والأنصار أنه أحق بالخلافة من أي من المسلمين ، لقرايته القريبة من رسول الله ﷺ ، ولسبقه إلى الإسلام ، ولبلاء سيفه في جهاد المشركين ولتواخاته لرسول الله ﷺ ، ولرباه في حجره ... ثم تزوجة من ابنته فاطمة رضي الله عنها التي انحصرت فيها ذرية رسول الله ﷺ من بعده .. إلى غير ذلك من الشواهد والقرائن التي كانت قائمة قبل وفاة النبي وبعد وفاته - تشير إلى مقام « على » من رسول الله ﷺ وإلى أنه أولى الناس بميراثه من بعده .

ولا نعرض لأحقية على بالخلافة أو عدم أحقيته ، ولا نحاول أن نقيم

(١) يعبر إلى « نيم » قبيلة أبي بكر ، التي لم يكن لها في الجاهلية ما كان لابي هاشم - رضى الله عنه - صلى الله عليه وسلم - ولأبني عبد شمس ، رضى الله عنه ، من مكانة في قريش .

(٢) أى أثيرها على أبي بكر .

(٣) الرياض النضرة : جزء ٢٥ ص ١٩٧ .

ميزاناً بينه وبين أبي بكر ، فكلاهما عندنا بمنزلة سواء في الفضل والإحسان ، وإن كلا منهما لأهل للخلافة على المسلمين بعد رسول الله ﷺ . وإن اختيار أحدهما للمء هذا المنصب لا يعنى بحال أن يكون أحدهما فاضلاً والآخر مفضولاً ، فكلاهما كما قلنا في الفضل سواء ، كما أن هذا لا يعنى أن غيرهما من صحابة رسول الله ﷺ دونهما في الفضل والإحسان .

ولكن الذى تقطع به هو أن رسول الله ﷺ لم يوص لأحد من الصحابة بالخلافة من بعده ، ولم ينص على ذلك نصاً صريحاً . . لأنه — صلوات الله وسلامه عليه — لو قصد إلى هـذا الأمر لجاء به واضحاً صريحاً ، ولجعله بلاغاً منه إلى المسايين جميعاً ، الأمر الذى لو وقع على تلك الصفة لكان حجة على كل مسلم ، ولكان خلافه والخروج عليه خلافاً لرسول الله ، وكفراً بالله وبرسوله ، وهذا أمر لا يمكن أن يتصور وقوعه في مجتمع المسلمين ، وخاصة مجتمع الصحابة رضوان الله عليهم .

لقد ترك رسول الله ﷺ الأمر من بعده للمسلمين يتولونه بأنفسهم ، ويدبرونه على الوجه الذى يرون فيه رضى لهم ، وحسبهم أن بين أيديهم كتاب الله وسنة رسوله ، ففيهما الناصح الأمين لها ، والهادى الذى لا يضل من اتبعه . أما الأشخاص أياً كانوا ، نهم زائلون ، وأما الحديث المروى عن رسول الله ﷺ فى « على » كرم الله وجهه وهو قوله - صلوات الله وسلامه عليه : « من كنت مولاه فعلى مولاه » فإن المراد بالموالاة - إن صح هذا الحديث - هو الحب له ، لقربه من رسول الله ﷺ ، فالحب لآل بيت رسول الله هو حب لله ولرسول الله ، إذ كانوا بيت الدعوة التى اهتدى بها كل مهتد . . وهذا ما يشير إليه قول الرسول الكريم فى « على » : « لا يحبك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » لأن من كان مؤمناً بالله ، أحب رسول

الله ، الذى دعاه إلى الله ، وأحب من يحب رسول الله ، ومن كان منافقاً ، فإنه يضر الكراهية والعداوة لرسول الله ، ولكل من يلوذ برسول الله . وأما أن تكون الموالاتة هى إقرار الخلافة لعل بعد رسول الله ﷺ فذلك بعيد ، من وجوه :

أولها : أن المبايعة بالخلافة ، لا يترتب عليها حب الخليفة حباً موصولاً بحب الله ورسوله ، إذ قد ينحرف الخليفة عن سواء السبيل ، فلا يكون حبه حباً لله ولرسول الله .. على حين أن ولاء الحب يكون دائماً ، سواء أكان على خليفة أو غير خليفة . . بل إن بُعداً على عن الخلافة هو الذى جمع القلوب على حبه كرم الله وجهه ، فلما لبس ثوب الخلافة كثر الخلاف عليه والمبغضون له ، والمالكون كفرأ ونفاقاً فى سبه ، والعدوان عليه والتطاول على مقامه .

وثانيهما : أنه لو كان المقصود من قول الرسول الكريم « من كنت مولاه فعلى مولاه » إن صح هذا الخبر - هو مبايعة على الخلافة بعد رسول الله ﷺ لكان جميع المسلمين الذين بايعوا أبابكر آثمين ، بل كافرين لخروجهم عن أمر رسول الله ﷺ وهذا منفي عن المسلمين بإجماعهم علىبيعة أبى بكر ، ويقول رسول الله ﷺ « لا تجتمع أمتى على ضلالة » .

وثالثها : أن علياً - كرم الله وجهه - وهو صاحب الموقف هنا ؛ قد بايع أبابكر رضى الله عنه ، وهذا إقرار منه بأن الموالاتة غير البيعة بالخلافة ، وإلا لكان عليه أن يثبت على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه ولو تخطفته الطير ..

رابعها : أن علياً - كرم الله وجهه - قد روى عنه أكثر من خبر صرح فيه بأن النبي ﷺ لم يعهد له بالخلافة ...

فمن ابن عباس أن العباس أخذ بيد « علي » وقال له : ألا ترى أنك بعد ثلاث عبد العصا ؟ والله لأرى رسول الله ﷺ سيتوفى في وجهه هذا ، وإني لأعرف الموت في وجوه بني عبد المطلب ، فاذهب إلى رسول الله ﷺ فاسأله فيمن يكون هذا الأمر ؟ ، فإن كان فينا علمنا ذلك ، وإن كان في غيرنا أمرنا وأوصى بنا ؛ فقال علي : والله إن سألناها رسول الله ﷺ فتمناها لا يعطيناها الناس أبداً !!

وعن الحسن البصري قال : قال لي علي بن أبي طالب لما قبض رسول الله ﷺ نظرنا في أمرنا ، فوجدنا النبي ﷺ قدم أبا بكر في الصلاة ، فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لدينا .

وعن قيس بن عباد قال : قال لي « علي بن أبي طالب » : إن رسول الله ﷺ مرض ليالي وأياما ينادى بالصلاة ، فيقول : مروا أبا بكر فليصل بالناس .. فلما قبض رسول الله ﷺ نظرت فإذا الصلاة علم الإسلام ، وقوام الدين ، فرضينا لدنيانا من رضيه رسول الله ﷺ لدينا ، فبايعنا أبا بكر . وقد اختار الله سبحانه وتعالى للمسلمين ، وساق إليهم هذا العزاء الجليل بمصائبهم في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ وقفهم إلى البيعة لأبي بكر بالخلافة من بعده ..

ونذكر هذا الذي نذكره من يوم السقيفة ، وبيعة أبي بكر ، لنذكر معه فضل عمر في هذا اليوم ، وما بعد هذا اليوم ، إذ كان - رضى الله عنه - هو قطب هذا الحدث ، والحرك له ، والعامل على سد كل ثغرة من الخلاف فيه .

لقد كان أبو بكر - رضى الله عنه - راغباً عن هذا الأمر زاهداً فيه ، ولولا أن عمر كان قائماً من ورائه ، يحثه على حمل ما حمل ، ويدفع عنه

كل ربيع تهب عليه من المخالفين له ، ويحمل معه كل أمر ينوبه - لولا همر وموقفه هذا لما استقام لأبي بكر أمر ، ولاتمت له البيعة ، ولوقع المسلمون في أمر مريب ، ولكان لهم يوم كيوم الجمل ، أو يوم صفين ١١

ولو أن عمر - رضى الله عنه - كان هو الذى قبل البيعة بالخلافة حين قال أبو بكر وهو يواجه الأنصار يوم السقيفة : « وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين - أى عمر أو أبا عبيدة - فبايعوا أيهما شئتم » - نقول : لو أن عمر قبل البيعة يومئذ لما كان يجد من نفسه تلك القوة التى واجه بها الذين ترددوا فى بيعة أبى بكر ، إذ يكون دفاعه حينئذ عن نفسه موضع تهمة ، أما دفاعه عن أبى بكر فلا يمكن أن يحمل على هذا الحمل .. ولهذا فإن عمر أطلق يديه جميعاً للعمل وراء أبى بكر ، ومواجهة الممتنعين عن البيعة له بكل ما عرف عنه من قوة وصرامة .

قال ابن شهاب : « وغضب رجال من المهاجرين فى بيعة أبى بكر ، منهم على بن أبى طالب ، والزبير ، فدخلوا بيت فاطمة - رضى الله عنها - معهم السلاح ، فجاءهما عمر بن الخطاب فى عصابة من المسلمين ، فأخذ أحدهم سيف الزبير فضرب به الحجر حتى كسره » . ويعلق ابن شهاب على كسر سيف الزبير فيقول : - وهذا محمول على تقدير صحته - أى صحة هذا الخبر - على تسكين نار الفتنة ، وإغماط سيفها ، لا على قصد إهانة الزبير (١) .

وهذا هو التعليل الذى يمكن أن يقبل عليه هذا الخبر على فرض صحته فإن رجلاً كالزبير بن العوام حوارى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وزوج حمته صفية ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وواحد من فرسان

العرب المعدودين - إن رجلاً كهذا لا يمكن أن يصبر على هذا الذي فعل .
من كسر سيفه ، وأن يلقاه بالتسليم ، ولو كان في ذلك قتله ، ولكنه حل
الأمر على الحمل الذي لا يراد به إلا جمع كلمة المسلمين ، ووصل ما بينهم
من أواصر الأخوة في دين الله ..

ومثل هذا يقال فيما يروى من أن عمر ذهب إلى بيت فاطمة - رضى
الله عنها - وفيها « على » ، وجماعة من الذين كانوا على رأيه في التوقف
في بيعة أبي بكر ، ثم أئذ القوم بإحراق الدار عليهم ، إن لم يخرجوا البيعة
أبى بكر ، والدخول فيما دخل فيه المسلمون .. فإما كان عمر - رضى الله عنه -
بالذى يجرؤ على اقتحام بيت بنت رسول الله ﷺ ، وتهديد من فيه بالحرق ،
ولا كان « على » - كرم الله وجهه - ومن معه ، كطلحه والزبير ، ممن
يقبلون هذا ، ولا ماهودونه من عمر أو غيره ، لو لم يكن الأمر محمولا
عندهم على محمل النصح لدين الله ، وجمع الكلمة بين صحابة رسول الله ،
الذين هم وجه الاسلام ، وأئمة المسلمين .

وقد أحسن شاعر النيل ، حافظ إبراهيم ، رحمه الله في تصوير هذا
الموقف ، إذ يقول :

وقولة لعلى قالها عمر أكرم بسامعها أعظم بملقيها
حرقت دارك لا أبقى عليك بها إن لم تبائع وبنيت المصطفى فيها
وما كان غير أبى حفص يفوه بها أمام فارس عدنان وحاميا

والحق أن النص على الخلافة من النبی ﷺ لم يكن وارداً في شأن أحد
من صحابته ، وإلا لكان ذلك من الدين بالضرورة ، وكان أمره بما
لا ينبغي أن يخفى على جمهور المسلمين ، وإلا لم يقع البيان الذي أمر الله به

رسوله أن يبينه للناس ، وهذا اتهام للنبوة ، يخرج قائله من حظيرة الاسلام ، ويلحقه بأهل الكفر والاحاد ..

ثم إن النص على من يخلف رسول الله ﷺ أمر - لا يحصل له في ذاته ولا ثمرة المسلمين منه ، تتعاقب في أجيالهم المقبلة ..

لقد كان من الممكن أن يسمى الرسول عدة أشخاص يخلفونه من بعده ، واحداً بعد واحد . فيقول إذا أنا مت فليقم على أمر المسلمين فلان ، فإن هلك فلان ، وإن هلك فلان .. كما كان منه ﷺ في غزوة (مؤتة) حين أقام على إمرة الجيش فيها زيد بن حارثة ، ثم قال : إن أصيب زيد فجعفر بن أبي طالب ، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة ، وقد كان هذا من أنباء الغيب التي أوحاها الله تعالى إلى النبي ﷺ ، إذ أن الثلاثة قد أصيبوا على هذا الترتيب ، قتلوا واحداً بعد واحد : زيد بن حارثة ، فجعفر بن أبي طالب ، فعبد الله بن رواحة ، وبهذا قام الثلاثة على إمرة الجيش ، وتحقق ما أمرهم به رسول الله ﷺ ، ولو أن هذا الأمر كان عن غيرويحي سماوى لما وقع على تلك الصفة . ولكان من الممكن أن يموت جعفر ، أو ابن رواحة قبل أن يحى دورهما لإمرة الجيش ، فإنهما كانا يقاتلان مع المقاتلين ، ولم يكونا بمعزل عن المعركة ..

كان يمكن أن يكون من رسول الله ﷺ شيء كهذا في النص على خلفائه من بعده ، وذلك بأن يسمى - ويوحى سماوى - جماعة من الصحابة ، يتولون القيام على أمر المسلمين من بعده ، واحداً بعد الآخر - كان يمكن أن يكون هذا ، ولكن ذلك يوقع الناس في فتنة ، إذا كان معنى هذا أن الخليفة الثانى لا يموت مادام الأول حيا ، وأن الثالث لا يموت إلا بعد أن يلى الثانى الخلافة ، ثم يموت .. وإذا كان هذا من الممكن في الأحياء

الذين يشهدون الوصية ، فيسميهم الرسول ، ويعرفهم الصحابة . . أما الوصية بخلافة لأناس لم يولدوا بعد ، فهذا ما لا يمكن أن يكون ، وإن كان فإنه يوقع الناس في فئمة لا يخرج لهم منها ١١

ثم ماذا يكون بعد ذلك ، إن سلم الناس من القنعة ، واستقام لهم الأمر مع من سماهم الرسول للخلافة على المسلمين من بعده من بين الأحياء ؟

ماذا يكون حين تنتهى تلك السلسلة ويصبح المسلمون في مواجهة اختيار أميرهم بأنفسهم ؟ ألا يرجع بهم الأمر إلى ما كان عليه يوم وفاة الرسول ﷺ وقد تركهم دون أن ينص على من يلي الأمر عليهم من بعده ؟ بل إن موقف المسلمين بعد وفاة الرسول لاختيار أميرهم بأنفسهم أعدل وأوفق من موقفهم بعد انقطاع تلك السلسلة التى يتوهم أن الرسول كان يمكن أن ينظم فيها عدداً من الصحابة يقولون أمر المسلمين ، واحداً بعد واحد ، عن هؤلاء الذين سماهم ١١ وذلك لأن صحابة رسول الله ﷺ أرشد طريقاً ، وأقوم سبيلاً في تدبير أمورهم ، وفي ترميم بنيانهم الذى تصدع بوفاة النبی - صلوات الله وسلامه عليه - من الذين يبحثون بعدهم من التابعين ، ومن بعد التابعين !

وما يقال بأن النبی ﷺ قد نص على خلافة أبى بكر ، أو على من بعده - هو قول أملتة العاطفة الذاتية من أشياع الصحابين الجليلين رضوان الله عليهما - إذ لا تستبين لهذا النص حكمة ، لأنه سرعان ما يذهب أثره بعد موت الخليفة الموصى له ، ويواجه المسلمون الأمر بأنفسهم لاختيار الأمير عليهم من بينهم في حال هم أقل قدرة فيها على حسن اختيار من يولونه أمرهم ، كما أشرنا من قبل .

وإذن فالأمر على أى وجه قلبته ، يجعل ترك الرسول - صلوات الله

وسلامه عليه — الأمر للمسلمين في اختيار من يقوم على أمرهم من بعده -
هذا الترك هو مما قضت به حكمة الرسول ، وما تقضى به مصلحة المسلمين
التي هي بالمكان الأول من جهاده واجتهاده ..

هذا ، ولو أنه كان هناك نص من رسول الله ﷺ على خلافة أبي بكر
رضي الله عنه ، لواجه به الأنصار يوم السقيفة ، ولما كان لأحد منهم أن
ينطق بكلمة سوى القبول والتسليم !!

وكذلك الشأن في علي - كرم الله وجهه - فلو أن النبي ﷺ كان قد
أوصى له بأن يخلفه على المسلمين من بعد وفاته ، لقام الأنصار في وجه أبي
بكر ولما أعطوه أيديهم مبايعين له بالخلافة ، بعد أن أقام الحجة عليهم بأن
المهاجرين هم أولى بالخلافة منهم ، بل إن أبا بكر رضي الله عنه كان أول
النادين بالخلافة لعلي والبيعة له ، بل ولما وقف عمر هذا الموقف يوم السقيفة
ولما أعطى أبي بكر يده للبيعة ، وكذلك كان الموقف مع صحابة رسول الله
ﷺ من المهاجرين والأنصار ، وإلا كانوا جميعاً آثمين لخلافهم رسول
الله ﷺ ، وهذا أبعد ما يكون طناً بالصحابة رضوان الله عليهم .

ثم كيف يمكن أن يحدث وقوع هذا التواطؤ على الخروج على أمر
أمر به رسول الله ، وكيف يقتضون الخلافة في هذا الموقف الذي كان حملها
ثقيلاً على من يحملها ، وليس وراء حملها سلطان أو جاه من مال ومتاع ، كما
حدث ذلك في الخلافة الأموية والعباسية ؟ لقد كان الحرص على الخلافة بعد
الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - إنما حرص تمليه الغيرة على دين الله
والنصح المؤمنين بالله ، فكيف يدخل على هذا الأمر تدليس أو خيانة
تبلغ حد الحادة لله ورسوله من طالب الخلافة ؟ ذلك ما لا يقبله عقل
عاقلاً أبداً .

والسكن الشيعة على عقيدة ثابتة لا يتحولون عليها — في تقديم أو الحديث — بأن رسول الله ﷺ قد نص على خلفة على من بعده ، وأنه صلوات الله وسلامه عليه ، أراد أن يوثق ذلك في كتاب أراد أن يكتبه في مرض موته ، فعمل عمر بن الخطاب على ألا يتم ذلك ، حتى غضب رسول الله ﷺ ، وعدل عن كتابة هذا الكتاب .

وقد ورد خبر هذا الكتاب الذي يقال إن النبي أراد أن يكتبه عند وفاته — ورد في صحيحى البخارى ومسلم ، واتفق أصحاب الحديث عليه . قالوا : ، لما حضرت رسول الله ﷺ الوفاة ، وفي البيت رجال فيهم عمر ، قال رسول الله ﷺ اثبتوا بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلون بهدى ، فقال عمر : إن الوجد غاب على رسول الله ﷺ . عندنا القرآن ، حسبنا كتاب الله ، فاختلف من في البيت واختصموا ، فلما أكثروا اللفظ والاختلاف غضب رسول الله ﷺ ، فقال : قوموا ، إنه لا ينبغي لنبى أن يختلف عنده هكذا ، فقاموا ، فأتى النبي ﷺ في ذلك اليوم ، فكان ابن عباس يقول : ، إن الرزية كل الرزية ما حال بيننا وبين كتاب رسول الله ﷺ (يعنى ما وقع من الاختلاف واللفظ ، الأمر الذى عدل رسول الله ﷺ عن كتابة ما أراد كتابته) !!

وبذهب الشيعة إلى أن أراد بالكتاب الذى كان يريد النبي أن يكتبه ، هو استخلاف على من بعده ، على حين يذهب غيرهم إلى أن الذى كان يراد بالكتاب هو أبو بكر !

وقصة هذا الكتاب غير مقبولة من وجوه .

فأولاً : أن هذا الكتاب لم يتم ، وهو كتاب فيه عصمة المؤمنين من (م ١١ — عمر بن الخطاب)

الضلال بعد رسول الله ﷺ ، كما ورد ذلك في هذا الخبر . . وأمر ، كهذا في شأنه وخطره ، ما كان للنبي ﷺ أن يؤخره إلى اليوم الأخير من حياته ، وأن يجعله سرا يطويه في صدره حتى إذا آن رحيله من هذه الدنيا أفصح به . . ثم إن عدم كتابة هذا الكتاب يعنى أن أمراً من أمر الدين لم يستكمل ، وأن النبي ﷺ أخلى مكانه من هذه الدنيا قبل أن يتم رسالته ، وهذا ما لا يقول به مؤمن يقرأ قول الله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً » . . فهذا خبر من الله سبحانه وتعالى بأن الإسلام قد تم تمامه ، وأن الرسول الكريم قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وحتى لقد استظهر بعض الصحابة من هذه الآية قرب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم وقال : قاتلهم : لقد نى إلينا ربنا رسول الله ؟

وثانياً : هذا القول بأن هذا الكتاب يعصم المسلمين من أن يضلوا !! فأى كتاب هذا الذى يعصم المسلمين من الضلال ؟ وماذا بقى للقرآن الكريم ؟ وماذا بقى لسنة رسول الله ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة استمع فيها المسلمون إلى أقوال رسول الله ﷺ ، وشاهدوا فيها أفضاله ؟ وهل عصم القرآن المسلمين من الضلال ؟ وهل كان للسنة النبوية - قولاً وفعلًا - أن تعصمهم من الضلال ؟ إن وجود القرآن والسنة - فى أيدي المسلمين دون التمسك بهما ، لا أثر لهما ، إذ ليس فيها الوازع المادى الذى يقوم على الناس فيأخذ عليهم السبيل إلى الوقوع فى المآثم والخطايا !!

وقد جاء فى الخبر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أكتب لكم كتاباً لا تضلون بهدى » دون دعوة إلى التمسك بهذا الكتاب ، حتى لو كان هذا الكتاب وحده يملك من اقيمة المائة مائة ك بكل إنسان ولا يدع

سبيلاً إلى الإفلات منه . . فأى كتاب هذا ؟ وهذا أمر لم يكن للقرآن .
ولا السنة ، حيث وقع كثير من المسلمين فى الضلال ، والكتاب والسنة .
موجودان ، ولم يوجد الوازع !!

وثالثاً : ثم ماذا يكتب الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فى هذا
الكتاب غير ما نزل عليه من قرآن ، وبعد ما بين به قولاً وعملاً آيات هذا
القرآن ؟ ألم يقل الرسول الكريم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا :
كتاب الله وسنتى » . . أفلا يكنى التمسك بكتاب الله وسنة رسوله عاصياً
للمسلمين من الزبغ والضلال ؟ بلى ثم بلى !

رابعاً : أن الرسول ﷺ - شرط فى حديثه عن الكتاب والسنة ،
وحمايتهما للمسلمين من الضلال - شرط التمسك بهما ، وجعل التمسك بهما
شرطاً لازماً فى قوله : « ما إن تمسكتم به » . . فإن لم يتمسكوا بهذا الميراث
العظيم - من الكتاب والسنة - فى أى حال من أحوالهم صلوا ، وإن
تمسكوا بهذا الميراث العظيم ، رشدوا ، وسعدوا ، وبعدوا عن الضلال . .

إن قصة هذا الكتاب هى من المقولات التى ظهرت بعد موت « عمر » ،
وتولية « عثمان » ، وقد تزايدت وكثرت بعد تولية على الخلافة ، واختلاف
المختارين عليه . .

يقول ابن أبي الحديد - وهو معتزلى يميل إلى التشيع - « فلو كان هناك
نص على أمير المؤمنين (على) أو على أبى بكر لاحتج به أبو بكر على
الأندلس ، ولاحتج به أمير المؤمنين - أى على - على أبى بكر . . » وهذا أيضاً
يدل على أن الخبر لا يروى فى صحيح البخارى ومسلم فى أبى بكر غير صحيح
وهو ما يروى من قوله ﷺ لعائشة - رضى الله عنها - فى مرضه : « ادعى لى

أباك حتى أكتب لأبي بكر كتاباً ، فأبى أخاف أن يقول فائل ، أو يتمنى متمن ، وبأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » ^(١) ومعنى « يقول فائل أو يتمنى متمن » هو منازعة أبي بكر في الخلافة بعد رسول الله ﷺ ، فهذا الكتاب يعطع المنازعة ، ويسلم الجميع لأبي بكر بالخلافة !!

وإذن فعمد - رضى الله عنه - براء مما يتقول المتقولون عليه من أنه كان يعلم ما يريد رسول الله ﷺ من أمر الكتاب الذى قيل إنه أراد كتابته - فى مرض موته ، وأنه كان يريد أن يوصى فيه بخلافة على من بعده . . كما أنه براء من محاولة - صرف الأمر عن بنى هاشم ، آل رسول الله ﷺ ، لئلا يجمعوا بين النبوة والخلافة ، فيذهبوا بالفضل جميعاً ، الأمر الذى لا يبقى للعرب شيئاً معهم . .

وكيف يظن بعمد هذا ؟ وكيف يبيع دينه ليقيم أبا بكر خليفة على المسلمين ؟ أذلك ليقيم أبا بكر خليفة من بعده كما يدعى ذلك المدعون ، حين أوصى أبو بكر لعمر بالخلافة من بعده ؟ وهل كان عمر على عهد من الله أو من رسول الله بأنه لن يموت إلا بعد أبى بكر ؟

أن الذى يظن بعمد ، بل ويعتقد فيه ، إنما هو وضعه مصلحة الإسلام والمسلمين فوق كل اعتبار ، وإنه إنما قدم أبا بكر لما له من مكانة فى قلوب المسلمين جميعاً ، فلم يكن فيه عيب عمر ولا صرامته ، ولم يكن معه سبب « على » الذى أطاح به رؤوس المشركين من قريش ووترم به ، فلما أسلموا بقيت فى نفوس بعضهم آثار من البغض لعل ، ولهذا الذى رآه رسول الله ﷺ من محامل هذه النفوس من الكراهية لعل ، قال - صلوات الله وسلامه - فى على : « لا يحببك إلا مؤمن ، ولا يبغضك إلا منافق » فلم يكن لهذا

(١) شرح منہج البلاغة لابن أبى الحديد ٦ - ص ١٢ .

الحديث داعية لو لم يكن الرسول الكريم ، قد رأى - بما أراه الله - شيئاً من هذا الكره لعل عند أولئك الذين وترعهم على في آبائهم وأبنائهم من زعماء قريش ، حتى بعد أن أسلموا !! فهذا على موقف قريش بالذات منه . . فهل يكون والأمر كذلك من المصلحة له ، أو للمسلمين أن يلى الخلافة بعد رسول الله ﷺ ، وفي بعض القلوب ما فيها له من بغص وكرهية ؟ ..

وكذلك الشأن في « عمر » وقد كان أشد الناس على الذين لا يراهم على الطريق سوى في عهد رسول الله ، الأمر الذي يحمل خلافته بعد رسول الله ، منار جدل ، وخلاف ، وربما أدى ذلك إلى الفتنة . . فكان اختيار أبي بكر - وهو من هو في وداعته ، ولينه - خيراً وبركة على المسلمين ، وقد كشفت الأيام منه على أنه أولى الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ .

فأبو بكر إذن هو الرجل الذي كانت تدعو الحكمة والمصلحة إلى اختياره في هذا الموقف ، خلفاً لرسول الله ، وهو الرجل الذي إذا اخير لا بشير نوازع عصبية ، ولا بحرك نارات دفينية في صدور القرشيين . . وذلك ما كان يدعو إليه هذا الموقف الذي لا يحتمل أية بارقة من بوارق الخلاف والنزاع بين المسلمين بعد أن خلى رسول الله مكانه من بينهم ، ولحق بالرفيق الأعلى . . ثم إن أبا بكر رضى الله عنه كان من بين صحابة رسول الله ﷺ هو الذي ينادى بتأليب رسول الله ﷺ ، وكان إذا قيل صاحب رسول الله ، كان أبو بكر هو المعنى بهذا ، ورسول الله لم يزل حياً . .

ثم أيضاً كان أبو بكر من بين صحابة رسول الله هو الذي خلف رسول الله ﷺ أثناء مرضه في إمامة المسلمين في الصلاة ، وهي أهم أركان

الإسلام ، وإمامة المسلمين فيها كانت عملاً دائماً لرسول الله ﷺ ، يتكرر خمس مرات في اليوم . . وهذا مقام لم يقمه أحد من صحابة رسول الله ، مكان رسول الله ، وهو حي ، غير أبي بكر ! ففي الوقت الذي افتقد فيه المسلمون وجه رسول الله ﷺ في الصلاة ، كان أبو بكر هو في مقام الرسول ، بأمر من الرسول . .

وإذن فلا التفات بعد هذا لما يقال من أن علياً كرم الله وجهه قد تخلف عن بيعة أبي بكر ، وأراد أن ينازعه الأمر بعد أن تمت له البيعة ، فعلى كرم الله وجهه في دينه وعلمه ، وبلائه في الإسلام - أعظم من أن يقف هذا الموقف . . إنها متولات وأخبار مبنية على أوهام ، قائمة على تأويلات فاسدة ، كان اليهود الذين دخلوا في الإسلام ، ومنهم عبد الله بن سبأ هم الذين افتروها ، وألبسوها هذا الثوب الزائف الذي انطلى على ذوى النيات السليمة من المسلمين أولاً ، ثم صار بعد هذا مذهباً تذهب به كثير من المسلمين ، وكان هذا أول ثلثة في الإسلام ، وأول فرقة في الأمة الإسلامية .

ثم إن أبا بكر قد وُضِعَ الله تعالى في القرآن الكريم هذا الوصف الذي جعله أحد اثنين أولهما رسول الله ﷺ ، إذ يقول سبحانه « إيا تنصروه » فقد نصره الله إذ أخبر به الذين كفروا ثانی اثنين إذ هما في الفار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا - فإذا أدخل الرسول ﷺ مكانه لم يكن أحد من المسايين أولى بأن يأخذ مكان الرسول من الرجل الثاني الذي خص القرآن الكريم عليه .

يقول بعض المفسرين في هذه الآية : « إن الله تعالى قد لأم الناس .

جميعاً يوم حجة رسول الله وصحبة أبي بكر له، إذ خذله الناس، ولم يكن معه إلا أبو بكر .

فهذا التقدير، وبأكثر وأدق من هذا التقدير، نظر عمر إلى منصب الخلافه بعد رسول الله ﷺ، وإلى الرجل الذى هو أصاح صحابة رسول الله لهذا المنصب .. فكان أبو بكر هو رجل الموقف غير منازع .. به تسكن الفتنة، وإليه يتقاد المهاجرون والأنصار، لوداعته، ولينه، ولمكان بيته الذى يأخذ مكاناً وسطاً بين بيوتات قريش، لا استعلاء فيه، ولا تنازع على زعامة أو رياسة ..

من أجل هذا كان هذا الموقف الذى وقفه عمر يوم "سقيفة"، والبيعة لأبي بكر، ثم الوقوف من وراء أبي بكر، وقوف الحارس الأمين له .. كما سنرى ذلك فى المباحث التالية ..

١١- البيعة، وموقفهم من عمر :

لهذا لما وقد كان لموقف عمر - رضى الله عنه - ودوره العظيم فى بيعة أبي بكر - رضى الله عنه - بالخلافه يوم السقيفة، ثم ما كان منه بعد البيعة من الأخذ على أيدي المتخلفين والمتربصين، ثم ما كان من قيامه إلى جانب أبي بكر، سيقاً مسلولاً حارساً، ومستشاراً أميناً ناجحاً - كان لهذا أبو بكر كثير غيره من عمر فى مناصرة أبي بكر، وشد أزره - أثر كبير فى التشجيع على عمر، وإداعة الأكاذيب من الموضوعات فى الخط من قدره، وسوق التهم إلى ساحته الطهور، ممن غالوا فى حب على - رضى الله عنه - والتشجيع له، وكانوا فى مغالبتهم تلك يذهبون فى رفع على إلى مقام الألوهية،

على حين ينفقون من مكانة عمر حتى ليخرجوه من دائرة الإسلام ، إلى الكفر .. فكفروا ، وألحدوا .. وهكذا شأن أهل الأهواء يركبون مراكب الضلال ، ويسبحون بها في بحر مة لطم الأمواج ، تعسهم النتن من فوقهم ومن تحتهم ، حتى يكونوا من المفرقين .

لقد كان سب أبي بكر وعمر - رضى الله عنهما - عند هؤلاء الغلاة المشيعين لعل ، من التبربات التعبدية التي يقررون بها إلى الله ، حتى إنهم ليطلقون اسميهما السكرتين على الكلاب التي يقتنونها ، وهذا كله مما يفسد على نؤمن إيمانه إن لم يخرج من الإيمان !!

يقول ابن الجوزي في هذا :

« وتلو الرافضة ^(١) في حب على - رضى الله عنه - حملهم على أن يضعوا أحاديث كثيرة في فضائله ، أكثرها تشينه وتؤذيه ، منها أن الشمس غابت ، فماتت على صلاة العصر ، فردت له الشمس ^(٢) .. وهذا من حيث النقل موضوع ، لم يروه ثقة ، ومن حيث المعنى مرفوض ، فإن الوقت قد فات ، وعودها طلوع متجدد ، فلا يرد الوقت !! وكذلك وضعوا أن فاطمة رضى الله عنها اغتسلت ، ثم ماتت ، وأوصت أن يكتب بذلك عن الفسل . وهذا من حيث النقل كذب ، ومن حيث المعنى سوء فهم ، لأن الفسل إنما هو عن حدث الموت ، فكيف يصبح قبله ؟ .. »

(١) هم الشيعة الذين طالبا زيدا بن علي من الحسين ، انبرى من خالف عليا في إمامته وحجها معه ، فلما أبى عليهم ذلك رفضوا متابته ، فسموا بالرافضة ، وهم الرأفة لمرقد الصبية .
(٢) وهذا الخبر يروى في بعض كتب التفسير عن سامان عليه السلام وذلك عند تفسيره لقوله تعالى : « إذ عرس عليه بالدمى الصافيات الجياد ، فقال إن أحببت حب الخير من ذكر وإن حتى توارت بالحجاب ، ردوها علي » ويقولون إن عرسه للخيل قد عمله من الصلاة وحتى غربت الشمس ، فقال ردوها علي أي الشمس ، فردته بعد غيابها ، وهذا من الإسراطات .

ثم يقول ابن الجوزي عن واحد من هؤلاء الغلاة من الشيعة : إن إسحق ابن محمد النخعي الأحمري ، كان يقول : إن عالياً هو الله - تعالى الله عن ذلك عاراً كبيراً - وكان يزعم أن عالياً هو الله عز وجل وأنه يظهر في كل وقت ، فهو الحسين في وقت ، وهو الحسين في وقت ، وهو الذي بعث محمداً ﷺ (١)

ونسأل : أليس هذا هو الشرك الغليظ ، والكفر المبين ؟ البس هذا هو عين ما تنوله النصراني في المذبح عيسى — عاياه السلام - الذين يقول الله تعالى فيهم : (اتمدّ كثر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) (٢) فهل قال النصراني في المسيح أشنع من هذا القول الذي قاله الهاككون في علي رضى الله عنه ؟

ويقول ابن الجوزي : « وقد استمدت جماعة من الرافضة - وهم رأس فرق الشيعة - أن أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما كانا كافرين ، أربدا بعد موت رسول الله ﷺ ! »

ولارد على هذا الافتراء ، العنليم ، والكفر العسراح أبلغ من إنكار الشمس في مطالعها . وحروب الردة التي تصدى لها أبو بكر ، وقطع رؤوس الفتنة التي أطلت من ججورها بعد موت النبي ، يشهد بها التاريخ الإسلامي ، وغير الإسلامي . ولا يجروا أحد من أعداء الإسلام من المستشرقين أن يلوك هذه القمرة العظيمة في فم أو يخطبها بقلبه ، لأنهم لا يريدون أن يحكم عليهم بالسفلة والجنون ؟!

ويروى ابن الجوزي ، عن ابن عقيل قوله : « الظاهر أن من وضع مذهب

(١) تلبيس إبليس . لابن الجوزي ، وهو أبو العرج عبد الرحمن بن الجوزي القرشي توفى سنة ٥٩٦ هـ (٩٧ م) طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م

(٢) سورة مائدة الآية ١٩

الرافضة قصّد الطعن في أصل الدين، والنبوة، وذلك أن الذي جاء به لرسول ﷺ أمر لم نُسده نحن، وإما شق في ذلك بنقل السلف، وحوادة نظر الناظرين إلى ذلك منهم، فكأننا نظرنا - إذ نظر لنا - إلى من ثنى بدينه وعقله، فإذا قال قائل: إنهم - أي الصحابة - أول ما بدءوا به بعد موت النبي، هو ظلم أهل بيته في الخلافة، وفي ميراث ابنته في فاطمة، وما هذا إلا لسوء اعتقاد في التوفى - وهو رسول الله ﷺ - فإن الاعتقادات الصحيحة - سيما في الأنبياء، توجب حفظ قواينهم بعدهم، وخاصة في أهليهم وذريتهم، فإذا قالت الرافضة:

«إن القوم - أي الصحابة - استحلوا هذا بعد النبي، خابت آمالنا في الشرع، لأنه ليس بيننا وبين النبي إلا النقل عنهم، والثقة بهم، فإذا كان هذا محصول ما حصل بعد موته ﷺ ساء ظننا في المنقول، وزالت تقننا فيما عولنا عليه من اتباع ذوى العقول، ولم نأمن أن يكون القوم لم يروا فيه ما يوجب اتباعه، فراعوه مدة الحياة، وانقلبوا عن سربعته بعد الوفاة ولم يبق على دينه إلا الأقل من أهله.. وهذا من أعظم المحن على الشريعة^(١)». ثم يذكر ابن الجوزي، حادثة منع فاطمة رضي الله عنها من ميراثها من النبي ﷺ، وقد جاءت إلى أبي بكر رضي الله عنه أول خلافة، تطلب إليه أن يسلمها ميراثها من أيها، فذكر لها قول النبي ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه فهو صدقة».. ولو وجد أبو بكر - رضي الله عنه - سيلا لإعطائها ما ترك النبي ﷺ، ما تردد في هذا لحظة، ولكنه - وقد ينسب له - هذا الحديث الصريح الصحيح من رسول الله ﷺ في الذي يتركه من بعده، وهو أنه صدقة لا نورث!

ويروى ابن الجوزي - تعليقا على هذا الخبر - تلك الحادثة الطريفة..

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي ص ٩٧ طبعة بيروت.

وهي أن السفاح - أول الخلفاء العباسيين - خطب يوماً ، فقام إليه رجل من آل « علي » رضى الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين ، أنا من أولاد علي ، فخذ لي بحقي ممن ظلمني ا فال ومن ظلمك ؟ قال : أنا من أولاد علي ، والذي ظلمني هو أبو بكر ، حين أخذ « فذك » ^(١) من فاطمة : قال السفاح : وهل دام على ظلمكم ؟ قال نعم ، قال . ومن قام بعده ؟ قال : عمر ، قال السفاح : ودام على ظلمكم ؟ قال : نعم ، قال السفاح ومن قام بعد عمر ؟ قال عثمان ا قال : ودام على ظلمكم ؟ قال : نعم ا قال السفاح : ومن قام بعده ؟ فاجعل الرجل ا بلفت كذا وكذا ينظر إلى مكان يهرب إليه « ^(٢) .

وذلك أن الذي قام بالأمر بعد عثمان ، هو علي - رضى الله عنها - فلو أنه كان يرى لعاطمة رضى الله عنها حقاً في هذا الذي تركه النبي ؛ لرده إليها . وأمضى سريرة الله ، في إرث الأبناء عن الآباء ، ولسكنه - رضى الله عنه - رأى حديث رسول الله ﷺ قاضياً فاطعاً في أن ما ترك النبي لا يورث ، وإنما هو صدقة .

ومع هذا ، فإن الشيعة في جلتهم لا يزالون يشعرون على أبي بكر في حجب فاطمة عن ميراث أبيها ، ويرجعون ذلك إلى كراهية أبي بكر وعمر لآل بيت النبي ، وعلى فاطمة ا

ولو أن هؤلاء التشيعيين اعلى ، أنصفوا - وأنى لهم أن ينصفوا وقد أضاهم الهوى - لو أنهم أنصفوا لأدخلوا علياً - رضى الله عنه - في هذه التهمة التي اتهموا بها أبا بكر وعمر - رضى الله عنهما - ! لقد دلى الخلافة ولم يورث فاطمة من أبيها .

(١) فذك ، أرض بها عين ماء كانت تسمى صلى الله عليه وسلم

(٢) « فذك » ليس ليس لاس الجوزي ص ٩٨

· الشيعة والخلافة :

ولا ينهى هذا النصل دون أن نعرض رأى ابن خلدون في موقف الشيعة من الخلافة ، وما نشأ من التنازع فيها حول من هو أولى بها ، حتى تفرقت الأمة الإسلامية فرقاً ، ما كان لأشد أعدائها أن يبلغوا منها ما بلغت هذه الفتنة ، التي جرّها على المسلمين التمسبب الأعمى ، الذي اختلط به الكيد للإسلام من أعداء الإسلام ، الذين أظهرُوا الإيمان واستيطنوا الكفر ، وكان كيدهم للإسلام أعظم الكيد ، إذ كانت الطعنات من أيديهم من السلون جانبها !

يقول ابن خلدون :

« اعلم أن الشيعة ، أمة ، هم الصحب والأتباع ، ويطلق في عرف الفقهاء والتكلمين من الخطب والساف ، على أتباع عليّ وبنيه - رضى الله عنهم - ومذهبهم جميعاً - أى الشيعة - متفقين عليه ، أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ، ويتعين القائم بها بتعيينهم ، بل هي ركن الدين ، وقاعدة الإسلام ، ولا يجوز لى إغفاله ، ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوماً من الكبار والصغار^(١) وأن علياً - رضى الله عنه - هو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه : بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، لا يعرفها جباهة السنة ، ولا نقلة السريعة ، بل أكثرها موضوع أو مطعون في طريقه . أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة .

(١) وكعب لم يمتدحوا هذه المعصية إلا أن يكون نبياً أو رسولا ، وسمى إليه مذهبهم ؟

ثم يقول ابن خلدون :

« وتنقسم هذه النصوص عند الشيعة ، إلى جليّ وحفيّ ..

فالجليّ ، مثل قوله ﷺ : « من كنت مولاه ، فعلى مولاه » قالوا : ولم تطرد هذه الولاية إلا في علي ، ولهذا قال له عمر : « أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة » .. ومنها قوله ﷺ : « أقصاكم على » ولا معنى للإمامة إلا القضاء بأحكام الله ، وهو المراد بأولى الأمر الواجب طاعتهم ، بقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » والمراد بالطاعة ، الحكم والقضاء .. ومنها قوله - أى النبي ﷺ : « من يبايعني على روجه وهو وصي وولى هذا الأمر من بعدى »^(١)

ونقول تعقيباً على هذه الأخبار التى تنسب إلى النبي ﷺ ، فى علىّ رضى الله عنه :

إن قوله - ﷺ - فى علىّ : « من كنت مولاه فعلى مولاه » فإن هذه الولاية إن صح الحديث ، فإما تعنى الحب لله ، حباً خالصاً ، وهذا التنويه بعلى من رسول الله ﷺ إنما كان كما أشرنا من قبل ، تعريضاً بالمناقضين الذين كانوا يكرهون علياً لكثرة ما عمل سيفه فى رقاب أهلهم الذى كانوا على الشرك ..

وأما قوله ﷺ : « أقصاكم على » فإن هذا الفضل وحده ليس هو كل مقومات الخلافة ، التى من مقوماتها السياسة ، ومدادها الأمور التى تعرض لولى الأمر ، والتى إذا لم تعالج بالحكمة والحسب انعصر منها بنمان

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٧٠ - حكمة كتاب التحرير القاهرة ١٩٦٦ -

الدولة ، كما حدث في فتنة أهل الردة ، فلم يكن القضاء عليها محتاجاً إلى القضاء أكثر من احتياجه إلى السياسة !

وأما قوله ﷺ : « من يبايعني على روحه ، وهو وصبي ، وولي الأمر من بعده » - فإنه حديث موضوع ، والدلالة على وضعه أكثر من وجه :

فأولاً : أن من يبايع على روحه ، إنما يبايع على الموت في سبيل الله . ومن بايع هذه البيعة ، فإن تكون له وصاية في هذه الدنيا ، ولولاية لأمر بعد النبي . . .

وثانياً : إذا قيل إن هذه البيعة ، لا تعني أكثر من التلفظ بها ، وأن المبايع مضمون له الحياة بعد النبي ؛ حتى يقوم بالأمر من بعده . . . وإذن فليس فيها تصحية بالنس ، وإذن فلا فضل للمبايع .

وثالثاً : لو كان هذا القول صادراً من النبي ﷺ في مواجهة أصحابه ؛ فهل يعقل أن يرضن عشرات ، بل مئات من أصحابه ببيعة النبي على أرواحهم ؟ وكيف وهم كانوا يتسابقون إلى الاستشهاد في سبيل الله ، ويرجع من يرجع منهم بعد المعركة وهو يتحسر على نفسه إن لم يكن في الشهداء ؟

ونكتفي بهذا القدر في الرد على الذين تناولوا عمر - رضي الله عنه - بالفاحش من القول فيه ؛ أن كان عضداً لأبي بكر في البيعة بالخلافة له يوم الستيننة ثم في الوقوف إلى جانبه مدة خلافته ، موقف الديدبان الحارس له كما كان ذلك شأنه مع رسول الله ﷺ ، حباً للقائم بأمر الدين ، وحيطة بالدين وأهله ، أداء لحق الله ورسوله والمؤمنين .

الفصل الخامس مع أبي بكر

تأبى على عمر طبيعته أن يكون في جماعة، ثم هو يأخذ موقفاً سليماً فيها - بحيث يخلى نفسه من حل همومها، وأخذ نصيبه من كل عارض يعرض لها.. فإذا خلا لبعض الناس من ذوى النفوس الصغيرة أن يكونوا في مجتمعاتهم دميّ تتحرك، أو حيوانات هها أن تجد ما يملأ بطونها- فإن أصحاب الهمم العالية، والعزائم القوية من الرجال، لا يرسون في المجتمع الذى يعيشون فيه إلا أن يكونوا دروعاً حصينة لمن يعيشون معهم، يتلقون الضربات عنهم، ويحملون أفح الأتقال دونهم، تماماً كما يفعل الآباء مع من يعيش في كنفهم من صغار، وكبار. إذا كان مكروهاً تعرضوا له دونهم، ودفعوه بأنفسهم عنهم، وإن كان خيراً آثروهم به، واكتفوا بالقليل منه، وهذا ما كان من الأنصار، وموقفهم من المهاجرين، ومواساتهم لهم بأموالهم، وديارهم، ولهذا ذكرهم الله تعالى في مقام الحمد لهم، والتنويه بهم، فقال تعالى: «والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة» (١)

وقد وصف رسول الله ﷺ الأنصار، بهذا الخلق الكريم، خلق الرجال، الذين أهلتهم ذوسهم الكبيرة ليكونوا نسوراً يملفون في السماء، ولا حشرات تدب على الأرض، فيقول لهم صلوات الله وسلامه عليه

« إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقنون عند الطمع » وهذا المعنى قد خلعه على نفسه عنتره العبسي — الفارس الجاهلى المعروف ، وصاحب المعلقة المشهورة — إذ يقول مخاطباً محبوبته « عبلة » ، عارضاً عليها أكرم صورة للبطولة والرجولة :

هلا سألت الخليل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي
يخبرك من شهد الواقعة أننى أغشى الوغى وأعف عند المغرم

هكذا هم أبطال الرجال ، وسادة الأقسام .. وهكذا كانت حياة عمر فى الجاهلية والإسلام ، إذا عصفت بالجمع الذى يعبث فيه عاصفة تلقاها بكيانه كله ، كما يتلقى فارس القوم سيوف الأعداء ، ورماحهم ، لايبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه .

•

وكانه المعنى يقول الشاعر :

رأيت عرابة الأوسى يسمو إلى الأجداد منقطع القرين
إذا ماراية رفعت لجد تلقاها عرابة باليمن

وقد رأينا كيف كان بلاء عمر فى الإسلام منذ أول يوم دخل فيه إلى أن لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى .. ثم رأينا كيف كان موقفه ، وقد نعى إلى المسلمين رسول الله ، ثم موقفه وقد كادت جماعة المسلمين تنمزق ، وتنفرق ، وتوشك أن ناتحم فى صراع ترانى فيه الدماء ، وتزهق فيه النفوس ، فاستطاع أن يجمع كلمة المسلمين على أبى بكر ، وأن يسوى الحساب له مع الذين اختلفوا عليه ، وتخلفوا عن بيعته ، حتى وضعوا أيديهم فى يد أبى بكر ، وباعوه ببيعة رضى ورضوان .. وقد كان لعمر بعد هذا أن يفرغ لنفسه ، ويدع أبابكر يستقل يحمل المسئولية أمام الله .

وأمام جماعة المسلمين ، ولكن عمر رآه عليه طبيعته إلا أن يكون إلى جوار أبي بكر ، يعينه ، ويحمل معه بعض ما حمل . . ثم هو من جهة أخرى يرى أنه هو الذى ألغى على أبي بكر هذا الحمل الثقيل ، وأن من الظلم لأبي بكر أن يتخلى عنه ، وألا يأخذ منه مكان الوزير الناصح له والجندي الحارس الساهر عليه .

حرب الردة :

وأول ما يواجهه أبابكر في خلافته ، بعد أن تمت البيعة له ، واجتمع المهاجرون والأنصار جميعاً على الرضا عنه ، والولاء له - تلك الفتنة التي أثارها أدعياء النبوة بعد النبي - صلوات الله وسلامه عليه - واستجابة بعض القبائل لهم ، وارتداد كثير منهم عن الإسلام ، وامتناع كثير آخرين عن إخراج الزكاة ، وكان الذى نولى كبر هذه الفتنة ثلاثة نفر أدعوا النبوة ، وهم مسيلة الكذاب باليمامة ، وكان فد طهر أمره قبيل وفاة النبي ﷺ ، ثم طلحة بن خويلد في بى أسد ، ثم سجاح .

والذى كان يرصد الموقف في تلك اللحظات الحرجة بعد وفاة النبي ﷺ كان يرى :

أولاً : أن مجتمع المسلمين في المدينة يخيم عليه حو ثقيل خافق من الحزن والأسى والوحشة ، لا يكاد يجد فيه المرء نفسه ، أو يعرف طريقه ، بعد هذا الفراغ الهائل الذى خلفه فيهم موت الرسول ﷺ .

ثانياً : قن تموج وتضطرب وتضرب حول المدينة ، من أولئك الأعراب الجفاه الذين أسلموا ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، وقد رأوا (١٢) - عمر بن الخطاب)

في موت النبي ﷺ فرصة يقضون فيها على المسلمين، ويستولون على مافي المدينة من مال ومتاع .

ثالثاً : تلك القبائل التي ظهر فيها هؤلاء الأثنياء الكذبة ، فأفسدوا على الناس دينهم في هذه القبائل التي لم يكن الإيمان قد استقر في قلوبهم بعد .

رابعاً . جيش أسامة الذي كان رسول الله ﷺ قد أعده قبيل وفاته ، وأمره بغزو أطراف الروم من جهة الجزيرة العربية .

وهنا تعجلى عظمة أبو بكر - رضى الله عنه - ويظهر فصل الله تعالى على المسلمين بما وقفهم إليه من اختياره خائنة لرسول الله ﷺ ، وليكون هو الذي يواجه هذا الأمر العظيم بحكمة عقله وثبات جفانه ، وثاقه لإيمانه ، فيمسك بيديه القويطين عرا الدين وقد أوشكت أن تنحل ، ويتداعى هذا البناء الذي أقامه رسول الله ﷺ ، لدين الله ، كما يظهر إلى فضل هذا عمر ، وصدق فراسته في أبي بكر ، والعمل على اختياره خليفة للمسلمين .

عمر وحروب الردة :

ومن عجب أن يجد عمر بن الخطاب في هذا الموقف في وضع غير ما اعتاد الناس أن يجدوه عليه ، حيث كان دائماً في الجانب المتشدد بل المتطرف في الشدة ، في كل أمر وفي كل موقف يرى فيه جوراً على الإسلام ، أو عدواناً عليه ، فلا يقبل مهادنة أو موادة . ولا يرضى بغير البتر والحسم .

فعلى حين نرى أبا بكر ، اللين الهين الوديع ، يشور في وجه الردة والمرتدين ثوران البركان ، ويزأر زئير الأسد ، ويدوى دوى الرعد ، ويتحول شخصه الضاوى النحيل إلى عملاق ضخم طوال ، يملأ ما بين الأرض والسماء ،

حيطول بيديه كل أفق من آفاق الدولة الإسلامية ، ويتحرك إلى كل اتجاه تطل منه رأس الفتنة ، ويؤذن كل خارج على الدين بحرب لا هوادة فيها .. فيندب المسلمين لحرب القبائل المرتدة ، والممانعة للزكاة ، ويدعوهم للضرب على أيدي هؤلاء الأعراب الذين وطئوا حرم المدينة وكادوا يدخلونها ، ثم قبل هذا وذلك يجعل بإنفاذ جيش أسامة إلى غزو الروم ، كما أمره الرسول الكريم قبل وفاته .. وكان لا يزال مرابطاً على أطراف المدينة ، انتظاراً لما ينجلي عليه الموقف بعد وفاة رسول الله ﷺ .

نقول : على حين يرى أبا بكر ، يزأر هذا الزئير العاصف المدوى ، نرى عمر ، الذى كان من المتوقع أن يكون هو صاحب هذا الموقف - نراه يأخذ موقف المهادنة والموادعة ، يحاول أن يكسر من حدة أبى بكر ، ويخفف من ثورته ويلوى زمامه عن ركوب هذه الطرق المخوفة بالمكاره ، والتي لا قبل للمسلمين بها ، وهم قلة فى وجه هذه الأعداد الكثيرة التى خرجت عليهم ، وأعدت العدة لحربهم .. ففى الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه « لما توفى رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر بعده ، وكفر من كفر من العرب قال عمر لأبى بكر كيف تقاتل الناس - يقصد الذين منعوا الزكاة - وقد قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فمن قال : لا إله إلا الله عصم منى ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله ؟ » فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها » فقال عمر « فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق » .

وعمر أيضاً ، قال « لما قبض رسول الله ﷺ ، وارتدت العرب وقالوا لا تؤدى زكاة ، فقال أبو بكر : والله لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه ، قلت يا خليفة رسول الله : تألف الناس ، وارفق بهم ، فقال لى : أجبار فى الجاهلية ، وخوآر فى الإسلام ؟ إنه قد انتقطع الوحى ، وتم الدين . . أو ينقض وأنا حى ؟ .

وعن أبى هريرة أنه كان يقول : والذى لا إله إلا هو لولا أن أباً بكر استخلف ما عُبِدَ إله ، ثم قال الثانية ثم قال الثالثة — أى قال هذا القول ثلاث مرات — فقيل له : مه يا أباهريرة ؟ — استفهما وتعبجبا — فقال : إن رسول الله ﷺ وجه أسامه بن زيد إلى الشام ، فلما نزل بذى حسب — موضع قريب من أطراف المدينة — وقبض رسول الله ﷺ ، وارتدت العرب حول للمدينة — اجتمع عليه — أى على أبى بكر — أصحاب رسول الله ﷺ فقالوا . يا أباً بكر : رد هؤلاء — أى جيش أسامه — أبتوجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب ؟ فقال : والذى لا إله إلا هو لو جرت الكلاب بأرجل أزواج ، النبى ﷺ^(١) ، مارددت جيشاً جهزم رسول الله ، ولا حلت لواء عقده رسول الله ، وفى رواية : « لو علمت أن السباع تجر برجلي إن لم أرد ما رددته عن وجهة وجهه رسول الله ﷺ » وأمر أسامه أن يمضى لوجهه ذلك « قال : فوجه أسامه ، فجعل لا يمر بقبيل يريدون الارتداد إلا قالوا : لولا أن هؤلاء قوة — أى

(١) يقصد أنه لو دخل المرتدون المدينة ، ومثلوا بأهلها ، وهتكوا ستر أمهات المؤمنين ، أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، ماردد جيش أسامة ، الذى أمر رسول الله بأن يتوجه لنزو أطراف الشام ، وقد كان ذلك من أبى بكر لإشراقه من لإشراقات الانعام السماوى ، إذ عرف أن رسول الله لم يوجه هذا الجيش إلا وهو يرى — بما أراه الله — أنه يحقق هذه الغاية التى ندهب رسول الله لها ، وأن هذا أمر سماوى لابد من امتثاله مهما كانت الظروف والأحوال .

المسلمين - ماخرج مثل هؤلاء من عندهم ؛ ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم »
خلقى أسامة بجيشه الروم ، فهزموهم ، وقتلهم ورجعوا سالمين ، فثبتوا على
الإسلام - أى أن هؤلاء الذين كانوا يريدون الانداد عن الإسلام ، ثبتوا
على الإسلام بعد أن رأوا قوة المسلمين ، واتصارهم على من لقيهم من
الروم على أطراف الشام ، وكان هؤلاء الذين يريدون الردة عن الإسلام ،
ينتظرون غير هذا .

و. وى أن أبا بكر أقبل على أسامة بن زيد ، وهو معسكر خارج
المدينة ، فقال له : امض رحمتك الله لوجهك الذى أمرك به النبى ﷺ ،
ولا تنصر فى أمرك فان رأيت أن تأذن لعمر بن الخطاب — وكان عمر
فى جبت أسامة — بالنقام عندى ، فإنى أستاذس به ، وأستعين برأيه ،
فقال أسامة : قد فعلت ذلك .

وسئل بعد هذا . كيف كان هذا الموقف من عمر فى مواجهة الفتن
التي طغمت على المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ ؟ وكيف لان عمر فى
موقف كان يتطلب عمر بكل شدته وقوته وحزمه ؟

فأجاب هذا ؟

وفول والله أعلم : إن عمر رضى الله عنه ، كان لا يزال تحت تأثير
الصدمة الى أوصابه فى مثله الأعلى بموت رسول الله ، وما كان يعيس فيه
من آمان رحاب ، ينتشر تخنيطها فى حياة رسول الله ﷺ ، مما فهم عليه
قوله تعالى « لنذنبه على الدين كله » . وأصابه الذات وهن ، وضعف ، كما
يصيب اليتيم تركه أبواه !

وفوق هذا ، فإن عمر كان يرى - وهو في ظل رسول الله ﷺ - أنه في أمان من الفتنة ، أو الزيف أو الضلال ، وإنه إن صل وجد الهدى ، وإن انحرف وجد اليد الرحيمة التي تقومه ، والطبيب الرحيم الذي يطب له .. أما وقد مات الرسول صلوات الله وسلامه عليه - فقد حرم عمر - كما حرم المسلمين - رعاية الوالد ، وهداية المرشد ، ونصح المربي .

ومن هنا كان عمر يخشى على نفسه الفتنة بعد رسول الله ، وأن ينحرف عن الطريق الذي أقامه الرسول عليه من غير أن يدري .. ولهذا كان يعنى أن لو ختم على عمله الذي عمله قبل أن ينوفى رسول الله وألا يضاف إليه شيء مما عمل بعده .

ففي البخاري ، عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري قال ، قال لي عبيد الله ابن عمر : هل تدري ما قال أبي لأبيك ؟ قلت لا .. قال : إن أبي قال لأبيك أبي موسى : هل يسرك أن إسلامنا مع رسول الله ﷺ ، وهجرتنا معه وشهادتنا معه - أي حضورنا المشاهد معه - وعملنا كله برّد^(١) علينا ، وأن كل ما عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس^(٢) ؟ فقال أبوك لأبي : « لا والله ، جاهدنا بعد رسول الله ﷺ ، وصلينا ، وصمنا ، وعملنا خيراً كثيراً ، وأسلم على يذنا بشر كثير ، وإنا لفرجو ذلك » قال أبي : « ولكنني والذي نفس عمر بيده لو ددت أن ذلك برّد لنا وأن كل شيء عملناه بعده نجونا منه كفافاً رأساً برأس » قلت إن أباك والله كان خيراً من أبي .

(١) : أي أتت وأتفر على ما هو عليه لا نراء عليه ، ولا يلتصق منه .

(٢) : كفافاً ، رأساً برأس : أي بكى حيره شره ، فلا علينا ، ولا لنا .

إن عمر القوى الواثق المطمئن وهو في كنف رسول الله ﷺ ، فقد كثيراً من قوته وثقته ، واعتزازه برأيه وبنفسه .. إن عمر في حاله - قبل موت الرسول وبعد موته - أشبه بالصبي يتصرف في شئون الحياة حسبما يشاء وعين والده ترقبه ، ثم بهذا الصبي وقد مات والده وأصبح أمره إلى نفسه فإنه في الحال الأولى ينطلق في قوة وثقة واندفاع ، وهو على يقين بأن من ورائه من يأخذ بيده إذا سقط ، ويصحح أمره إذا أخطأ ، وهو في الحال الأخرى يفكر ويقدر ، ويخطو خطوة ، ثم لا يخطو الثانية حتى بعيد النظر إلى ما بين يديه وما خلفه .. هكذا كان عمر بعد وفاة رسول الله ﷺ ، لا يلتقي الأمور بقوة وصرامة ، كما كان يلقاها بين يدي النبي ﷺ .. إن الذي لا يحسن السباحة إذا وجد نفسه بين يدي من يحسن السباحة لم يخش أن يلتقي بنفسه في عباب الماء ، مقدراً أنه لن يترك هكذا يتخبط في الماء حتى يفرق ، من غير أن تمتد يد إلى إنقاذه .. أما إذا لم يكن هناك من يخف لبعجته فإنه لن يقدم حتى على وضع قدميه في الماء !!

كان عمر مشحوناً بطاقة كبيرة من هذه الآمال الواسعة ؛ وكان ممتلئاً إلى أقصى غاية بمشاعر الاعتزاز والقوة ، وهو مستند إلى رسول الله ، يرى الأرض التي يمتد عليها تطول السماء ، وتنال منها ما تشاء .. فلما فارق رسول الله ﷺ هذه الدنيا ، كاد بنيان عمر يتداعى وينهار .. وكان لابد من وقت يراجع فيه عمر نفسه ، ويقيم حسابه على هذا الواقع الذي هو فيه ..

ومن وجهة أخرى ، كان عمر ، حين واجه أحداث الردة ، خارجاً من معركة قاسية رهيبة ، هي معركة الخلافة ، واحتلاف المسلمين فيها ، بين المهاجرين والأنصار ، ثم بين المهاجرين أنفسهم .. وقد أنفق عمر في هذه

المعركة - كل ما كان قد بقي فيه من قوة ، وحسبه أنه يواجه إخوانه ، وأحبابه الذين ترددوا في بيعة أبي بكر ، هذه المواجهة التي تكاد تنقطع فيها علائق الأخوة ، وتحترق في نارها مشاعر المودة ، وإنه ليس بالهين على نفس عمر أن يبلغ به الأمر إلى الحد الذي يحمله على دخول بنت فاطمة بنت رسول الله ومواجهتها ومواجهة على بن أبي طالب ، وطلحة والزبير وغيرهم من حيار صحابة رسول الله ﷺ ، وأقرب المقربين إليه . بهذه النذر المتعددة المتوقعة !!

فإذا واجه عمر بعد هذا ما جاء من أخبار عن ردة المرتدين من قبائل العرب ، أو امتناع من امتنع منهم عن أداء الزكاة - واجه ذلك بنفس مؤرقة مجعدة من هذه المعركة - التي خاضها في إقرار الخلافة لأبي بكر .

ومن جهة ثالثة - فإن عمر رضى الله عنه - كان يرى أن أبا بكر - رضى الله عنه ، قد أعطى الموقف غايته من الحزم والقوة ، بحيث لم يبق هناك شيء يتسع لأي جديد يضاف إليه من حزم وعزم ومن قوته . إن عمر في هذا الموقف يرى نفسه بكل مشخصاتها وصفاتها من الشدة والصرامة في شخص أبي بكر .. وأين أبو بكر إذن ؟ إن الذي هنا هو عمر في شخص أبي بكر .. وعمر لم يعتد أن يظهر في شدته وصرامته إلا حيث يكون مع أبي بكر في لينه ورقفه .. فتأتى صرامة عمر وشدته باين أبي بكر ورقفه ، فيكون منهما مما مزيج ، هو وسط بين الشدة واللين ، والصرامة والرفق .. أما وأبو بكر قد أتى الأمر بما ليس وراءه مزيد لشدّة أو صرامة ، فلا مكان لشدّة عمر وصرامته ..

.. فليأخذ عمر إذن موقف أبي بكر ، في لينه ورقفه ، وليأق بهما شدة

عمر وعصامته في أبي بكر .. وهكذا يتبادلان المواقف بينهما ، فإذا لبس أبو بكر شخصية عمر ، لبس عمر شخصية أبي بكر . فإذا اشتد أبو بكر لان عمر ، وإذا اشتد عمر كان أبو بكر على ما عرف منه من رفق ولين .. وبهذا استقامت سياسة الأمة الإسلامية في خلافة أبي بكر على أعدل وجه ، حيث جعت بين الشدة واللين ، وزاوجت بين اللين والسدة .

يقول عمر في هذا بعد أن ولي الخلافة ، ورأى من إشفاق الناس وتخوفهم من شدته وعصامته : « بلغني أن الناس قد هابوا شدي وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا ، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف إذا صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق !

« قد كنت مع رسول الله ﷺ ، فكنت عبده ، وخادمه ، وكان ممن لا يبلغ أحد وصفه من اللين والرحمة ، وقد سماه الله تعالى بذلك ، ووهب له اسمين من أسمائه : « رؤوف رحيم »^(١) .. فكنت سيفاً مسلواً حتى يعمدني أو يدعني فأمضي ، حتى قبض رسول الله ﷺ وهو عني راض ، والحمد لله ، وأنا أسعد بذلك ..

« ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان ممن لا ينكرون دعته وكرمه . وليته ، فكنت خادمه وعونه ، أخطت شدي بآيئه ، فأكون سيفاً مسلواً حتى يعمدني أو يدعني فأمضي .. فلم أزل معه كذلك حتى قبض ، وهو عني راض والحمد لله ، وأنا أسعد بذلك .. »^(٢) .

(١) يشر بذلك إلى قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم

بحرئس عليكم بالآمين رؤوف رحيم » (١٣٨ : البقرة)

(٢) 'الرباس' الفصرة : جزء ٢ ص ٩

لم يكن أذن من المستغرب - والأمر كذلك - أن يكون موقف عمر من حرب الردة على غير ما كان يتوقع منه ، جرياً على ما اعتاد المسلمون منه ، من أخذ الجانب المتحفز المهاجم . .

إن أبا بكر — كما قلنا — قد اشتد ، وغلا ، وهاج ، وواجه عاصفة الردة بإعصار لا يبقى على شيء ، حتى ولو قى فيه المسلمون جميعاً وأولهم أبو بكر ، فكان على عمر أن يخفف من حدة هذا الموقف ، وأن يلقي بإعصار أبي بكر بهذه النسمة الهادئة الوادعة ، حتى يتبين الموقف على حقيقته ، حين ينظر إليه من جهتيه معا . .

ولو أن أبا بكر أبطأ قليلاً ، ولم يبادر الأمر بهذا الموقف الذي وقفه ، لكان عمر هو الذي يهب بكل قوته ، يستصرخ المسلمين للقاء المرتدين ، ويقضرب في وجه كل من يتردد أو يتخلف !!

ولكن عمر — رضى الله عنه — كان يرى أنه بين يدي أبي بكر رضى الله عنه — الذى رأى فيه من الصرامة والشدة ما لم يعده فيه من قبل . . إذ كان أبو بكر — رضى الله عنه — يأخذ جانب اللين والرفق دائماً ، على حين كان عمر يأخذ جانب الشدة والصرامة فى كل موقف كان يعرض لرسول الله ﷺ . . وقد رأينا كيف كان موقف أبي بكر حين استشار النبي الكريم أصحابه فى أسرى المشركين يوم بدر ، وكيف كان موقف عمر . . فإن أبا بكر ، قال : يا رسول الله هم الأهل والعشير ، وامل الله أن يترح صدورهم للإسلام ، فاقبل الفدية منهم ، على حين كانت قولة عمر : ولا ، بل هم يا رسول الله ، أعداء الله ، فاضرب رقابهم بالسيف !!

وعلى هذا ، فإن عمر ، ما كان ينتظر من أبي بكر ، أن يقف هذه

الوقفة من المرتدين ، ويعانها حرباً عليهم ، ولو كان وحده ، لا يخرج معه .
أحد لقتالهم .. وما نحسب إلا أن عمر كان على هذا الرأى الذى رآه أبو بكر ،
ولكنه وقد رأى أبا بكر هو الذى يدعو إلى القتال على تلك الصورة
القاطعة ، وقع في نفس عمر أن الأمر يمكن أن يكون من أبى بكر منبعتاً
عن شعوره بتلك المسئولية التى يحملها من أمر الإسلام والمسلمين ، بعد أن
أصبح خليفة لرسول الله ﷺ ، فرأى عمر بتلك المعارضة أن يثبت أبو بكر
من موقفه ، وأن يعد له العدة من رجال وسلاح ، وألا يندفع وراء الجاس
الدينى ، الذى تمتلىء به نفسه . فكان عمر بهذا أشبه بأبى بكر فى حياة
رسول الله ﷺ ، يأخذ جانب اللين مع ولى الأمر ، حتى لا تجتمع القوة ،
مع قوة السلطان ، مظهرة له ، لأن السلطان فى ذاته قوة ، وصاحب السلطان
محتاج إلى من يخفف من سلطانه ، لا من يفريه بالسلطان .

وهذا التوازن بين شدة عمر حين يكون بين يدي من يسوس شدته ،
ويقوم وجهها على أعدل طريق وأقومه ، وبين ليه حين يكون مع من يرى
منه الشدة على من يمس حرمة الدين - بهذا التوازن كان عمر علماً منفرداً
بين أعلام الرجال فى سيرته ، محكوماً أو حاكماً .

وهذا التوازن بين عمر وما عرف عنه من صرامة فى الحق ، وغيره .
بالغة على صبط موازينه ، وبين أبى بكر وما طبع عليه من الحلم والأناة
والروية ، ومعالجة الأمور بالرفق واللين - بهذا التوازن بين شدة عمر ولين
أبى بكر - رضى الله عنهما - أحكم أبو بكر - رضى الله عنه - أمور المسلمين ،
بعد رسول الله ﷺ ، ووفى الجماعة الإسلامية ما كان يمكن أن تعرض
له من عواصف الفتن بعد أن أخلى رسول الله مكانه من هذه الدنيا .

فلقد اختار الله لهذه الأمة ، وهياً لها من أمرها رشداً ، بأن يبيع لأبي بكر بالخلافة ، وبأن اتخذ أبو بكر عمر سنداً له ووزيراً ، وذلك لما كان يرى من أن أمره لا يستقيم على الوجه الذى يريد إلا بمؤازرة عمر له ، ولهذا استأذن أبو بكر ، أسامة بن زيد ، قائد الجيش الذى كان النبی ﷺ قبيل وفاته قد أمر أسامة عليه لغزو أطراف الروم ، وكان عمر ، وكثير غيره من وجوه الصحابة تحت إمرة أسامة - فى أن يدع معه عمر إذا شاء ، ليستعين به . وينتفع برأيه ونصحه فيما يعرض للمسلمين من أمور ، وما يطرَقهم من أحداث .

يقول ابن تيمية - رضى الله عنه - وهو يتحدث عن الولاية على الناس ، وعما يشترط فيمن يولى أمراً من أمور المسلمين ، من صفات تؤهله للقيام به على الوجه الأقرب إلى ما يكون من الحق والعدل والإحسان - يقول ابن تيمية فى هذا ^(١) :

« وينبغي أن يعرف الأصلح فى كل منصب ، فإن الولاية لها ركان : القوة والأمانة ، كما قال تعالى : « إن خير من استأجرت ^(١) القوى الأمين ^(٢) » وقال صاحب مصر نيوسف : « إلك اليوم مكيّن أمين ^(٣) » وقال تعالى فى صفة جبريل : « إله لقول رسول كريم ، ذى قوة عند ذى العرش مكين ، مطاع ثم أمين ^(٤) » ..

(١) والمأتم الذى يلى أمراً من أمور الناس - أفراداً أو جماعات - هو أحبه ، يستوى ما يقوم بمباشرة مهمه ، إذا كان قد حيس نفسه على العمل لم : ولا يصرف فى أمرهم إلا بما يحقق مصلحتهم ، أشبه بالأجير الذى يستأجر لإنجاز عمل ، ولا أحر له إلا إذا أبحزه على الوجه المطلوب منه .

ثم يقول ابن تيمية - رضى الله عنه - شارحاً القوة ومكانتها من الولاية « والقوة فى كل ولاية بحسبها . . فالقوة فى إمارة الحرب ، ترجع إلى شجاعة القلب ، وإلى الخبرة بالحروب ، والتحذاعة فيها ، فإن الحرب خدعة ، وإلى القدرة على أنواع القتال من رمى وطعن وضرب وركوب ، وكبر وفر ، ونحو ذلك كما قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » وقال ﷺ : « ارموا واركبوا ، وأن ترموا أحب إلى من أن تركبوا^(١) » ومن تعلم الرمي ثم نسبته فليس منا » وفى رواية : « فهى نعمة جعدها » (رواه مسلم) . .

ثم يفيض ابن تيمية ، قائلاً فى بيان الوجوه التى تطلب فيها القوة : « والقوة فى الحكم بين الناس ، ترجع إلى العلم بالعدل الذى دل عليه الكتاب والسنة ، وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام . .

« أما الأمانة فترجع إلى خشية الله ، وألا يشتري بآياته ثمناً قليلاً ، وترك خشية الناس . . وهذه الخصال الثلاث - لتحقيق الأمانة - هى التى اتخذها الله تعالى على كل حاكم على الناس فى قوله تعالى : « فلا تخشوا

(١) المراد بالرمى هنا بالسهم ، على ما كان معمولاً فى عهد النبى . . ولقد نوه - صلى الله عليه وسلم - بشأن الرمي ، وقدمه على ركوب الخيل ، لأنه أفضل فى الحكاية بالعدو ، فسكناً اشتد ساعد الرامي استطاع أن يبلغ بسهمه المدى الذى يصيب به العدو ، دون أن ينال منه العدو شيئاً ، إذا كان ساعد العدو أصعب من ساعده . . وقد نبه النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا السلاح من أسلحة الحرب ، وعده من أمضى الأسلحة . . وها نحن أولاء نشهد اليوم الصورة المتطورة للسهم فى القذائف المدفعية ، والصواريخ ونحوها ، حيث تتسابق الأمم فى الوصول إلى ما هو أبعد مدى ، مما ينال العدو . . وقد غفل المسلمون اليوم عن هذا ، فأصابهم العدو فى مقامهم بهذا السلاح المراسد لهم !!

الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ^(١) ولهذا قال النبي ﷺ : القضاة ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض في الجنة . . فرجل علم الحق وقضى بخلافه ، فهو في النار ، ورجل قضى بالناس على جهل فهو في النار ^(٢) ، ورجل علم الحق ، وقضى به ، فهو في الجنة . . والقاضي اسم لكل من قضى بين اثنين ، وحكم بينهما ، سواء كان خليفة أو سلطاناً ، أو نائباً أو والياً ، أو كان منصوباً ليقضى بالشرع ، أو نائباً له ، حتى من يحكم بين الصبيان في الخطوط ، إذا تناهروا ، وهكذا ذكر أصحاب رسول الله ﷺ ، وهو ظاهر » ثم يقول ابن تيمية رضي الله عنه :

« واجتماع القوة والأمانة في الناس قليل ^(٣) ، ولهذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول : اللهم أشكو إليك جلد الفاجر — أى قوته — وعجز الثقة — أى الأمين » .

« فالواجب في كل ولاية ، إقامة الأصلح لها بحسبها . . فإذا تعين رجلان — أى لاختبار واحد منهما — أحدهما أعظم أمانة ، والآخر أعظم قوة ، قدم أنفعهما لتلك الولاية ، وأقلهما ضرراً فيها ، فيقدم في إمارة الحروب الرجل القوي الشجاع ، وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز ، وإن كان أميناً ، كما سئل الإمام أحمد بن حنبل — عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو ، أحدهما قوي فاجر ، والآخر صالح ضعيف ،

(١) والنس القليل : هو كل ما في هذه الدنيا من مال ومتاع ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « قل متاع الدنيا قليل » .

(٢) لأنه — وهو جاهل — دخل في أمر ليس هو أهله ، فهو بهذا خادع لنفسه ، غاشي للناس ، مهتد لأمرهم .

(٣) أى في أفراد الناس ، لا في مجموعهم .

مع أيهما يُغزى؟ قال: أما الفاجر القوي، فقوته المسلمين، وفجوره على نفسه، وأما الصالح الضعيف، فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين، فيغزى مع القوى الفاجر... وقد قال النبي - ﷺ - «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»^(١)!! فإذا لم يكن فاجراً كان أولى بإمارة الحرب ممن هو أصلح منه في الدين إذا لم يسد مسده، ولهذا كان رسول الله ﷺ، يستعمل خالد بن الوليد على الحرب منذ أسلم، وقال: «إن خالداً سيف سله الله على المشركين» مع أن خالداً أحياناً كان يعمل ما ينكره النبي ﷺ، حتى إنه مرة رفع يديه إلى السماء وقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما فعل خالد» وذلك حين أرسله إلى جذيمة فقتلهم وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، وأنكره عليه بعض من معه من الصحابة، حتى وادام النبي ﷺ - أي دفع دية قتلاهم - وضمن أموالهم... ومع هذا، فما زال النبي - ﷺ - يقدمه في إمارة الحرب، لأنه كان أصلح في هذا الباب من غيره، وفعل خالد ما فعل بنوع تأويل!! وكان أبو ذر - رضي الله عنه - أصلح منه في الأمانة والصدق، ومع هذا، فقد قال له النبي - ﷺ - : «إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسى، لا تأمرن على اثنين، ولا تواين مال يتيم» (رواه مسلم). نهى أبا ذر عن الإمارة والولاية، لأنه رآه ضعيفاً، مع أنه قد روى: «ما أظلت الخضراء، ولا أقات الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر»... وهكذا أبو بكر - رضي الله عنه - مازال يستعمل خالداً في حرب أهل الردة، وفي فتوح العراق والشام، وبدت منه هفوات، كن له فيها تأويل، وقد ذكر له عنه أنه كان له فيها هوى، فلم يعزله من أجلها، بل عتبه عليها، لرححان المصاحبة على المفسدة في بقائه، وأن غيره لم يكن يقوم مقامه...

(١) يشير الرسول الكريم إلى مكان الرجل في الحرب، لا في السلم.

ثم يشرح ابن تيمية — رضى الله عنه — العلة في هذا ، فيقول :
« لأن المتولى الكبير ، إذا كان خلقه يميل إلى اللين ، فينبغى أن
يكون خلق نائبه يميل إلى الشدة ، وإذا كان خلقه يميل إلى الشدة ، فينبغى
أن يكون خلق نائبه يميل إلى اللين ، ليعتدل الأمر .. ولهذا كان أبو بكر
الصديق — رضى الله عنه — يؤثر استنابة خالد ، وكان عمر — رضى الله عنه —
يؤثر عزل خالد ، واستنابة أبي عبيدة بن الجراح ، رضى الله عنه — لأن
خالد كان شديداً كعمر بن الخطاب ، وأبا عبيدة كان ليماً كآبى بكر ،
وكان الأصلح لكل منهما أن يولى من ولاءه ، ليكون أمره معتدلاً ،
ويكون بذلك من خلفاء رسول الله — ﷺ — الذى هو معتدل ، حتى قال
النبي ﷺ : « أنا نبي الرحمة ، نبي الملحمة » وقال : « أنا الضحك القتال »
وأتمته وسط ؛ قال الله تعالى فيهم : « أشداء على الكفار رحماء بينهم » تراهم
ركعاً ساجداً ، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً^(١) وقال تعالى : « أدلة على المؤمنين
أعزة على الكافرين » ، ثم يعقب ابن تيمية — رضى الله عنه — على هذا بقوله :
« ولهذا لما تولى — الخلافة أبو بكر وعمر — رضى الله عنهما — صاروا
كاملين في الولاية ، واعتدل منهما ما كان يفسدان فيه إلى أحد الطرفين
في حياة رسول الله ﷺ ، من لين أحدهما وشدة الآخر ، حتى قال فيهما —
ﷺ « اقتدوا بالذين من بعده ، أبى بكر وعمر »^(٢)

وإذن — مرة أخرى — فقد اختار الله للمسلمين ، إداد وفقههم إلى اختيار
أبى بكر خليفة عليهم بعد رسول الله ﷺ ، وقد كان لعمر — رضى الله
عنه — اليد القوية العاملة في هذا الموقف ، فرضى الله تعالى عنه ، وأوسع له
في جناب رحمته ، ورضى الله عن أبى بكر ، وصحابة رسول الله ، ومن تبعهم
ياحسان إلى يوم الدين .

(١) العنق آية ٢٩ .

(٢) انظر السياسة الشرعية و إصلاح الراى والرعية ، لابن تيمية — المطبعة الأميرية

سنة ١٣٢٢ هـ . ص ٦ و ٧ .

الباب الرابع الخليفة... والخلافة

الفصل الأول

أبو بكر والخليفة من بعده

كانت بيعة أبي بكر - كما كان يتردد على الأفواه بعدها وكما كان يقول عمر - كانت فلتة وفي الله شرها . . ولولا أن المسلمين كانوا يومها في حال من الرهق الروحي ، والضعف النفسى ، بموت رسول الله ﷺ ، وماغشيه من شرود عن النظر لما حولهم ، ولما تستقبلهم به الأيام بعد هذا الحدث الجلل - لولا هذا لما كان ذلك الأسلوب الذى بويج به أبو بكر ، بالذى يقيم له أمر الخلافة على ما استقامت عليه ، ولما سلم الأنصار للمهاجرين بأحقيتهم بالخلافة فى أول لقاء بهم ، وبكلمات قليلة من أبي بكر ألقى بها إليهم ، ولولا هذا أيضا لما سلم على ، وقد كان فيما يرى ، وفيما يرى كثير من المهاجرين والأنصار - أنه الخليفة المنتظر بعد رسول الله ، والوارث له ، فى ظاهر الأمر ، وعلى ما كان مألوفًا فى الجاهلية ، من حصر الشرف فى بعض بيوت القبيلة ، يتوارثه السلف عن الخلف وخاصة فى بيوت قريش !!

نعم كانت بيعة أبي بكر فلتة وفي الله شرها . .

ولا شك أن أبا بكر - رضى الله عنه - لم تغب عنه هذه الحقيقة ، كما لم يغب عنه ما يكون من أمر المسلمين من بعده من خلاف وفرقة ، إذا هو لحق بربه من غير أن يقيم المسلمين على رأى يجتمعون عليه فى اختيار الخليفة قبل وفاته . .

وما لا شك فيه كذلك أن خلافة أبي بكر كانت موضع حديث بين

المسلمين ، فإنه وإن كان المخالفون لأبي بكر قد سلخوا بالأمر الواقع ، ورضوا به ، إلا أن ذلك لم يمنهم من مراجعة الأمر بينهم وبين أنفسهم ، ومن لقاء بعضهم بعضاً بالعتاب حيناً ، وباللوم حيناً . ثم بالنزول إلى الرضا في غالب الأحيان . . . وقليل هم أولئك الذين لم ينته أمرهم إلى الرضا بخلافة أبي بكر كبنى أمية . وخاصة بنى عبد شمس الذين تأخر إسلامهم ، فتأخر مكانهم في المجتمع الإسلامي في عهد النبوة ، وفي عهد الخلافة البكرية والعمرية . . . وقد كانوا رءوساً في الجاهلية . . . فهم لهذا ينظرون إلى الإسلام نظرة الحدث الذي سلبهم هذا المكان الذي كان لهم . فالخلافة عندهم . والأمر كذلك . إذا لم تكن فيهم فإنهم على عداوة لها أياً كان هذا الخليفة . . . فإذا رضوا رضوا على مفض ، كما أسلموا على بكره . . .

هذا ولم تكن هذه الأحاديث التي كانت تدور غائبة أو لائمة ، يقصد بها مجرد العودة إلى الماضي الذي مضى ولن يعود ، بقدر ما كان يقصد بها الإعداد للمستقبل ، والتأهب للجولة القادمة في اختيار الخليفة الذي يختلف أبا بكر . . .

هذه أمور قد عرفها أبو بكر ، واستشعر صورها الخفية والظاهرة . . . بعد أيام خلافته ولياليها . . .

وإنه لمن الوفاء بحق الخلافة ، ومن أوجب واجبات الخليفة ، النصيح للمسلمين وسد ذرائع الفتن التي تواجههم في حياته أو بعد مماته . . . وإنه لمن تبرأ ذمة الخليفة من أدله الأمانة التي أؤتمن عليها حتى يطمئن إلى أنه سيترك الأمانة من بعده في أيدي أمينة ترعاها ، وتؤدي حق الله وحق المسلمين فيها . . .

وقد نظر أبو بكر وأطال النظر ، وفكر وأكثر في التفكير ، فيما

يُمكن أن يكون منه من تدبير حتى يجنب المسلمين موقف الخلافة فيمن يختارونه من بعده خليفة عليهم . . وقد تنازعت أبا بكر هذه الخواطر : أترك الأمر للمسلمين ، شورى بينهم ، يختارون الخليفة عليهم حسب ما يؤدي إليه رأيهم واجتهادهم . . فإن هم أحسنوا الاختيار فلا أنفسهم ، وإن هم أساءوا فعلها ، وبذلك يخلى نفسه من مسئولية اختيار خليفة لا يدري ماذا يفعل في خلافته . . إنه إن يفعل هذا ، فقد فعل ذلك رسول الله ﷺ ، وله في رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - أسوة حسنة . إذ توفي رسول الله - ﷺ ، ولم يذكر للمسلمين اسم الخليفة من بعده ، وإن كان قد أشار - صلوات الله وسلامه عليه - إشارة ذات دلالة إلى أبي بكر حيث أقامه مقامه في إمامة المسلمين في الصلاة أيام مرضه ، إلى جانب إشارات ذات دلالة أيضاً أشار بها - صلوات الله وسلامه عليه ، إلى علي كرم الله وجهه . . ثم ترك للمسلمين تأويل هذه الإشارات ، والأخذ بما يرجحون منها . . إن يفعل ذلك رسول الله ﷺ ، فقد فعل شيئاً مثله . أو قريباً منه أبو بكر ، وذلك فيما كان من مكانة عمر عنده ، ومشاركته مشاورة فاعلة - قولاً وعملاً - في تصريف أمور المسلمين . الأمر الذي يرى فيه المسلمون شواهد على أن عمر هو أولى الناس عنده بأن يكون الخليفة من بعده ، وقد رأوا منزلة عمر عنده ، والاستعانة به في كل أمر ينوب المسلمين ؟

أفترك المسلمين إذن ليأخذوا من مكانة عمر عنده دلالة على أنه الخليفة الذي يرشحه لهم ، ويدعوهم إلى بيعته من بعده ؟ ربما كان هذا رأياً وقف عنده أبو بكر في مرحلة من مراحل تفكيره ، بل وربما كان يقف عند هذا الرأي ، لا يتجاوزه . . ولكن بين الحين والحين كان يقع على أنباء لا تبشر بوحدة الرأي بين المسلمين في اختيار من يخلفه .

مؤيدين الحسين والحسين كذلك ، كان يطلع عليه من ذكريات بيعته والخلاف الذي وقع قبلها وبعدها ، ما يبلبل خاطره ، ويزعج نفسه ..

ومن جهة أخرى ، فإنه إن يكن عمر عند أبي بكر ، هو أولى المسلمين بالخلافة من بعده ، فذلك عن رأى شخصى له ، قد يشاركه فيه كثير من المسلمين . . وليس يقضى عن أبي بكر فى هذا المقام أنه وضع عمر تحت اختبار دقيق مدة خلافته ، وأنه وقع من نفسه بعد هذا الاختبار موقع القبول والرضا ، فإن مسئولية الخلافة مسئولية جسيمة ، فكيف يستقل أبو بكر بدعوة إنسان إلى حملها ، أو كيف يحمل هو الناس على قبول إنسان بعينه ؟ إن ذلك يحمله تبعه ما قد يقع من هذا الخليفة من ظلم أو انحراف . . وماذا عليه لو أعفى نفسه من هذا كله ، وترك الأمر للمسلمين يقضون فيه بما يشاءون ؟ ..

كانت هذه الخواطر تتردد فى صدر أبي بكر ، ولكنه كان يعضى بها ، ويعيش معها ، دون أن يقضى برأى أو يقطع بحكم ، منتظراً ما تأتى به الأيام ، وما تلده من أحداث . . فقد يحىء إليه صحابة رسول الله ﷺ طالبين النظر فى أمر الخلافة من بعده ، فقهياً له الفرصة التى يقول فيها رأيه كواحد منهم ، أو أن يبدو من عمر ، أو ينكشف له من حاله ما يجعله يغير رأيه فيه ، أو يزيده استمساكاً به . . إلى غير ذلك مما يطير على جناحى الليل والنهار ، بما لم يقع فى الحسبان من غير وأحداث .

وتمضى الأيام بأبى بكر رضى الله عنه ، وتنتهى حروب الردة ، وتعود الجزيرة العربية كلها بيتاً للإسلام ، ووطناً لأول المسلمين ، وتنطلق الجيوش العربية صوب دولتى فارس والروم . . وتحيى بشائر النصر من

كل لواء عنده أبو بكر ووجه به إلى هاتين الدولتين اللتين كانتا تقسمان العالم كله فيما بينهما ..

وهنا يشعر أبو بكر أنه قد أدى الأمانة ، وأن له أن يستبشر برضا الله تعالى ورسوله عنه ، وأنه في حال يحب فيها لقاء الله ، وقد أحب الله تعالى لقاءه ، إذ أحب هو لقاء الله كما في الحديث الشريف : « ومن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه » .

ويعرض أبو بكر مرض الموت ، وتجيء الساعة التي كان ينتظرها ليقضى فيها بشأن الخلافة ، قضاء لا يشوبه - وهو في تلك الحال - شيء من أمور الدنيا ، فهو قضاء خالص لله ، وفي سبيل الله .. ولا نحسب انتظار أبي بكر في اختيار الخليفة من بعده إلى هذه اللحظة الحاسمة ، التي يتخلع فيها الإنسان عن الدنيا ، والتي كما يقول أبي بكر - يؤمن فيها الكافر ، وينزع العاصي - . لا نحسب انتظاره إلى تلك اللحظة ، إلا ليخرج من سلطان أية عاطفة تمطفه - على أجدفها يحضره من أمر سياتي الله به عما قليل ..

وبقع اختيار أبي بكر على عمر ، ليكون خليفة على المسلمين من .

١٠٢

.. ولواطاع المسلمون على الغيب لحدوا لأبي بكر هذه اليد البيضاء التي أولام إياها هذا الاختيار الموفق ، ولقبوا يدي أبي بكر ظهراً وبطناً ، ولعدوا هذا فتحاً من فتوحاته الموقرة ، ولواجهوه وهو حي بهذه الرحمة والدعوات التي يبعثون بها إليه في عالمه العلوي منذ فارق هذه الدنيا إلى اليوم ، وإلى ما بعد هذا اليوم ، إلى يوم يقوم الناس لرب العالمين ، بعد أن انكشف لهم من عمر هذا الإنسان الذي قل أن يموت عليهم أكثر من مثله ..

نقول : لو أطلع المسلمون على الغيب- وأبو بكر على فراش الموت يكتب وثيقة وصيقه بالخلافة من بعده لعمر بن الخطاب- لما كان لأحد منهم أن يواجه بكلمة لوم أو عتاب ، بما واجهوه به وهو على فراش الموت ، يدعوه إلى البيعة لعمر بالخلافة من بعده ! !

ولكن أنى للناس أن يعلموا الغيب ، ويروا ما وراء ستره التى لا يعلمها إلا علام الغيوب ! وكادت تكون فتنة كتلك الفتنة التى أطلت برأسها بعد وفاة الرسول ، واختلاف المسلمين فيمن يخلف رسول الله ﷺ عليهم .

وصحيح أن خلافة أبى بكر بدأت ، وقد انعقد حولها كثير من الدخان والضباب ، ولكنها لم تلبث - بسيرة أبى بكر الرشيدة العادلة القائمة على طريق النبوة - أن أصبحت موضع رضا المسلمين جميعاً .. ولو أنه كان من الممكن أن يتجدد شباب أبى بكر ، ويدعى المسلمون إلى تجديد البيعة له ما تخلف واحد منهم عن بيعته !!

وصحيح أن اختيار المسلمين لأبى بكر بالخلافة - بعد أن سار فيهم سيرته تلك - قد أعطى إشارة ظاهرة بأن هذا الاختيار كان بوحي من رسول الله ﷺ حين أقامه مقامه في إمامة المسلمين في الصلاة وأن ذلك كان معجزة من معجزات النبي صلوات الله وسلامه عليه ..

وصحيح - بعد أن اختبر أبو بكر هذا الاختبار العظيم - أنه أولى المسلمين بأن يكون ثمانى اثنين ، أولهما رسول الله ، وثانيهما أبو بكر.. الذى كانت خلافته امتداداً طبيعياً لحياة النبي ، ومقامه في المسلمين .

صحيح كل هذا . وقد كان من لوازم صحته أن يطعن المسلمون إلى اختيار أبى بكر ، لعمر من بعده ، وتسليمهم بما اختار ..

. ولكنها النفوس البشرية ، تختلف في نظرتها إلى الأمور ، وفي توقعها
لموارد ما وهي تنظر في وجوه مصادرها ..

ولهذا كان من بعض صحابة رسول الله اعتراض على أبي بكر في
استخلاف عمر.. ولكن هذا الاعتراض قد سوى في حينه ، وبإيج المسلمون
عمر بيعة عامة . جامعة لم يتخلف عنها وجه من وجوه صحابة رسول الله . .
وعلى رأسهم على ابن أبي طالب كرم الله وجهه . . ثم كان من سيرة عمر ،
ما كان من سيرة أبي بكر ، إذ كان كلما مضت الأيام به ازدادت في القلوب
محبة ، وعظمت في النفوس مكانته ، فما أن تقع عليه عين ، أو تسمع بذكره
أذن إلا كان الحمد والثناء عليه ، وكانت الرحمة والرضوان لأبي بكر الذي
اختاره خليفة على المسلمين من بعده ..

الفصل الثاني

وثيقة البيعة . . وما دار حولها

عن علي - كرم الله وجهه - أنه قال : المنفردون في الناس أربعة ،
أمرأتان ورجلان ، فالمرأة الأولى صغيراء بنت شعيب لما تفرست في موسى
حقالت : « يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين » والرجل
الأول الملك العزيز ، تفرس في يوسف - وكانوا فيه من الزاهدين ، فقال
لامرأته : « أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو ننخذه ولداً » والمرأة الثانية
« خديجة » تفرست في النبي ﷺ ، النبوة فقالت لعمها : قد شئت روحى وروح
محمد أنه نبي هذه الأمة مزوجنى منه . . والرجل الثانى أبو بكر الصديق ،
لما حضرته الوفاة قال : إني تفرست أن أجعل الأمر بعدى في عمر
يا بن الخطاب . . . » (١)

وروى ابن قتيبة الدينورى ، في كتابه الإمامة والسياسة ، أن
أبا بكر رضى الله عنه ، حين حضرته الوفاة ، دعا عثمان بن عفان ، رضى
الله عنه ، فقال له : اكتب عهدى ، فكتب عثمان ، وأملى عليه : « بسم
الله الرحمن الرحيم . . هذا ما عهد به أبو بكر ابن قحافة ، آخر عهده في
الدنيا ، نازحاً عنها ، وأول عهده بالآخرة داخلها ، أنى استخلفت عليكم
بِعمر بن الخطاب ، فإن تزوه عدل فيكم ، فذلك ظنى به ، ورجائى فيه ،
وإن بدل وغير ، فالخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظهروا أى
منقلب ينقلبون » ثم حتم الكتاب ، ودفعه . . ودخل عليه المهاجرون

(١) انظر شرح نهج البلاعة ، لابن أبي الحديد ، الجزء السادس معبر ،

والأنصار حين بانهم أنه استخلف عمر ، فقالوا : نراك استخلفت علينا عمر وقد عرفته ، وعدت بوأنته^(١) ، وأنت بين أظهرنا ، فكيف إذا وليت عنا وأنت لاق الله عز وجل ، فسألك ، فما أنت قائل ؟ قال أبو بكر : « لئن سألتني الله لأقولن استخلفت عليهم خيرهم في نفسي ١١ . ثم أمر الناس أن يجتمع له ، فاجتمعوا ، فقال : أيها الناس قد حضرني من قضاء الله ماترون . وإنه لا بد لكم من رجل يلي أمركم ، ويصلي بكم . ويقا تل عدوكم ، فيأمركم (أي يكون أميراً عليكم) فإن شئتم اجتمعتم فأعزتم ، ثم وليتم عليكم من أردتم ، وإن شئتم اجتهدت لكم رأيي ، والله الذي لا إله إلا هو لا آلوكم في نفسي خيراً . . ثم بكى ، وبكى الناس . . وقالوا : يا خليفة رسول الله أنت خيرنا وأعلمنا فاختر لنا ، قال سأجتهد لكم رأيي ، واختار خيركم لكم إن شاء الله . . فخرجوا من عنده ، ثم أرسل إلى عمر ، فقال : يا عمر أحبك محب ، وأبغضك مبغض ، وقديماً يحب الشر ، ويبغض الخير ، فقال عمر : لا حاجة لي بها ، فقال أبو بكر ، لكن بها إليك حاجة ، والله ما حبوتك بها ، ولكن حبوتها بك . . ثم قال خذ هذا الكتاب ، واخرج به إلى الناس ، وأخبرهم أنه عهدى ، وسلمهم عن سمعهم وطاعتهم^(٢) » فخرج عمر بالكتاب ، فقالوا سمعاً وطاعة . . فقال له رجل : ما في الكتاب يا أبا حفص ؟ قال : لا أدري ، ولكني أول من سمع وأطاع . . فقال الرجل : لكني والله أدري ما فيه ١١ أمرته عام أول ، وأمرك هذا العام » ومن هذا الخبر يتبين أن أبا بكر رضي الله عنه كان إلى آخر يوم من حياته ، متخوفاً من أن يحمل تبعه اختيار الخليفة من بعده ، وأنه حتى

(١) البوائق : جمع بائقة : وهي الدامية والشر المستطير .

(٢) أي يسألهم هل هم ساهرون ويطيعون لما في هذا العهد ، الذي عهد به أبو بكر دون أن يسلطوا ما فيه .

بعد أن كتب العهد باختيار عمر ، لم يعلنه في الناس إعلاناً صريحاً ، بل استشعر به الناس استشعاراً ، فلما نكلموا إليه في شأن عمر وما ينويه من استخلافه ، رد الأمر إليهم ، وجعل لهم الخيار بين أمرين : إما أن يختاروا هم الذي يولونه أميراً عليهم وبين أن يفوضوا إليه الأمر في اختيار الأمير عليهم ، فلما اختاروا الأمر الثاني . أظهر العهد الذي كان قد كتبه ، ودعا الناس إلى السمع والطاعة لما في هذا العهد الذي كتبه بتفويض منهم ، فكان منهم السمع والطاعة ، وقد صح ما توقعوه من أنه قد اختار عمر بن الخطاب خليفة من بعده !!

وعن « محمد بن سعد » في طبقاته ، أن جماعة من الصحابة دخلوا على أبي بكر حين عزم على استخلاف عمر ، فقال له قائلون منهم : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته ؟ فقال أبو بكر : أجلسوني .. أبا لله تخوفوني ؟ خاب من تزود من أمركم بظلم !! أقول اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك .. أبلغ غنى ما قلت لك .. من وراءك .. ثم اضعج !! » .

وحق لأبي بكر أن يضيع ويستريح بعد أن أتى هذا العبء عن كاهله إلى عمر !!

وهكذا سوى أبو بكر حسابه مع الذين عارضوه ، أو اعترضوا عليه في وصيته باختيار عمر خليفة على المسلمين .. فمرت عينه ، وسكنت نفسه ، واستقبل الموت راضياً مطمئناً . وسرعان ما أسلم روحه ، وخرج من هذه الدنيا ، ليأتي ربه ، وليسعد ويهنا بصحبة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه في الرزق الأعلى .. إنه صاحبه في الدنيا وصاحبه - إن شاء الله - في الآخرة ..

هذا ، وقد طعن الشيعة فيما طعنوا به على أبي بكر ، أنه اختار عمر للخلافة على المسلمين . احتجوا لهذا « بأن رسول الله ﷺ لم يوله عملاً من أعماله ألبته ، إلا ما ولاه يوم خيبر ، فرجع منهزماً ، وولاه الصدقة ، فلما شكاه العباس عزله » . وقد تولى تنفيذ هذا ، و الرد عليه . الفقيه العالم المعتزلى : « عبد الجبار » صاحب كتاب المغنى ، فقال :

« إن تركه عليه الصلاة والسلام أن يوليه - أى عمر - لا يدل على أنه لا يصلح لذلك ، وتوليته إياه لا يدل على صلاحيته للإمامة ، فإن المصطفى ﷺ ولي أخاه بن الوليد ، وعمر بن العاص ، ولم يدل ذلك على صلاحيتهما للإمامة . وكذلك تركه أن يولى لا يدل على أنه غير صالح ، بل المعتبر بالصنات التى تصلح للإمامة ، فإذا كملت صلح لذلك أولى من قبل أو لم يول . . . وقد ثبت أن النبي ﷺ ترك أن يولى أمير المؤمنين - علياً - عليه السلام أموراً كثيرة ولم يوجب أنه لا يصلح لها . وثبت أن أمير المؤمنين - علياً - لم يول الحسين ابنه ولم يمنع ذلك من أن يصلح للإمامة . . . » .

وقد اعترض الشريف المرتضى - رحمه الله - على هذا الذى رذبه « عبد الجبار » فقال : « قد علمنا بالعادة أن من ترشح لتكبار الأمور لا بد أن يدرج إليها بصغارها ، لأن من يريد بعض الملوك تأهليه للأمر لابد من أن ينه عايمه بكل قول وفعل يدل على ترشيحه لهذه المنزلة ، ويستكفيه من أمور ولاياته ما يعلم عنده أو يغلب على ظنه صلاحه لما يريد له . . . » .
فإن من يرى الملك مع خضوره . وامتداد الزمان وتطاوله ، ولا يستكفيه شيئاً من الولايات ، ومضى ولاه عزله ، وإعما يولى غيره ، ويستكفى اسواه . لا بد أن يغلب فى الظن أنه ليس بأهل للولاية ، وإن أجوزنا أنه لم يوله لأسباب كثيرة . سوى أنه لا يصلح للولاية . . . » .

« فأما خالد وعمر و فإنا لم يصلحوا للإمامة ، لقد سُرّوط الإمامة فيهما .
وإن كانا يصلحان لما ولياه من الإمارة . . . »

« فأما أمير المؤمنين « على » عليه السلام ، وإن لم يقول جميع أمور
النبي ﷺ في حياته فقد تولى أكثرها وأعظمها ، وخلفه في المدينة ، وكان
الأمير على الجيش المبعوث لخير ، وجرى الفتح على يديه ، بعد انهزام
من انهزم منها ، وكان المؤدى عنه سورة براءة بعد عزل من عزل عنها^(١) .
وإرجاعها منه ، إلى غير ذلك من عظيم الولايات والمقامات ، بما يطول
شرحه ، ولو لم يكن إلا أنه لم يول عليه والياً قط لكفى ...
ثم يقول المرتضى :

« فأما اعتراض - أى « عهد الجبار » صاحب المغنى - بأن أمير المؤمنين
عليه السلام لم يول الحسين - أى لم يوله عملاً - فبعيد عن الصواب ، لأن
أيام أمير المؤمنين عليه السلام لم تطل فيتمكن فيها من مراداته (جمع مراد
وهو ما يريد الإنسان) وكانت على قصرها منقسمة بين قتال الأعداء ،
لأنه عليه السلام لما بويع لم يلبث أن خرج عليه أهل البصرة فاحتاج إلى
قتالهم ، ثم انكفا من قتالهم إلى قتال أهل الشام ، وتعقب ذلك قتال أهل
النهروان - أى الخوارج - ولم تستقر به الدار ، ولا امتد به الزمان .
وهذا بخلاف أيام النبي صلى الله عليه وآله ، التي تطاولت وامتدت ...
ويعقب « عبد الجبار » على الشريف المرتضى بقوله :

(١) لم يعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبابكر ، فقد كان الأمير على الحج ولكن بعد
أن مضى أبوبكر في طريقه إلى مكة . . . نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم الآيات الأولى
مرسورة التوبة ، وفيها البراءة من المشركين ، وقطع ما بينهم وبين النبي من عهد . . .
فقال صلوات الله وسلامه عليه - لا يؤدى عن هذا إلا واحد من أهل بيتي « . . . »

« أما ما ادعاء - أى المرتضى - من عادة الملوك ، فالأمر بخلافه ، فإننا قد وقفنا على سير الأكاسرة وملوك الروم وغيرهم ، فاسمعنا أن أحداً منهم رشح ولده للملك بعده ، باستعماله على طرف من الأطراف ، ولا جيش من الجيوش ، وإنما كانوا يشقونهم بالآداب والفروسية في مقام ملكهم لا غير الحال في ملوك الإسلام كذلك ، فقد سمعنا بالدولة الأموية ، ورأينا الدولة العباسية ، فلم نعرف الدولة التي ادعاه المرتضى ، وإنما قد يقع في الأقل النادر شيء مما أشار إليه ، والأغلب الأكثر ، خلاف ذلك . . على أن أصحابنا - أى الجماعة - لا يقولون إن عمر كان مرشحاً للخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، ليقال لهم : فلو كان قد رشحته للخلافة بعده لاستكفاه كثيراً من أموره ، وإنما عمر مرشح عندهم - أى عند الجماعة - في أيام أبي بكر للخلافة بعد أبي بكر ، وقد كان أبو بكر استعمله على القضاء مدة خلافته ، بل كان هو الخليفة في المعنى ، لأنه فوض إليه أكثر التدبير^(١) .

هذا وقد كان عمر - رضى الله عنه - أول من لقب بأمر المؤمنين ، بعد رسول الله ﷺ أما أبو بكر ، رضى الله عنه ، فلقبه خليفة رسول الله ، إذ كان أول من قام على المسلمين بعد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وخلفه في القيام عليهم .. أما اللقب بأمر المؤمنين الذى لقب به عمر رضى الله عنه - فقد اختلف في أول تسميته به .

فمن محمد بن سعد ، في طبقاته قال : « لما مات أبو بكر - رضوان الله عليه - وكان يدعى خليفة رسول الله ، قيل لعمر : خليفة خليفة رسول الله فقال المسلمون : من جاء بعد عمر قيل له خليفة خليفة خليفة رسول الله ، فتبيل اجتمعوا على اسم تدعون به الخليفة ، فيدعى به من بعده من الخلفاء ، فقال بعض

(١) انظر شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد - الجزء السابع عشر ص ١٦٨ وما بعدها .

أصحاب رسول الله ﷺ : محن المؤمنون ، وعمر أميرنا ، فدعى عمر أمير المؤمنين ، فهو أول من سمي بذلك » !

' وروى المغيرة بن شعبة أنه نادى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لأول خلافته فقال : يا خليفة الله ، فقال عمر ذاك نبي الله داود ^(١) فقال : يا خليفة رسول الله ، فقال : ذاك صاحبكم المفقود ^(٢) فقال : يا خليفة خليفة رسول الله ، فقال : ذاك أمر يطوا ، ! فقال يا عمر : ! قال : لا تبخسنى مقامى شرفه : أنتم المؤمنون وأنا أمريكم ! وهكذا سمي عمر أمير المؤمنين وصار ذلك لقباً لكل خليفة من بعده .

* * *

(١) يشير عمر بهذا إلى قوله تعالى : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض ، فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى ، فيضلك عن سبيل الله » (سورة ص الآية ٢٦) .
(٢) يعنى أبو بكر .

الفصل الثالث عمر .. في منصب الخلافة

المستولية الجمعية :

ولى عمر الخلافة ، فكان كأنما حمل الجبال كلها على ظهره إذ ذلك أن الذين يقومون على أمر دولة من الدول ، أو جماعة من الجماعات ، هم بين رجلين : رجل يرى أن الدنيا فتحت أبوابها له ، وأن ما صار إليه من سلطان هو قوة سحرية في يده ، يقال بها كل ما يشاء من طاعة الناس ، وامتلاك كل ما بأيديهم ، فيسخر الناس ، وما في أيدي الناس لاسترضاء شهواته ونزواته ، فيركب بذلك كل صعب وذلول للتمكين لسلطانه ، ولو على أشلاء الناس ، ورجل رأى أنه أب كبير لهذه الدولة ، أو تلك الجماعة فهو مسئول عن كل فرد فيها ، لا يسوغ له طعام ولا يغمض له جفن ، وفي أفراد أبنائه جائع ، ولا يقر له مضجع ، وفي أبنائه أسرته من يشكو أو يتألم وهيئات أن يكون في هذا الجمع الكبير من لا بيت جائئاً ، وهيئات في هذه الدولة من لا يشكو ألماً ظاهراً أو باطناً .. وأمر كهذا ، حيث يحمله إنسان له هذه المواطف في صدره ، هو أثقل مما تحمله الجبال ..

وعمر — رضى الله عنه — إذ يتولى أمر الأمة الإسلامية ، ويقوم على الخلافة عن خليفة رسول الله عليها ، يرى أنه راع لهذه الرعية الكبيرة الممتدة الأطراف في مشارق الأرض ومغاربها ، وأنه مسئول عن هذه الرعية ، كما يقول الرسول الكريم : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته : فالأُمير على الناس راع وهو مسئول عن رعيته .. والزجل راع

في أهل بيته ، وهو مسئول عن رعيته ، وعيد الرجل راع على مال سيده ، وهو مسئول عنه ، ألا كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ^(١) .

وإذا كان كل إنسان — في شريعة الإسلام — راع وهو مسئول بين يدي الله عن رعيته ، وأن مما يرعاه الإنسان أول ما يرعاه ، هو نفسه وحراستها من وساوس الشيطان ، وإهواء النفس ، فإن القائم على أمر الأمة الإسلامية ، مسئول — مع هذا — عن كل ما يسأل عنه الناس جميعاً .. فهو مسئول عن نفسه ، مسئول عن ولده وأهل بيته ، مسئول عن أعوانه وحاشيته ، مسئول عن ولاته الذين تحت سلطانه ، مسئول عن الرعية كلها .. مسئول عن إقامة موازين العدل بين الناس جميعاً ، مسئول عن إقامة حدود الله المتعدين على حدود الله ، مسئول عن حماية دار الإسلام من أعداء الإسلام ، مسئول عن سياسة الدولة في الحرب والسلام ، في الرخاء والشدة !

ذلك ما استشعره عمر ، وهو ينزول الخلافة بعد أبي بكر ، وجيوش المسلمين ملتحمة مع دواتي الروم في الشام ، والقرص في العراق ، وهما الدولتان اللتان كانتا تحكمان معظم العالم في هذا الوقت !!

وقد بايع المسلمون عمر بالخلافة ، بين راض ومتكره ، ومطمئن وإليه ومتخوف منه ، وجميعهم ينظرون إلى ما يكون من عمر في يومه الجديد من أيام خلافته ، وهل يحمل الناس على سياسة العمرية المتوعدة التي عرفوها فيه ، من شدة وغلظة ، أم يحمله الناس على ما ألفوا من رحمة رسول الله ورأفته ، ومن لين أبي بكر ورقته !

(١) صحيح البخاري .

إنه لابد من صراع بين المسلمين ، وبين عمر ، حتى يغلبهم عمر في حملهم على طيعه ، أو يغلبوه حتى يلهن لين أبي بكر ، ويرق رقبته ! هذا ما كان ينتظر المؤمنون تأويله في الأيام الأولى لخلافة عمر !
يقول ابن قتيبة : « وهاب الناس عمر هيبة عظيمة ، حتى تركوا المجالس في الألفية ، وقالوا انظر ما رأى عمر ! ! »^(١) إلى هذا الحد كانت نظرة الناس إلى عمر ، حتى لقد حسبوا أن عمر سيفير بهم أوضاع الحياة كلها ، ويحملهم على سياسة الصرامة والشدة ، التي عرفوه بها في حياته مع رسول الله ﷺ ، ومع أبي بكر رضي الله عنه . . وفي الحق أن للناس عذرهم في هذا ، فإن الأمر بدوات تقبلاً للناس ، وتجيء على غير ما ألفوا وما اعتادوا . . وها هو ذا عمر رضي الله عنه يبدأ أول عمل في خلافته ، فيدهش له الناس ويهيجون ، ويتسألون : ما هذا ؟ ولم هذا ، وكيف يحدث هذا ؟ ويجدون من عمر جواباً حاضراً ، يزيدهم عجباً ودهشاً ! !

صعد عمر المنبر لأول مرة بعد الخلافة ، فجلس حيث كان أبو بكر يضع قدميه ، وهو أول درجة على المنبر ، ووضع قدميه على الأرض ، وقال الناس له : لو جلست كما كان أبو بكر يجلس ؟ فقال : حسبى أن يكون مجلسي حيث كانت قدما أبي بكر ! ! وثار الناس في تأويل هذا الموقف^(٢) ! !

عمر يجلس هذا المجلس ، وينزل بنفسه هذا المنزل ، وهو الصارم العنيف ، وقد لبس ثوب الخلافة ؟ فأين القوة وأين الصرامة ؟ وهل قوة وصرامة بغير قعاظم واستعلاء ؟

(١) الامامة والسياسة « لابن قتيبة » .

(٢) لقد جلس أبو بكر في أول خلافته على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث كانت قدما رسول الله . . وها هو ذا عمر ، ينزل درجة أخرى ، فيجلس حيث كانت قدما أبي بكر « فكيف يكون مجلس الخليفة » عمر . . وقد وضع قدميه على الأرض .

وكلا - أيها الناس - إن في عمر صرامة ، وفي عمر شدة ، ولكنها ليست لحساب عمر ، وإنما هي خاصة لله ، ولحساب الحق خاصة ، وسترون أن عمر سوف يسوى حسابه على هذا الوجه لا يحيد عنه أبداً ، وأن ما سيكون منه من شدة وصرامة ، فلن يكون إلا الله سبحانه وتعالى لا مر ، وفي سبيل الله ، ولن يكون شيء منه أبداً بجانب عمر ، أو أهل عمر !! وعمر الأملئ ، الفطن ، لا يغيب عنه هذا الإحساس الذي لبس الناس منه حين ولى الخلافة . . إنه على يقين من أنهم يحذرونه ، ويتوقعون شيئاً من جهته ، وإنه ليرى من نفسه ما يرون هم منه شدة وغلظة !! وما هوذا يجمع الناس إليه ، ويتحدث إليهم بما في نفوسهم منه ، ويكشف لهم عن منهجه معهم وسياسته فيهم . .

لقد صيَّح في الناس : « الصلاة جامعة » !! فجاءوا إليه ، ثم جلس على المنبر حيث كان يضع أبو بكر قدميه ، فلما تكامل جمعهم ، قام قائماً ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ثم قال : « بلغني أن الناس ، قد هابوا شدتي ، وخافوا غلظتي ، وقالوا : قد كان عمر يشتد علينا ، ورسول الله ﷺ بين أظهرانا . ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه ، فكيف إذا صارت الأمور إليه ؟ ومن قال ذلك فقد صدق . . فقد كنت مع رسول الله ﷺ عبده وخادمه وكان ممن لا يبلغ صفته من اللين والرحمة ، وقد سماه الله بذلك ، ووهب له اسمين من أسمائه : (رؤوف رحيم) فكنت سيماً مسلولاً ، حتى يغمدني أو يدعني ، فأمضي ، حتى قبض رسول الله ، وهو عني راض ، والحمد لله . . وأنا أسعد بذلك . . ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر ، فكان من لا تنكرون دعوته وكرمه وليته ، فكنت خادمه وعونه ، أخلط شدتي بليته ، فأكون سيماً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني ، فأمضي . . فلم أزل معه كذلك حتى قبض ، وهو عني راض . .
يوأنا أسعد بذلك !

وبمضى عمر ، فيقول :

« ثم إنى وليت أموركم أيها الناس - واعلموا أن هذه الشدة قد أضعفت - أى زادت أضعافاً - ولكنها إنما تكون على الظلم والتعدي على المسلمين .. أما أهل السلام والدين والفضل ، فأنا ألين منهم من بعضهم لبعض ، ولست أدع أحداً يظلم أحداً ، أو يتعدى عليه ، حتى أضع خده على الأرض ، وأضع قدمي على الخلد الآخر ، حتى يذعن بالحق .

« ولكم على - أيها الناس - خصال أذكرها لكم ، نخذوني بها : لكم على ألا أخبأ شيئاً من خراجكم مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه .. ولكم على إذا وقع عندي ألا يخرج إلا بحقه ، ولكم على ألا ألتقيكم في المهالك ، وإذا رغبتم في البعوث^(١) ، فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولكم » . هذا هو دستور عمر ، وتلك سياسته في الحكم .. لقد كشف عمر للناس عما في أنفسهم له ، وكشف لهم عما في نفسه لهم ... عرفهم وعرفوه ، فلم يعد الأمر بعد هذا في مجال الخدس والظن .. لأنه هو عمر في شدته وصرامته ، ولكنها شدة وصرامة على الظالمين والضالين ، تتحول في الوقت نفسه إلى حذب على المتقين ، الضعفاء .. إنه مؤدب العصاة وأبو العيال .. وتلك هي كلمات 'عمر' ، القايلة في أعدادها ، العظيمة في مضمونها ، ومحتواها ..

ولكن ما أكثر الكلمات البراقة ، والوعود الممسولة ، وما أخف محلها على اللسان ، وأيسر صياغتها ونشرها في الصحف ، ولكن ما أعظم ثقلها ، وأفدح مبعوثها على من يلتزمون الوفاء بها ، ويؤدون الأمانة لها !!

(٢) أى في السير إلى الجهاد ، من رغبة وطوعية ، جهاداً في سبيل الله وإيماء مرصاته.

وعمر - رضى الله عنه - يرى الكلمة عقداً بينه وبين الله ، وميثاقاً بينه وبين الناس ، وأن التحلل من هذا العقد ، أو النقض لهذا الميثاق ، هو خيانة لله وخيانة لعباد الله . . والله تعالى يقول : « يأيتها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » (الأنفال : ٢٧) ..

مؤدب العصاة وأبو العيال :

ذلك هو مفتاح شخصية عمر ، وتلك هي سياسته في خلافته ، التي تعد آية من آيات الإسلام ، تتمثل فيها روعة هذا الدين ، وعظمته ، وما يبيث في النفوس المهيأة لاستقباله من نور رباني لا يضل معه السالك ، المتجه إلى غايات الحق ، والخير ..

فعمرو - رضى الله عنه - هو محق مؤدب العصاة ، لم تأخذه بأحد رافة في دين الله ، كما لم تأخذه هواة مع نفسه ، أو مع الناس .. فن لم يؤدب نفسه - وهي أعتى العصاة - لم يكن له سبيل إلى تأديب العصاة من الناس . ولقد برزت في عهد عمر ظاهرة جديدة ، هي « المال » الذي فاض على أيدي الناس ، وجاء في صورة من الكثرة ، لم تكن تقع لهم في مجال المنى ، ومسبح الأحلام !

كانت حياة العرب ، قبل الفتوحات الإسلامية ، مطبوعة بطابع البقلة . والحرمان في مطالب الحياة ، لم تسمح لهم طبيعة الصحراء ، إلا بالقليل الذي يمسك الرمق أو يكاد .. فالعربي يقبلغ بالتمر أو التمرتين ليومه ، ويجتزئ يومه بشرة من لبن ، أو مزقة من صرقي ، وقل أن يقع في يد أحد درهم أو دينار .. اللهم إلا في نفر قليل من تجار مكة والمدينة !

فلما امتد ظل الإسلام ، وكثرت الفتوحات في عهد عمر فشملت العراق والشلم ، ومصر - تدفق المال والمنازع من كل شيء على الجزيرة العربية ، وعرف

الناس المال ، وما يتبع المال من متعة ورفه .. وكان عهد عمر هو مطلع هذه السيول المتدفقة من كل مكان ، بخيرات مصر ، والشام ، والعراق واليمن ، نصب بين يد عمر ، فيحولها إلى من حوله من حضر ومدبر ، ويضمها حيث أمر الله أن توضع !!
والمال فتنة طاغية ، قل أن يسلم الناس من هذه الفتنة ، إلا من اعتصم بدين الله ، واستمسك بشريعته ، وقهر نفسه أن تتطلع إلى هذا المال وقتن به .

استقبل عمر هذه الظاهرة لأول خلافته ، واستقبلها المسلمون معه لأولده عهدهم بها ، فكان لا بد أن يظهر لهذه الظاهرة أثرها في تفكير الناس ، وفي إحساسهم بالحياة ، وما وراء الحياة .. وذاكر هنا حادثة طريفة ، تدل على إحساس العربي ، بالمال - في هذا الوقت واستكثاره للقايل منه ، الذي لا يعد شيئاً عند غير العربي فيمن حوله من الأمم .

روى أبو عبيدة صاحب كتاب « الأموال » أن رجلاً من بني شيان « أتى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله .. اكتب لي بينة « بقبيلة »^(١) عظيم الخيرة ، قال رسول الله ﷺ : يا فلان : أترجو أن يفتحها الله لنا ؟ قال : والذي بعثك بالحق لينفتحها الله لنا . فكتب له النبي ﷺ ، بها في أديم أحمر .. فلما غزاهم خالد بن الوليد ، بعد وفاة رسول الله ، وخرج معه ذلك الشيباني ، وصالح خالد أهل الخيرة ، ولم يقاتلوا ، نجاء الشيباني بكتاب رسول الله ﷺ إلى خالد .. فلما أخذته خالد ، قبله ، ثم قال : دونكها - أي ابنة « قبيلة » - فجاءه عطاء أهل الخيرة ، وقاتلوا بافلان : إنا لك كذت رأيت فلانة وهي شابة ، ولما نها قد-

(١) يريد أن يجمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم من القوم الذين يقاتلون لإذاعتهم للخيرة عنوة ، ولم تفتح صلحاً .. ولقد بعثت الخيرة مسلحاً بجبل خالد ابنته بقبيلة من شروط الصلح ..

كبرت ، وذهب عامة محاسنها ، فبعثناها - أى بمها لنا - فقال : والله لا أبيعكموها إلا بحكمى - أى بالمال الذى أحكم به - نخافوا أن يحكم عليهم بما لا يطيقون ، فقالوا سلنا ما شئت ، فقال : لا والله لا أبيعكموها إلا بحكمى ، فلما أبى ، قال بعضهم لبعض : أعطوه ما احتكم .. فقالوا : فاحكم ، فقال : إني أسألكم ألف درهم !! فقالوا : يا فلان - يريدون أن يمحروا به - وأين تقع أموالنا من ألف درهم ؟ قال : فلا ، والله لا أنقصها عن ذلك درهما !! فأعطوه ألف درهم ، وانطلقوا بصاحبهم !!

فلما رجع الشيبانى إلى قومه ، قالوا له : ما صنعت ؟ قال : بعثتها بحكمى قالوا : أحسنت !! فبم احتكت ؟ قال : ألف درهم !! فأقبلوا يسبونهم ويلومونه أن باعها لهم بهذا الثمن البهيس .. فلما أكثروا عليه القول ، قال : تلومونى ، فوالله ما كنت أظن أن عدداً يذكر أكثر من ألف درهم !! «

هذا هو مبلغ أمانى العربى . وغاية آماله فيما يتمنى أو يأمل من مال . ولو فى عالم النى والأحلام .. فكيف بهم وقد تدفقت إليهم هذه الإغناطير المتقطرة من الذهب والفضة ؟

ولقد رأينا فى أول خطبة خطبها عمر ، أنه عاهد الناس بقوله : « ولحكم على إذا وقع هذا المال فى يدي ألا يخرج إلا بحقه » ..

وقد وفى عمر بهذا العهد أتم وفاء وأروعه .. فما خرج درهم من هذا المال الوفير من يده إلا فى حقه ، ولا آثر أحداً بشيء منه ، مهما كانت صلته به ، ومكانته من نفسه ..

وبدأ بنفسه ، فلم ير لها فى هذا المال حقاً فى مطعم طيب ، أو لباس لين ، وإنما هو فى هذا - على المال كثرته - عند قوله ، حيث يقول السديد :

« إنما أنا وما لكم كوالى مال اليتيم ، إن استغثت استعفت ، وإن انتحرت أكلت بالمعروف » فتأمله - وقد ضيق على نفسه - ماذلك بالمعروف يا أمير المؤمنين !! فقال : « لا تقوم البهيمة الأعراوية إلا بالقضم ، لا الخضم^(١) !! » يريد أن يقول لهم : إنه ملتزم بحياة البداوة التى عاش عليها ، لا يتحول عنها ، فى مطعم أو ملبس ، لئلا تفسد طبيعة ، وينحرف طبعه ، ويتأثر بذلك خاتمه ودينه . .

ومضى صمى صمى خاصة نفسه ، على هذا الأسلوب الخشن فى طعامه ولباسه ، يأتدب بالزيت أو الخلل ، ولا يجمع بينهما .. ويلبس الرداء فلا يخلعه ، حتى يتهتك ، وتغير معالنه ، بما يضع عليه من رقع ..

روى عن ابن عمر ، قال : لبس عمر قميصاً جديداً ، ثم دعا بالشفرة ، ثم قال : مد يا بنى كم القميص ، وألق يدك بأطراف أصابعى ثم اقطع ، قال قطعت ما قال ، فصاركم القميص بعضه على بعض ، فقلت يا أبتى لو سويته بالمقص ؟ فقال : يا بنى دعه .. فهكذا رأيت رسول الله ﷺ فصل .. فازالى عليه حتى تقطع ، وربما كانت الخيوط تنثر على قدميه . ونسوق هنا ، ما ذكره ابن خلدون من حال العرب فى الجاهلية ، وما

كانوا فيه من شظف العيش ، وقسوة الحياة ، يقول ابن خلدون :
« فقد كانوا - أى العرب قبل الإسلام - أبعد الأمم عن أحوال الدنيا وترفها ، لامن حيث دينهم الذى يدعو إلى الزهد فى النعيم ، ولسكن من حيث بدلتهم ومواطنهم ، وما كانوا عليه من خشونة العيش ، وظلنه الذى أنفوه .. فلم تكن أمة من الأمم أسغب عيشاً من مضر ، لما كانوا بالحجاز فى أرض غير ذات زرع ولا زرع ، وكانوا ممنوعين من

(١) القضم : التناول . أطراب اللحم . مما لا يشبع ، والخضم : التناول . اللحم كله ، حيث الشبع والبهمة ١١

الأرياف^(١) ، لبعدها واختصاصها من وليها من ربيعة واليمن^(٢) ، فلم يكونوا يتطاولون إلى خصبها .. لقد كانوا كثيراً ما يأكلون المقارب والحنافس ، ويفخرون بأكل العلهز ، وهو وبر الإبل ، يمهونه - أي يضر بهونه - بالحجارة في الدم ، ويطبخونه ، وقريةً من هذا كانت قریش في مطلعهم ومساكنهم ..

ثم يقول ابن خلدون :

« حتى إذا اجتمعت عصية العرب على الدين ، بما أكرمهم الله من نبوة محمد ﷺ زحفوا إلى أمم فارس والروم ، وطلبوا ما كتب الله لهم من الأرض بوعدهم الصدق .. فابتزوا ملكهم ، واستباحوا دنياهم ، فزخرت بحار الرفه لديهم ، حتى كان الفارس الواحد يتسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب ، أو نحوها ، فاستولوا من ذلك على ما لا يبلغه الحصر ، وهم مع ذلك على خشونة عيشهم .. فكان « عمر » يرقع ثوبه بالجلد ، وكان « علي » يقول : يا صفراء ، ويا بيضاء غري غري ، وكان أبو موسى الأشعري ، يتجافى عن أكل الدجاج ، لأنه لم يمهدها العرب لقلتها يومئذ ! !

ثم ينقل ابن خلدون عن السعودي ، ما كان في أيدي بعض الصحابة رضي الله عنهم من مال :

« قال السعودي : في أيام « عثمان » اقتنى الصحابة الضياع والمال ، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار ، وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه يوردي القرى وحنين وغيرها ، مائة ألف دينار ، وخلف لإبلا وخيلاً كثيرة .

(١) يقصد أطراف الجزيرة العربية ، مما يلي الشام ، والعراق ، الذين كانوا تحت حكم الروم والفرس ..

(٢) يقصد القبايلة ، والمأذرة - من العرب - الذين أطعمهم الروم والفرس على أطراف دولتها ، مما يلي الجزيرة العربية ، ليدسوا بها العرب

« وبلغ الثمن الواحد من متروك « الزبير » بعد وفاته خمسين ألفه دينار ، وخلف ألف فرس ، وألف أمة ، وكانت غلة طلحة من العراق ألفه دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك .

« وكان على مربط « عبد الرحمن بن عوف » ألف فرس ، وله ألفه بعير ، وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألف دينار .

« وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما يكسر بالفتوس ، غير ما خلف من الأموال والضياع ، « وبني الزبير » داره بالبصرة ، وكذلك بمصر ، والكوفة ، والإسكندرية .

« وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة ، وشيد داره بالمدينة ، وبناها بالجلس والأجر والساج .

« وبني سعد بن أبي وقاص » داره بالعقيق^(١) . ونفع سمكها ، وأوسع فضائها ، وجعل على أعلاها شرفات ..

« وبني المقداد بن الأسود » داره بالمدينة ، وجعلها مخصصة للظاهر والباطن ..

ويعلق ابن خلدون على هذا الذي ذكره المسعودي عما كان بأيدي الصحابة من بال ، فيقول .

« فكانت مكاسب القوم كما تراه ، ولم يكن ذلك منعياً عليهم في دينهم ، إذ هي أموال حلال ، لأنها مغنم وفيء ، ولم يكن تصرفهم فيها بإسراف ، بل كانوا على قصد في أحوالهم » .

ونقول : إن هذه الدنيا التي أقبلت على المسلمين ، إنما كانت منذ عهد

^(١) (١) الفتيق موضع بالمجاز .

« عمر » رضى الله عنه ، وأن أكثر ما كان من فتوحات الشام ، والعراق
ومصر كان في عهد عمر ..

فإذا كان موقف عمر من هذه الدنيا المقبلة ، وماذا كانت سياسته
إزاءها ؟ سنرى !!

وروى عن مصعب بن سعيد قال : قالت أم المؤمنين حفصة بنت عمر
يوماً لأبيها : يا أمير المؤمنين ، لو لبست ثوباً هو ألين من ثوبك وأكلت
طعاماً أطيب من طعامك ، فقد وسع الله عليك وعلى المسلمين في الرزق
وأكثر من الخير !! فقال لها : يا بنمة إني سأخاطبك^(١) إلى نفسك : كيف
رأيت عيش رسول الله ﷺ ؟ قالت : « كان والله يقيم الشهر لا يوقد في
بيته سراج ، ولا يغلى له قدر ! ولقد كانت له عبادة يجعلها فراشاً وغطاءاً »
قال : فكيف كان عيش صاحبه — يعنى أبا بكر ؟ قالت : كان مثل ذلك
قال : فما توأمن في ثلاثة أصحاب .. مضى اثنان على طريقة واحدة وخالفهما
الثالث ، أفيلحق بهما ؟ قالت : لا .. قال : فأنا ثالث ثلاثة .. أما والله
لأشاوركنهما في مثل عيشهما الشديد ، لعل أدرك عيشهما الرخى ! » .

وهكذا يأخذ عمر نفسه بهذا الأدب ، ويركب بها هذا المركب الخشن
ليلحق بأبي بكر ، ثم رسول الله ﷺ .. إنه يطلب منزلة عند الله ، لا يتأهلها
إلا من شرب نفسه ابتغاء مرضاة الله ، فرهد في العاجل رغبة في الآجل .
وأثر ما يبقى على ما يغنى ..

وهكذا كان عمر يرى أن ما يزهد فيه من متاع الدنيا شيء تافه قابل
لا وزن له ، بجانب ما أعد الله تعالى للحسنين من جنات فيها نعيم مقيم ..
إنه — رضى الله عنه — لم تفره الدنيا ، ولم تخدعه خدعة الصبي عن اللبن .

بما يلح من سرايها ، وما يترقق من ماء كئوسها ، التي تذهب بالعقول
وتثير الشهوات ..

رعايته لأسر المجاهدين :

وكان — رضى الله عنه — عيناً لا تنام على تفقد أحوال الرعية في
أى مكان من دولة الإسلام الممتدة على الأطراف ، شرقاً وغرباً ، وشمالاً
وجنوباً ، حتى لشكاد تشمل معظم المعمور من الأرض .. وهو في هذا يولى
عناية خاصة بالضعفاء من الصغار ، والشيوخ ، والأرامل ، ويخلف المجاهدين
في سبيل الله ، في رعاية أهلهم ، والإقامة على رعاية مصالحهم ، وقضاء
حوائجهم ، الأمر الذى يبعث الطمأنينة في قلوب الذين يواجهون العدو
في ميدان القتال ، فلا يلتفتون وراءهم إلى أهل أو ولد ، وهم يعلمون أنهم
في كماله من هو أحق عليهم من الأب ، وأرعى من الزوج .

فكان — رضى الله عنه — إذا قدم رسول من بعض البعثات المجاهدة
في سبيل الله يتلقى منه بنفسه رسائل المجاهدين إلى أهلهم ، فيدور بها على
البيوت ، ويقول لمن كانت لها رسالة من زوج ، أو أخ ، أو أب ، أو ابن :
إن فلاناً يغزو في سبيل الله ، وأنت في بلد رسول الله ﷺ فإن كان عندك
من يقرأ ، وإلا فاقتربي من الباب أقرأ لك .. فيقرأ لها . ثم يقول إن رسولنا
سيخرج يوم كذا وكذا ، فاكتبي حتى نبعث بكتابتك . ثم يدور على
البيوت ، بالقرطيس ، والدوى ، والأدلاء ، فمن كتبت منهن أخذ كتابها
ومن لم تكتب ، قال لها : اقتربي من الباب ، فأمل على ما تريد . ثم
يجمع الرسائل ويبحث بها إلى أصحابها المجاهدين ١١

هذه الرحمة الراجحة التي تسمع كل كبير وصغير ، وتنال كل بعيد وقريب ،
تتبعول عند عمر إلى غلظة غليظة ، وقسوة قاسية ، في حسابه لنفسه وأهله ،

إذ كان يرى في ذلك ميلاً به عن صراط الله المستقيم ، أو إخلالاً ولو قيد شعرة — عن ميزان الحق والمدل ، وقد أخذ العهد مع الله والرعية عليه .

لأنه إذا كان يرى شيئاً من التسامح مع الناس في خروجهم عن جادة الطريق وفي التجاوز عن الصغائر التي تقع منهم ، فإنه لا يرى شيئاً من التسامح مع نفسه وأهله ، ولا شيئاً من التجاوز مع نفسه وأهله ، لأنه يملك من نفسه وأهله ، ما لا يملك من الناس فيما يرى أن يحمل عليه نفسه وأهله من الطاعة والولاء المطلقين لله . .

روى الإمام الغزالي أن عمر — رضى الله عنه — حين ولى الخلافة ، طلق زوجة له كان يحبها ، حيلة أن تشير عليه بشفاعته في باطل ، فيطيعها ، طلباً لرضاها .. وهذا — كما يقول الغزالي — من ترك ما لا بأس به مخافة بما به بأس !

وليس هذا بالمستغرب من عمر ، الذي طلق الدنيا كلها مخافة أن تفقته فأراح نفسه منها ، بقتل كل مطمع له فيها ..

وروى أن ابنة صغيرة له دخلت عليه ، وهو يقسم مال بيت المال على المسلمين ، فأخذت درهماً ، فنهض في طلبها ، حتى سقطت ملفحته عن أحد منكبيه ، ودخلت الصبية البيت وهي تبكي ، وجعلت الدرهم في فمها فأدخل أصبغه فأخرجه ، وطرحه على الخراج !! وقال : « يا أيها الناس .. ليس لعمر ، ولا لآل عمر إلا ما للمسلمين ، قريتهم وبيدهم » !!

وروى أن أبا موسى الأشعري — رضى الله عنه — كنس بيت المال ، فوجد درهماً فر به صبي لعمر فأعطاه إياه ، فرآه عمر في يده فسأله فقال : أعطانيه أبو موسى .. فقال : يا أبا موسى أما كان في أهل المدينة بيت أهون عليك

من آل عمر ؟ أردت ألا يبقى من أمة محمد ﷺ أحد إلا طالبنا عظمة ١٩
ورد الدرهم إلى بيت المال !

وما يروى عنه ، وقد خرج إلى الشام ليعقد صلح فتحها ، وفتح بيت
القدس . . فلما أوشك أن يدخل حدود الشام ، اعترضت طريقه مخاضة ،
فتزل عن ناقته ، وجعل خفيه على عاتقه ، وأخذ بزمامها يخاض بها المخاضة
فقال له أبو عبيدة ^(١) - رضى الله عنه - يا أمير المؤمنين . . تفعل هذا ؟
ما يسرنى أن أهل الشام استشفروك ^(٢) فقال عمر : أوه ^(٣) لو قال ذلك
غيرك أبا عبيدة ، لجلعته نكالا للأمة ! إنا كنا أذل قوم ^(٤) فأعزنا الله
.. بالإسلام ، فهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا .

إن عمر - رضى الله عنه - يرى العزة فيما اشتملت عليه النفوس وضمت
عليه القلوب من إيمان بالله ، واعتزاز بعزته سبحانه . . أما تلك المظاهر
من زخرف وزينة ، فهي قشور لا تغنى المتزين بها شيئاً .

وهذه النفس العزيزة التي لبست لباس التقوى صافياً ، لم تلتفت إلى
مظاهر هذه الحياة ، ولم تأبه لشيء منها . فكان - رضى الله عنه - يتعاهد
العميان ، والزمنى ، والمجانز ، والصبيان ليلاً ، ويحمل إليهم الماء والحطب
بنفسه ، فيقول له بعض من يراه : دعنى أحمل عنك ، فيقول له : « ومن يحمل
عنى يوم القيامة ذنوبى ؟ » .

« لقيه عروة بن الزبير مرة ، وهو يحمل قربة على عاتقه ، فقال له :

(١) أبو عبيدة ، هو الذى فتح الله على يديه بلاد الشام المسلمين ، وكان من جنده ،
نخاله بن الوليد رضى الله عنهما .

(٢) أى اطلعوا عليك ، وأنت على تلك الحال .

(٣) أوه : كلمة تعجب واستنكار معاً .

(٤) يريد عمر بالذلة هنا ما كان عليه العرب من فقر ، وفلة في السلاح والعتاد . . لأنها
وإن كانت ذلة في المظهر ، إلا أن الجوهر عزيز كريم لا يتأثر .

يا أمير المؤمنين لا ينبغي لك هذا ، فقال له عمر : لما جاءني الوفود سامعين
عظيمين ، دخلت نفسي نخوة ، فأردت إذلالها ، ومضى بالقرب إلى دار
امرأة من الأنصار ، فلأبها آيتها !!

وكان - رضى الله عنه - إذا مر بمزبلة وقف عليها ، وقال لصحبه :
« هذه دنياكم التي تحرصون عليها » !!
وشرب نبناً من إبل الصدقة خطأ ، فلما علم أدخل أصبعه في فيه وتقيأ ،
حتى كادت تذهب نفسه !!

ودخل على ابنه عبد الله وهو من هو علماً ، وتقى ، وزهداً ، فوجده
يأكل لحماً مآدوماً بسمن ، فعلاه بالدره ، وقال له : « لا أم لك . .
يوماً خبزاً ولحماً ، ويوماً خبزاً وسمناً ، ويوماً خبزاً وملحاً ، ويوماً خبزاً
قفاراً . . أفهذا هو الاعتدال !!

ذلك شيء قليل ، وقطرة من بحر من زهد عمر وعزوفه عن كل ما في
الدنيا من مظاهر المتعة والمتاع منها . .
ولو أن عمر - رضى الله عنه - كان يسوس بذلك نفسه وحدها ، لكان
ذلك أمراً محتملاً . . فما أكثر الذين اعتزلوا الحياة ، وعاشوا في ركن
قصي منها ، لا يرون الناس ، ولا يراهم الناس حيث يجتازون من دنياهم
بشربة ماء ، أو كسرة خبز . .

ولكن عمر كان يقوم على سياسة دولة مترامية الأطراف ، ويمسك
بيده مقاليد الأمور فيها ، فرداً فرداً ، وجماعة جماعة ، وقطراً قطراً . . والمال
يجرى من بين يديه ، فيدخل كل بيت من بيوت المسلمين . ومفاتن الدنيا
كلها معروضة عليه ، وحياة الأكاسرة والأباطرة مشهودة له . . ثم هو مع
ذلك يكون على تلك الصورة الفريدة في دنيا الناس ، فذلك هو الأمر الذي

لا يتصور أن يقع .. ولكنه وقع فعلاً ؛ وكانت أحداثه ملء أسماع الناس وأبصارهم .. ثم لا تزال ملء سمع الزمن وبصره إلى ما شاء الله من عمر هذه الدنيا .

وإنه يحسب الإسلام شاهداً على أنه دين الله ؛ وأنه الرحمة التي أنزلها الله رحمة للناس جميعاً ، أن يقوم من هذا الدين رجل كعمر ، وأن يكون من ثمراته الطيبة المباركة ، أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ ، الذين يرجح ميزان الواحد منهم بأهل الأرض جميعاً ! فهل تلد لنا الحياة من أبناء الإسلام شبيها بعمر ، أو أحد أصحاب عمر ؟

إن ذلك إن يكن في عصرنا هذا ، كان دعوة مجددة للإسلام ، وبدلاً مؤيدة من عند الله ، لإقامة ماتهدم من صروح الإسلام ، فهل آن الأوان ؟ ذلك ما نسأل الله له .. وما ذلك على الله بعزيز .

« وعمر - رضى الله عنه - لا تمر به الأمور - مهما صغرت - دون أنه ينظر فيها ، ويسئلهم العبرة منها ، ويحني الثمر المرجو من ثمارها .
« روى أسلم قال : كنت مع عمر - رضى الله عنه - وهو يعس (١) بالمدينة ، إذ سمع امرأة تقول لابنتها : « قومي يا بنية إلى هذا اللبن ، بعد للمشرقين - أى الفجر الكاذب والفجر الصادق - فأمذقيه - أى أخلطيه بالماء ، فقالت البنت : أو ما علمت من عزيمة أمير المؤمنين بالأمس ؟ قالت : وما هو ؟ قالت : إنه أمر منادياً بنادى ألا يشاب - أى يخلط - اللبن بالماء ! قالت : فإنك بموضع لا براك فيه أمير المؤمنين ولا منادى أمير المؤمنين .. قالت الفتاة : والله ما كنت أطيعه في الملال - أى على أعين الناس - وأعصيه في الخلاء ؟ وعمر يسمع ذلك ، فقال : يا أسلم : اعرف

(١) أى ينفذ أحول الناس ليلاً ، ومنه العسس ، وهو جند الحراسة ليلاً ، وهذه من قوله تعالى : « وليل إذا عسس »

الباب ثم مضى في عسسه ، فلما أصبح قال يا أسلم : امض إلى الموضع فانظر
من القائلة ، ومن المقول لها ، وهل لهما من يعمل ؟ أى زوج . قال أسلم :
فأتيت الموضع ، فنظرت ، فإذا الجارية أيم - أى يتيمة - وإذا المتكدة بنت
لها ، ليس لها رجل . فجنيت فأخبرته ، فجمع عمر ولده وقال : هل يريد أحد
منكم أن يتزوج فأزوجه امرأة ، فتاة صالحة .. ولو كان في أبيكم حركة إلى
الزنا - لم يسيقه أحد ، فقال عاصم ابنه : أنا ، فزوجها عاصمًا ، فولدت له بنتًا
لقبها أم عاصم ، هي أم عمر بن عبد العزيز ! .

الفصل الرابع عمر وسياسة المال

قد يخيل لمن يقف بنظره عند حياة « عمر » الخاصة ، وما أخذ به نفسه من التضيق على نفسه وأهله ، ومن الحاسبة على الثمرة والنواة - قد يخيل له أنه شحيح بخيل ، حريص على المال ، ضنين به ، متهاك على جمعه ، واكتنازه ، وأن الذي يضيق على نفسه وأهله هذا الضيق ، لا يمكن أن يكون سخياً به على غيره ، جواداً به على الناس ، ذلك أن الشح طبيعة واحدة لا تتجزأ ، كما أن الجود طبيعة واحدة لا تختلف .

والحق أن عمر ليس بالشحيح ولا البخيل ، وإنما هو عربي أصيل ، ينزع منازع العرب في الكرم والسخاء ، على أتم ما يكون الكرم والسخاء ، وأن هذا الحرمان الذي أخذ به عمر نفسه وأهله ، ليس عن بخل بالمال ، ولا حرص عليه ، وإنما كان ذلك الحرص منه لأمرين :

أولهما : أن هذا المال الذي بين يديه ليس ماله ، وإنما هو مال المسلمين جميعاً ، ولا يعدو أن يكون حارساً له ، أميناً عايه ، مستخلفاً لله تعالى فيه ، وأنه ليس له في هذا المال إلا ما لكل مسلم منه . . فإذا جاوز ذلك وانفرد عن المسلمين بئىء منه ، عد نفسه خائناً للأمانة ، مضيقاً لما استخلفه الله تعالى فيه . . وعمر يقول في هذا مخاطباً المسلمين في أول خلافته : « إنما أنا وما لكم كوالى اليتيم ، إن استعزيت استعنت ، وإن اففرت أكلت بالعرف » . . وهو يشير بهذا إلى قوله تعالى : « وابتلوا اليتامى ، حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشداً ، فادفعوا إليهم أموالهم ، ولا

تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف» (١) . . فهذا المال الذى أفاءه الله تعالى على المسلمين من الغنائم ، والذى امتلأ به بيت المال ، لبس مال الخليقة ، يأخذ لنفسه منه ما يشاء ، ويعطى من يشاء ، ويحرم من يشاء . . وإما هو مال المسلمين جميعاً ، لكل منهم ما لعمر فيه ، بل إن عمر ، لا يرى لنفسه هذا الحق الذى لكل فرد من أفراد المسلمين ، إلا إذا كان محتاجاً ، فإن كان فى يده من ماله الخاص ما يكفيه ، فليس له حق فى هذا المال ، وأنه أشبه بالوصى على مال اليتيم ، إن استغنى ، استعفف ، وإن افتقر أكل بالمعروف . أى بما يسد حاجته من ضرورات الحياة دون كالياتها . .

وثانياً : هذا الزهد فى المطعم والملبس ، الذى أخذ به عمر نفسه ، هو أدب يؤدب به نفسه ، ورياضة يروضها عليه ، ويسد به عليها أبواب الشهوات التى إذا دخلت منها عليه ، فإنها لا تقف عند حد أبداً ، ولا تشبع من كثير أبداً ، كما يقول الشاعر .

والنفس كالطفل إن تهله شب على حب الرضاع وإن تفضمه ينفطم
وكما يقول الآخر :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تنقع
إنها سياسة عمرية ، يسوس بها عمر نفسه ، أن تنزلق به إلى حيث لا يروى ظمأها من شهوات الدنيا أنهار العالم كله . .
وإن عمر ليجوع حتى لا ينسى الجوع ، ويحرم نفسه من طيبات الحياة حتى لا يغفل عن المحرومين من لقمة العيش ، ومقومات الحياة . .
ثم إن هذا الحرمان الذى أخذ به عمر نفسه ، وراضها عليه ليس عن

بلادة حس ، أو كزازة طبع . . . فقد تعاف بعض النفوس — الجناء طبع .
وكزازة نفس ، وسقم دوق — قد تعاف الطيب من الطعام ، والالين من
اللباس ، والهنيء من العيش . . . ولكن عمر أصبح الناس طبعاً ، وأرقهم
حساً ، حتى لكان يقول لمن يجادلونه في إقامته على هذا العيش الغليظ
الخشن : « أترون أنى لا أعرف رقيق العيش ؟ إنه لباب البر ، بمجاج
النحل ^(١) » .

دخل عليه عتبة بن فرقد فرآه يأكل خبزاً جافاً ، ويشرب لبناً حامضاً
فقال : يا أمير المؤمنين لو أمرت أن يصنع لك طعام ألين من هذا ؟ فقال :
يا ابن الفرقد : أترى أحداً من العرب أقدر على هذا منى ؟ فقال : ما أجدر
أقدر على هذا منك يا أمير المؤمنين .. فقال عمر : سمعت الله غير أقواماً
فقال : « أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا ، واستمتعتم بها » . . .

ذلك تدير عمر مع نفسه ، وسياسته لها مع داعى شهواتها التى إن لم
يكظمها الإنسان كانت كالنار ، كما ألقى فيها الخطب ازدادت لهباً وسعيراً ..
فكيف كان شأنه مع الناس ؟

هنا تتجلى خصائص عمر النفسية ، وتتكشف عبقريته ، ويبرز جوهر
معدنه فى الرجال . . .

وهنا يدخل عمر المعركة الحقيقية التى تختبر فيها معادن الرجال . إنها
معركة الحياة فى أعنف صورها ، وأشد ما يعالجه الناس منها .. إنها معركة
المال الذى تدور فى مداره الحياة ، وتسفك من أجله الدماء ، وتزهق فى
سبيله الأرواح ، ويهلك فيه من هلك ، وما أكثر المهالكين فيه .

(١) — عاج النحل . ما محرّج من النحل من —

ولأنه لئال غدق كثير ، يتدفق على قوم طال عهدهم بالحرمان ، الذى توارثوه أجيالا بعد أجيال . . قوم نبتوا فى الصحراء كما ينبت الشوك فى جذب الأرض ولفح السموم . . وها هى ذى الأرض تصوبها الغيوث ، وتهمى عليها مواطر السحاب ، فيقبل شوكها جنات وارفة الظلال ، موفورة الثمار ، دانية العطوف . . إنه انقلاب شامل عام فى الحياة ، ، فهل يحدث هذا انقلاباً عاماً وشاملاً فى النفوس ، ومادخل عليها من نور الله وماأضاء جوانبها من هدى الله ؟

وهل يتصادم هذا الذى عمر به الإسلام النفوس من الإيمان والتقوى ، مع ما زخرت به الحياة من مال ومتاع ؟ إنها منازعة بين الدنيا والآخرة فى كيان الإنسان ، ولأنه لا يقدر على المصالحة بينهما إلا من آتاه الله إرادة نافذة ، وعزيمة صادقة ، وإيماناً وثيقاً ، حتى يستطيع أن يحفظ توازنه ، ويأخذ من هذه وتلك بالقدر الذى لا تجور فيه على جانب الروح ، أو حظ الجسد .

والدنيا كثيرة الزخارف ، كثيرة الأهواء ، حاضرة الشهوات التى تدعو إليها . . على حين أن الآخرة لا يبدو منها لدين طالبيها إلا وعود بعيدة المدى ، لا ينال منها الإنسان شيئاً إلا بعد موته وبعثه . . فإذا لم يكن على إيمان وثيق بالله واليوم الآخر ، غامت وجوه هذه الوعود فى سحب الشهوات المائلة بين يديه ، فأقبل عليها وغرق فيها . .

يقول رسول الله ﷺ : « من أحب دنياه أضرب آخرته ، ومن أحب أخراه أضرب دنياه ، فآثروا ما يبقى على ما ينسى » ويقول صلوات الله وسلامه عليه فيما يرويه عن ربه جل وعلا : « يادنيا من خدمتك فاستخدميه ومن استخدمتك فاستخدميه » . . وقد آثر عمر الآخرة على الدنيا ، واستخدم الدنيا مطية له إلى الآخرة .

إن الذي يعيش طويلاً في الظلام ثم يفجؤه وهج النور ، تزوغ عيناه ويفشى بصره ، وتحتلط عليه صور الرثيات ، فلا يتبين الجبل من القبيح ، ولا الصحيح من الزائف .

وهذا المال الكثير المتدفق من كل ولجة على الحرمان الطويل ، وعلى الجذب المتصل ، يغفل في النفوس ما يفعل وهج النور في العيون الفارقة في الظلام ، ستضطرب له نفوس ، وتزيغ به عقول ، وتتحرف منه ضمائر . . . إنه فتنة مستيقظة لا تنام أبداً ، ولا يكاد يسلم منها إلا من عصم الله وعرف كيفه . يسبح إلى شاطئ النجاة من ألفت به السفينة في هذا البحر اللجج المتلاطم الأمواج . . .

د وعمر يعلم من المال وفنته أكثر من هذا ، ويدرك أن السفينة التي يركبها عمر ويركبها معه المسلمون بهذا المال الوفير ، هم منها في معرض فتنة . فإن الأمواج عالية ، والريح عاصفة ، وليس للسفينة ولراكبيها نجاة إلا إذا تخففوا من أحمالهم ، وبما معهم من متاع ، وإلا إذا كان على قيادتها ربان ماهر ، يعمل معه جند مهرة مخلصون . حتى يقدر الله لهذه السفينة أن تبلغ مرفأ الأمن ، تقتلي مراسيها عليه . . .

وقد كان عمر - رضى الله عنه - هو هذا الربان ، الذي أراد الله ليكون ربان هذه السفينة في هذا الوقت الحرج ، وكان له مع صحابة رسول الله ﷺ خير الجند ، وأعظم الأعوان . . .

.. ولو وجد عمر - رضى الله عنه - سبيلاً إلى تحويل هذا المال المتدفق عليه إلى غير الجزيرة الموبية وأهلها لفعل ، ولرباعد بين أصحاب رسول الله وبين هذه التبتة ، واسكنها سنة الحياة ، بتطور الزمن ، وتقلب الأحوال . وإنه لم يهتأ لأحد أن ينف في وجه هذا التحويل الجديد ، والذي وصل

العرب بغيرهم من أمم الثراء والغنى ، ووضع يد العرب على أمم الثراء والغنى .. هيهات هيهات ، ولو كان هذا الإنسان عمر . . تلك سنة الله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ..

وإذن فلا سبيل لعمر ، إلا أن يوقظ لهذا الأمر بكل مشاعره ، وينبه له كل حواسه ، ويعمل فيه كل دكائه ، وبأسه ليحرس الفاس من هذه الفتنة ويدفع عنهم غوائلها . . فإن ذلك أمر إن ضيعه ضاع هو وصاع الناس معه ، وغرق وغرق الناس معه في لجج الفتنة والهوى . . وللهال وما وراءه مغريات وفتن ، يتقدمها المرء توازنه ، إذا هو لم يكن على قدر كبير من اليقظة والحذر ، والقلبه دائماً إلى أنه في مواجهة خطر داهم من هذا الصديق الذي لا يؤمن جانبه ، والذي قد يتقلب عدواً ، مبيناً . . من أجل ذلك كان هذا الأدب الرباني الحكيم الذي تنزلت به آيات الله على رسول الله ﷺ ليلازم به نساءه ويقف بهن على حدوده إذا أردن الحياة معه على مألوف الحياة في بيت النبي ، من الأخذ بأطراف العيش دون مجاوزة ما يمسك منه الحياة ..

وفي هذا يقول الله تعالى : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعن وأسرحن سراحاً جميلاً ، وإن كنن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للحسنات مفكناً أجراً عظيماً » (١) .

وقد نزلت هذه الآيات المباركات من سورة الأحزاب على النبي الكريم بعد غزوة الأحزاب التي رد الله تعالى فيها المشركين وأحلافهم من اليهود خاسرين مدجورين ، وبعد أن أجلى المسلمون يهود بني قريظة من المدينة وأورثهم الله أرضهم وديارهم وأموالهم ، وفي هذا يقول الله تعالى : « ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان

الله قوياً عزيزاً ، وأزل الذين طاهروهم من أهل الكتاب من صياصبيهم وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقبلون ونأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم ، وأرصاً لم تطؤوها ، وكان الله على كل شيء قديراً ^(١) .

ولقد دخل على بيوت المهاجرين والأنصار من مغانم بى قريظة مال ومتاع كثير ، ظهرت آثاره في كل بيت من بيوت المؤمنين في المدينة ، فأكل الجائع ، واكتسى العارى ، وافترش من لافرشه ، وتغطى من لا غطاء عنده . وهنا تفتتح عيون كانت مغمضة ، وتستيقظ شهوات كانت نائمة ، وتفسح الآمال لمزيد من هذا الجديد الذى دخل بيوت المهاجرين والأنصار فيما تآتى به الأيام بعد !

وهنا تنزل آيات الله تعالى على النبي الكريم ، ليسك بأزواجه على ما هن فيه من الحياة التى كن عليها معه قبل هذه المغانم التى بدأت تدخل بيوت المهاجرين والأنصار ، إذ أمره ربه جل شأنه أن يخير نساءه بين أمرين : إما أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فلا ينظرن إلى شيء من تلك الحياة الجديدة . . وإما أن يذهبن لشأنهن مع تلك الحياة ، بعد أن يطلقهن الرسول ويمتنعن . . وقد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

ونلاحظ هنا أن هذا الأدب السماوى بالحياة الزاهدة فى متع الحياة ، إنما كان حاصلاً بزواج النبي ، وبالبيت النبوى الذى يضمهن . . أما سائر المؤمنين ونسائهم ، فلا بأس من أن ينكحوا من طيبات ما أحل الله ما يشاءون وأن يأكلوا طيباً ، ويلبسوا ليناً . . والله تعالى يقول : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، خالصة يوم القيامة » ^(٢) . . فليس كل

(١) الاحزاب : ٢٥ - ٢٧ .

(٢) الاعراف : ٣٢ .

النفوس قادرة على أن ترتفع بالترفع عن مطالب النفس إلى هذا المستوى العالى الكريم الذى تستطيع نساء النى التحليق فيه ..

ولقد اختار الله تعالى للمسلمين ، إذ جعل عمر رضى الله عنه ، هو الذى يواجه هذا الموقف مع مافى كيانه من صلابة فى الحق ، وقوة على مواجهة العظام من الأمور ، وقد انتقلت الحياة بالمسلمين هذه الثقلة البعيدة المنفعة بهم إلى غايات لا يعلمها إلا الله ..

يقول أحد العارفين ^(١) واصفا هذا التعول فى حياة المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ : « لما قبض رسول الله ﷺ قام أبو بكر - رضى الله عنه - يسوق الخلق بفضيب من قوة نسيم النبوة ، فلما توفى أبو بكر تقدم عمر - رضى الله عنه - على سياسة الناس فأقام حدود الله بدارته ^(٢) ولم يقدر عثمان رضى الله عنه على سياسة الناس بالدرة فأخرج السوط ، فلم يستقم له الأمر كما استقام لصاحبيه ، فلما استشهد لم يقدر على - رضى الله عنه - على شيء يسوس به الخلق غير السيف ، إذ رأى ذلك صوابا .

ثم يقول : « كان أبو بكر يشم نسيم الرسالة ، وكان عمر يشم نسيم النبوة ، وعثمان يشم نسيم الاصطفاء ، وعلى يشم نسيم المحبة .. فكان هجير ^(٣) أبى بكر « لا إله إلا الله » . وهجير عمر : « الله أكبر » . وهجير عثمان : « سبحان الله » وهجير على : « الحمد لله » فكان أبو بكر لا يشهد فى الدارين غير الله ، فكان يقول : « لا إله إلا الله » وكان عمر يرى ما دون الله

(١) هو أبو الماس ، أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمى .

(٢) هى عصا قصيرة كان يمسكها عمر رضى الله عنه ، كما يمسك الراعى عصاه ليردها العاردة بن الغنم .

(٣) هجيرة بتشديد الجيم المكسورة أى كاحته اللازمة ، الغالبة على أحواله ، يردده على لسانه فى أحوال شتى .

صغيراً في جنب عظمة الله ، فيقول : « الله أكبر » وكان عثمان لا يرى التنزيه إلا لله ، إذ السكل قائم به ، غير معزى من النقصان ، والقائم بغيزه معلول ، فكان يقول سبحان الله ، وكان على يرى نعمة الله في الدفع والمنع ، والمحبوب والمكروه ، فيقول : « الحمد لله » .

ومعنى هذا أنه كلما بعد بالمسلمين الزمن بعهد النبوة ، تلونت بلون جديده واصطبغ الناس بهذا اللون ، فكانت سياسة الخلافة الراشدة بهم ، جارية على هذا المستوى الذى يكونون عليه ..

يقول الرسول الكريم - صلوات الله وسلامه عليه : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بأبائهم » . ومعنى هذا أن للزمان طابعه الذى يطبع به الناس ، ويطبع به حكمهم الذين يقومون عليهم .. وفى الأثر : « كما تكونوا يولى عليكم » .

ويقول الإمام على كرم الله وجهه ، والحرب دائرة بينه وبين معاوية ، وقد سأله سائل : لم لا تسير بسيرة عمر ؟ فقال : كان عمر يحكم أمثالى ، وأما أنا فأحكم أمثالك .. فكما بعد الزمن بالمسلمين عن عهدهم بالتبى ، بعدوا شيئاً فشيئاً عن صوت الحق الذى يملأ أسماعهم ، ويفقد إلى كل ذرة فى كياناتهم ..

والحق أن عمر - رضى الله عنه - ما كان له أن يضبط سياسة الدولة الإسلامية ، هذا الضبط المحكم ، وقيم الناس فيها على هذا الوضع السليم المستقيم ، لو لم يكن فى الناس بقية من آثار النبوة ، ولم تكن النفوس مشرقة بنور الله .. إن لم يكن ذلك فى الجماعة الإسلامية كلها ، فهى فى عدد كبير من أهلها .. إذ ما زال كثير من صحابة رسول الله أحياء ، وما زال لهم فى الناس قدرهم وأمرهم .. فيهم الأسوة للتأمنى ، وفيهم الهدى لمن تحبب أو اضطرب .

والمال . وطلاب المال :

ونعود إلى عمر — رضى الله عنه — وسياسة المال ، وننظر فيما كان من تدبير عمر في هذا ؟

فالمال في ذاته ليس مشكلة ، إلا حين تتنازعه الأطماع ، وتهالك عليه النفوس ، ويستعد الطلب له ، والصراع من أجله . . وإذن فهو ليس المال وحده ، وإنما هو المال وطلاب المال ..

أما المال فقد صرف فيه عمر — رضى الله عنه — همه إلى أمرين منه : أن يحمي إليه بحق ، وأن يخرج من بين يديه بحق ..

ذلك هو الدستور الذى التزمه عمر وألزم به نفسه ، وفرضه على عماله ، وراقبهم وحاسبهم عاينه أدق مراقبة وأضبط حساب .

لإسها كلمات قليلة .. ولكن ثقلها مما تنوء به الجبال ، وتحقيقها أصعب مما تستقل به العصبة من أولى العزم من الرجال : أن يحمي المال بحق ، وأن يخرج بحق .

ولكن عمر — رضى الله عنه — حل هذا الباء ، ونهض به وأتى فيه بما يمكن أن يكون من معجزات الزمن !! .

المال .. والطريق إليه :

لقد توفى رسول الله ﷺ ولم يكن للمسلمين بيت للمال ، إذ كان ما يأتى من الغنائم قليلا لا يكاد يحمي ، حتى يذهب إلى جهة استحقاقه ، لا بيت منه شيء ..

وكذلك كان الشأن في خلافة أبي بكر — رضى الله عنه — إذ كانت فتوحات الشام والعراق لم تستكمل بعد ، ولم يكن للفتح قد أنجم إلى مصر .
ولما كانت خلافة عمر — رضى الله عنه — واتسعت الفتوح ، وظهرت

الأمصار ، تدفقت أموال الغنائم ، كما تدفقت أموال الخراج ، وأموال الجزية المفروبة على أهل الذمة .. وهذا المال كله إنما يصب في المدينة ، حيث خليفة المسلمين ..

وهذا المال لا بد أن تقوم يد أمينة على جمعه ، وهذا أمر يتطلب من الخليفة أن يتفقد أهل الورع والاستقامة والحزم جميعاً ، ليكونوا ولاية على الأمصار ، وحفظة لأمن الناس فيها من الخارج والداخل على السواء ..

ولم يكف عمر بما أدته إليه فراسته في اختيار عماله ، بل أقام عليهم منه عيناً حارسة لا تنام ، فإذا بلغه عن أحد منهم شيئاً لا يرضاه دعاه إليه وحاسبه حساباً عسيراً ، وقياماً ما أكله بغير حق ..

روى أبو عبيدة في كتابه « الأموال » أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - كتب إلى عماله أن يوافوه في الموسم - أى موسم الحج - فوافوه فيه ، فقام في الناس وببهم عماله ، فقال : « أيها الناس إني بعثت عمالي هؤلاء حولاة بالحق عليكم ، لم أستعملهم ليصيبوا من أرباحكم ^(١) ولا من دمائكم ، ولا من أموالكم .. فمن كانت له مظلة عند أحد منهم فليقم .. فما قام من الناس يومئذ إلا رجل واحد .. فقال : يا أمير المؤمنين : عاملك هذا - وأشار إليه - ضربني مائة سوط . فقال عمر : أتضربه ؟ ومائة سوط ؟ قم فاستقد منه ^(٢) ..

فقام عمرو بن العاص ، فقال : يا أمير المؤمنين : إنك إن تفتح هذا على عمالك كبر عليهم ، وكانت سنة يأخذ بها من بعدك .. فقال عمر : ألا

(١) أى ليضربوك ..

(٢) استقدمته : أى انقضته ، والتفقد : الضياع .. ولا شك أن هذا الضرب من الوالي لم يكن لإقامة حد من حدود الله ، ولا لما كان نقصان من الوالي موصحاً ، وإنما كان ذلك عقاباً ، والتميز ولا يجوز أن يبلغ الأديب والتميز عقوبة الله .

أقيده منه ، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه؟ قم فاستقدمه فقال عمرو : دعنا إذن فلنرضه ، فقال : دونكم فأرضوه ، فأرضوه بأن اشتريت منه بمئتي دينار .. كل سوط بدینارین . »

وحرص عمر على رعاية حق الناس في أموالهم ، وألا يجور الولاية عليهم ، لا يقف عند محاسبة الولاية هذا الحساب العسير ، وعلى هذا الأسلوب العلني الفاضح ، بل إنه كان يبعث العيون وراء عماله ، ليراقبوا أعمالهم ، ويتسمعوا إلى أقوال الناس عنهم ورأيهم فيهم . . فإذا وقع على أن عاملا من عماله استحدث ثروة ، أو تكثر في مال ، صادر ماله ، أو شاطره فيه ، ولو كان من أقرب الناس إليه ، وآثرهم عنده ١١

روى ابن سيرين قال : « لما قدم أبو هريرة من البحرين ، وكان واليا لعمر عليها ، فلما دخل على عمر قال له عمر : يا عدو الله ، وعدو كتابه : أسرقت مال الله ؟ فقال : لست بعدو الله ، ولا عدو كتابه ، ولسكني عدو من عاداهما ، ولم أسرق من مال الله . . قال عمر : فمن أين اجتمعت لك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : خيلى تناسلت ، وعطائى تلاحق ، وسهامى تلاحقت . . قال : فقبضها عمر منه . . وصمها إلى بيت المال . . »

هذه فعلة من فعلات عمر .

ومع من ؟ مع أبي هريرة الصبحاني الجليل ، وخادم رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ولكنه الحق . . وإلنه لفوق أبي هريرة ، وفوق من فوق أبي هريرة .

وأى حق هذا ؟ أو يظن في أبي هريرة خيانة لله ولرسوله ؟

إن عمر يعرف من هو أبو هريرة ، ويتقدر صحبته لرسول الله ، وما نطن

أن أبا هريرة بموضع تهمة عند عمر في دينه وأمانته ، ونزاهته واستقامته.. ولكن الذى نخاله هو أن عمر وقدر رأى المال فى يد أبى هريرة يكثر ويزداد ، خاف أن يفسد عليه المال صحبته لرسول الله ﷺ ويذهب به مذاهب من فتنوا بالمال ، وتعلقوا بالحياة الدنيا ، وهو الحريص على أن يستبقى أصحاب رسول الله على ما تركهم الرسول الكريم عليه من صفاء وطهر .. ولهذا أمسك بهم فى المدينة ، وأبى عليهم أن يخرجوا إلى الأمصار ، وأن يستقر بهم المقام فيها ، حفاظاً عليهم ، وصناً بهم أن تمتد أبصارهم إلى ما يعرض لهم فيها من ألوان الحياة الصاخبة هناك ، وما خلف الأكاسرة والقياسرة من مظاهر الترف .

روى أن عمر ، بعث إلى أبى عبيدة بن الجراح بأربعة آلاف درهم ، وأربعمائة دينار ، وقال للرسول الذى بعثه بالمال : انظر ما يصنع بها ، فجاءه الرسول فقال : قسمها أبو عبيدة فى الناس ولم يستبق منها شيئاً .. ثم أرسل إلى معاذ بن جبل بمثلها ، وقال للرسول مثل ما قال ، فجاءه فقال : قسمها معاذ فى الناس ، إلا شيئاً قالت امرأته إنها تحتاج إليه ، فقال عمر : الحمد لله الذى جعل فى المسلمين من يفعل هذا .. أولئك هم صحابة رسول الله ﷺ فى عفتهم وزهدهم وورعهم ..

وذلك هو الظن فى أبى هريرة ، وذلك هو رأى فى عمر ، الذى كان يحرص على أصحاب رسول الله أشد الحرص ، ويحول بينهم وبين أسباب الفتنة ودواعيها ، وليس سبب للفتنة أقوى من المال ، وليس ثمة داعية إليها أكثر من المال .

نقول هذا فى حادثة عمر مع أبى هريرة ، لأن عمر - رضى الله عنه - عاد ، فعرض على أبى هريرة أن يعمل والياً له ، ولو كان عند عمر ظن ،

أو شبهة ظن ، في أمانة أبي هريرة ، وسلامة دينه ما اتجه أبداً إلى أن
يؤليه عملاً ..

ولكن عمر عاد فعرض على أبي هريرة عملاً بتولاه له !!
يحدث أبو هريرة بعد هذا الحادث . فيقول : ثم قال لي عمر بعد ذلك
« ألا تعمل ؟ قلت لا ! قال قد عمل من هو خير منك ، يوسف ! قلت :
إن يوسف نبي ، ابن نبي ، ابن نبي ، وأنا ابن أميمة - أى جارية تصغير
أمة - وأخشي اثنتين وثلاثاً ! قال عمر : فهل قلت خسة ؟ قلت : أخشى
أن أقول بغير علم ، وأحكم بغير علم ، وأخشى أن يضرب ظهري ، ويشتم
هرضى^(١) وينزع مالي » .

وسواء أصبحت هذه الرواية عن أبي هريرة أم لم تصح ، فإنها لا تستبعد
من عمر - رضى الله عنه - ولعلها كانت منه امتحاناً لأبي هريرة ، يكشف
به عمر عما كان قد وقع في نفسه من أبي هريرة ، فإذا كانت بأبي هريرة
رغبة في العمل ، واشتغال بالولاية بمد أن صادر عمر أمواله ، فذلك دليل
على أنه يحب المال ، مؤثر له ، حريص عليه ، وإن رفض الولاية ، وزهد
فيها - وهو ما فعله أبو هريرة - كان ما فعله عمر معه هو حرص عليه من
فتنة المال ، الذى أول ابتلاء به هو الحرص على جمعه .

وكذلك فعل عمر - رضى الله عنه - مع سعد بن أبي وقاص ، ثالث
ثلاثة دخلوا في الاسلام ، وأحد المعترة البشرين بالجنة ، وفارس الغزوات ،
والمناضل عن رسول الله ﷺ يوم أحد ، والمفدى من رسول الله ﷺ في هذا
اليوم بقوله : « ارم سعد ، فذاك أبى وأمى » .. وقد كان مستجاب الدعوه ،
لا يرد له من الله دعاء : بركة دعاء رسول الله ﷺ له .. فقد سأل سعد رسول الله ﷺ

(١) المراد بالمرضى ، دين المرء ومروءته .. فاداءتهم فيهما ، كما تادى في مرضه ؛

ﷺ : أن يدعو له بأن يستجيب الله دعاءه ، فقال رسول الله : يا سعد إن الله لا يستجيب دعاء عبد حتى يطيب طعمته ، فقال يا رسول الله : ادع الله لي أن يطيب طعمتي ، فإني لا أقوى على ذلك إلا بدعائك ، فقال الرسول الكريم : « اللهم أطب طعمة سعد » . فكان لهذا مستجاب الدعوة .

هذا هو سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - ولقد شاطره عمر ماله ، حين رأى فيه وفرة وكثرة تزيد عن حاجته .

وهذا ما يؤيد رأينا فيما ذهبنا إليه في موقف عمر من أبي هريرة ، وأن مصادرتة لماله لم يكن عن خيانة رآها في أبي هريرة ، وإنما كان ذلك عن حرص منه على أصحاب رسول الله أن تغيرهم الدنيا الجديدة ، وأن تخرجهم من الحال التي تركهم عاينها رسول الله ﷺ .

وإذا كان عمر ، قد صادر كل مال أبي هريرة على حين شاطر سعد ابن أبي وقاص ماله ولم يأخذه كله ، فلعل ذلك كان من عمر لأمرين :

أولهما : أن سعداً كان ذا مال قبل الإسلام وبعده لم يشغله ماله وجاهه عن أن يأخذ مكان الصدارة في الاستجابة لدعوة الإسلام ، فكان ثالث ثلاثة دخلوا في دين الله . . على حين أن أبا هريرة لم يكن له شيء من هذا الذي كان لسعد . . أى أن أبا هريرة لم تكن له تجربة سابقة بالمال فلم يبطل به ، ولم يعرف موقفه منه ، بل إنه كان من فقراء المسلمين ، ومن أهل الصفة الذين نزلوا ضيوفاً على المسلمين في مسجد رسول الله ، يتأثون ما يأتيهم المسلمون به ، دون أن يكون لأحد منهم مأوى يؤويه . .

وثانيهما : أن سعداً كان فارساً من فرسان المسلمين ، وبطلاً من أبطال الإسلام المعدودين ، وكان له في الغنائم سهمان ، سهم له ، وسهم لفرسه . . أما أبو هريرة - رضى الله عنه - فكان ينال من الغنائم نصيبه مما جعله

الله تعالى للفقراء فيها ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شئ - فإن لله خمسة ، والرسول ، ولدى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل » . (التوبة : ٤١)

فإن أجل هذا كانت التفرقة بين أنى هريرة ، وبين سعدا في صيغ عمر معهما ، وإنه لتحقيق بعمر أن يفعل هذا ، مستلهماً حصافته ، وزكاته ، وماهمات فراسته ..

ولقد تهدد « سعد بن أبي وقاص » عمر بأن يدعو ربه ، ليأخذ له بحقه منه ، فقال لعمر : لقد هممت . . فقال له عمر : أن تدعو الله على ؟ - وهو يعلم أنه مستجاب الدعوة - قال نعم . . فقال عمر : « إذن لا نجدنى بدعاء ربي شقيقاً » ، أى لن يشقبنى الله بما يستجيب لك من دعاء على حيث إني لم أفعل هذا إلا سن اجتهاد ، ونصح لله ورسوله والمؤمنين .

إن عمر إمام يبصر أين تكون المصاحبة لرعيته ، أفراداً وجماعات ، وإنه يرى المصاحبة لسعدى أن يأخذه بما أخذه به . . فإن يكن قد أصاب فله أجران ، وإن يكن خطأ فله أجر . . إنه إمام اجتهد رأيه ، وفاض فصل في قضية بما أداه اجتهاده فيها ، وذلك كله بمعزل عن الهوى . . والمصاحبة الخاصة .

ما دلاله هذا المصرب . وما تأويله ؟

قد يقول قائل : إن في هذا حرجاً على الخبرة الشخصية ، وعدواناً على أموال الله من بعير حق ، إن كان ما فوله عمر مع هذين الصحابين الجليين لميرتمة أوحيدة . . إن السرعة الإسلامية إنما جاءت لتعطف للناس حرمة دماهم ، وأموالهم إلى ما تحفظ من حرمة الدين والعقل ، والنسب ، وقد (م ١٦ - عمر بن الخطاب)

جعل الإسلام حرمة المال كحرمة الدم . فما لعمري يصادر مال هذا ، ويشاطر
ذاك ماله لغير جريمة ؟

ونقول : إنه إن صدق هذا في موازين حياتنا المعاصرة التي تتسم بسمة
الانفصال المادي والنفسي بين الناس والناس ، أفراداً وجماعات ، أقارب
وأبعدين ، فإن المجتمع الإسلامي الأول وإن يكن قد عرف للمال حرمة ،
وقدر له قدره في الحياة الدنيا ، فإنه من جهة أخرى لم ينظر إلى المال كغاية ،
وإنما كانت نظرته إليه قائمة على أنه وسيلة تقضى به حقوق ، وتؤدي به
واجبات ، وإنه إن يكن ملكاً خاصاً ، فإنه من جهة أخرى نفع عام وخاصة
في هذا المجتمع المثالي الذي لم تعرف الحياة مثيلاً له ، في التواد ، والتراحم في
ظل الأخوة الإسلامية العامة ، التي تجعل من أعضاء هذا المجتمع جسداً واحداً
إذا اشكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحى والسهر !

وعمر يرى أن مسئوليته مضاعفة في هذا المجال الذي دخل فيه المال
على المسلمين ، وامتلاّت به أيدي صعابة رسول الله — صلوات الله
وسلامه عليه . —

وعمر حين فعل ما فعل مع الصحابين الجليين — أبى هريرة ، وسعد
ابن أبى وقاص ، إنما كان في يقينه أن هذا المال إن كثر في يد الصحابة —
رضوان الله عليهم — عرضهم للفتنة ، وشغلهم جمعه وسياسته والنظر فيه ،
عما هو أليق بهم من الاستعلاء على مطالب الحياة ، والتخفف من مالمها
ومتاعها ، تاركين ذلك لغيرهم ممن لم يكن في مقامهم العانى الذي أحلهم
الله تعالى فيه ، وقد اختارهم صحبة رسول الله ..

ولقد بدأ ذلك عمر بنفسه أولاً ، فأمسك بها عن أن تتعاقب بمتاع هذه
الحياة الدنيا حتى يلحق بصاحبه رسول الله ﷺ وأبى بكر رضى الله عنه

وإن من حق إخوانه عليه أن يحفظهم بما حفظ به نفسه حتى يلحقوا برسول الله ، ويكونوا صحابة له في الآخرة كما كانوا صحابة له في الدنيا . . فكان رأى عنده أن يبادر أصحاب رسول الله بهذه الوقاية من الداء قبل أن يقع الداء . .

ومن تدبير عمر في تنقية المال الذي يجبي إليه ، من كل شائبة ظلم تشوهه إنه كان إذا جاءه المال من جهة من الجهات ، لا يقبله حتى يتأكد أنه قد جاء من طريق الحق والعدل . لا تتعلق به مظلمة لأحد . .

روى أبو يوسف — صاحب كتاب الخراج — « أن عمر كان يجبي إليه كل سنة من العراق مائة ألف ألف أوقية ، ثم يخرج إليه عشرة من أهل الكوفة ، وعشرة من أهل البصرة ، يشهدون أربع شهادات بالله على أنه طيب ما فيه ظلم مسلم أو معاهد » (١) .

وروى عن أبي هريرة — رضى الله عنه — قال : « دعا عمر أصحاب رسول الله ﷺ فقال : إذا لم تعينوني فمن يعينني » (٢) قالوا : نحن نمينك ، فقال : يا أبا هريرة انت البحرين و هجر هذا العام ، فذهبت فجننته آخر السنة بغاراتين فيها خمسمائة ألف ، فقال : ما رأيت مالا مجتمعا كهذا قط .. أفيه دعوة مظلوم ، أو مال يتيم أو أرملة ؟ فقلت لا ، والله بنس الرجل أنا ، إن ذهبت أنت بالمهنا وذهبت أنا بالمؤنة » ..

لأنه ليس بعد هذا التقصى في التنقيب والبحث عن سلامة المصادر التي

(١) المعاهد ، هو من كان بينه وبين المسلمين عهد من أهل القمة .

(٢) و هذا إشارة إلى أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يخرجون من العمل ولادة أو جناة ، خوفاً من تماتها بين يدي الله .

كان يرد منها المال إلى بيت المال - ليس بعد هذا شيء يمكن أن يضاف إلى تلك الصورة الدقيقة الجائلة لتحقيق هذه السلامة وضمانها ، والتوفى من أن يدخل على هذا المال شيء من الظلم ، وفي هذا يتجلى أروع مظاهر لشرعية الحق والعدل ، شريعة الملة السمحة الغراء ..

وجوه التصرف في هذا المال :

أما الأمر الثانى المتصل بالمال من حيث نخرجه في وجوه الحق ، بعد أن جاء من وجوه الحق ، فإن عمر - رضى الله عنه - قد أتى في هذا الباب بما يعد آية من آيات الله ، فيما يمكن أن يبلغه من يطلب الحق ، ويخلص له نيته ، وينجرد له من الهوى والشهوة ..

لقد تصرف عمر - رضى الله عنه - في هذا المال الذى وقع ليده تصرفاً عبقرياً لن يلحقه فيه أحد .

إن أحدث الأساليب ، وأدق النظريات الاقتصادية في هذا العصر ، والى تعنى برسم السياسة المصرفية للدولة ، لا يمكن أن ترتفع إلى هذا المستوى الحكم ، في ضبط مصارف المال الذى تنفتحت عنه عبقرية عمر ، وألممته إياه فطرته ، وهدهاء إليه دينه في سياسة مصارف المال ، ووضع كل درهم منه موضعه الذى يسد به خلا ، أو يشبع به جائعاً ، أو يكسو به عارياً ، أو يجهز به غازياً ، أو يعد به جيشاً محارباً ، أو يقيم به فقراً على طرف من أطراف دولة الإسلام ..

فهذا المال عند عمر - كما دلته على ذلك شريعة الإسلام - هو مال المسلمين جميعاً ، وليس له في هذا المال سلطان المالك له ، المتحكم فيه .. إنه

المن يستطيع — تحت سلطان هذا الإحساس — أن يمنع أحداً لأنه يريد أن يمنعه ، ولا أن يعطى أحداً لأنه يشتهي أن يعطيه ، وإعسا هو خازن وحارس ، يؤدي الأمانة ، ويراعى الحقوق في هذا المال الذي ائتمنه الله عليه ، واسترعاه له .

روى عن عمر — رضى الله عنه — أنه كان يقول : « ما مثلى ومثل هؤلاء — يشير إلى المسلمين — إلا كمثل قوم كانوا في سفر ، فجمعوا منهم حالا فسلوه إلى واحد منهم ينفقه عليهم ، فهل يحل لذلك الرجل أن يستأثر عنهم من أموالهم ؟ »

ذلك هو إحساس عمر إزاء هذا المال الذي يحىء إليه من كل الوجوه التي ارتضاها الإسلام للمسلمين . . إن هذا المال هو مال المسلمين . . فهو منهم وإليهم ، وماعمر إلا واحد من المسلمين أرادوه ليكون أمير الركب في مسيرة الحياة بهم . .

وكان عمر يقول عن هذا المال الذي يحىء إلى بيت المال : « والله الذى لا إله إلا هو ، ما أحد إلا وله في هذه المال حق أعطيه أو منعه ^(١) ، وما أحد أحق به من أحد ، وما أنا فيه إلا كأحدكم » .

هذا هو المبدأ العام ، واللائحة الواضحة التي جعلها عمر على واجهة بيت المال ، حتى يراها الغادى والرائح ، فيعلم كل مسلم أن له في هذا المال حقاً لا يملك أحد حجزه عنه ، ولو كان الخليفة فإن لم يصل إليه هذا الحق ، كان عليه أن يطالب به ، وكان على الجماعة الإسلامية أن تقف إلى جانبه ، وتعيينه على أخذ حقه ، إن حجبه الخليفة عنه ، أو نازعه فيه .

(١) أى . . . إذا أعطى المسلم حقه من هذا المال ، فلا فضل لأحد عليه ، لأنه إنما أخذ حقه ، وإن منع فقد منع حقاً له ، لا يسقط ه المنع .

ثم ننظر في التطبيق العملي لهذا الدستور الذي أعلنه عمر على الناس في سياسة مال بيت المال : « وإنه ما أحد أحق به من أحد ، وما عمر في هذا المال إلا كواحد من آحاد المسلمين » .

روى أبو عبيدة صاحب كتاب « الأموال » أن عمر بن الخطاب خطب الناس بالجابية ^(١) فقال عمر : « أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن ، فليأت أبا بكر ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ ابن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال ، فليأتني ، فإن الله تبارك وتعالى ، جعلني له خازناً وقاسماً .. وإني باديء بأزواج النبي ﷺ فمعطين ، ثم المهاجرين الأولين ، ثم إني باديء - أي من المهاجرين - بأصحابي ، أخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا . ثم بالأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم .. » .

ثم عقب على ذلك مبيناً السبب الذي من أجله قدم فيه بعض المسلمين على بعض فقال : « من كان قد أبطأ عن الهجرة ، أبطأ عنه العطاء ، فلا يلوم من أحد إلا مناح راحته » .

فقول عمر : « فلا يلوم من أحد إلا مناح راحته » كناية عن أن الإبطاء عن الهجرة إنما كان بسبب تراخي الهمة ، حيث لم يتحرك الذين أبطأوا ، ولم يخفوا مع الذين سبقوهم ، فتركوا رواحل سفرهم في مناحها .

وكان أبو بكر - رضى الله عنه - يسوى في قسمة الغنائم بين الناس ، غير والكبير ، الحر والمملوك ، والذكر والأنثى ، ومن سبق إلى الإسلام والهجرة ، ومن أبطأ فجاءه ناس من المسلمين فقالوا : يا خليفة رسول الله ..

(١) ١٠١ : ذكر نعيم على مسيرة يوم من دمشق ، وقد استلم منه عمر بعد فتح الشام مع الصغار ، و - روى في أمر الصغار ، وقد واثقه الزبير ، التي استلم منها الروم مسلمين .

إنك قسمت هذا المال فسويت فيه بين الناس ، ومن الناس أناس لهم فضل وسوابق . . فلو فضلت أهل السوابق والقدم والفضل بفضلهم ؟ ، فقال أبو بكر - رضى الله عنه - أما ما ذكرت من السوابق والفضل والقدم ، فما أعرفنى بذلك ، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش ، فالأسوة فيه خير من الأثرة « أى أن المساواة فى هذا المتاع الديوى خير من المفاضلة ..

ولكن عمر - رضى الله عنه - مع حرصه الشديد على متابعة أبى بكر ، والتأسى به فى كل أثر من آثاره - لم ير هذا الرأى ، إذ لم يره موافقاً مع نظراته إلى من أسلموا قبل الفتح ، ومن أسلموا بعده . . وإنه ما كان ليسوى فى نظراته إلى أبى سفيان مثلاً ، ونظراته إلى بلال ! فأبو سفيان الذى قاد حرب الشرك على الإسلام فى بدر وأحد ، والأحزاب ، لا يمكن أن يقيمه عمر على ميزان واحد مع بلال ، أو عمار ، ممن رهنهم المشركون بالعذاب ، وأخذوهم بالبأساء والضراء سنين عدداً .

وهنا تبرز طبيعة عمر ، التى لا تعرف الهوادة واللين فى أى موقف وقفه فى جاهليته وفى إسلامه على السواء . لقد غلبته تلك الطبيعة على عاطفته فى التأسى بأبى بكر والسير على أثره !

فالشدة والصرامة هما اللتان تحكمان عمر فى هذا الموقف وتريانه الناس على منازلهم من الإسلام ، فأقرب الناس إلى الإسلام ، وأسرعهم استجابة له ، وأكثرهم بلاء أو ابتلاء فيه ، هو أولى الناس بهذا الخير العاجل ، الذى ساقه الإسلام إليهم وجاءهم من جهته . .

وأما الذين كانوا قد وقتوا من رسول الله ، ومن دعوته موقف العدواة ، أو الكيد ، أو التردد ، ثم جاءوا إلى الإسلام بعد هذا - طوعاً

أو كرمًا - حين ملأ نور الإسلام آفاق الأرض ، وقامت دولته الغالبة - فكانهم هو دون مكان من سبقهم ، وجاهدوا وهاجروا ، وصبروا ، وصابروا ، كل حسب دوره على هذا التقدير . . وفي هذا يقول عمر قوله المأثورة : « لا أجعل من قاتل رسول الله ، كمن قاتل معه » .

يريد عمر بهذا التدبير أن يرى الناس درساً عملياً ، يعيتش بينهم في مسيرة الحياة ، وفي السبق إلى الخير . . حيث ينبغي أن يكون لأهل السابقة في كل موقف يتمتع فيه المسلمون ، المقام الأول فيما ينال المسلمون من هذه الدنيا : « وعند الله ثواب الدنيا والآخرة » .

وكذلك كان يفعل عمر - رضى الله عنه - في غير المال .

كان إذا اجتمع الناس بيباه^(١) واستأذنوا في الدخول عليه ، أذن أولاً لأهل السبق والبلاء منهم ، أيًا كانت مكانتهم الاجتماعية في الجاهلية ، فكان يأذن لبلال ، وأبي هريرة ، وعمار ، قبل أبي سفيان سيد سادات قريش في الجاهلية وصاحب غيرها ونفيها .

ويقول عمر إذ ذاك : « إنما الناس عندنا على منازلهم من الإسلام . . قدم من قدمه الإسلام » . . وقد احتج أبو بكر - رضى الله تعالى عنه - على الأنصار ، بأولوية المهاجرين عليهم وحقهم بالخلافة على المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، فقال في خطبته يوم السقيفة مخاطب الأنصار : « أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في الكتاب عليكم ، فقال تعالى : « والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار » (التوبة : ١٠٠) .

(١) أي باب بيته ، إذ لم يكن له مجلس خاص خارج بيته ، وإنما جلس المسجد ، حيث يجتمع المسلمين جميعاً . .

كيف قسم عمر الأموال ؟

ونعود إلى سياسة عمر في مصارف المال ..

بدأ عمر في قسمة أموال بيت المال في المسلمين ، بدأ بأزواج رسول الله ﷺ ففرض لكل واحدة منهن اثني عشر ألفاً ..

وفرض للعباس عم النبي اثني عشر ألفاً ، وفرض لأسامة بن زيد أربعة آلاف ، وفرض لعبد الله بن عمر ثلاثة آلاف ، فقال له عبد الله : يا أبت لم زدته على ألفاً ؟ ما كان لأبيه من الفضل ما لم يكن لأبي ، وما كان له ما لم يكن لي .. فقال عمر : إن أبا أسامة كان أحب إلى رسول الله من أبيك ، وكان أسامة أحب إلى رسول الله منك ..

وفرض للحسن والحسين خمسة آلاف ، خمسة آلاف ، وألحقهما بأبيهما ..

وفرض لأبناء المهاجرين والأنصار : ألفين ألفين ..

وفرض لأهل مكة وبقية الناس ثمانمائة ، ثمانمائة .. وهكذا أنزل كل واحد منزلته من الإسلام ، ومكاتبه وقرابته من رسول الله ﷺ . وكان ذلك عن تسليم ورضى من المسلمين جميعاً ..

وقد وسع هذا المال كل محتاج ، فكان عمر لا ينام عن ذى حاجة ، كما سنرى ذلك في مبحث « طلاب المال » بعد أن نمرغ إلى نظرة إلى السياسة التي كان ينتهجها عمر مع ولاته في جباية الأموال ، وكيف كان يتخير لهذه المهمة رجالها ، ثم كيف كانت عينه لا تغفل عنهم ، مهما كان حسن رأيهم فيهم .

البفصل الخامس

عمر ومجاسنة عماله

كان عمر - رضى الله عنه - يعانى شدة فى اختيار ولادة الأمصار ، وجباة الأموال ، لأنه كان يرى أنه مسئول عن كل ما يقع منهم من ظلم ، أو محراف ، أو خيانة .. إنه كان يراهم بعض أعضائه التى يعمل بها ، كالبيدين والعينين مثلاً .. فإذا سرقت اليد كان الحساب لصاحبها ، وكان قطعها عقوبة له ، لا ليده .

وكان عمر - رضى الله عنه - مع حسن طنه بصحابة رسول الله ﷺ الذين يوليهام عملاً من أعمال الدولة ، يرى أن الحياة الجديدة التى يواجهها الولاية من الصحابة فى الأمصار تعرض لهم ألواناً من الفتن فى كل مظهر من مظاهر الحياة التى لم تسكن مألوفة لهم فى الجزيرة العربية .. فالناس هناك غير الناس فى البيضة العربية، من حيث العادات والمقاليد والأخلاق، والحياة غير الحياة فى زخارفها ، ومتاعها ، وطعامها ، ولباسها ، ودورها وقصورها ، إلى غير ذلك من تلك المفارقات البعيدة بين ساكن البادية ، وساكن المدينة، ذات الحضارة العريقة التى يجبى إليها ثمرات كل شىء !

هذا ما كان يخشاه عمر - رضى الله عنه - على ولاته ، وهم فى مواجهة هذه الفتن التى تطرقهم فى كل لحظة من حياتهم فى الأمصار التى قاموا عليها .. ومن هنا !

يطرأ عليهم من تغير في لباسهم ، وطعامهم ، ومسكنهم ومركبهم .. إن الوالى فى نظر عمر كما هو فى مواقع الحياة أشبه بالعود ، ومن تحت ولايته أشبه بالظل لهذا العود ، فإذا استقام العود استقام ظله ، وإذا كان معوجاً كان ظله معوجاً .. وفى المثل : « متى يستقيم الظل والعود أعوج »؟

ولقد حرص عمر - رضى الله عنه - أشد الحرص ، وفكر أعمق التفكير فى اختيار الولاية والعمال على أمصار الدولة الإسلامية المترامية الأطراف ، لأنه كان يرى أن أى تقريط فى انتقاء الولاية ، وفى تخييرهم من بين من عرفوا بالقه والنزاهة ، وحصافة الرأى ، ونقاء الضمير ، يفسد على الرعية - أمرها ، ويأتى على كل صالحة فيها ، ويحيلها مرعى خصباً للفساد الذى لا يبقى ولا يذر شيئاً للحياة فيها .

وكان العبء ثقيلاً على عمر - رضى الله عنه - لأنه لا يأمن فى كل حين أن يحد الرجل الذى يضع بين يديه هذه الأمانة العظيمة ، ويحجى على الصورة التى يريدھا ، ثم إنه إن وجد هذا الرجل فى يومه ، لا يأمن ماذا يكون منه فى غده ، ولأيام ، والأحوال ، سلطانها على النفوس ، تنقلها من حال إلى حال ، وتعديل بها من طريق إلى طريق ..

وقد يهون الأمر ، ويخف عند من يرى أن مسئوليته أمام الله وأمام نفسه تقف به عند الحد الذى يمكن أن تحتمله طاقة البشر ، ولكن عمر - رضى الله عنه - كان يقسو على نفسه ، ويحملها فوق ما تحتمل النفس البشرية ، إذ كان يرى أنه مسئول عن كل حدث يحدث فى الدولة الإسلامية ، من صغير الأمور وكبيرها ، وإلا ما كان له أن يكون هو الرأس الذى يقوم على تدبير هذا الجسد الكبير ..

وقد كان مما يقوله عمر - رضى الله عنه - : « لومات جدى بطف^(١) العراق لخشيت أن يطالب الله به عمر . .. وكان من أقواله أيضاً : « لو أن بغلة عثرت بالعراق لخشيت أن يسألنى الله عنها » .

جدى يموت ؟ . . أو بغلة تمثر ؟

وأين ذلك ؟ فى أطراف العراق ؟

عمر يرى نفسه مسئولاً عن هذا الجدى ، أو تلك البغلة !!

فكيف بظلم إنسان أو جماعة ؟ كيف بهلاك إنسان أو جماعة جوعاً ؟ وكيف بضياح أرامل وأيتام بمكان قريب أو بعيد منه ؟ وهل هذا بما يمكن أن يقوم به إنسان ، أو تحمله طاقة الناس جميعاً ؟

وهل يمكن أن يحمل عمر كل هذا الحمل ، ويقدر على الوفاء به ؟ إن ذلك مستحيل مستحيل ! .

وعمر رضى الله عنه يعلم هذا من نفسه ، ويعلم ما يمكن أن يبلغه جهده منه ، وما تحمله طاقته ؟

ولكنه رضى الله عنه إن يكن يعلم أن ذلك غير مقدور له فى مجال العمل والتنفيذ، فإنه لأقل من أن يحمله فى مشاعره، وقيمه وجدانه ، وينزله منزل الحياة فى ضميره . . وحسبه أن يحقق من ذلك ما يرضى مشاعره ، ويفضى وجدانه ، ويربح ضميره ، بما يقدر عليه من إقامة ميزان العدل بين الناس !

وعمر رضى الله عنه قد كان دائماً عند قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من لم يحمل هم المسلمين ، فليس منهم » ! . بمعنى أن المسلم الذى لا يتألم

(١) طب العيون أعلاه يريد به أبعد مكان فى العراق ، بالنسبة إلى المدينة ، مقر الخلافة .

لآلام المسلمين ، ولا ياتفت بقلبه إلى ما يسوؤهم ، ولا يعمل بيده على ما يرفع
الضر عنهم : فليس من جماعة المسلمين ، حيث لا تجمعهم جامعة بهم في سراء
أو ضراء ! فأين إذن أخوة الإسلام ؟ وأين إذن الصلة الجامعة بينهم
في دين الله ؟

إن عمر رضى الله عنه يرى أنه مسئول عن كل شيء في هذا المجتمع
الكبير الذى أقامه الله تعالى مقام الرئيس عليه، والرأس فيه ، والراعى له .
إنه ضمير مثقل بهذه الالتزامات التى فرضها عمر على نفسه ، والتى أوجبها
عليه دينه ، والتى أخذها على كل راع ، وألزمه الوفاء بها، والحساب عليها .
يقول الرسول صلوات الله عن وسلامه عليه : « كلكم راع وكلكم مسئول
عن رعيته . فالإمام الذى على الناس راع ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة
راعية فى بنت زوجها وهى مسئولة عن رعيته ، والولد راع فى مال أبيه . وهو
مسئول عن رعيته ، والعبد راع فى مال سيده ، وهو مسئول عن رعيته .
ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

وخوف عمر رضى الله عنه من التقصير فى الوفاء بهذه المسئولية هو الذى
كان يزعجه ، وبؤرقه ، ويصور له المآل كالمكابى قائمة على رأسه ، والمظلومين
كلهم متعلقون به يوم القيامة فى معرض الحساب والجزاء يطالبون . مما وقع
عليهم من ظلم منه . أو من أحد ولاته !

هذا الخوف المتسائل على عمر ، هو الذى كان يطارده دائماً وبطرقه فى
يقظته ومنامه ، فلم يدع له لحظة يجدفها برد الطمأنينة والعافية . فكأن أحس
بشيء من هذا طالع عاياه هذا الخوف الرابض فى أعماقه ، فبفزع له ويضطرب ،
ويهب مذعوراً كلما نهشته حية !!

وإلى نصح له ما صبح يوماً حين رأى أثر الجهد والسهر بادياً عاياه أن

يخلد إلى شيء من الراحة والنوم. فقال لهذا الناصح: وكيف بهذا، إن أنا نمت النهار ضيعت حق الرعية وإن أنا نمت الليل ضيعت حق الله. فهل من هذا وذاك نوم؟ وعن ابن عمر رضى الله عنهما - قال: رأيت عمر بن الخطاب وقد أخذ تبنة^(١) من الأرض فقال: ليتنى كنت هذه التبنة، ليتنى لم أخلق، ليت أم عمر لم تلد عمر ليتنى لم أك شيئاً، ليتنى كنت نسياً منسياً!!

وليس عمر في هذا بالذى ينكر نعمة الخلق، ولا حكمة الخالق فيما خلق، ولكنه كان يخشى حساب ربه، وموقفه بين يدي خالقه، وهو يقدم حسابه عن كل ما بين يديه مما استرعاه الله تعالى له، من دين الله، ومن عباد الله، وإن طمعه في رحمة الله لا ينسيه عذاب الله وما أعد للظالمين من عذاب ونكال فإذا ذكر قوله تعالى: «ورحمتى وسعت كل شيء» ذكر معه قوله سبحانه: «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت، والملائكة باسطو أيديهم، أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون».

إن مسئولية الإنسان إزاء نفسه وإن كانت مسئولية عظيمة جسيمة، إلا أنها تكون أعظم وأجسم إذا كان معها مسئولية أخرى، عن الأهل والولد، فكيف بها إذا كانت ومعها مسئولية عن أمة بأسرها.

وقد يتخفف كثير من الناس من هذه المسئوليات، بالتعاليات الباطلة، والأمانى الخادعة.. ولكن عمر رضى الله عنه - لم يكن بالرجل الذى ينخدع للأمانى ويتعلل بالأمانى.. وإنه كان «عقلانياً» دقيق الحساب، لا يقبل في هذا الموقف إلا ما يقبله عالم الرياضة مما تعطيه لغة الأرقام. إنه راع، ومستول عن هذه الرعية كلها.. فلا سبيل إذن إلى الغالطة في هذا.. فذلك قدره، الذى لا مفر له منه..

(١) التبنة: المذلة من سنان القمح أو غيره

ولو وجد عمر - رضى الله عنه - عذراً يخلّيه من تبعات الخلافة ، أو يخلّيه من الخلافة ذاتها ، لخاصها عن نفسه ، كما يجمع الرء الثوب الخلق .. ولكنه كان يرى أن أبا بكر - رضى الله عنه - قد رآه أصلح الناس لها ، وأقوام على حملها ، وهو يظن في نفسه أنه عند رأى أبى بكر فيه .. وفى تخليه عن حمل هذا العبء - على جسامته - فكوس عن المعركة ، وتخلف عن الجهاد ، وخيانة لله ولرسوله والمؤمنين . وما كان لعمر أن ينكص ، أو يتخلف ، أو ينجون .. وقد كان يقول : « لو علمت أحداً أقوى على هذا الأمر منى ، لكان أن أقدم فتضرب عنقى أحب إلى من أن أليه » .

* * *

اجتهد عمر غاية الاجتهاد فى اختيار الولاية ، وجباة الأموال ، وفرض عليهم رقابة صارمة ، وأخذ من قصر منهم أو انحرف ، بالبأساء والضراء ، فى غير رحمة أو مجاملة ، وقد رأينا ما صنع بالصحابيين الجليلين - أبى هريرة ، وسعد بن أبى وقاص - وكيف صادر أموال الأول ، وشاطر الثانى ماله ، دون خيانة منهما ..

ولهذا خافه معظم الصحابة ، ورغبوا عن أن يتولوا له عملاً ، لأنه مع هذا الحساب العسير لهم ، كان يضيق عليهم فى حياتهم ، ولا يسمح لأحد منهم أن يظهر فى مظهر الإمارة ، وأن يأخذ سمت الأمراء والحكام من العجم ، فى رواء المظهر ، واتخاذ الحجاب ، أولين اللبس والمأكلى ، بل كان يفرض عليهم حياة لا تتبعه كذباً عن حياة سمت البادية الغليظة الحشنة ، التى كانوا عليها .. لأنه كان يرى فى التحول عن هذه الحياة ، والخروج منها ، لا بد أن يتبعه تعبير فى الحر ، وتحول عن المألوف المعتاد من الخلق والسلوك .

روى أن أبا عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - وقد رأى عمر يأخذ عماله بهذه السياسة الصارمة - قال لعمر : « دنست أصحاب رسول الله ﷺ - أى بتوليهم الأعمال - فقال له عمر : « يا أبا عبيدة .. إذا لم أستعن بأهل الدين على سلامة ديني فبمن أستعين ؟ فقال أبو عبيدة : أما إذ فعلت فأغنهم بالمال عن الخيانة » - أى إذا استعملتهم ، فأجزل لهم العطاء ، ووسع عليهم ، حتى لا يحتاجوا ، فينحرفوا : وذلك لأن المال فى أيديهم ، والحياة ناضرة مزهرة من حولهم ، فإذا أخذهم عمر بهذا الحرمان القاسى ، لم يصبروا ، وتفلتوا من يده ، فكانوا بين هارب من الإمارة ، أو خائن لها .

روى أن عبد الله بن عباس - رضى الله عنه - قال : « بعث إلى عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فأتيته ، فقال : يا ابن عباس .. إن عامل « حص » قد هلك - أى مات - وكان من أهل الخير ، وأهل الخير قليل ^(١) وقد رجوت أن تكون منهم .. فدعوتك لأستعملك عليها ، وفى نفسى شيء منك أخاله ، ولم أره منك ، وأنا أخشاه عليك .. فما رأيك ؟ قال قلت : فإنى لا أرى أن أحمل لك عملاً حتى تخبرنى بما فى نفسك . قال : وما تريد من ذلك ؟ قلت أريد إن كنت بريئاً من مثله ، عرفت أنى لست من أهله ، وإن كنت ممن أخشى على نفسى خشيت عليها مثل الذى خشيت على ! ! فما رأيك ظننت شيئاً إلا جاء عليه الوحي ! !

فقال يا ابن عباس إني أطمح حالك ^(٢) .. إنك لا تجدنى إلا قريب الجدد ، وإني خشيت عليك أن تأتى على النقي - الذى هوأت ، وأنت فى عمالك . فيقال لك هلم إلينا ^(٣) ، ولا هلم إليكم دون غيركم .. إني رأيت رسول

(١) إذا كان أهل الخير قليل فى مدبر لاسلام ، فكيف بأهل الخير اليوم ، بهذا المقياس الذى يقسمهم عمر به الناس ؟

(٢) أى أرقب حالك ، وأدرسه متبرساً .

(٣) أى أقبل إلينا لنظفر برضائك ، والقرب منك ، والاياد بك ، الأمر الذى لا يكون من الناس مع غيركم أهل البيت ، وهذا مما قد يفتن الناس .

وَالَّذِي اسْتَعْمَلَ النَّاسَ وَتَرَكَكُمْ . . قال « ابن عباس » . والله لقد رأيت
الذي رأيت ، ولم تراه فعل ؟ أى - لم فعل النى ذلك ، فلم يول أحداً من
أهل البيت؟ فقال عمر : والله ما أدري أسرفكم عن العمل وأرفعكم عنه - وأنتم
أهل لذلك ، أم أنه خشى أن تعاونوا لمكانكم منه ، فيقع العتاب عليكم ولا بد
من عتاب . . فقد فرغت لى ، وفرغت لك ! فما رأيك ؟ قلت : لا أرى أن
أعمل لك ! قال : ولم ؟ قلت : لأنى إن عملت لك وفى نفسك ما فى نفسك
لم أبرح قذاة فى عينك . . قال فأمر على ! ! قلت : أشير عليك أن تستعمل
صحيحاً منك ، صحيحاً عليك « ١١ - أى هو على ثقة منك ، وأنت على ثقة منه
فهذا ابن عباس ، على قرابته من رسول الله ﷺ ، وعلى مكانته بين
المسلمين ، وعلى ما عرف عنه من علم وقته ، والذي كان كباراً رآه عمر ،
يقول له : « غص غواص » أى غص يا غواص : لتستخرج لنا من صدرك
جواهر العلم والحكمة . . هذا ابن عباس ، وهذا علمه وفضله ومكانته ،
تنازع عمر نفسه فى أن يوليه عملاً لما يعرف من فضله ، ثم يحبك فى صدره
شئ ، يظنه ولا يتحققه ، فيصارع ابن عباس به ، ويجمع رأيه إلى رأيه ، ثم
يلتقى الرجلان على ما يرصيهما معاً : فيعتذر ابن عباس عن العمل ، ويفيل
عمر عذره ، ثم يطلب إليه الرأى فيمن يوليه ، فيعطيه رأيه ونصحه خالصاً لله .
تحت أصواء هذا الفحص الدقيق الشامل ، كان يتخير عمر عمال الأمصار
وجباه الأموال ، فإذا وقع اختياره على رجل ، فلا شك أن يكون هذا
الرجل على أحسن ما يكون عايه الرجال ، من عقل ، ودين ، وخلق . .
وحسبه أن ينجح فى امتحان يجريه له حر ، وبضعه تحت أضواء قراسته ، ثم
يفحصه فى أناة وحذر وارتياح ! ! إن مثل هذا الرجل الذى يجوز هذا
الامتحان ، وينجح فيه ، هو قليل فى الرجال ، وليس من اليسور العثور على

من يخلقه ، إذا خلا فكله بموت أو استشهاد .. ولهذا كان عمر حريصاً .
أشد الحريص على هؤلاء الولاة الذين تخيرهم للعمل معه .. يحوطهم بسيج
من الرقابة والمتابعة ، والراجعة ، حتى يظفروا على الحال التي اختارهم عليها ،
ولا يغيرهم . تغير الزمان والسكان ، فيعزلهم ، ويصعب عليه أن يجد من
يرضاه ليحل محلهم .. كان مما يلتمسه عمر في الوالى الذى يريد ، هو أن
يكون قوياً وأميناً مناً .. يخشاه الناس ويحبونه فى آن واحد .. وكان
- رضى الله عنه يقول - « أريد رجلاً إذا كان فى القوم وليس أميرهم ،
كان كأمرهم ، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم ! » .. هذه
هى صفاته من يليق بمنصب الإمارة عند عمر .. هو رجل محبوب ومهاب
فى كل حال ، وهذا محال أو شبه محال !!

وكان - رضى الله عنه - إذا صحت نيته على اختيار عامل ، بعد أن
يتمتع بجميع أحواله - ثم إذا بدت من هذا الرجل بادرة ، أمسك عمر عن
تعيينه وصرف نفسه عن الرغبة فيه !

يقدر روى أنه أراد أن يستعمل رجلاً على عمل ، ولم يكن هذا الرجل
يدري بما أراد عمر له ، فجاء إلى عمر يعرض نفسه عليه ، ليوليه عملاً ،
فقال له : « كنا قد أردناك لذلك ، ولكنك إذ طأبته فاست أهلاله ، لأن
من طالب الولاية لم يبق عليها » . ومعنى هذا أن من يطلب الإمارة
والولاية ، إنما يطلب لنفسه سلطاناً على الناس ، مستجيباً فى ذلك لشهوة
الحكم والسلطان ، فلا يجد من الله ، ولا من الناس عوناً له ، لأنه
إنما يعمل تحت حكم شهوة متسلطة عليه من نفسه . ومن كان هكذا
فلن يرضى الله . ولا الناس عنه . لأنه لا يعمل بما يطلب به رضا الله
وأن يحقق به مصالحة الناس . وإنما يعمل بما يرضى نفسه ، ويحقق مصالحة !!

وإلى هذا يشير الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بقوله أعبد الرحمن ابن سلمة . وقد طلب الإمارة : « يا عبد الرحمن ، لا تسأل الإمارة ، فإنك إن أعطيتها من غير مسألة ، أعنت عليها ، وإن أعطيتها عن مسألة ، وكنت إليها » . . وقال صلوات الله وسلامه عليه لقوم سألوه الإمارة : « إنا لا نولى أمرنا هذا من طلبه » وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر عن الإمارة : « إنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها » !!

ومع هذا ، فإن عمر - رضى الله عنه - لم يكن ليبرىء ذمته من التبعة ، بحسن اختياره لعماله ، بل كان يرى أنه مسئول قباهم فيما يقع منهم من ظلم أو تقصير .. إنه لا يرى الولاية إلا بعضاً منه ، وأن كل ما يكون منهم من إساءة أو إحسان ، راجع إليه .. وهو مسئول عنه ..

وفي هذا يقول : « أرايتم إن استعملت عليكم خير من أعلم ، ثم أمرته بالعدل .. أكنت قضيت ما على ؟ قالوا نعم ؛ قال : لا ، حتى أنظر في عمله ، أعمل بما أمرته أم لا ؟ » .

هذا عمر في مقام الاختيار للولاية ، ثم مراقبتهم ، والنظر فيما يكون منهم ..

أما في مقام المحاسبة ، والجزاء على ما يقع من الولاية من تقصير أو خروج عن السياسة التي رسمها عمر لهم من العمل بشريعة الله - فإن الأمر فيه يجرى على الأسلوب العمري المتميز ، الذي عليه طابع شخصيته ، وعبقريته ..

فعمر مع حرصه الشديد على ألا يفلت من بين يديه مقصر من ولاته وعماله ، كان يرجو السلامة لهم ، ولا يشتهي تصيد التهم وإصاقها بهم ، لإطهاراً

سلطانه ، أو إشاعة لروح الخوف منه ، حتى لا يفكر أحد في الخروج عليه ، كما هو الشأن عند كثير من أصحاب السلطان الذين ينكأون بالأبرياء ، ليكونوا عبرة للناس جميعاً : البريء ، والمسيء ، ليرهبهم الناس ، وليكون من هذه الرهبة حارس لسلطانهم .. وفي هذا يقول الشاعر ناصحاً لأحد الولاة بهذه السياسة الظالمة الفشوم :

شد العقاب على البريء - وما جرى - حتى يكون لغيره تنكيلاً

لم يكن موقف عمر في محاسبة الولاة والجباة ، إلا تأديباً لمن انحرف منهم ، وإلا محاولة لإصلاح من يمكن إصلاحه ممن اختل ميزان العدل أو اضطرب في يده ، فكان للولاة راعياً ناصحاً مؤدباً ، كما يفعل الأب الحصيف الرشيد مع أبنائه !

روى أبو يوسف - صاحب أبي حنيفة - أن عمر - رضي الله عنه - كان إذا استدمل رجلاً أشهد عليه رهطاً من الأنصار وغيرهم ، واشتد عليه شروطاً منها : ألا يركب برذوناً ، ولا يابس ثوباً رقيقاً ، ولا يأكل نقيماً ولا يفاق باباً دون حوائج الناس ، ولا يتخذ حاجباً « (١) » .

إن عمر - رضي الله عنه - يفرض هذه الشروط على ولاة يقولون شئون المسلمين في الشام والعراق ومصر . . في بلاد عمرت بألوان الحياة ، وبست أثواباً زاهية من الحضارة ، لا يكاد يقل روعة وفتنة عما نشهده في أرقى المدن في حياتنا المعاصرة .. فالتصور عامرة بالأثاث والرياش وأدوات التذهب والفضة ، والأفنية حالية بالحدائق الوارفة بالظلال الطيبة الثمار ، الجارية الأنهار -

(١) البرذون الحمار المهم للركوب ، بسرجه ولجامه ، والبق من الخنزير ، .. كان من دقيق منغول .

والطرقات تنزاحم فيها المراكب الفاخرة ، تجرها الجياد العتاق ، عليها زينتها
الموشاة بالذهب والفضة .. تلك هي بعض مظاهر الحياة في الأمصار التي ولي
عمر عليها ولاته ! فهل يستقيم الأمر لهؤلاء الولاء إذا هم أخذوا أنفسهم
بهذا الذي رسمه الخليفة لهم من أسلوب هذه الحياة التي يحبونها على السج
الذي نهجه لهم عمر ؟

ألا يركب الوالي برذوناً ؟ والناس من رعيته يركبون الخيل المطهمة ،
ونثر كعب الفاخرة التي تجرها الجياد ! وعلى سروج مكسوة بالحرير محلاة
بالذهب والفضة ؟ ولا يلبس الوالي رقيقاً من الثياب .. والناس من رعيته
يلبسون الديباج النوى باخيوط المجدولة بالذهب والفضة ؟

ألا يأكل الوالي نقياً بمعنى ألا يتخذ خبزه من دقيق منخول - والناس
من رعيته يجمعون عشرات الأصناف من نين الطعام وطيبه على موائدهم ؟
فأى نفس تحتل هذا ، والحياة من حولها تطل عليها بما يزرى بكل ما في
يدها ويژهدها فيه ؟

إنه لو كان ذلك العيش في البادية ، المكان من الممكن احتماله والصبر
عليه ، إذ هو الطابع الذي يطلع الحياة كلها هنـلـ.. وحتى إن البادية نفسها
لم يكن يعمل بعض الناس فيها ثلاث الحياة المتألفة لها بعد أن فتحت عليها
للشام والعراق ومصر ، وبعد أن بقات إليها أحبار تلك الأمصار ، وحلب
إليها كثير من أشيائها ، وعزتها ألوان كثيرة من الترف والنعيم .

فكيف يلزم عمر ولاته هذه الحياة ؟ وهل كان يغيب عن طائفة عمر ،
ما يعله هذا التناقض بين الحياة التي يحياها الوالي ، وبين هذه الحياة الدائر
دولتها في قوة من حوله ؟ وكيف هـ أن يظـ أن ذلك مما يمكن أن يكون

من الولاية وهم في وسطه هذ المظهر من الحياة ، والتي إن أرادوا أن يعزلوا أنفسهم عنها ، دخلت هي عليهم من كل باب ؟

ولا نحسب أن عمر - رضى الله عنه - كان يغيب عنه شيء من هذا الحرج الذى يقع فيه عماله ، إذا هم أخذوا بهذا الأسلوب من الحياة ، الذى يعترض التيار العنيف الذى تجرى فيه الحياة . . لا يغيب عن عمر هذا ، وإنما أراد بذلك أن يكون الولاية هم القوة التى تعترض هذا التيار الزاحف ، وأن يعطوا لذلك كل ما عندهم من إيمان ، وصبر ، وجهاد ، فإن عجز أحدهم عن ذلك بعد أن يبلى بلاءه ، نظر عمر إليه نظرة الطبيب إلى المريض ، فإن وجد له داءه دواء نصح له به ورده إلى عمله ، وإن لم يجد له دواء خلعه من عمله ، وأقام غيره مكانه ، لعله يقدر على ما عجز عنه صاحبه .

وقد نجح في هذا الامتحان كثير من ولاية عمر ، كما أن كثيرين منهم لم ينجحوا ، ولم يمتثلوا أقسوة هذا الامتحان .

روى أبو يوسف في كتابه « الخراج » أن عمر - رضى الله عنه - كان يمشى في بعض طرق المدينة ، إذ هتف به رجل فقال : يا عمر . يا أترى لخدم الشرط (١) نجيلك من الله ، وعاملك « عياض بن غنم » على « مصر » قد لبس الرقيق ، واتخذ الحاجب ؟ » .

فدعا عمر : « محمد بن سلمة » وكان رسوله إلى عماله ، فبعث به إلى عياض وقال له : اتقني به على الحال التى تجده عليها ، فأثاه محمد بن سلمة ، فوجد على يابه حاجباً ، فدخل عليه ، فإذا عليه قميص رقيق ، فقال له : أجب أخيراً المؤمنين

(١) من كان يخدم الشرط في عصر عمر بن الخطاب ، وكانوا يلبسون ملابس رقيقة ، وكانوا يسمونهم الرقيق .

قَالَ : دَعْنِي أَطْرَحْ عَلَى قَبَائِي (١) أَقَالَ لَا ، إِلَّا عَلَى حَالِكِ هَذِهِ . فَقَدِمَ بِهِ عَلَى عَمْرٍ ، عَلَى حَالِهِ هَذِهِ ! !

تَذَكَّرْنِي هَذِهِ الْوَاقِعَةُ ، بِالْحَدِيثِ الشَّرِيفِ : « يُلْعَقُ الْمَرْءُ عَلَى مَا قَاتَ عَلَيْهِ » أَيْ كَمَا كَانَ عَلَيْهِ فِي الْحَالِ الَّتِي فَارَقَ فِيهَا الْحَيَاةَ . فَالْمَرْءُ يَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ عَلَى الصُّورَةِ الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا ، عِنْدَ مَوْتِهِ ، إِنْ كَانَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ بِمَثْ وَهُوَ يَصَلِّي ، وَإِنْ كَانَ يَمْشِي بِمَثْ وَهُوَ يَمْشِي ، وَهُوَ عَلَى شَرِّ أَلْبَسَ هَذَا . . . وَهَكَذَا .

وهذا « محمد بن مسلمة » رسول عمر بن الخطاب إلى الوالي بهياض ، قد جعله به إلى عمر للجواب والجزاء على الحال التي وجد عليه
فماذا صنع عمر ؟

قَالُوا : « فَلَمَّا رَأَاهُ عَمْرٌ ، قَالَ لَهُ : أَنْزِعْ قِيصُكَ ، وَدَعَا بِمِدْرَعَةٍ صَوْفٍ (٢) ، وَبِرَبِضَةٍ (٣) مِنْ غَنَمٍ وَعَصَا وَقَالَ لَهُ : الْبَسْ هَذِهِ الْمُدْرَعَةَ ، وَخُذْ هَذِهِ الْعَصَا ، وَارْعَ هَذِهِ الْغَنَمَ ، وَأَمْسِكْ مِنْ مَرْبُوكَ ، وَاحْفَظْ الْفُضْلَ عَلَيْنَا ! أَسَمِعْتَ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا ! ! فَعَمِلَ عَمْرٌ بِرَدِّهَا عَلَيْهِ ، وَهُوَ يَرُدُّ : الْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ هَذَا . . . فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ : وَلَمْ تُشْكِرْهُ غَدًا ، وَإِنَّمَا لَمْ تُشْكِرْهُ غَدًا لِأَنَّهُ كَانَ يَرعى الْغَنَمَ ؟

وَإِذَا اسْتَجَابَ الْوَالِي لِأَمْرِ الْخَلِيفَةِ ، وَتَقَبَّلَ الْأَمْرَ الَّذِي دَعَاهُ إِلَيْهِ ، رَفَعَ لَهُ عَمْرٌ ، وَوَجَدَ أَنَّ مَا صَنَعَهُ عِيَاضٌ مِنْ لِبَسِ الرَّفِيقِ ، وَإِقَامَةُ الْحَاجِبِ عَلَى بَابِهِ ،

(١) الْقَبَاءُ كَسَاءٌ يَفْبَهُ الْقَسَاءُ ، يَلْبَسُ فَوْقَ الثَّوْبِ .
(٢) الْغَنَمُ هِيَ الْغَنَمُ ، وَهِيَ الْغَنَمُ ، وَهِيَ الْغَنَمُ ، وَهِيَ الْغَنَمُ ، وَهِيَ الْغَنَمُ .
(٣) الْغَنَمُ هِيَ الْغَنَمُ ، وَهِيَ الْغَنَمُ ، وَهِيَ الْغَنَمُ ، وَهِيَ الْغَنَمُ ، وَهِيَ الْغَنَمُ .
ولا ينطلي التواضع .
(٤) الرِّبْضَةُ : الْجَمَاعَةُ مِنَ الْغَنَمِ .

لم يكن بالجرم الذى لا يفتقر مع ظروف الحياة الضاغطة على الوالى فى مصر .
ولهذا نراه يقول لعمياض بعد أن لقنه هذا الدرس ، وعرضه لتلك التجربة
القاسية - نراه يقول له : « أعندك خير ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال :
انزع - أى اخلع المدرعة - وردة إلى عمله ، فلم يكن عامل يشبهه !

هذه صورة من صور عمال عمر : وما كان يؤدبهم به ليخفف عنهم
ما عرض لهم من عوارض الحياة الجديدة التى دخلت عليهم !!
وصورة أخرى ، قريبة الشبه بالصورة السابقة ، وهى مع « ابن قرط »
أمير حمص بالشام .

عن « عروة بن رويم » قال : بينا عمر يتصفح الناس فى موسم الحج ،
يسألهم عن أمراء أجنادهم ، إذ مر بأهل حمص ، فقال كيف أنتم ، وكيف
أميركم ؟ قالوا : خير أمير يا أمير المؤمنين إلا أنه بنى عليه - أى مقصورة -
يكون فيها ، فكتب عمر كتاباً ، وأرسل رسولا يحمل كتابه ، وأمره فيه :
« إذا جئت باب عليته فاجمع خطبك وأحرق باب عليته ، فلما قدم الرسول إلى
حمص ، جمع خطبك وأحرق باب العلية ، فدخل الناس على الأمير ، وذكروا له
أن هاهنا رجلاً يحرق باب عليته .. فقال : دعوه ، فإنه رسول أمير المؤمنين !!
ثم دخل عليه فناوله الكتاب ، فلم يضع الكتاب من يده حتى ركب متجهاً
إلى المدينة ، فلما دخل على عمر . قال عمر : اجلسوه عني فى الشمس ثلاثة
أيام ، فجلس عنه ثلاثاً ، حتى إذا كان بعد ثلاث دعاه وقال : يا ابن قرط :
الحقنى إلى الحرة - أى اتبعنى إلى هذا المكان ، وهو خارج المدينة ، وفيه إبل
للصدقة - ومضى عمر إلى الحرة ، فلما جاء « ابن قرط » ألقى عليه نمرق أشبه
بالقروة - وقال له : انزع ثيابك ، وبرز بهذه ، ثم ناوله الدلو ، وقال له :
اسق هذه الإبل ، فلم يفرغ حتى لغب - أى تعب - فقال له عمر : « يا ابن قرط :

متى كان عهدك بهذا ؟ - أى النضج بالدلو - قال : ملياً - أى منذ عهد قريب - قال عمر : فلمذا بنيت العلية وأشرفت بها على المسلمين ، والأرملة وثابتيم ؟ ارجع إلى عملك ولا تعد !! » .

وهكذا يفيق الوالى بعد هذا الكابوس المزعج الذى خرج به عن سلطانه، وألبسه ثوب الحياة البادية الجافية وردّه إلى حرور الصحراء وزمهريرها، ثم يصحو وإذا هو وبين يديه سلطانه الذى عاش مفارقاً له تحت وطأة هذه التجربة القاسية .. إنه لن يعود أبداً إلى أى خطأ يسلمه ما عاد إلى يده بعد أن نزع منه .. ولا شك أن مثل هذه التجربة مع الوالى الذى لم يستقم على منهج عمر، وذلك بخلافه أولاً . ثمرده ثانياً - من شأنها أن تضع بين يدي عمر والياً محصناً من أن يصاب مرة أخرى بعدوى الترف، والانفاس فى الحياة الجديدة ولبس كذلك الوالى الذى يتقلد الولاية لأول مرة ، إنه فى معرض الغواية والانحراف ، لأنه لم يقع فيهما ولم يجرب ما بنجم عنهما .. ولعمر - رضى الله عنه - كلمة حكيمة تقول : « من لم يعرف الشر جدير بأن يقع فيه » !! وليس معنى معرفة الشر أن يتجرع المرء كنوس الآثام والشرور ويعب منها ، ثم يبدل بآثارها السيئة فيه ، وعندئذ يترك الشرور ويحائب الآثام ، فهذا عمل مردود من أكثر من وجه :

فأولاً : أن ذلك جرم ، اقترفه الإنسان، وسر وقع فيه ، ولا يمكن أن يبرر هذا الجرم بأى وجه من وجوه التبرير ، حتى لو كان ذلك من أجل اكتساف الآثار السيئة الناجمة عن اقتراف هذا المذكر ، ليكون المرء على علم به ، فيحذره .. إن هذا مخاطرة بالنفس ، وإلقاء بها فى التهلكة كن شرب السم ليختبر آثاره ، ويدرك خطره !!

وثانياً : أنه ليس من الممكن فى جميع الأحوال أن يقتضص الذى

اجترأ على ارتكاب الخطيئة ، ومقارفة الإثم ، مما كان قد وقع فيه ، وأن يعود إلى شاطئ الأمن والسلامة ، بل إنه كثيراً ما تكون الخطوة الأولى في محيط الآثام ، موصولة بخطوات بعدها لا تنتهى حتى ينتهى العمر !

وإذن فليس المراد بقول عمر - رضى الله عنه - « من لم يعرف الشر جدير بأن يقع فيه » هو معرفته عن طريق التجربة العملية ، وإنما يكفي في توقي الشر أن يرى المرء آثاره في غيره ، فهذه المعرفة هي علم به وربما ينجم عنه ، وهذا من شأنه أن يرسم في وعى الإنسان صورة كريهة له ، بحيث إذا رآه فر منه ، فراره من المرض الخبيث !! وفي المثل : « حبسك من شر سماعة » . وفي هذا المعنى يقول الشاعر :

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقبه

ومن لا يعرف الشر يوماً يقع فيه .

وفي موقف عمر من والى حمص هذا بما يكشف عن كثير من فطنة عمر ، ومعرفته لآفات النفوس ، وما يمكن أن تعالج به تلك الآفات .. فقد فعل عمر ما فعل بوالى حمص ، من إلباسه مدرعة الصوف ، ومن إقامته في الشمس أياماً ، ثم دعوته إلى أن ينضح بالدلو - كل هذا الذي فعله عمر بهذا الوالى ، هو بما كان يعالجه الوالى في حياته بالبادية ، قبل أن يذهب إلى حمص ، ويقوم والياً عليها . ويأخذ ببعض ما وجد من الحياة فيها . . فلقد نزع عمر من هذا الوالى الجلد الجديد الذى لبسه في حياة حمص ، وأعاد إليه جلد البدوى الذى عاش فيه من قبل . . ثم أعاده إلى عمله . إنها عملية غسيل لنفس هذا الوالى مما دخل عليها من حياة الحضر ، ليعود بها إلى حالها الأولى التى دخلت بها الإسلام ، واضطربت بصفتها وفي هذا ما نقيم صاحبها على معهوده الأول

من صحبة لرسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - والتأسي به وبالحياة التي كان يحياها .

ونعم وبعد هذا الاستطراء، لتأخذ موقفنا بين يدي عمر - رضي الله عنه - وما كان يؤدب به عباده ، حين يكون من أحدهم ما لا يرضاه الخليفة ، سواء . أكان ذلك في صلة الوالي بمن تحت ولايته ، أو كان ذلك في خاصة نفسه . أو ما يسوس له به في دينه أو دنياه ! ونلتقي بصورة ثالثة لوالى من ولاية عمر - رضي الله عنه - وكيف أنه أتى من الزهد والورع ، بأكثر مما كان يرجوه . عمر في أحسن ولاته وآثرهم عنده .

• فهذا «عمر بن سعد» . كان والياً لعمر على «حمص» وقد مكث عاماً كاملاً لا يصل شيء من أخباره إلى عمر ، فكتب إليه عمر يستدعيه : « إذا أتاك كتابي لهذا فأقبل . وأقبل وما جيت من فيء المسلمين » . فأخذ «عمر» جرابه ووضع فيه زاده وقصعته وعلق إداوته ^(١) في عنقه وأخذ عصاه . وسار من حمص إلى المدينة ماشياً لم يركب طهراً ، ولم يجعل في رفقته أحداً .. فدخل على عمر ، وقد شحب وجهه وتغير لونه وضمير جسمه ، وطال شعره ، فجزع عمر لما رأى من عامله ، وقال له : « أأجذبت البلاد ؟ قال : ما أجذبت ؟ قال : « فما الذي أرى بك ؟ قال : ما ترى ؟ أأست صحيح البدن معافى ؟ قال : « فأين الخراج ؟ قال : « حين جئت البلد ، جمعت صلحاء فوليهم جباية فيهم ، حتى إذا جمعوه وضعت مواضعه ، ولو نالني شيء منه لأنتك به ! فقال عمر : ألم تكن لك ذائبة تركبها ؟ قال : كلا . قال عمر : أما أحد تبرع لك بدابة ؟ قال : ما فعلوا وما سألتهم ؟ فقال عمر : جئوا لغير ولايته ! فقال « غير » : « إن ذلك لشيء مفضى ، لا عملت لك بها ،

(١) هي بحلة يضع فيها المزة أدهانه

ولا عملت لأحد بعدك» ، واستأذن في الانصراف إلى بيته . . فقال عمر في نفسه : ما أراه إلا قد خاننا ، فبعث في أثره رسولا ، وأعطاه مائة دينار وقال له : انطلق إلى عمير ، حتى تنزل صيفاً عليه ، فإن رأيت أثر منى فاقبل ، وإن رأيت حاله على ما رأيت منه فادفع إليه المائة دينار . فنزل به الرجل ثلاثة أيام ، وليس لعمير وزوجه إلا قرصة من شعير ، كانوا يخبضون بها الضيف ويطوون بطونهم على الجوع حتى أجهدهم ذلك ، فأخرج الرجل الدنانير فدفنهما إليه ، فصاح عمير : لا حاجة لى فيها ، فقالت له امرأته : خذها إن احتجت إليها ، وإلا ضعها مواضعها . . فقسمها عمير بين أبناء الشهداء . . ولما علم عمر بهذا استقدم عميراً ، وأمر له بوسق من طعام ، وثوبين ، فقال عمير : أما الطعام فلا حاجة لى فيه ، قد تركت بالمزبل صاعين من شعير ، وإلى أن آكل ذلك يكون قد جاء الله تعالى بالرزق . . وأما الثوبان ، فإن أم فلان عارية ، فأخذهما ، ورجع إلى منزله !!

هذه صورة لا نطمح أن تتكرر في الحياة ، وخاصة في عصرنا هذا ، الذى وقع الناس فيه تحت سلطان المادة وعبادة المال ، حيث ردى الدين ، وماتت الفرائد ، واختلت معايير الأخلاق ، فصار كل دى سلطان همه أن يوجه كل سلطانه لذات نفسه بالتسلط على الناس وانتزاع ما فى أيديهم ليده ، وتحول الرعاة إلى دناب يفترون ما يرون^(١) !

وإذا كان مثل هذا الوالى « عمر بن سعد » أن يذهب هذا المذهب فى ولايته ، ويهزم فى نفسه كل دواعى الشهوة - إذا كان مثل عمر بن سعد هذا أن يجد من دينه الذى تمكن من قلبه قوة يستعين بها على دفع نيارات الحياة المادية المدافعة من حوله - فإن له أيضاً من أمير المؤمنين عمر - رضى الله عنه -

(١) كان دونه قبله الرئيس المؤمن محمد أبور السادات ، الذى مات الله ، وأمن الناس

التعدوة الصالحة ، والمثل الحى الواقع الذى يحمل مر العيش فى فمه حلواً ،
ويحد خشونة الحياة ائمة !!

فالناس على دين ملوكهم ، كما يقولون ، ولمثل صالح يراه الناس فى
سلوك إنسان ، خير من ألف موعظة ، لا يرون أحداً عاملاً بها ، وخاصة
إذا كان الواعظ من أولى الأمرا !

ولابد من وقفة هنا ، بين يدي هذا الموقف ، من كل من عمر —
رضى الله — ، وعامله على حمص « عمير بن سعد » — رضى الله عنه — فهذا
الوالى ، قد ظالم على ولاية حمص عاماً كاملاً ، لم يبعث إلى الخليفة بشيء
من النىء أو الخراج ، الذى جاء إليه من ولايته ، وما لبث مال المسلمين
فيه من حق .. وحين سأل الخليفة : « أين الخراج » أجابه بقوله :
« حين جئت البلد جمعت صلحاء فوليتهم جباية فيهم ، حتى إذا جمعوه ،
وضعتهم مواضعه ، ولو نالك شيء لأنتك به !! » .

وإذن فقد جمع « عمير » المال من حقه ، لم يقع فيه ظلم على أحد من
الرعية التى تحت يده ، إذ قد اختار صلحاء أهل البلاد ، فولاهم جمعه من
المستحق عليهم .. فذا اجتمع له ما جمعوا وضعه مواضعه ، من مصالح الجند
وما يلزمهم من نفقات وسلاح ، ومن إطعام الفقراء ، وإعالة اليتامى
والأرامل .. إن الوالى هنا يقوم مقام الخليفة فى رعاية رعيته ، وسد
حاجاتها .. إنال الذى يحىء إليه ، هو من بيت مال المسلمين الذى يقوم عليه
أمير المؤمنين !! وقد أنفق هذا المال فى وجوهه المنروعة ، ولم يبق
منه شيء ..

هذه واحدة ؟

وأخرى ، هى تلك الخبال التى جاء بها هذا الوالى على الخلية ،

إذ قد جاء ماشياً على قدميه من حمض إلى المدينة ، يتزود هو وزوجه ،
بالقليل القليل من الطعام ، ويلبسان الخشن من الثياب !!

ولقد أنكر عمر هذه الحال التي عليها واليه هذا ، وهو على بلد فيه
الخصب والخير ، وكيف لا تكون له دابة يركبها ، وكيف لا يجد أحداً
بعميره دابته ليقطع بها هذه الرحلة الطويلة الشاقة !! أهكذا يمكن أن يقع في
الحياة ، وفي بلد كبير كهذا البلد ، ومع الوالى الذى يحكمه ؟

ولم تشف نفس عمر تلك الإجابات التي أجابه الوالى بها للكشف
عن هذا الأمر العجيب . فحدثت عمر نفسه أن فى الأمر شيئاً !! أفلا يجوز
أن يكون هذا الوالى قد مثل هذا الدور ليرضى عمر عنه ، وهو يعلم ما يرضى
عمر عن عماله ، فجاء إليه بتلك الصورة التي جاء بها ؟ قد يكون !

وهنا يعرض عليه عمر أن يعود إلى ولايته ، وقال : « جددوا لعمر
ولايته » ! ولكن عميراً يأتى قبول العودة إلى الولاية مرة أخرى ؛
ويقول لعمر : « إن ذلك شيء قد مضى ، لا عملت لك بعدها ؛ ولا عملت
لأحد بعدك » !

وهنا يقع فى نفس عمر سوء آخر .. ألا يحتمل أن يكون عمير ،
قد جمع فى ولايته كثيراً من المال ؛ واحتجز الكثير منه لنفسه ، ثم يعتزل
الولاية ليعيش بهذا المال ؛ كما يحلوه ؟ .. ذلك محتمل !

ويمضى عمر فى الكشف عن حال « عمير » - رضى الله عنه - فيقيم
عنه من يتفقد أحواله ، ويرصد الحياة التي يحياها مع زوجته ، بعد أن
نزع نوب الولاية عنه .

وتكشف التجربة عن رجل مترفع عن متع الحياة ورفهها ، لا يأكل

إلا لقيات من عيش الشعير ، بلا إدام . فإذا قدمت إليه المائة دينار التي حملها إليه رسول عمر ؛ قال لا حاجة لى فيها ، حتى إذا قالت له زوجته : خذها لما قد تحتاج إليه ؛ أخذها ؛ وفرقها فى أبناء الشهداء بالمدينة !!

ثم حين يستدعيه عمر ، ويأمر له بوسق من طعام ، وثوبين ، يأبى أن يأخذ هذا الوسق ، قائلاً : فى بتى صاعين من شعير ، وإلى أن آكل ذلك يكون قد جاء الله بالرزق .. أما الثوبان ، فقد ذكر أن أم فلان وربما تكون زوجته - عارية ، فأخذ الثوبين ، يكسوها بهما !!

« إن الدين عند الله الإسلام » - فاعظم هذا الدين الذى يتربى فى طله أمثال عمر ، وعمر !!

إن عمر ، هو الصورة التى اكتتمت فى الناس من رجالات الإسلام ، وإن عميراً صورة مصغرة من عمر لفظاً ومعنى ! وإن فى ذلك لبرة لأولى الأبواب ، لما فى الإسلام من مبادئ الحق والعدل والإحسان ، التى تخرج شجرتها مثل هذا الثمرات « وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع وبخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ... » إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون »

فهذا عمر ، وذاك عمير ، على مائدة الإسلام ، أحدهما تم والآخر عتب !

* * *

وسياسة عمر - رضى الله عنه - مع نفسه ، وقسوته عاينها ، إنما كان يتوخى بها أن يكون قدوة للناس بما أخذ به نفسه ، حتى إذا قال قولاً أو أمر أمراً ، وجد الأذن السامعة ، والإرادة المنفذة ، إذ كان هو أول من عمل بما قال ، وامثل بما أمر .. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تعملون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا

ما لا تملون » .. فإن القول الذى لا ينتج فعلاً ، ولا يحقق عملاً من صاحبه ، هو شهادة على نفاق صاحبه !

ومع ما أخذ به عمر نفسه من الشدة والقسوة ، فإنه كان يعلم أن لكل نفس سعتها ، وأن ما يحتمله هو قد لا يحتمله كثير من الناس ، والله تعالى يقول : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .. كما أنه كان يعلم أن الظروف المتغيرة فى الزمان والمكان ، لها آثارها فى الناس ، فساكن الحضر لا يحتمل ما يحتمله ساكن البادية ، والذين لم يصحبوا رسول الله ﷺ بحجة ملازمة ، لا يبلغ بهم إيمانهم ما يبلغه إيمان الذين صحبوه ولازموه ، وتسموا أنسام النبوة طويلاً منه .

روى أن عمر - رضى الله عنه - حين قدم إلى الشام نلقاه معاوية ، وكان والياً عليها ، وقد اتخذ من مظاهر الملك وأبهته مالا عبيد للعرب به ، وكان عمر يركب حماراً ، حين استقبله معاوية بموكبه العظيم ، ولما التقى معاوية بأمر المؤمنين ترجل وسلم بالخلافة فلم يرد عليه عمر ، ومضى فى طريقه على حماره ، ومعاوية يتبعه ماشياً حتى جهد ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين : أتمت الرجل فهلا كلمته ، فالتفت عمر إلى معاوية وقال له : أإنك لصاحب هذا الموكب الذى أرى ؟ قال : نعم ، قال عمر : وتقول نعم !! مع شدة احتجابك ، ووقوف ذوى الحاجات ببابك ؟ قال : نعم !! قال ونعم أيضاً !! ويحك .. ولم ؟ قال : يا أمير المؤمنين : إننا ببلاد كثير فيها جواسيس العدو ، فإن لم نتخذ العدة والعدد استحف بنا الأعداء !! وأما الحجاب فإننا نخاف من البدلة ^(١) جرأة الرعية ، ثم أنا بعد عاملك ، فإن-

(١) أى التبدل ، وهو عدم الثبات والتعجب ، وهذا رأى معاوية بما يجرى : انعامه عليه ، أو يفقد إليه من الأعداء ، يز يفتله !!

استنصتني بقصتي ، وإن استزدتني زدت ، وإن استوقففتني وقفت !! فقال
عمر - وهو يكشف عن دهاء معاوية - : « ما سألتك عن شيء إلا أخرجت
منه .. إن كنت صادقاً ، فذاك رأي لييب ، وإن كنت كاذباً ، فذلك خدعة
أريب .. لا أمرك وء أنهاك » .

فهذا موقف يلتقي فيه الإيمان والفراسة . مع الدهاء والسياسة ، عمر في
هذا الجانب ، ومعاوية في الجانب الآخر .. وقد رأى عمر أن السياسة
هنا غالبية ، وأن ظروف الحياة ومتغيرات الزمان والمكان في جانب الدهاء
والسياسة ، فترك لمعاوية الأمر يسوسه بدهائه وكياسته ، ولن يضيع أمر
في يد هذا الداهية السكيس .

إن العشور على مثل معاوية قليل .. فهو وإن لم يكن في دينه وتقواه
على مستوى كثير من أصحاب رسول الله ، مثل أبي ذر ، وسلمان ، وعمر
ابن سعد ، فإنه على أي صحابي مسته نفعة من صحبة رسول الله ﷺ ، ثم
إنه كاتب من كتاب الوحي لرسول الله ، ثم إنه مع هذا عربي أصيل من
بيت مجد وسؤدد ، يأبى الدنية . ولا يأتي إلا ما يليق بالكرام الأمجاد .
ثم إنه - مع هذا كله - داعية من دهاء العرب ، وسياسي محنك ، يأخذ لك
أمر عدته ، فلا يبعثه العدو ، ولا يدخل على ولايته ما يكيد به العدو للمسلمين .

ولقد كان عمر - رضى الله عنه - يشكو من أنه لا يجد الوالى الذى
يجمع التقوى في قلبه ، والحكمة في عقله ، والكياسة والسياسة في سياسته ،
والحزم والجسم في أموره .. ومن مأثور قول عمر في هذا : « اللهم أشكو
جلد الفاجر ، وعجز الثقة » وأكثر الناس من هذين الرجاين : قوى فاجر ،
لا يخاف الله ، أو ضعيف تقى ، لا يقوم بأمر الناس .. والذى يجمع بين
القوة والتقوى قليل ، فحيث كانت القوى والتقوى كان صاحبها أهلاً للولاية

على الناس وإقامة أمورهم على العدل والإحسان . وفي هذا يقول الله تعالى :
« إن خير من استأجرت القوى الأمين » ويقول سبحانه على لسان فرعون
ليوسف : « إنك اليوم لدينا مكين أمين » ويقول سبحانه عن جبريل :
« إنه لقول رسول كريم ، ذي قوة عند ذي العرش مكين ، مطاع ثم أمين »
يقول ابن تيمية في فضل القوة ومكانها في إدارة شئون الجماعة :

« والقوة في كل ولاية بحسبها .. فالقوة في إمارة الحرب ترجع إلى
شجاعة القلب ، وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة ، فإن الحرب خدعة ، وإلى
القدرة على أنواع القتال من رمي ، وطعن ، وضرب ، وكر وفر .
« والقوة في الحكم بين الناس ترجع إلى الأخذ بالعدل الذي دل عليه
الكتاب والسنة وإلى القدرة على تنفيذ الأحكام » .

ثم يتحدث ابن تيمية - رضى الله عنه - عن الأمانة فيقول :
« والأمانة ترجع إلى خشية الله ، وألا يشتري بآياته ثمناً قليلاً ،
وترك خشية الناس .

« وهذه المصطلحات الثلاث - القوة بشقيها والأمانة - هي التي اتخذها
الله على كل من حكم الناس في قوله تعالى : « فلا تخشوا الناس واخشون ولا
تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً ، ومن لم يحكم بما أنزل الله ، فأولئك هم الكافرون »
ولهذا قال النبي ﷺ : « القضاء ثلاثة : قاضيان في النار ، وقاض في
الجنة .. فرجل علم الحق ففرض خلافه ، فهو في النار ، ورجل قضى بين الناس
على جهل ، فهو في النار ، ورجل علم الحق ففرض به ، فهو في الجنة »
« والقاضى اسم لكل من قضى بين اثنين وحكم بينهما ، سواء كان خليفة
أو سلطاناً ، أو نائباً ، أو والياً ، أو كان منصوباً - من قبل ولي الأمر -
ليتقضى بالشرع .. » (١) .

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ، ٧ - المطبعة الحيدرية ١٣٢٢ هـ .

وإذن، فإن موقف عمر بن الخطاب -رضى الله عنه- من معاوية، وما أقام على نفسه من مظاهر الحياة، هو الموقف الحكيم الحازم، الذى يشدد حين يرى للشدة موضعاً، وبإين حين يرى للين مكاناً، دون أن يضيع هذا أو ذاك -حقاً من حقوق الله-.

ونعود، فنقرر أن عمر -رضى الله عنه- كان يعانى شدة فى اختيار الولاة الذين يراهم أهلاً للتبائة عنه، فى حمل ما يحمل من أعباء الخلافة، إذ كان الوالى قائداً فى الحرب، وقاضياً ومنفذاً لما يقضى به فى السلم.

وقد ضن عمر -رضى الله عنه- بأصحاب رسول الله البارزين من أن يوليهم عملاً، بل أمسك بهم فى المدينة معه، لأكثر من مقصد قصد إليه. فأولاً: أن يحفظهم من مخالطة الحياة فى الأمصار، وما فيها من لين العيش، ورونق الحضارة، الأمر الذى ربما أثر فيهم، وغير منهم ما تركهم عليه رسول الله ﷺ. وعمر -رضى الله عنه- ضين بهم أن يخرجوا عن هذا الصراط المستقيم، الذى تركهم عليه رسول الله ﷺ.

وثانياً: أن يكونوا عوناً له فى الاجتهاد فى الأمور التى تعرض له، وليس فيها حكم قاطع فى كتاب الله أو سنة رسوله.

ثالثاً: ألا يكونوا مصدر إغراء وفتنة للناس فى الأمصار، وربما حamel ذلك على الخلاف، والتغريب بالمسلمين.

ورابعاً: ألا يكون وجودهم فى الأمصار داعية للناس إلى التسامح معهم، وقبول ما لا يقبلونه من غيرهم، إذا كان لأحدهم زلة أو هفوة... لهذه الاعتبارات وغيرها أمسك عمر -رضى الله عنه- بالبارزين من أصحاب رسول الله ﷺ فى المدينة.

وكان فى هذا هو عمر الأملئ الحكيم الرشيد، فإنه ما إن لحق عمر بربه وخله عثمان -رضى الله عنه- حتى خرج من بقى من أصحاب رسول الله ﷺ إلى الأمصار، وكان لهذا أثره الكبير فى تلك الفرقة التى حدثت

بين جماعة المسلمين ، وما نشأ عنها من حروب بين أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وطلحة والزبير - رضى الله عنهما - وبين علي - كرم الله وجهه - ثم بين علي ومعاوية ثم بين علي والخوارج . . . وكان من هذا كله ما فتح على المسلمين باب فرقة وفننة ، توقفت معها فتوحات الإسلام ، ثم كان ما طمع فيه الأعداء من أمة الإسلام ، والتي لا زالت آثارها باقية إلى اليوم .

لقد رضى عمر - رضى الله عنه - أن يولى من لا يرصاه كل الرضا في دينه ، وإن رضى في حكمته ، وسياسته . . . فقد رضى أن يولى المغيرة بن شعبه ، وهو عند عمر غير مؤتمن على دينه ، وذلك لما يعرف من دهائه ، وحسن احتياله !!

قد روى أن أهل الكوفة قدموا على عمر - رضى الله عنه - يسكنون إليه واليه ، سعد بن أبي وقاص ، فقال عمر : « أيها الناس . . . من يعذرنى من أهل الكوفة ؟ إن دليت عليهم التقي صعموه ، وإن وليت عليهم التوى فجروه » وكان المغيرة بن شعبه حاضراً يسمع . فقال : يا أمير المؤمنين : إن التقي الضعيف ، له تقاه وعليك صغفه ، وإن التوى الفاجر لك قوته وعاليه فجوره ، فقال عمر : صدقت . أنت التوى الفاجر ، دُحرج إليهم « ! فوله الكوفة .



وعمر - رضى الله عنه - يعجب بالرجل الحصيف الفطن ، القوى الضابط لما تحت يده ، مما يتولاه من أمور المسلمين ، وإن كان فيه مغرر عند عمر .

وهذا عمرو بن الباص ، داهية من دهاء العرب ، يقف من عمر مجادلاً .

محتاجاً ، بل ومتحدياً ، ثم يرى عمر الإمساك به والياً على مصر ، إذ كان أهلاً لهذه الولاية ، ثم هو الذى كان قد أشار على عمر بفتحها . فوله عمر أمر هذا الفتح ، ففتحها . .

كتب عمر - رضى الله عنه - إلى عمرو - ، وهو على ولاية مصر :

« أما بعد ، فقد بلغنى أنه ظهر لك مال من إبل وغنم ، وخدم وغلان ، ولم يكن لك قبله مال ، ولا ذلك من رزقك - أى عطائك - فأتى لك هذا ؟ ولقد كان لى من السابقين الأولين من هو خير منك ، ولكنى استعملتك لغنائك ، أى لكفاءتك - فإذا كان عمالك لك وعلينا ، فبم نؤثرك على أنفسنا ؟ فاكذب إلى من أين مالك ؟ وعجل ، والسلام » فكتب إليه عمرو : « قرأت كتاب أمير المؤمنين ، ولقد صدق !! فأما ما ذكره من مالى ، فإنى قدمت بلدة الأسعار فيها رخيصة ، والغزو فيها كثير ، فجعلت فضول ما حصل لى من ذلك ، فيما ذكره أمير المؤمنين ، ولو كانت خيانتك لنا حلالة ما خناك حيث ائتمنتنا ، فأقصر عنا ، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن العمل لك ، وأما من كان لك من السابقين الأولين ، فهلا استعملتهم ، فوالله ما دقت لك باباً !! »

ومع هذا فقد ظل عمرو على ولاية مصر ، وإن كان عمر يرى فيه ما لا يرضى عنه ، لأنه رجل فذ فى بابه !!

الفصل السادس عمر وطلاب المال

ونعني بطلاب المال أصحاب الحقوق من السائين ، في بيت المال ، مما يجبي ،
إليه من غنائم ، وخراج ، وجزية ، وزكاة ..

وقد رأينا عمر — فيما مضى من مباحث الكتاب — أنه أعلن على
الملأ أنه ليس إلا خازناً لبيت المال ، وأنه في هذا كالوصي على مال اليتيم ،
إن استغنى عفاً ، وإن افتقر أكل بالمعروف ، وأن هذا المال هو مال
المسلمين ، والمسلمين . ليس لأحد فيه حق لبس لغيره .

وقد أنسرنا في مواقف مختلفة ، إلى الأسلوب الذي انتهجه عمر في حراسة
هذا المال ، وفي مراقبته اليقظى التي لا تنام للجباة ، والعمال الذين يقومون
على جمعه ، وما اتبعه في محاسبتهم ، وبث العيون لمراقبتهم .

ونذكر هنا أنه كان قد أمر الولاة إذا عادوا إلى المدينة ألا يدخلوها ليلاً ،
حتى يراهم الناس على الحال التي جاءوا بها ، وما حملوا من مال ومتاع ..
بل إنه كان يأخذ الولاة بما عرف في هذا العصر من تتبع أصحاب السلطة
إذا ظهر عليهم في حياتهم من الثراء ومظاهره ما لم يكن لهم من قبل ،
والذى يعرف بالقانون المعروف « من أين لك هذا ؟ » .

روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - حين رأى أبا سفيان ، قد
رجع من الشام ، بعد زيارة ابنه معاوية ، وقع في نفسه أن أبا سفيان لن يعود
من الشام إلا مزوداً من معاوية ، بمال ومتاع ، وحين التقى أبو سفيان ،

بعمري في مجاسه ، تناول عمر الخاتم الذي في يد أبي سفيان ، وبعث به مع رسول إلى هند امرأة أبي سفيان يطلب إليها باسم أبي سفيان أن تبعته إليه بالخرجين اللذين جاء بهما من الشام ، فلما جاء بهما إلى عمر ، وجد فيهما عترة آلاف درهم ، فأخذها وضمهما إلى بيت المال « مكتفياً بهذا ، حتى يعلم الناس أن عين عمر لا تنام ، وأنه لا يدع أحداً — أياً كان مكانه — أن يأخذ ما ليس له .

وقد كانت سياسة أبي بكر - رضى الله عنه - في قسمة المال أن يسوى فيه بين المسلمين . من قبل الهجرة وبعدها ، ومن قبل الفتح وبعده .. أما سياسة عمر ، فهي أن يجعل لأهل السابقة والبلاء في الإسلام فضلاً ، ويقول : « لا أسوى بين مع قاتل مع رسول الله ، وبين من قاتل رسول الله .. » فلما اجتمع له أول مال كثير دعا الناس إليه ، وخطبهم فقال : « والله الذي لا إله إلا هو ما أحد إلا وله في هذا المال حق ، أعطيه أو منعه ، وما أحد أحق فيه من أحد ، وما أنا فيه إلا كأحدكم .. ولكننا على منازلنا ^(١) من كتاب الله عز وجل ، وقسمنا ^(٢) من رسول الله ﷺ .. فالرجل ولادة في الإسلام ^(٣) والرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وحاجته في الإسلام .. والله لئن بقيت ليأتين الراعى بمجل صنعه حفظه من هذا المال قبل أن يحمر وجهه » ^(٤) .

وتقول إن عمر - رضى الله عنه - إنما اختص أهل السبق ، والبلاء ،

(١) على منازلنا من كتاب الله ، أى على قربنا من كتاب الله ، ومما به ، وبلائنا

في الدفاع عنه .

(٢) قسمنا من رسول الله ، أى حظنا من حبه والولاء له ، والدفاع عنه .

(٣) أى سابقه في الإسلام ، تقدمه على غيره والاستجابة لأمره الله .

(٤) كناية عن السؤال ، وما يروى وجا السائل من حمرة الحياء .

والكافة من رسول الله ﷺ بنصب أكبر من هذا المال ، لا يترضى منهم نفوساً راغبة في المال طامعة فيه ، فإن أصحاب رسول الله كانوا فوق أن ينظروا إلى هذا المتاع الزائل ، بعد أن أشرف بهم رسول الله ﷺ على رضولى الله ، وأراهم منازلهم في جنات النعيم .. إن الدنيا كلها لا تزن عند أحدهم شيئاً مما يملأ قوسهم من إيمان ، وما تقيض به مشاعرهم من رضى الله ورضوا .

فهذه أم المؤمنين ، زينب بنت جحش - رضى الله عنها - يبعث إليها عمر - رضى الله عنه - بائني عشر ألفاً ، المفروضة لها من بيت المال ، على نحو ما فرض عمر لأزواج النبي - صلوات الله وسلامه عليه - فكيف استقبلت أم المؤمنين هذا المال ، الذى لم تعرف له وجهاً من قبل ؟

يقول أبو يوسف صاحب كتاب الخراج :

« حين وصل إليها هذا المال ، قالت : غفر الله لأمبر المؤمنين ، لقد كان في صومجياتي من هي أقوى على قسمة هذا المال كله ، فأمرت به فصب ، وغطته بثوب ، ثم قالت لبعض من عندها : أدخل يدك لآل فزن ، وآل فزن ، فلم تزل تعطى لآل فزن ، وآل فزن ، حتى قالت لها التى كانت تدخل يدها : لا أراك تذكرينى ، ولى عايتك حق ؟ فقالت لها : لك ما تحت الثوب ، فإذا هو خمسة وثمانون درهماً .. ثم رفعت يدها ، فقالت : المهم لا يدركى عطاء عمر بعد عايتى هذا أبداً .. فكانت - رضى الله عنها - أول أزواج النبي لحوقاً به ، »

أرأيت إذن كيف كانت نظرتها إلى المال ، وتصرفها فيه .. إنها ما كانت تظن أن هذا المال الذى بعث به أمير المؤمنين إليها ، هو لها ،

وإما أرادها أن يقسمه في الناس ، فباعت أنه المفروض لها ، فعات به ما فعات .

وكذلك كان فعل أزواج النبي كلهن بما فرض عمر لهن . . إنهن لا يردن أن يغيرن شيئاً من حياتهن مع رسول الله ﷺ . وأن يمتصين على ما كن عليه في حياته من الاكتفاء بكسرة العيش ، وشربة الماء ، وأن يأخذن أنفسهن بما أنزل الله فيهن على لسان رسوله : « يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعن وأسرحكن سراحاً جيلاً ، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً » . . وقد أردن الله ورسوله والدار الآخرة ، وتركن هذه الدنيا لأهل الدنيا ١١ .

هذه واحدة من زوجات النبي - ﷺ - بل ربما كانت أجمل نساءه ، وأكثرهن إحساساً بالحياة ، لما يبعث الجلال في نفس المرأة من إدلال بهذا الجلال ، وترض له بالتنعيم والتزين ، ولكنها تدفع بكلمات يديها هذه الدنيا المقبلة ، وتردها رداً عنيفاً ، وكأنها كانت في حلم مزعج من هذا المال ، الذي يحاول انتزاعها من عالمها العلوى الذى تعيش فيه مع ذكريات النبوة وأضوائها التى يكسوها منها سناها الوضىء ، بل لقد تمننت على الله أن يحين أجلها قبل أن تطل عليها هذه الفتنة مرة أخرى ، وقد استجاب الله تعالى لها ، فماتت قبل أن يحول الحول ، ويأتى إليها عطاؤها . .

فول : إن عمر - رضى الله عنه - لم يرد أن يترضى بهذا المال أهل السابقة والبلاء في الإسلام ، حين فضاهم على غيرهم ، وأجزل لهم العطاء منه ، ولكنه أراد بهذا أن يرى المسلمين أن أهل السبق والبلاء جديرون بأن ترفع منازلهم . . لدنيا على غيرهم ، ممن ليس لهم مثل سبقهم وبلائهم ، كما رجع

الله تعالى منازلهم عنده .. والله تعالى يقول : « لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا » وكلا وعد الله الحسنى » . . فكيف بالمسلمين الذين لم ينفقوا ولم يقاتلوا ؟

وإذا كان كثير من المسلمين قد استقبلوا هذا المال الذى طاع عليهم من كل وجه ، حذرين منه ، صائقين به ، خائفين من فتنه ، فعزلوا أنفسهم عنه ، وصرفوا وجوههم عنه . فإن كثير من المسلمين أيضاً ، قد استغواهم هذا المال ، فتحركت في نفوسهم الشهوة إليه ، وتلذذت فيهم الرغبات الدنيوية التى كان الإسلام قد كظمها ، فنازع بعضهم بعضاً فيه ، وجاء بعضهم إلى عمر يستزيده منه ، وتعلق بعضهم بالولادة والحياة ، يطلبون الخطوة عندهم ، وبنالون المزيد من المال الذى فى أيديهم .

إنها النفس البشرية الأمارة بالسوء ، لا يصبر على نوازعها ، ولا يقدر على كظم أهوائها ، إلا أولو العزم من العاس ، الذين سكب الإيمان السكينة فى قلوبهم ، فلم يطمثوا بالحياة الدنيا ، ولم يرضوا بها مستغراً ومقاماً .

لهذا كانت من عمر تلك الوقفات الرائعة التى سجاها التاريخ له ، فى كبح جراح تلك النفوس التى خالطها حب الدنيا ، واستغواها متاع هذه الحياة ، فعرف عمر - رضى الله عنه - كيف يكفكف من غمرها ، ويصلح المعوج منها ، ويضرب بقوة على أيدي الضالين الفواة .

٠ . وقد رأينا فيما مضى من فصول الكتاب ، أن عمر - رضى الله عنه - قد بدأ بنفسه وأهله ، وأنه قد لبس ثوب الخلافة سداً الدنيا ؛ ولحمته الدين ، فكانت خلافته للدين والدنيا معاً . . وكان الدين هو ملاك الدين . . والساطان القائم عليها . فاجار منها على شئ من الدين عزله ، ودمدم عليه . .

ولا بأس ، ونحن بين يدي عمر ، وطرب المال ، أن نعرض هذا ذبح .
أخرى غير التي عرضناها ، من محاسبة عمر لنفسه وأهله مع المال الذي بين
يديه ، لنشهد منه — عن قرب — أن محاسبته لطلاب المال لم تكن إلا
امتداداً لبعض محاسبته لنفسه وأهله ، وأن ما أخذهم به من شدة ، هو قليل
قابل لما أخذ به نفسه وأهله من شدة ، هي في الواقع تأديب للنفس ،
ورعاية لها ، حتى لا يجمع بها الهوى ، فنسقط ، وتهوى بصاحبها في مهاوى
الهالكين . . فهو — رضى الله عنه — إذ كان يتوخى بذلك السلامة لنفسه
ولأهله ، فإنه حريص على سلامة كل مسلم ، واستنقاذ لمن يتعرض للإهلاك
من المساكين .

عن محمد بن علي ، عن مولى لعثمان بن عفان ، قال : بينا أنا مع عثمان
في مال له في العالية^(١) ، في يوم صائف ، إذ رأى رجلا يسوق بكرين ، وعلى
الأرض مثل الفراش^(٢) من الحر ! فقال عثمان : ما على هذا لو أقام بالمدينة حتى
يبرد^(٣) ، ثم يروح ؟ ثم دنا الرجل ، فقال عثمان : انظر من هذا ؟ فنظرت ،
فقلت أرى رجلاً معهما يسوق بكرين ، ثم دنا الرجل ، فقال عثمان : انظر ،
فنظرت ، فإذا هو عمر بن الخطاب ، فقلت : هذا أمير المؤمنين . فقام عثمان
فأخرج رأسه من الباب ، فإذا لبح السوم ، فأعاد رأسه ، حتى إذا حاداه
قال : ما أخرجك هذه الساعة ؟ قال : بكران من إبل الصدقة تحلفا ، وقد
مضى الرعاة بإبل الصدقة فأردت أن ألحقن بالحمل^(٤) ، وحسيت أن يضيعا ،
فيسألني الله عنهما . فقال عثمان : يا أمير المؤمنين : هلم إلى الماء والتحل

(١) . العالية : موضع خارج المدينة ، تروح فيه الإبل .

(٢) أي أن ما يرق على الحصى والرمال من وهج الشمس : وما يخرج من الحجارة
والخشب من الحرر يشبه الفراش المطاير .

(٣) أي يقبل وقت الظهيرة إلى أن تخف وطأة الحر .

(٤) مكان حماء الحليفة عمر . طاهر المدينة ليكون مراحاً للإبل الصدقة .

ونسكنيك ! فقال عمر : عد إلى ظلك . فقال عثمان : عندنا من يكفيك .
فقال عمر : عد إلى ظلك : ومضى . . فقال عثمان : من أراد أن ينظر إلى
التقوى الأمين ، فليتنظر إلى هذا ، وأشار إلى عمر .

وكان — رضى الله عنه — أبا العيال ، كما يقول عن نفسه .. فكان
يمشى إلى المغيبات — أى اللأى غاب عنهن أزواجهن فى الغزو — فيسلم على
أبوابهن .. ثم يقول : ألكن حاجة ؟ هل آذا كن أحد . أتردن أن أشتري
لكن شيئاً من السوق ؟ فإنى أكره أن تخدعن فى البيع والشراء ! وكن
يرسلن معه جواريهن ، فيدخل السوق : وإن وراءه من جوارى الناس
وغلهانهم ما لا يحصى ، فيشتري لهم حوائجهم ! .

وإذا كان عمر — رضى الله عنه — يحاسب على الدرهم والدينق ، فما ذلك
إلا ليعلم للولاة مثلاً حياً يريهم منه أن التفريط فى القليل يجر إلى التفريط
فى الكثير ، وإذا كان تفريط المرء فى حق نفسه شيئاً عظيماً ، فإنه فى حق
غيره أعظم ، وهو فى حق الكثير أشنع من حق القليل .. فكيف إذا
كان هذا الكثير أمة ؟ ثم كيف إذا كانت هذه الأمة ممتدة الأطراف
مقسمة الأرجاء ، كالأمة الإسلامية ؟

إنها مسئولية عظيمة ، وأمانة ثقيلة ، لمن عرف قدر الأمانة ، وأيقن
بأنه محاسب عليها ، يحرى بما حفظ أو ضيع منها ..

والأمانة عند عمر — رضى الله عنه — ليست فى هذا المحتوى الهزيل ،
إلى إنه من معظم الناس ، ويتماطونه من معناها ، عطاء
وأخذاً .. إن الأمانة عند عمر ، ساطان قائم على الضمير ، لا يتنام
ولا ينيم ، تجمع إليه نزعات النفس ، وخطبات الفؤاد ، فلا يجرى منها

نبيء إلا إذا سلك مسلك الحق والعدل ، وحل بالمسكن الذى يرتضيه الحق والعدل .

وكان حساب الرجال عنده مقدراً بهذا الحساب ، ومقاماً على هذا الاعتبار فى مفهوم الأمانة عنده ، بهذا المعنى المحيط الزامل !!
نأج هذا من عمر ، فى نظره إلى أبى عبيدة بن الجراح ، ونفديره له ، وتقديمه على غيره ، وذلك لأنه سمع رسول الله ﷺ يقول فى أبى عبيدة : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . . . ولبس بعد قول رسول الله ﷺ فى أبى عبيدة قول يقال . . . فأبو عبيدة كامل . الأمانة ، وعمر يزين الناس بهذا الميزان . . . ومن ثم كان أبو عبيدة أرجح الناس جميعاً عند عمر !!

روى الجاحظ فى كتابه : « البيان والتبيين » أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - مر بأناس يتممون ، فلما رأوه سكتوا ! فقال : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا نتمنى ! فقال تمنوا ، وأنا أتمنى معكم ا فقالوا : فتمن أنت ؟ قال : أتمنى رجلاً ملء هذا البيت مثل أبى عبيدة بن الجراح ، وساء ! مولى أبى حذيفة » !!

وفد عرفنا من هو أبو عبيدة ، وقول رسول الله ﷺ فيه ، وأنه أحد ثلاثة شهدوا بيعة السقية ، هو وأبو بكر ، وعمر ، وقد أشار أبو بكر بأن يتولى الخلافة أحد الرجلين : أبو عبيدة ، أو عمر . . . وفوق ذلك فهو أحد العشرة المبشرين بالجنة .

أما سالم مولى أبى حذيفة ، فقد كان من كبار صحابة رسول الله ﷺ ومن السابقين الأولين ، وقد آخى رسول الله ﷺ بينه وبين أنى بكر ، وقد شهد غزوات الرسول ، واستشهد فى حرب مسيلمة ثم هو فوق هذا كله أحد العشرة المبشرين بالجنة .

وقد روى أن عمر حين طعن ، سأله أن يعهد بالخلافة من بعده لمن يراه ، فقال : « لا أتحمل أمركم حياً وميتاً » فلما راجعوه من ذلك ، قال : « لو كان أبو عبيدة بن الجراح ، أو سالم مولى أنى حذيفة حين ، لاستخلفت أحدهما » .

ذلك هو مكان الأمانة عند عمر ، وذلك هي منزلة أهل الأمانة عنده ؟ وإنه ليس مثل المال في امتحان الناس ، وما عندهم من أمانة ، وما في نفوسهم من عفة وتقى ، وما في قلوبهم من إيمان بالله ، ومراقبة له ، ومن قدرة على امتلاك هوى النفس ، وما تدعو إليه من شهوات !

وعمر - رضى الله عنه - لا يغيب شيء من هذا عن فطنته ونفاذ بصيرته ، فقد كان يعلم عن يقين أنه من هذا المال الذى يساق إليه من آفاق الأرض ، في وجه فتنه ، تحتاج إلى شدة وحزم ، مع لباقة وكياسة ، حتى يكتب له الله تعالى النجاة منها ، والسلامة للناس من غوائلها ..

روى عن سعيد بن المسيب ، أنه قال : « لما جرى إلى عمر بأخماس فارس ، قال : والله لا ينجها ^(١) سقف دون السماء ، حتى أقسمها بين الناس ، فأمر بها فوضعت بين صفى المسجد ، وأمر عبد الرحمن بن عوف ، وعبد الله ابن أرقم فباتا عليها .. ثم غدا رضى الله عنه ، فدعا الناس إليه ، ثم أمر بالجلابيب فكشفت عنها ، فنظر إلى شيء لم تر عيانه مثله ، من الجواهر ، واللؤلؤ ، والذهب والفضة .. فبكى .. فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين .. هذا موقف من مواقف الشكر ، فابكيك . قال : أجل .. ولكن الله لم يعط قوماً من هذا إلا ألقى بينهم العداوة والبغضاء ! »

(١) أى لا يسترها .

موقد بقول قائل إن هذا ليس من السياسة الحكيمة ، حيث يفرغ كل مافي بيت المال على الناس ، ولا تستبقى منه شيئاً لحاجات الدولة ، وما يطرقها من أحداث . وهل يمكن أن تقوم الدولة بغير مال ، بل ومال كثير ، تحتفظ به في خزائنها ؟

ونقول : إن عمر - رضى الله عنه - لا يغيب عنه شيء من ذلك ، وكيف وهو الذى دون الدواوين ، ومصر الأمصار ، وكان من أولى الدواوين التى أنشأها ديوان الجند ؛ وأعطيات الجند ..

ولكن الذى كان من عمر فى هذا الموقف ؛ إزاء خمس المال الذى جىء به إليه من فارس عند فتحها ، إنما هو أنه أول مال كثير يفيثه الله تعالى على المسلمين ، فأراد عمر - رضى الله عنه - أن يرى المسلمين هذا الخير الذى جاء إليهم من جهة دينهم ، وأن يدخل هذا المال كل بيت . وتزال منه كل يد ..

ثم إن المسلمين ما أفاموا الجيوش ، ولا جندوا الجنود التى فتحوها بها فارس والروم ومصر ، بمال كانت نضمه خزانة الدولة ، إذ لم يكن للدولة خزانة ولا مال ، ولكن قامت هذه الجيوش للجهاد فى سبيل الله ، حسبة لله ، وابتغاء مرضاة الله ..

وإذن فليكن هذا الطريق - طريق الجهاد - مفتوحاً للمسلمين ، مقلًا ينظر المحاهد إلى مال يؤجر به ليحارب فى سبيل الله .. إن الجندى المأجور ، لا يقوم فى الحرب مقام الجندى المحتسب ، ولا يبعث ما يقوم به .. وشتان بين بكاء الشكى ، وبكاء الأجيبة !!

ثم إن عمر - بعد هذا ؛ وبعد أن فاض المال فى أيدي المسلمين - أعد بيتاً للمال ، وملاً هذا البيت بما جاءه من الفىء والخراج ، وأعده

للإنفاق منه على شئون الدولة ، وواجبات الحماة ، وقام على هذا المال .
حارساً أميناً لا ينفق منه درهما إلا فيما شرع الله . وأحل الله .

أول خلاف بارز حول المال :

وقد واجه عمر أول خلاف حول المال كاد يتحول إلى فتنة عامة ..
وذلك فيما كان بين الجنود وأمراء الجنود من جهة وعمر بن الخطاب من
جهة أخرى ، في قسمة الفداء ، وما للمسلمين المجاهدين من نصيب فيه .
فكتاب الله تعالى يقول في أمر هذه العنائم : « واعلموا أنما غنمتم
من نبيء ، فإن لا خمسة وللرسول ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن
السبيل .. » .

وهذا القول الكريم صريح في أن للمجاهدين كل ما وقع في أيديهم
من منافع ، بعد إخراج الخمس منها « لله » الذي وضعه سبحانه ليداره ول،
ينفق منه على نفسه وعلى دوى قرابته ، ثم على الفقراء والمساكين ، وابن
السبيل . .

فلا شبهة إذن في أن للجنود ، وأمراء الجنود أربعة أخماس ما ينتمون
في الحرب .

فكيف إذن وقع الخلاف بين عمر ، وبين المجاهدين فيما وقع لهم
من غنائم ؟

أريد عمر أن ينتقص شيئاً من هذا التدر الذي قدره الله تعالى لهم ،
ليوجهه وجهة أخرى نحو مرفق من مرافق المسلمين ، لأنه يحال أن يفعل
عمر شيئاً من هذا ، إلا أن يكون عن رضى أم من المجاهدين ، فيسكون
لهذا منهم تبرعاً محموداً ، ومدة مقبولة ! أما أن يعمل ذلك عمر عن

رأى رآه ، فهذا ما لا يكون من مسلم أبداً ، فكيف يقدم عمر على شيء من هذا ؟

إذن كيف وقع هذا الخلاف بين عمر ، وبين المجاهدين ، فيما غنموا ؟
الغنائم التي كانت تقع لأيدي المجاهدين كثيرة متعددة الأنواع : أموال ،
وسلاح ، وأمتعة ، وأسرى ، وديار ، ومدن ، وأرض زراعية ، وما على
الأرض من زروع وعمال ، وما في المدن من عمال وصناع ، وسكان ودور .
إن كل هذا بما يعد جميعاً — في ظاهره — من غنائم المسلمين ..

وهنا يقع الخلاف ، حيث يكون للنظر والاجتهاد مجال !

فالأشياء الموقولة من أموال وأمتعة ونحوها ، هي بلا نزاع من نصيب
المجاهدين . أى أن لهم فيها أربعة أخماس ما غنموا .. يأخذ كل منهم
نصيبه منها ، وهي المفهوم الظاهر لكلمة « مغنم » لأنها في متناول أيدي
المجاهدين من جهة ، ولأنها منقولة قابلة للانتفاع الفوري بها . كالأطعمة
والملابس والأمتعة ونحوها من جهة أخرى .. وقد تركها عمر —
رضي الله عنه — للمجاهدين يتسمونها بينهم ..

أما الأرض الزراعية ، والناس الذين يعملون فيها ، والمدن والسكان
الذين يعيرونها ، فإن الأسر فيها مختلف ، ومن هنا كان الاجتهاد ، وكانت
وجهات النظر المتعددة فيها !

فعمرو — رضي الله عنه — يرى أن الأراضي الزراعية ، وعمالها ، والمدن
وسكانها ، هي أصل هذا المال والمتاع ، فإذا انقطع هذا الأصل انقطع
الثمر الذي يحىء منه .. بمعنى أنه لو قسمت الأراضي الزراعية والمدن ،
بما عليها من سكان وعمال — لو قسمت بين الفاتحين لم يتبق لمن يأتي من
بعدهم شيء . ولم يكن لبيت المال مورد ينفق منه على الجيوش والحصون ،
والثغور ونيرها ، مما يحىء الدولة ، ويتفق على سلامتها ..

(م ١٩ — م ٢٠ من الخطاب)

والفأتحون ، كانوا يرون غير هذا الذى رآه عمر ، ويعدون كل البلاد التى يفتحونها غيبة لم بكل ما فيها ومن فيها .. وقد طال الجدل والحوار ، بين عمر - رضى الله عنه - وبين المخالفين له فى هذا رأى الذى رآه ..

وكان أشد المخالفين لعمر : بلال بن رباح . والزبير بن العوام .. وعمر - رضى الله عنه - يرى بنظنته أن أمر المسلمين لا يمكن أن يستقيم إلا على هذا رأى الذى رآه . وأنه إذا قسمت الأرض ، والدور بين المجاهدين ، انقطعت المادة الكبيرة ، وانقطع المورد العظيم الذى يمول منه بيت المال .. ولكن لم يكن بين يدى عمر نص قرآنى ، أو حديث نبوى ، أو سابقة من الخليفة قبله ، يقيم من أى منها حجته على مخالفته !!

وبقى عمر أياماً على رأيه ، والمخالفون له على رأيهم ، حتى فتح الله على عمر بما يقيم به حجته على مخالفته ، وذلك بما وجد فى كتاب الله .. فطلع على هؤلاء المخالفين ، فقال لهم : إني وجدت فى كتاب الله حكماً وحجة نبيما أفاء الله على المؤمنين من فء !!

فقالوا : هذا كتاب الله بين أيدينا ، فدلنا على ما وجدت فيه .. فقال : اسمعوا .. وتلا عليهم قوله تعالى :

« ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى ، فله وللرسول ، ولذى البرى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ، وما آتاكم رسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله . إن الله شديد العقاب .. للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون الله ورسوله . أولئك هم الصادقون ، والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان

بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم^(١) ثم أخذ عمر — رضى الله عنه — يبين لخاليه ما فهمه من هذه الآيات ، فقال :

« للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون » وهؤلاء هم المهاجرون الأولون !!

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » . وهؤلاء هم الأنصار ..

« والذين جاءوا من بعدهم ، يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » .

وهؤلاء هم ولد آدم ، الأحمر ، والأسود . فقد أشرك الله من بعدهم — أى من بعد المهاجرين والأنصار — كل المسلمين في هذا النقيض إلى يوم القيامة ..

ثم قال عمر — رضى الله عنه — بعد هذا البيان البين ، واللهم انهم لآيات الله — فكيف أقسمه بينكم وأدع من يأتى بعدكم بغير قسم ؟ نعم ، كيف لا يكون للمسلمين الذين لم يشهدوا فتوحات الإسلام لهذه الأمصار — نصبب في هذا النقيض ، وقد ذهب المجاهدون الأولون به أصلا وفرعاً ؟

إن عمر — رضى الله عنه — وقد وجد نصاً في كتاب الله ، قد طابق

الرأى الذى كان يراه حلساً وإلهاماً - لم يعد به ثمة حاجة إلى أن يجادل ويحاور ، ليقنع مخالفيه ، إياه - وقد استبان له وجه الحق فيما طالع عليه من نور آيات الله - لم يعد أمامه إلا أن يعضى رأيه ، وينفذ حكمه ..

ومع هذا ، فقد ظل بلال ومن معه على رأيهم وخلافهم ، لا يزالون يقولون لأئبر المؤمنين : أقسم لنا ما فتحناه بسيوفنا .. فلما أكرؤا عليه قال : اللهم اكفنى بلالاً وأصحابه ، بما شئت !! فلم يحل الحول حتى مات بلال والذين كانوا على رأيه ، وذلك فى وباء عمواس^(١) .

ومضى عمر - رضى الله عنه - على رأيه ، فحبس الأرض وأهلها على المسلمين جميعاً ، وفرض على الأرض الخراج ، وعلى أهلها الجزية ، على الرؤوس ..

يقول أبويوسف - فى كتابه « الخراج » - والذى رأى عمر - رضى الله عنه - من الامتناع عن قسمة الأرضين بين من افتتحتها عندما عرفه الله تعالى مما فى كتابه من بيان ذلك توفيقاً منه سبحانه ، فيما صنع ، وفيه كان الخير لجميع المسلمين ، لأن ذلك لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الأعطيات والأرزاق ، لم تشجن الثغور ، ولم تقو الجيوش على السير ..

ومن جهة أخرى ، فإن عمر - رضى الله عنه - رأى بنظره الثاقب ، أن معظم الأمصار التى كان يمكن أن تطولها يد المسلمين قد تم فتحها ، وأنه لا بد من وقفة يقفها المسلمون عند هذا الذى تم لهم فتحه ، ليفوموا على إدارته ، وعلى التمكن لشريعة الإسلام فيه ، قبل أن يتبع الأمر عليهم ، ويعجز جنود المسلمين عن ضبط الأمور فى هذه الأمصار .

وهكذا استطاع عمر - رضى الله عنه - بحصافته وبعد نظره ، وشدته وحزمه ، وبالمثل الذى أراه للناس من نفسه فى عدله ، وزهده - استطاع

(١) عمواس : بلدة فى فاطنين حدث فيها وباء الطاعون المرووف فى عهد عمر .

أن يقود السفينة في هذا الجو العاصف المضطرب ، وأن يمسك المجتمع الإسلامي - ومجتمع الصحابة بخاصة - من أن يتخبط في ضلالات الفتنة ، إلى أقبلى على الناس في صورة براقة معجبة من بريق الذهب والفضة .. وإنه ما كاد نعيم يخلى مكانه من هذه الدنيا ، حتى اضطرب الناس ، وماج بعضهم في بعض ، ولبستهم الفتنة ، فتنة المال ، وما وراء المال من حاه وسلطان . حتى كان من ذلك تلك الأحداث التي انتهت بمقتل عثمان - رضى الله عنه - ثم الحروب التي وقعت بين المسلمين في خلافة علي - كرم الله وجهه - وما ذهب في تلك الحروب من أرواح الألوفا من المسلمين .. روى عن أنى عبيدة بن الجراح ، أنه كان يقول : « إن مات عمر رقى الإسلام ، وما أحب أن يكون لى ما تطلع عايه الشمس أو تغرب ، وأن أبقى بعد عمر ! .. قيل له : ولم ؟ قال : سترون ما أقول إن بقيتم .. إن ولى بعده وال فأخذهم بما كان يأخذهم به عمر ، لم يطيعوه ، وإن ضعف عنه قتلوه » .

واقعد صدقت نظرة أبى عبيدة ، إذ قتل عثمان بن عفان - رضى الله عنه - بعد سنوات من خلافته . ثم تلاحت الفتن بعد ذلك ، فكانت موقعة الجمل بين على من جهة ، وعائشة وطلحة والزبير من جهة .. ثم حرب صنيئ بين على ومعاوية ، ثم فتنة الخوارج .. وهكذا .. ظلت الفتن تتتابع على الأمة الإسلامية ، فلم تجمع تحت راية واحدة بعد مقتل عثمان رضى الله عنه .

والحق أن عمر - رضى الله عنه - استطاع بحوله ، وحيلته ، وكياسته ، وقوة عزائمه ، أن يحمل الناس مدة خلافته على الطريق الذى كانوا عليه في عهد النبوة ، وفي خلافة أبى بكر .. فلقد وقف عمر كالجبل الراضخ في وجه الطرمن ، وما يحمل من تقلبات الأيام .. ونحو الأحوال ..

إن المجمع الإسلامي في عهد الرسول ، وفي معظم خلافة أبي بكر ، لم يكن قد ابتلى بهذه الدنيا العريضة التي زحفت بمفاتها ومغرياتها على المسلمين .. وعمر هو الذي شهد هذه التجربة ، وابتلى بها ، وأبى أن يخضع لحكمها ، أو يسمح لأحد من عماله ، أو ممن حوله ، أن يستجيبوا لها ، وأن يسبحوا في بحرها اللجج المتلاطم الأمواج !

* * *

ونعود مرة أخرى إلى مشكلة المال بين يدي عمر ، فنقول :
امتلاء بيت المال بالوارد إليه من مشارق الأرض ، ومغاربها .. من الشام ، والعراق ، ومصر ، واليمن ، والبحرين .. وقد رأينا كيف ابتدأ عمر بأزواج النبي ﷺ ، ثم بالمهاجرين والأنصار ، ثم سائر الناس ، وفرض لكل حسب مكانته في الإسلام وبلائته فيه .
ثم دون الدواوين ، ورسم أعطيات الجند ، وما تحتاج إليه القوة المحاربة من سلاح وعتاد .. ثم رصد ما فضل من بيت المال لحاجة المحتاجين ممن فاته الفرض ، ولم يذكر فيمن ذكر في الديوان ، أو لمن نزل به مكروه ، أو كره به دين ، وغير هذا مما يمرض للناس من حاجة .

جاء بلال إلى عمر ، حين قدم إلى الشام ، وعنده أمراء الأجناد ، فقال : يا عمر ، فقال عمر : هذا عمر ! فقال بلال : إنك بين هؤلاء^(١) وبين الله ، فليس بينك وبين الله أحد ، فانظر من بين يديك ، ومن عن يمينك ، ومن عن شمالك ، فإن هؤلاء الذين جاءوك^(٢) إن يأكلون إلالحم الطير^(٣) فقال عمر : صدقت ، لا أقوم من مجلسي هذا ، حتى تسكفوا لكل رجل من المسلمين بمدى بر ، وحظهما من النخل والزيت ! فقالوا - أي .

(١) يشير إلى عامة الناس ، وهم أربعة .

(٢) يقصد الأمراء ، الولاة ، والجبابة .

(٣) يشير إلى أنهم ممنعون ، يأكلون لحم الطير ، تباعيا عن أكل لحوم الإبل والضأن .

الولاء ، نكفل لك يا أمير المؤمنين ذلك ، هو عاينا .. قد أكثر الله من الخير وأوسع ، قال : فنعم إذن ! !

لقد سلط عمر على حوارجه ضميراً لا ينام ولا ينيم ؛ يعس بالليل ، يتسمع أخبار الناس ، ويكشف عن أحوالهم ، فإذا سمع مستعنياً أغاثه ، وإذا رأى مكروباً أعانه وحل عنه ..

ولعمر في هذا الباب مواقف خالدة ، يبيض لها وجه الإنسانية كلها ، ويشرق بها وجه الإسلام على الدنيا جميعاً !

وفي سيرته — رضى الله عنه — مواقف خالدة ، وأحداث غريبة ، لا يكاد يصدقها الناس ، لأنها تقوم على غير مثال ، ولا تساندها الحياة بنظائرها على يد غيره من الولاة والحكام ، فتبدو هذه الوقائع العمرية ، وكأنها أسطورة أبدعها الخيال ، لاحقائق جرت على يد عمر بين سمع الدنيا وبصرها ..

على أن الذى يمش مع عمر في سيرته ، ويتبين الملامح البارزة من شخصيته ، يرى أن هذه الوقائع هى بعض من عمر ، تتصل به اتصال الثمرة أشجارها ..

* * *

لما رجع عمر من الشام إلى المدينة ، انفرد عن الناس ليتعرف أحوالهم ، فمر بمجوز في خبائها ، فقصدها ، فقالت : يا هذا .. ما فعل عمر ؟ قال : هو ذا أقبل من الشام .. قالت : لاجزاه الله عنى خيراً ! قال : ويحك ، ولم ؟ قالت : والله ما نالتى من عطائه منذ ولى إلى يومنا هذا دينار أو درهم ؟ قال : ويحك وما يدرى عمر حالك وأنت بهذا الموضع ؟ فقالت : سبحان الله .. ما ظننت أحداً يلى على الناس ، وهولا يدرى ما بين مشرقها

ومغربها !! فأقبل عمر يبكي ، وهو يقول : وا عمراه ، وا خصومتاه ؟
كل واحد أفقه منك يا عمر !!

ثم قال لها : بم تبيعيني ظلامتك منه ، فأبى أرحمه من النار ، قالت :
لأتهزأ بنا رحك الله : قال لها عمر : ليس بهزء ما أقول لك .. فلم يزل
بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين ديناراً .. فبينما هو كذلك ،
إذ أقبل على بن أبي طالب ، وابن مسعود ، فقالا : السلام عليك يا أمير
المؤمنين ، فوضعت المرأة رأسها على يدها ، وقالت : واسوأنا ..
شتمت أمير المؤمنين في وجهه .. فقال لها عمر : لا عليك يرحك الله « ا
والكن هل انتهى هذا المشهد عندها ؟

وكلا .. فهذا عمر يطلب قطعة من الجلد ، يكتب فيها شيئاً فلا يجد .
ولم قطعة الجلد هذه ؟ وماذا تكتب فيها يا ابن الخطاب ؟
لأنه يقطع قطعة من فروة كان يلبسها .
ثم ماذا ؟

لأنه يكتب ا وقد كتب أروع وثيقة عرفتها الإنسانية ، في تصوير أرق
المشاعر ، وأنبل العواطف !

د اقرأ ما كتب عمر وقل الحمد لله ، الذي أنبت من رياض الإسلام
مثل هذه الشجرة الطيبة المباركة ، وقل اللهم ارض عن عمر !

م « بسم الله الرحمن الرحيم : هيا ما اشترى جعرا من فلانة ظلامتها ،
منذ ولي إلى يومنا هذا ، بخمسة وعشرين ديناراً ، مما تدعى عنده وقوف في المحشر
بين يدي الله عز وجل ، فعمر منه بربى .. شهد على ذلك على بن أبي طالب ،
وعبد الله بن مسعود .. ثم دفع الكتاب إلى علي ، وقال : « إذا تقدمتك

فاجعلها في كفتي » ا . هكذا كان عمر في هذه الدنيا .. إنه على طريقه إلى الله تعالى ، وإنه ليعد نفسه للقاء الله ، ليوم الحساب ا

ومشهد آخر ا

قدم على المدينة رققة من التجار ، فنزلوا المصلى ، فقال عمر لعبد الرحمن بن عوف : هل لك محرسهم الليلة من السرقة ؟ . فباتا يحرسانهم ويصليان . هما كتب الله لهما ، فسمع عمر بكاء صبي ، فتوجه نحوه ، فقال لأمه : انتقي الله ، وأحسى إلى صبيك ا ثم عاد إلى مكانه ، فسمع مثل ذلك ، وقال لها ما قال أولاً . . فلما كان آخر الليل سمع بكاءه ، فجاء إلى أمه ، ثم قال : ويحك إلى لأراك أم سوء ا فقالت : يا عبد الله أبرمتني ^(١) منذ الليلة . . إلى أحمله على الفطام فيأبى ، فقال لها : ولم ؟ قالت : لأن عمر لا يفرض إلا للنظيم ^(٢) . قال فـكم له — أى من العمر — قالت : كذا . . وكذا شهراً ، قال : لا تعجلية . ثم صلى الفجر ، وما يستبين الناس ^(٣) . ثم غلبه البكاء . . فلما سلم ، قال : يا يؤساً عمر ، كم قتل من أولاد المسلمين ؟ ثم أمر منادياً ينادى : ألا تعجلوا صبيانكم على الفطام ، فإننا نفرض لكل مولود يولد في الإسلام . وكتب بذلك إلى الآفاق .

ومشهد ثالث . .

روى زيد بن أسلم عن أبيه قال : خرجت مع عمر بن الخطاب ،

(١) الدم : اللال والضجر ، تقول لقد أكثرت على حتى أصبحني
(٢) أى لا يجعل فرضاً من بيت المال إلا لمن فطم ، أما من لا يزال رضيعاً ، فإن
هضماءه من ثدى أمه .
(٣) أى لا يتحقق من رؤية الناس ، لأن نور الصباح لم يفسر بعد ا

وهو يطوف بالليل ، فنظر إلى نار شرق حرة المدينة ، فقال : إن هؤلاء الرك لم ينزلوا هنا إلا الليلة ، ثم أهوى نحوهم ، فسرت معه ، حتى دنونا ، فسمعنا تضاعى الصبيان وبكاءهم^(١) . فقال : السلام عليكم يا أصحاب الضوء ، هل تدنو منكم ؟ واحتبسنا قليلا ، فقالت امرأة منهم : ادنوا بسلام ، فأقبلنا حتى وقفنا عليها فقال : ما يبكي هؤلاء الصبيان ؟ قالت : الجوع ، قال : فما هذا القدر على النار ؟ قالت : ماء أعطاهم به . قال : انتظري ، فإنى بالغك إن شاء الله ! ثم خرج يهرول وأنا معه حتى جئنا إلى دار الدقيق ، فجاء إلى عدل منها ، فطأطأ طهره ، ثم قال : أحمله على ظهري يا أسلم ! فقلت : أنا أحمله عنك ! فنظر إلى وقال : أنت تحمل عى وزرى يوم القيامة ؟ لا أبالك ! قلت لا . . قال : فاحمله على ظهري إذن . . ففعلت ، وخرج به يدليج^(٢) وأنا معه حتى ألقاه عند المرأة . . ثم قال لى : ذر على ذرور الدقيق ، لا يتعرد وأنا أخرز^(٣) ، ثم أخذ السواط يحرز به . . ثم جعل ينفتح تحت البرمة — أى القدر — وأنا أنظر إلى الدخان يخرج من خلل لحيته ، ويقول : لا تعجل حتى ينتضج ، ثم قال : ألق على من الشحم ، فإن القنار يوجع البطن !

« ثم أنزل القدر ، وقال للمرأة : لا تعجلى ، لا تعطيمهم طعاماً حاراً . . وأنا أسطح لك ، فجعل يسطح بالسواط ، ويرد طعامهم ، حتى إذا شعبوا ترك عندها الفضل — أى الزيادة — ثم قال لها . اتنى أمير المؤمنين غداً ، فإنك عسى أن تجدنى قريباً منه ، فأشنع لك بخير ، وهى تقول : من أفت .

(١) تضاعى الصبيان .: صياهم من الجوع .

(٢) الإدلاج : السبر أول الليل . .

(٣) الحززة : العصيدة ، ويتعرد : ينتقد .

يرحمك الله ، وتدعوله وتقول : أنت أولى بالخلافة من أمير المؤمنين ، فيقول لها : قولى خيراً يرحمك الله ، ولا يزيد على هذا . ثم انصرف ، حتى إذا كان قريباً جاس فألقى^(١) ، وجعل يسمع طويلاً حتى سمع التضاحك منها ومن الصبيان ، وأنا أقول : يا أمير المؤمنين ، قد فرغت من هذه ، ولك شغل فى غيرها ، وهو يقول : لا تكلمنى ، حتى إذا هدأ حسهم ، قام فتمطى وقال : ويحك ! إني سمعت الجوع أسهرهم فأحببت ألا أبرح حتى أسمع الشبع أنا منهم .

فيا لله هذه العظمة التى ملأت بها هذا القلب الكبير لهذا الإنسان العظيم ! فاللهم نفعه من نجات فضلك وإحسانك تسكب بها الحب ، والحنان ، فى قلوب عبادك المؤمنين ، ليتواصوا فيما بينهم بالبر والرحمة ، حتى يعود لدولة الإسلام مجدها الغابر ، وسلطانها الذى ذهب به الشره والأنانية !

* * *

علم عمر — رضى الله عنه — أن عمرو بن العاص ، عامه على مصر ، قد كثر ماله الخاص بين يديه . فكتب إليه كتاباً يقول فيه : « أما بعد فقد بلغت أنه قد ظهر لك مال ، من إبل ، وغنم ، وخدم ، وغلان ، ولم يكن لك قبله مال ، ولا ذلك من رزقك — أى من عطائك المفروض لك — فأى لك هذا ؟ ولقد كان لى من السابقين الأولين من هو خير منك ، ولكنى استعماتك لغنائك ، فإذا كان عملك لك وعلينا^(٢) ، فبم نؤثرك على أنفسنا ؟ فاكتب إلى من أين مالك ، وعجل ، والسلام . »

فكتب إليه عمرو ، يقول :

« قرأت كتاب أمير المؤمنين ، ولقد صدق .. فأما ما ذكره من مالى .. »

(١) ألقى : جلس على مؤخرته .

(٢) أى لك غنمة وثيراته ، وعلينا غنمنا وحملنا به يدي الله .

سفاني قدمت بلدة ، الأسعار فيها رخيصة ، والغزو فيها كثير ، فجعلت فضول ما حصل لي من ذلك فيما ذكره أمير المؤمنين . . والله يا أمير المؤمنين ، لو كانت خيانتنا لك حلالا ما خناك حيث ائتمنتنا ، فأقصر عنا عتابك .
أى خفف عنا لومك . فإن لنا أحسابا إذا رجعنا إليها أغثتنا عن العمل لك . . وأما ما كان عندك من السابقين الأولين ، فهلا استعملتهم ، فوالله ما دققتنا لك بابا » ١١

لقد كشف عمرو بن العاص في كتابه هذا إلى عمر عن الوجوه التي جاءه منه هذا المال الذي كثر بين يديه . . فالأسعار في مصر رخيصة ، وعطاؤه المفروض له يزيد عن نفقته ، ثم هناك الغزو ، وما يجيئه من نصيبه في المغام ، فوجب جمع هذا إلى ذلك ، فكان له منه هذا الذي اقتناه من إبل وغنم ، وخدم ، وغلان !

- وفي كتاب ابن العاص لإدلال نفسه ، وأنه لو لم يكن أهلا للولاية ما ولاه عمر ، ولا طلبه ليتولى له العمل على مصر ، فإنه لم يبق باب عمر ، طالبا منه أن يولييه . . وعمر - رضى الله عنه - يعلم هذا ، فإنه يقول في كتابه للمعرو : « واسكني استعملتك لمنائك » أى لحزبك ، وضبطك ، ومقدرتك ، وإن كان في صحابة رسول الله ﷺ ، من هو أبقى من عمرو . . ولكن التقوى وحدها لا تنفع في سياسة الرعية ، إلا إذا اجتمع معها الحزم ، والاضبط والحنكة . . ولهذا كان عمر يقول : « إني الله أشكو فجر القادر ، وعجز الثقة » ١١

ولكن هل انتهى الأمر بين عمرو وعمرو عند هذا الحد ؟
لقد كتب عمر إلى ابن العاص ، يقول له :

« أما بعد ، فإنى لست من تسطيرك ، وتشقيقك الكلام فى شىء ^(١) ١١
! إنكم - معشر الأمراء - أكلم الأموال ، وأخلدتم إلى الأعذار ^(٢) .. فإنكم
إنما تأكلون النار ، ونورثون العار ، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة .
ليشاطرك على ما فى يدك ، والسلام ١١ » .

فإذا كان من محمد بن مسلمة ، مع عمرو ؟

« لما قدم محمد بن مسلمة على عمرو ، اتخذ له عمرو طعاماً وقدمه إليه ، فأى أن
ياكل منه ، فقال له عمرو : مالك لا تأكل طعامنا ؟ قال : إنك عملت لى
طعاماً هو مقدمة للشر ، ولو كنت عملت لى طعام الضيف لأكلته ، فأبعد
عنى طعامك ، وأحضر لى مالك . فلما كان العد أحضر عمرو ماله ، فجعل
محمد بن مسلمة يأخذ شطراً ، ويعطى عمرو شطراً

« فلما رأى عمرو ما حاز ابن مسلمة من المال ، قال : يا محمد . أقول ؟
قال : قل ما تشاء ١١ قال : لعن الله يوماً كنت فيه عاملاً لابن الخطاب ١١
والله لقد رأيته ، ورأيت أباه ، وإن على كل واحد منهما عبادة قطوانية
مؤترراً بها ما تبلغ مأبض ^(٣) ركبتيه ، وعلى عنق كل واحد منهما حزمة
من حطب .. وإن العاص بن وائل ، لى مزارات الديباج .. فقال محمد :
إيها يا عمرو . فمر والله خير منك ، وأما أبوك وأبوه فى النار ، فوالله
لولا ما دخلت فيه من الإسلام لألفيت معتلفاً شاة يسرك غزرها ، ويسووك
بكوها .. ^(٤) قال عمر : صدقت فما كنتم على ، قال : أفعل »

(١) أى أن عمر لا يقتر بزويق الكلام ، واصطباد الحجج ا

(٢) أى استندتم إلى إمامة الأعداء ا

(٣) المأبض : ما تحت الفخذ ، وهو باطن الركبة ..

(٤) كناية عن الفقر والحاجة ، والغزركرة اللبن ، والبكء فاته .

إنها كلمة بنفس بها عمرو عن نفسه ، وما دخل عليه من ضيق بوضعه .
تحت هذه المحاسبة التي أخرجته عن شطر ماله ، وإنها لبقية من جاهلية عند
ابن العاص . . لقد ذهب الإسلام بالفخر بالأحساب والأنساب ، وأصبح
الإسلام هو النسب لكل مسلم ، وإنه بقدر قرب المسلم من الإسلام تسكون
نسبته إليه ، واعتزازه به

ولقد كان عمر - رضى الله عنه - يذكر نفسه دائماً ، ويذكر المسلمين ،
بما كان عليه في جاهليته من فقر وحاجة ، وأن هذا السلطان الذى بين يديه
إنما هو من فضل الله عليه ، وأن الإسلام هو الذى كساه هذا الثوب العزيز
الكریم ، الذى لبسه من داخل كيانه . . أما ظاهره فهو القميص المرقع ،
والطعام الخشن ، والنوم على الأرض ، بلا فراش أو غطاء .

يقول عمر - رضى الله عنه - وقد لبس ثوب الخلافة : « لقد رأيتني
مرة وأختالى، نرعى على أبويننا فاضحاً لنا وقد ألبستنا أماناً نقبتها^(١) وزودتنا
بيمينتها من الهبيد^(٢) ، فنخرج بنا ضحنا ، فإذا طلعت الشمس ألقيت النقبة
إلى أختي وخرجت أسعى عربان ، فترجع إلى أماننا ، وقد جعلت لنا لفيفة^(٣)
من ذلك الهبيد ، فيأخصبها »

فهل كان عمر يرى عزاً في غير الإسلام ؟ إنه الثوب الذى إذا لبسه
إنسان وأعطاه حقه ، استصغر كل ما في الدنيا من مال وجاه ، وسلطان .

* * *

كان عمر - رضى الله عنه - يرى للناس حقوقاً معلقة في عنقه وأنه

(١) القبة : خرفة كالسروال .

(٢) الفاضح الجمل بسن عليه ، والهبيد : حب المنقل .

(٣) أن حياء

ان يبرأ منها إلا إذا أداها إليهم ، وأنه لا يأمن أن يجور عليهم الولاية ،
وَألا يعطوهم النصفة من أنفسهم ، أو من غيرهم من أهل الزلنى ، والقرابة
من الوالى.. وهذا ما كان يؤرقه ، ويقض مضجعه ، فكان كلما ذكر شيئاً من
هذا قام كالملسوع ، يصرخ فى أعماقه ، ويذرف الدمع دماً من قلبه .

وكان — رضى الله عنه — يقول : لئن عشت إن شاء الله ، لأسيرن فى
الرعية حولاً ، فأبى أعلم أن للناس حوائج تقتطع دونى .. أما عملهم فلا
يرفعونها إلى ، وأما هم فلا يصلون إلى !! أسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ،
ثم أسير إلى الجزيرة — العراق — فأقيم بها شهرين .. ثم أسير إلى مصر ،
فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين ، فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى
الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة ، فأقيم بها شهرين .. والله
لنعم الحول هذا !! .

ولكن الأحوال لم تهين ، لعمر تحقيق هذه الأمنية العريضة عنده ..

فإذا كنا نرى من عمر فى رحلته تلك لو قدرت له ؟

لا شك أننا كنا سنشهد سجلاً حافلاً من روائع عمر ، وما يقيمه من
دعائم العدل ، وما يعالج به المشكلات ، مما يكون مثلاً فريداً يحتذيه
الراشدون من الحكماء إلى اليوم ، وما بعد اليوم !!

ومع ما كان يأخذ به عمر — رضى الله عنه — الناس من مساواة مطلقة ،
فإنه كان يرى أن لوجوه الناس ، وأهل المكانة فيهم ، حقاً ، يجب أن يرعى ،
حيث لا بد أن يكون فى الناس أعلام يتأسى بهم الناس ، ويتخذون منهم
مثلاً تنزع بهم همهم إليها ، وبهذا تدب الحركة والحياة فى المجتمع ، ولو كان
الناس على حال سواء ، لكانوا أشبه بالبركة الراكدة .. وفى الحديث
، الشريف : « الناس بخير ما تباينوا ، فإذا تساوا هلكوا » .

كتب عمر - رضى الله عنه ، إلى أن موسى الأشعري كتاباً يقول له .
فيه : « إنه لم يزل للناس وجوه من الأمر .. فأكرم من قبلك من وجوه
الناس ، وبحسب المسلم الضعيف من بين القوم أن ينصف في الحكم وفي
القسم » .

ومعنى إكرام وجوه الناس في رأى عمر ، هو أن يوضع الرجل المناسب ،
في المكان المناسب .. فمن كان أهلاً للحرب ولاء قيادة الجند ، ومن كان
أهلاً للأمانة ولاء جباية الخراج ومن كان أهلاً للعدل ولاء القضاء ،
وهكذا .. فإنه لو حرت الأمور على غير هذا لانتكست أحوال المسلمين ،
إذ فيهم الضعيف العاجز ، وفيهم البليد الخامل ، وفيهم الشره الطامع ..
وحسب هؤلاء أن ينصفوا ، فلا يجار عاينهم في حق وفي هذا سلامة فم ،
وسلامة للناس من سوء تصرفاتهم ..

أما من عرفوا بالمكان والشرف في أقوامهم ، فإن عمر - رضى الله
عنه - كان ينزلهم المنزل اللائق بهم ، ما دام يرى فيهم خيراً ، ولا يجرد
لهذه المسكنة داعية تحملهم على التكبر والتمسك على الناس .. فإذا رأى
من أحدهم ، أو استشعر منه شيئاً من هذا أوقفه عند حده ، وأراه غير
ما يظن من نفسه ..

كان - رضى الله عنه - قاعداً بالدرة معه ، والناس حوله ، إذ أقبل
الجارود العامري ، فقال رجل : هذا سيد ربيعة ، فسمعها عمر ، ومن
حوله ، وسمعها الجارود ، فدا دنا من عمر خفته بالدرة .. فقال الجارود
مالي ولك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ويلك ! سمعتها^(١) ؟ قال : وسمعها

(١) أى أسمعت ما قال الرجل من أنك سيد ربيعة ، وعرفت أنى ما دعفتك بالدرة
إلا لأذهب أثر هذه السكامة من نفوس الذين سموها !

فه^(١) ؟ قال : حشيت أن تخالط القوم ، ويقال هذا أميرنا فأحببت أن أطأ^١ منك !!

وهكذا يخل عمر - رضى الله عنه - من الناس هذا الشعور الذى قد يدخل عليهم من مكانة هذا الرجل وأمثاله فى قومه ، فيستسلموا لهم ، ويدنون بالولاء لثوب هذه الإمارة التى يخلعونها عليهم !! إنه لا إمارة لأحد على أحد ، إلا ما كانت من مكانته التى فى القلوب ، لماله من آثار محمود فى الإسلام .. إنها حينئذ تكون إمارة تطلبه ، ولا يطلبها ، وتسكن فى كيانه ، ولا يشعر بها .. وفى هذا يقول عمر - رضى الله عنه - : « الأمير من إذا كان فى الناس كان أميراً ، وليس بأمر » ١

ومع هذا فقد كان لعمر فى الناس هيبة ليست مصطنعة ولا متكلفة ، وليست واردة عليه من ثوب الخلافة الذى لبسه .. وإنما هيبة هى التى جعلها الله تعالى له فى قلوب الناس وعيونهم .. يهابونه على القرب والبعد على السواء .. وقد كان عمر يرى هذا من نفسه ، ويحاول بجاهد أن يتعزى من تلك الهيبة .

يروى ابن الجوزى فى كتابه : « سيرة عمر بن الخطاب » - فيقول : « عن القاسم بن محمد ، قال : بينا عمر - رضى الله عنه - ذات يوم يمشى ، وخلفه عدة من أصحاب رسول الله ﷺ إذ بدا له أن يلتفت فالتفت ، فلم يبق معهم أحد إلا وحبل ركبتيه ساقط !! قال فأرسل عمر عينيه فبكى ، ثم قال : اللهم تعلم أنى منك أشد فراراً منهم منى » .

« وعن أسلم أن نقرأ من المسلمين كلوا عبد الرحمن بن عوف - رحمه الله - فقالوا له : كلم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فإنه والله قد أخشانا حتى

(١) أى فاذا تريد ؟

والله ما نستطيع أن نديم إليه أبصارنا . فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف ،
لعمر ، فكان جواب عمر له : والله لقد لنت للناس ، حتى خشيت الله في الدين
ولقد اشتددت عليهم حتى خفت الله في ذلك .. وأيم الله لأنا أشد منهم
فرقا مني .

« وعن عمر بن مرة ، قال : لقي رجل من قريش عمر - رضوان الله
عليه - فقال : إن لنا ، قد ملأت قلوبنا مهابة فقال أفي ذلك ظلم ؟ قال لا ..
فقال : فزادى الله في صدوركم مهابة » .

وهذه المهابة التي يسأل عمر الله أن يزيده منها في الصدور ، هي لازمة
من لوازم الحاكم القائم بأمر الناس ، إذا هو أقام ميزان العدل بينهم ،
فكانت مهابته من جلال هذا الحق الذي يقيم عليه أموره كلها .. وإياه
إن تسقط هيبة الحاكم من الحكوميين ، فإنه ينفرط عقد الجماعة ، وتعصف
بهم عواصف الاستخفاف بالوازع . . وشتان بين الخوف الذي يملأ قلوب
الرعية من جور الحاكم وبطشه ، وظلمه ، وجبروته ، وبين الخشية والمهابة
التي ينوج بها الحاكم من عدله ، وتقواه !

ويروى بن الجوزي هذه الحادثة من هيبة عمر - رضى الله عنه - فيقول :

« عن الحسن بن علي - رضى الله عنهما - قال : بلغ عمر بن الخطاب -
رضى الله عنه - أن امرأة يتحدث عندها الرجال فأرسل إليها ،
وكان عمر رجلا مهيبا . فلما جاء الرسول ، قالت : يا ويلها ، ما لها وعمر ؟
فخرجت ، فضربها الحاض ، فمرت بدعوة فعرفن الذي بها ، فقدمت
بغلام ، فصاح صبيحة ثم طفا - أى مات - فبلغ ذلك لعمر - رضى الله عنه
- فجمع المهاجرين والأنصار - رضى الله عنهم أجمعين - فاستشارهم وفي
آخر القوم رجل ، فاستشارهم عمر ، فقالوا : يا أمير المؤمنين إنما كنت

.. مؤدباً ، وإنما أنت راع . فقال ما تقول يا فلان ؟ فقال : أقول إن كان القوم تابعوك على هواك ، فوالله ما نصحوالك ، وإن يكونوا اجتمعوا آراءهم .. فوالله لقد أخطأ رأيهم ، يا أمير المؤمنين أما ودبتة ؟ — أى دفعت دية ، هذا الولد الذى مات ؟ — فقال عمر : فمزمت عليك لما قتت فقسمتها على قومك^(١) .. قال فقيل للحسن : من الرجل ؟ قال على بن أبى طالب .

وهكذا كان عمر — رضى الله عنه — فى هيئته التى خلعها الله تعالى عليه ، واتى ملأت قلوب المسلمين مهابة له ، وإكباراً وحجاً .. فكما كانت محبته تملأ القلوب ، كان حبه وإكباره ، يملأ القلوب ..

» « »

(١) قوله : فقسمتها على قومك — أى أشركتهم فى دينه الدية .

الفصل السابع

١ - عام الرمادة :

في السنة الثامنة عشرة للهجرة ، وقعت الجزيرة العربية في محنة من الجذب الذي لم تعهد له مثيلاً ، حيث أمسكت السماء عن المطر هذا العام ، فلم تقطب من ضرعها قطرة ماء ، حتى اسود وجه الأرض ، واحترق كل نبات على وجهها .. وكان من هذا أن عاش الناس والحيوان في وجه مهلكة ، إن لم يقدارهم الله تعالى برحمته ، وقد سمي هذا العام عام الرمادة ، إذ كان وجه الأرض يسفى رمالاً محترقة كأشياء بقايا النار من الرماد .

وقد كان عمر - رضى الله عنه - رحمة من رحمة الله على الناس في هذا الظرف المصيب ، الذي كان الناس فيه يأكلون الميتة ، ويحترقون أنفاق اليرابيع ، والجردان ، ليخرجوا ما فيها ويأكلوه .

وإذا كان أهل المدينة أحسن حالا من أهل البادية المنقطعين عن الأمصار ، وما يحمل إلى المدينة منها - فقد كانت عينا عمر - رضى الله عنه - على أهل البادية عينا ساهرة لا تنام ، وكان قلبه قلباً مضطرباً لا يهدأ .

وقد استصرخ عمر ولادة الأمصار ، أن يبعثوا إليه بالمؤن ، حتى يمسك بها على الناس أنفاس الحياة . . ولكنه - مع هذا - ظل واقفاً على قدميه ، لا يهدأ ولا ينام ، يتحرك هنا وهناك ، كأنه الملسوع !

ولقد تغير لون عمر ، وعلته سفة شديدة . . ومع هذا قد أبى أن يطعم نفسه شيئاً ينال به شعباً . وقد آلى على نفسه ، فقال : « لا آكل شيئاً ولا سميناً » وقد اتخذ قدحاً فيه فرض ، فكان يطوف على القصاب ، فيغمز القدح ، فإن لم تبلغ التريدة الفرض ، قال : انظر ماذا يفعل بصاحب الطعام ^(١) ؟ »

عن عياض بن خليفة ، قال : رأيت عمر عام الرمادة ، وهو أسود اللون ، فقبل له - أى لعياض - بم ذاك ؟ قال : كان رجلاً عربياً - يعنى عمر - يأكل السمن واللبن ، فلما أحمل الناس حرمهما حتى يحيا ^(٢) ، فأكل ائزيت ، فغير لونه ، وجاع فأكثر الجوع فغير لونه .

وكانت بطنه - رضى الله عنه - تفرق من الجوع ، وسوء الطعام ، فينقر على بطنه بإصبعه ، ويقول : تفرقين ؟ ! إنه ليس لك عندنا غيره حتى يحيا الناس !

وكان - رضى الله عنه - يحمل الطعام ، ويذهب به إلى الأرامل واليتامى ، يطعمهم ، ومن لم يأت عمر أرسل إليه بالديق والتمر إلى منزله ، وكان يتضرع إلى الله ويقول : « اللهم لا تجعل هلاك أمة محمد على يدي . اللهم لا تهلكنا بالسنين ، وارفع عنا البلاء » .

وكان يقول عام الرمادة : « لقد هممت أن أجعل مع أهل كل بيت من المسلمين مثلهم ، فإن الإنسان لا يهلك على نصف شعبة ! » .

« روى عن نافع ، مولى آل الزبير ، قال : سمعت أبا هريرة يقول :

(١) أى أنه - رضى الله عنه - لا يذبح الغنم على الطعام دون أن يوقع به الجزاء إذ رأى أن الذى يوزع الطعام على الأكابر قد أقتس شيئاً من هذا القدر الذى قدره الله بالقدح الذى كان يغمز به .

(٢) أى ينزل بهم الحيا وهو المطر .

رحم الله ابن حنثة - أى عمر - لقد رأيت عام الرمادة ، وإياه ليحمل على ظهره .
جرايين ، وعكة زيت في يده ، وإياه ليعتقب^(١) هو وأسلم ، فلما رأى قال :
من أين يا أبا هريرة ؟ قلت قريباً ، فأخذت أعقبه ، فحملنا ، حتى انتهينا
إلى ضرار^(٢) ، فإذا حرم - أى جماعة - من نحو عشرين بيتاً من محارب -
اسم قبيلة - فقال لهم عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا : الجهد ! وأخرجوا لنا
جلداً لميته مشوياً ، كانوا يأكلونه ، ورمة العظام مسحوقة كانوا يستفونها ،
فرأيت عمر طرح رداءه ، ثم برز ، فما زال يطبخ لهم حتى شبعوا ، ثم
أرسل أسلم إلى المدينة ، فجاء بأبرة فحملهم عليها ، ثم أنزلهم الجبانة بالمدينة .
ثم كسام ، وكان يختلف إليهم ، وإلى غيرهم ، حتى كنى الله ذلك .

وقد أنجبت هذه الحنة ، وذلك باستسقاء عمر - رضى الله عنه - فقد
خرج بالناس ، والأرامل ، والأطفال ، والحيوان ، إلى ظاهر المدينة ، وقدم
العباس - عم النبي ﷺ - ، وهناك وقف بين يدي الله يدعو ، ولا يزيد
في دعائه على الاستغفار ، فلما انتهى من ذلك ، قال له قائل : يا أمير المؤمنين
إنك لم تستسق - أى لم تطلب من الله السقيا - وما زدت على أن استغفرت
فقال : « لقد استسقيت بمجاديع السماء » . أى بما ينزل به المطر من السماء -
وهو الاستغفار . يشير عمر بهذا إلى قوله تعالى : ﴿ فقل استغفروا ربكم ﴾ .
لأنه كان غفاراً ، يرسل السماء عليكم مدراراً .

ثم ما لبثت السماء أن أرسلت المطر مدراراً ، فأحيا به الله الأرض بعد
موتها ، وخرج أهل الجزيرة من هذه الحنة

* * *

(١) يعتقب أى يحمل هذا مسافة ، وذاك مسافة ، وعكة الزيت ، هى القدر .

(٢) موضع خارج لمدينة .

٢ — طاعون عمواس .

كان الوباء إذا نزل في الزمن الماضي بمكان من الأرض ، أتى على كل ما فيه ، من أناس ، إذ لم يكن هناك ما يقي الناس منه ، مما هو معروف الآن ، من عزل المرضى ، ووقاية الأصحاء من العدوى .

وما عرف الوباء في الجزيرة العربية ، لبقاء هوائها ، واتساع أرجائها ، وغدير الشمس ورواحها على كل مكان فيها .

وفي إحدى خرجات عمر - رضي الله عنه - إلى الشام ، لقيه بيمض الطريق ، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشام !

فقال عمر لابن عباس : ادع لي المهاجرين ، فدعاهم ، فسألهم الرأي في هذا الموقف ، فاختلفوا عليه ، فقال بعضهم : خرجت لأمر ، ولا يرى أن ترجع عنه . وقال بعضهم : إن معك بقية الناس من أصحاب رسول الله ﷺ ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ! فقال عمر عندئذ : ارتفعوا عني . ثم قال لابن عباس : ادع لي الأنصار ، فدعاهم ، فاختلنوا عليه اختلاف المهاجرين . فقال لابن عباس : ادع لي من كان من مشيخة قريش ، من مهاجرة الفتوح ، فدعاهم ، فقالوا بأجمعهم : نرى أن ترجع بالناس ، ولا تقدمهم على هذا الوباء . فنادى عمر في الناس : إلى مصبح على ظهر^(١) ، فأصبحوا عليه .

أراد عمر بهذا النداء أن يتهماً الناس للسفر في صباح الفد . ولكن لا يدرون إلى أين يكون المسير ؟ أيمضون في طريقهم إلى الشام التي جاءوا قاصدين دخولها ؟ أم يعودون من حيث أتوا إلى المدينة .

(١) كناية عن الرجوع إلى المدينة .

إسها فرصة يفكر فيها عمر ، ويأخذ بالرأى الذى يرجح عنده ، بعد أن وقع هذا الخلاف فى الرأى !

فلما أصبح عمر ، ركب بعيره ، وكان الناس قد ركبوا مراكبهم ، وتجهتوا للسفر .. وانتظروا ليروا إلى أين تكون وجهة عمر بهم ! ولا يتكلم عمر ، ويولى وجهه بعيره شطر المدينة ، وإذا بأبى عبيدة ابن الجراح ، يعترض طريقه ، ويقول له : أفراراً من قدر الله تعالى ؟ فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة ! نعم ، فتر من قدر الله إلى قدر الله ! ! أرايت لو كان لك إبل فهبطت وإدياً له عدوتان ^(١) : إحداهما خصبة ، والأخرى جدبة . أليس إن رعت الخصبة رعتها بقدر الله ، وإن رعت الجدبة رعتها بقدر الله ؟

هذا هو منطق عمر فى معالجة هذا الأمر العارض ، وهو ما دله عليه عقله ، وحده ، إذ لم يجد فى كتاب الله ، ولا فى سنة رسول الله ما يدل على المخرج من هذا المأزق ! ! إن عليه فى تلك الحال أن يجتهد رأيه ، وأن يزن الأمر ويقدره ، ثم يأخذ بما يراه أوفق وأصلح !

ولا يكاد يتحرك موكب عمر نحو المدينة ، وهو فى موقف الرأى والنصحة مع أبى عبيدة ، حتى يطلع على عمر من نور السنة النبوية ، ما يثلج صدره ، ويملأ قلبه طمأنينة ورضى .

فها هو ذا عبد الرحمن بن عوف - وكان غائباً فى بعض شأنه - ينحى إلى موكب عمر ، فيجد هذا الخلاف الذى يمسك عمر وأبو عبيدة ، كل بطرف منه . فيقول ابن عوف : إن عندي من هذا علماً ! ! سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا ستمت به - أى بالطاعون - بأرض فلا

(١) الدوة : جانب الوادى . والعدوتان : جانباه .

تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه » .
فحمد عمر ، الله عز وجل ، وانصرف راشداً سالماً إلى المدينة ، هو
وأصحابه .

لم يأخذ عمر برأى أبي عبيدة بن الجراح - مع مكنة هذا الصحابي
الجليل ، ومع ما قال النبي الكريم فيه : « لكل أمة أمين ، وأمين
هذه الأمة أبو عبيدة » . وما كان يراه عمر من أن لو كان أبو عبيدة
حيّاً لولاه الخلافة من بعده - لأن أبا عبيدة كان مجتهداً فيما رأى من
دخول عمر الشام ، مع ما كان قد ظهر فيها من الوباء ، لأنه يعد الفرار
من هذا البلاء ، فراراً من قدر الله ، وعزله اجتهاده في هذا الأمر أيضاً ،
إذ لم يكن هناك نص من الكتاب أو السنة ، يقتضيه به عمر أو أبو عبيدة .
واجتهاد أبو عبيدة لا يلغى اجتهاد عمر ، كما أن اجتهاد عمر لا يصادر
اجتهاد أبي عبيدة ، أو غيره من المسلمين .

والذي أدى إليه اجتهاد عمر هو ألا يقدم بالمسلمين على هذا البلاء ،
وألا يلقي بهم إلى التهلكة ، وإن فراراً من وجه هذا البلاء ليس فراراً من
قدر الله ، فهو إن فر من قدر الله ، كان فراره إلى قدر الله أيضاً . . . فقد
الله محيط بالإنسان في كل حال من أحوله ، وفي كل عمل من أعماله . . وبما
أن الإنسان علة وإرادة ، فإنه مطلوب منه أن يعمل عقله وإرادته ، وهو
لا ينتهي إلا إلى ما قدره الله تعالى له .

وقد جاء الحديث الشريف موافقاً لاجتهاد عمر ، كما جاءت آيات كثيرة
من القرآن الكريم موافقة لرأيه واجتهاده .

٣ - الجدل في كتاب الله :

نزل القرآن الكريم بلسان عربي مبين . فكانت آياته وكتابه مفهومة

عند كل عربي ، إذ لم يخرج القرآن الكريم في كلماته ، وفي أساليب مخاطباته على مألوف العرب في أساليب مخاطبتهم ، وتعاملهم بهذه اللغة التي نزل القرآن الكريم بها .

ولهذا لم يسأل الصحابة ، ولا غيرهم من المسلمين ، أو المشركين رسول الله ﷺ عن معنى كلمة أو آية من آيات الكتاب الكريم ، استفساراً ، أو استنكاراً ، حتى في تلك الحروف المقطعة التي بدئت بها بعض سور القرآن الكريم ، مثل : ألم ، المر ، المص ، حم ، إلى آخر هذه الحروف التي استفتحت بها بعض الصور — لم يسأل المسلمون أو المشركون رسول الله ﷺ عنها ، لأن ذلك كان ممهوداً في مخاطبتهم ، حيث كانوا يبتدئون كلامهم أحياناً بمثل هذه المقاطع : ألا ، أما وهي لا تعنى عندهم إلا تنبيهاً للسامع . ولقد آله إلى ما يرد عليه من كلام بعد هذا له شأنه وله خطره !

ذلك ما كان عاينه المسلمون الأولون في عهد النبي ﷺ وفي عهد أبي بكر - رضى الله عنه - إذ كان المحيط الذي يتحرك فيه القرآن الكريم محيطاً عربياً خالصاً ، لا تشوبه عجمة بما شابه بعد ذلك ، حين دخل العرب بلاد الفرس والروم

فما امتد الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية ، ودخل غير العرب في دين الله ، في خلافة عمر ، واختلط العرب بغيرهم من الأعاجم ، اختلفت أنظار الناس إلى القرآن ، ودخلوا بفاهيم جديدة إلى آياته وكلماته ، ثم امتد هذا إلى قضايا كثيرة متشعبة ، في أصول العقيدة ، ومقررات الشريعة ، ووقع الصدام العقلي بين المسلمين حول المفهوم الذي تعطيه الآيات القرآنية ، ودخل علم الكلام في هذا الصراع ، فتولدت الفرق المتعددة من فرق المعتزلة والخواارج .

والشيعة . . كل فرقة ترجع إلى القرآن ، وتقيم لها المفهوم الذى ترتضيه بملء
تؤول من آيات الله .

وقد كان هناك خلاف فى عهد رسول الله ﷺ ، ولكنه كان خلافاً
حول القراءات بين حفظة القرآن . . ومع هذا فقد نهى الرسول الكريم
عن أن يكون بين المسلمين خلاف فى هذا ، فقد سمع ﷺ جماعة يختلفون فى
هذا حتى علت أصواتهم ، فخرج عليهم مغضباً ، وقال : « اقرءوا القرآن -
ما ألفت عاينه قلوبكم ، فإذا اختلفتم فيه قوموا » وقال ﷺ : « إنما هلك
من كان قبلكم باخلافهم فى الكتاب » - أى التوراة والإنجيل .

فلما كانت خلافة عمر ، وما صاحبها من اتساع الفتوحات الإسلامية ، .
ودخول أمم غير عربية فى الإسلام ، بدأت طلائع هذا الخلاف - لافى قراءة
القرآن . ، ولكن فى معانيه - بدأت تظهر وجرت على ألسنة بعض الناس -
تساؤلات عن معنى هذه الآية أو تلك ، أو عن معنى هذه الكلمة من تلك
الآية أو هذه .

وعنه - رضى الله عنه - يرقب هذه الظاهرة ويرصدها ، ويحاول
بكل قوته أن يقضى عليها فى مهدها . . ولو استطاع أن يمسك بكل لسان -
يتحرك بمثل هذه الأسئلة التى تتوارد على كلمات الله وآياته . من أولئك -
الخارجين على ما مضى من موقف المسلمين بين يدي آيات الله والوقوف
على تلاوته - لو استطاع ذلك لفعل ، ولكن أنى له ذلك والدولة قد ترامت -
أطرافها ، وتعددت أجناسها ؟

ومع هذا فإن عمر - رضى الله عنه - لا تخونه عبقريته فى أى وقت ، .
ولا يعطى يده مستسداً لأية مشكلة .

فقد وقف مرة يخطب الناس ، فتلا فى خطبته قوله تعالى : ﴿ فلينظر
الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صباً ، ثم شققنا الأرض شقاً ، فأنبتنا

مفيا حبيا ، وعنباً وقضبياً ، وزيتوناً ونخلاً ، وحدائق غلباً ، وفاكهة
وأبا^(١) .

فما بلغ قوله تعالى : « وفاكهة وأبا » توقف قليلاً ، ثم قال : هذه
الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم عاد يرد على نفسه لأنما عاتباً ، والناس
يسمعون : « ما هذا التكلف يا عمر ؟ » .

إن عمر - رضى الله عنه - ما تلا هذه الآيات إلا ليقف عند تلك
الكلمة التي تبدو غريبة ، وهي « الأب » والتي قد يسأل بعض الناس عنها ،
فسأل هو عنها نفسه ، ثم عاد فأمسك عن السؤال ، ووضع نفسه موضع اللوم
لهذا التكلف بسؤاله عن « الأب » .

• وهل كان عمر يجهل حقاً معنى « الأب » ؟ لا نظن ، وهو العربي الذي
جاءت كلمات القرآن بلسانه ولسان قومه !

ولما سأل هذا السؤال ثم رد نفسه ولا مهابا عليه ، ليكون في ذلك مزدجر
لمن يتكلمون مثل هذا التكلف ، ويسألون مثل هذا السؤال فإنه يرى الناس
من هذا أن يعرض المسلم عن مثل هذه الأسئلة التي تعرض له حول كلمة من
كلمات الله ، أو آية من آياته وحسبه أن يتلو الآية الكريمة وأن يأخذ منها
ما يقع له من فهم لها ، دون أن يفوس في أعماقها ، وينت وحدثها ،
ويقطع أوصالها .

وهب إنساناً لم يفهم معنى لفظة من ألفاظ القرآن الكريم - كما رأينا
عمر وقد وضع نفسه موضع من لا يفهم كلمة « الأب » - فماذا على هذا الإنسان
إذا لم يفهم معنى هذه اللفظة أو تلك ، فهما محددان ، وبين يدي هذه اللفظة

ومن خلفها من كلمات الله ، ما يلتقي أضواء كاشفة عليها ، تجعل منها دوة .
في هذا العقد النظيم ؟

ولكن هل وقف عمر — رضى الله عنه — عند هذا ؟ وكلا ، فإنه .
— رضى الله عنه — تتبع هؤلاء المتكلمين الذين يعرضون القرآن الكريم
لمثل هذه التساؤلات ، التي إن شغل بها المسلم نفسه صرفته عن العمل بآيات
الله ، وما تدعو إليه من خير ، للعاملين بها في الدنيا والآخرة جميعاً .

لم يقف عمر عند هذا الدرس البليغ الذي عرض فيه نفسه على رموس
الأشهاد هذا العرض الذي سرعان ما رد نفسه عنه ، وأقامها على الطريق .
الذي برضاه الله ورسوله . من المتصلين بكتاب الله من المؤمنين ، فكان
إذا وقع ليده واحد من هؤلاء المجادلين في آيات الله أمسك به ، وأدبه .
أدباً ، فيه عبرة زاجرة ، لكل من سلك مسلك هذا الإنسان المجادل في
آيات الله .

ولننظر في هذا الحدث ، وموقف عمر منه ، ففيه عبرة ، وفيه مزدجر ،
للمتكلمين المجادلين في آيات الله :

« جاء رجل إلى عمر — رضى الله عنه — فقال له : إن ضبيعاً التيمى ،
لقينا يا أمير المؤمنين ، فجعل يسألنا عن تفسير حروف من القرآن ، فقال عمر :
« اللهم أمكني منه ، فبينما عمر يوماً جالس يغذى الناس ، إذ جاءه ضبيع .
هذا ، وعليه ثياب وحمالة ، فتقدم فأكل ، حتى إذا فرغ ، قال : يا أمير
المؤمنين : ما معنى قوله تعالى : « والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرا » ؟
فقال عمر : ويحك ! أهو أنت ؟ قدام إليه عمر ، فحسر عن ذراعيه ، فلم
يزل يجلده ، حتى سقطت عمامته فإذا له ضفيران ، فقال عمر : والذي نفس

«عمر بيده، لو وجدته مخلوقاً لضربت رأسك»^(١) !! ثم أمر به عمر فجعل في بيت - أي سجن - فكان يخرج به كل يوم فيضربه مائة، فإذا برأ أخرجه فضربه مائة أخرى.. ثم حمله على قتب^(٢)؛ وسيره إلى البصرة، وكتب إلى أبي موسى الأشعري يأمره أن يحرم على الناس مجالسته، وأن يقوم في الناس خطيباً، ثم يقول: إن ضبيعاً قد ابتغى العلم فأخطأه.. فلم يزل ضبيعاً وضبيعاً في قومه، وعند الناس، حتى هلك، وقد كان من قبل من سادات قومه !!

وفي هذه الحادثة أكثر من دلالة:

فأولاً: أن المسلمين أنكروا على صبيغ هذا الذي كان منه من سؤال عن تفسير حروف - أي كلمات - من القرآن الكريم، وعدوا ذلك شيئاً غريباً لم يأنفوه، ولهذا شكوه إلى عمر حين رأوه يسأل عن أشياء في القرآن الكريم، فجاءهم في هذا بأمر لم يكن لهم عهد به.

وثانياً: أن عمر - رضى الله عنه - لم يأخذ ضبيعاً بمجد معروف من الحدود التي أوجبتها الشريعة.. وإنما ذهب به مذهباً لم تحدده الشريعة - حداً، فخرج به عن الحدود المعروفة، لأن جنايته خارجة عن المعروف للمسلمين، فجمع عمر في تأديبه بين الضرب والسجن.

وهكذا سد عمر هذا الباب من أبواب الفتنة على المسلمين^{!!}
ولكن هل ظل هذا الباب مغلقاً؟

إنه ما كاد عمر يمضي إلى مثواه، ويلحق بره، حتى انفتح هذا

(١) إشارة إلى أن عمر لو وجد مخلوقاً، لعرف من ذلك أنه مخلوق وحد من حدود الله، إذ كان من المنيع أن المخلوق يخلق شعره قبل أن يحد.. ومعنى هذا أنه من أهل التهم وأرب. ومعنى قول عمر: «اضربت رأسك» أي قلبك، حيث يعده من الخارجين لله والساعين في الأرض فساداً، لتكرار جرائمه.

(٢) أي ركوبه من غير شيء للراكب عليها، إلا الخشب.

الباب على مصرعيه ، وفتحت إلى جانبه أبواب وأبواب كانت منها هذه
للواليد المشنومة ، لتلك الفرق النارقة ، التي ظهرت بين جماعة المسلمين ، وأدارت
رءوسهم ، وفرقت وحدتهم !

وأقرب شاهد لهذا ، ما كان من نافع بن الأزرق ، وهو من رءوس
الخوارج الذين أطلوا برءوسهم في خلافة علي - كرم الله وجهه !

فقد جاء نافع بن الأزرق هذا إلى ابن عباس - رضى الله عنه - يسأله
عن معنى كلمات من القرآن الكريم - ويحجبه ابن عباس عن معنى كل كلمة ،
فلا يرضى ابن الأزرق عن هذا ، حتى يطلب شاهداً من استعمال العرب
لهذه الكلمات ، فيقول : وهل تعرف العرب هذا ؟ فيقول ابن عباس : نعم
، ألم تسمع قول الشاعر ؟ ويأتى ابن عباس بيت الشعر الحامل لهذا المعنى .

وهكذا يمضى ابن عباس يحجب نافعاً عما يسأل عنه ، ويقم له الشواهد
من الشعر العربي ، حتى جاوز ذلك مئات الكلمات ، ومئات الأبيات
من الشعر ^(١) .

وسواء صحت هذه الرواية التي تروى عن نافع بن الأزرق وما جرى
بينه وبين ابن عباس ، أو لم تصح ، فإنه يمثل حالاً كانت واقعة بعد موت
عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وأن الخرق قد اتسع ، بحيث لم يعد في
«الإمكان سده ، فكان على أمثال ابن عباس ألا يقفوا موقف العجز أمام
هؤلاء المحادلين في آيات الله ، كما كان ذلك فيما وقع بعد هذا من مقولات
المعازلة التي تصدى أهل السنة للرد عليهم بمثل منطقهم .

* * *

(١) من أراد أن يطلع على هذا ، فلينظر ذلك في كتاب « الإقتار في علوم القرآن »

ويحسن أن تأتيها بمقطع من هذا الموقف الذي كان من نافع بن الأزرق مع ابن عباس - رضى الله عنه - لئلا نرى أن نافعاً لم يكن طالب علم أو باحثاً عن حق ، وإنما كان متهماً للقرآن ، وأنه قد اختلط فيه اللسان العربى بغيره من لسان أهل الكتاب وغيرهم ، وهذا يعنى عند ابن الأزرق أن القرآن ليس من عند الله ، وإنما هو مما أخذه محمد ﷺ من الرهبان والكهان . كما قال المشركون من قبل ، مما ذكره الله تعالى على لسانهم فى قوله جل شأنه : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون ﴾ وقد رد الله تعالى عليهم هذا الافتراء بقوله سبحانه : ﴿ فقد جاءوا ظلمات ووراء ﴾ (١) .

عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد عن أبيه قال : بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة ، قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، إذ قال نافع بن الأزرق ، لنجدة بن عويمر - وهما من الحوارج - قم بنا إلى هذا الذى يخرى على تفسير القرآن - أى ابن عباس - بما لا علم له به ، فقاما إليه ، فقالا : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فمفسرها لنا ، وتأتيننا بمصادقه من كلام العرب ، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين .. فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما .

فقال نافع : أخبرنى عن قول الله تعالى : « عن اليمين والشمال عزين » فما العزون ؟ قال ابن عباس : العزون : الخلق (٢) من الرفاق .. قال نافع : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال ابن عباس :

(١) سورة الفرقان : ٤ .

(٢) المارج : ٣٧ .

(٣) حلقه ، وهى الجماعة من الناس يتحلفون ، أى يجلسون على هيئة الحلقة .

نعم : أما سمعت عبید بن الأبرص^(١) ، وهو يقول :
 فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا .
 قال . أخبرني عن قوله تعالى : « وابتغوا إليه الوسيلة »^(٢) قال
 ابن عباس : الوسيلة الحاجة ، قال . وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم ،
 أما سمعت عنقرة وهو يقول :
 إن الرجال لهم إليك وسيلة . إن يأخذوك تكحلي وتحضبي
 قال نافع . فأخبرني عن قوله تعالى : « شرعة ومهاجاً »^(٣) فقال
 ابن عباس : الشرعة : الدين ، والمهاج : الطريق . قال وهل تعرف
 العرب ذلك ؟ قال ابن عباس : نعم ، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث
 ابن عبد المطلب ، وهو يقول :

لقد نطق المأمون^(٤) بالصدق والهدى

وبين الإسلام ديناً ومهجاً

قال : أخبرني عن قوله تعالى « إذا أُمِر وينعه »^(٥) فقال ابن عباس :
 ينعه ؟ نضجه وبلاؤه . . قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال نعم : أما
 سمعت قول الشاعر :

إذا ما مشيت بين النساء تأودت

كما احتز غصن ناعم الثبت يانع

(١) شاعر جاهلي .

(٢) سورة المائدة ٣٨

(٣) سورة المائدة ٤٨

(٤) المأمون ، هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذي دشمه الله تعالى على تلبيغ
 رسالته للناس .

(٥) سورة الأنعام ٩٩

قال : فأخبرني عن قوله تعالى : « قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً »^(١) .

قال ابن عباس : الريش : المال . . قال وهل تعرف العرب ذلك .
قال : نعم ، أما سمعت الشاعر يقول :

فرشني بخير طاماً قد بريتني
وخير الموالى من يرش ولا يبرى

وهكذا استقر ابن الأزرقي . يسأل ، وابن عباس - رضى الله عنه -
يحيب ، مستشهداً على ذلك بالشعر العربي ، الذى هو ديوان العرب ،
فسأل عن معنى قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى كبد »^(٢) وعن معنى
قوله سبحانه : « يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار »^(٣) وعن قوله جل شأنه :
« وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة »^(٤) . . ثم مضى ابن الأزرقي
يسأل ويسأل ؛ وابن عباس - رضى الله عنه يحيب ويحيب ؛ حتى فرغ ابن
الأزرقي مما عنده . . ثم خرج هو وصاحبه بحدة بن عويمر .

وظاهر من هذا ، أن ابن الأزرقي ، قد أعد هذه المسائل من قبل ،
وأعد نفسه لسؤال ابن عباس رضى الله عنه - عنها وهو فى مسجد الرسول -
صلوات الله وسلامه عليه . حيث يمتلىء المسجد بالمسلمين . وظاهر أيضاً
أن ابن الأزرقي لم يكن يغيب عنه معنى الكلمات التى سأل عنها ابن
عباس ، ولكفه أراد أن يفتح باباً للجدل والمراءى فى كتاب الله ، حتى
يتسع مجال الجدل والمراءى بين المسلمين ، على هذا النحو الذى ذهب إليه
الخواارج ، ثم المعتزلة ، ثم أصحاب البدع والأهواء .

(٢) سورة البقرة ٢٠٠

(٤) سورة النحل ٧٢

() سورة الأعراف ٢٥

(٣) سورة النور ٤٣

وإذن فقد كان موقف عمر - رضى الله عنه وأرضاه - من صبيح ،
وما أخذه به من نكال ، هو عمل حكيم ، لو ألزمه المسلمون لما فتحت عليهم
أبواب الفتن التى مزقت وحدة الأمة الإسلامية ؛ وجعلتها شيعاً وأحزاباً ،
يكفر بعضها بعضاً ، ويقاتل بعضها بعضاً . فرحم الله ابن الخطاب ، وأكرم
نزله فى جنات النعيم .

* * *

رابعاً - المؤلفة قلوبهم :

فى أول الإسلام ، والمسلمون لم تجتمع لهم القوة الرادعة ، ولم يسكن
الإسلام قد دخل قلوب كثير من الداخلين فيه ، دخولا متمكناً ، وخاصة
أولئك الذين كان لهم فى الجاهلية سلطان وجاء بين الناس فأسلموا وفى
قلوبهم شئ من هذا الدين الذى سوى بين السادة والعبيد ، وجعل التقوى
ميزاناً للناس - فى هذا الحال ، كان لابد أن يتألف الإسلام هؤلاء
الرؤساء ، وأن يمسك بهم على الإسلام ، وأن يدخله إلى قلوبهم ، بعد أن
نطقت به ألسنتهم ، وذلك بما يريهم الإسلام من ثمراته العاجلة فى الدنيا .
وهل هذا فرص الله تعالى فى الزكاة التى تهب إلى بيت مال المسلمين ، نصيباً
من هذا لأولئك الذين كانت لهم الجاهلية سطوة فسلبها الإسلام منهم . .
وفى هذا يقول الله تعالى : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين
عليها والمؤلفة قلوبهم ، وفى الرقاب ، والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ،
فريضة من الله والله عليم حكيم ^(١) » . . ولذلك أعطى رسول الله ﷺ
غنائم هوازن ما تألف به قلوب ذوى الجاه والسلطان فى الجاهلية ، حتى
لا يروا أن الإسلام قد أذلهم ، وذلك إلى أن يتمكن الإيمان فى قلوبهم .

يقول ابن قتيبة ، في كتابه : « السياسة الشرعية » : « وكان النبي - ﷺ - يعطي المؤلفات قلوبهم من النعم ونحوه ، وهم السادة المطاعون في عشائهم ، فقد أعطى ﷺ الأقرع بن حابس ، سيد بني تميم ، وعيينة ابن حصن ، سيد بني فزاره ، وزيد الخير ^(١) الطائي ، سيد بني فبهان ، وعلقمة ابن علاثة العامري ، سيد بني كلاب كما أعطى ما تألف به بعض سادات قريش من الطلقاء ^(٢) مثل صفوان بن أمية . وعكرمة بن أبي جهل . وأبي سفيان بن حرب . وسهل بن عمرو . والحارث بن هشام وغيرهم .

وفي الصحيحين . عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : « بعث على - كرم الله وجهه - وهو باليمن بذهبية ^(٣) في تربتها ، إلى رسول الله ﷺ . فقسما رسول الله ﷺ بين أربعة نفر : الأقرع بن حابس الحنظلي ، وعيينة بن حصن الفزاري ، وعلقمة بن علاثة العامري ، وزيد الخير الطائي ، قال ، فغضبت قريش والأنصار ، وقالوا : يعطي صناديد نجد ويدعنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « إني إنما فعلت ذلك لتألفهم » .

وعن رافع بن خديج - رضي الله عنه - قال : أعطى رسول الله ﷺ ، أبانتيان بن حرب ، وصفوان بن أمية ، والأقرع بن حابس ، كل واحد منهم مائة من الإبل ، وأعطى عباس بن مرداس ذلك ، فقال عباس ابن مرداس يخطب رسول الله ﷺ :

(١) هو المعروف بزيد الخيل ، الفارس الشاعر المشهور ، وقد سماه النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، حين جاء مسلماً .

(٢) وهم أهل مكة من قريش الذين أسلموا بعد فتح مكة ، ووقعوا في يد النبي ، فغدا عنهم ، وقال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

(٣) وهي التراب المختلط به عروق من الذهب ، « التبر » .

أَتَجْمَلُ نَهْيِي^(١) وَنَهْبُ الْعَبِيدِ بَيْنَ عَيْبِهِ وَالْأَقْبَرِ
وَمَا كَانَ حَصْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ مَرَادِسَ فِي الْمَجْمَعِ
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِيءَ مَهْمَا وَمَنْ يَخْفِضُ الْيَوْمَ لَا يَرْفَعُ !
قال : فَأَتَمَّ لَهُ رَسُولُ ﷺ وَمُسْلِمٌ مِائَةً (رَوَاهُ مُسْلِمٌ) .

يقول ابن تيمية - رضى الله عنه - : والمؤلفة قلوبهم نوعان : كافر
ومسلم ، فالكافر إما أن يرجى بعطيته منفعة ، كإسلامه ، أو دفع بضرته ،
إِذَا لَمْ يَنْدَفِعْ إِلَّا بِذَلِكَ .. والمسلم المطاع به في قوم - إما أن يرجى بعطيته
المنفعة أيضاً كحسن إسلامه ، أو إسلام نظيره ، أو جباية المال - أى تحصيله
من قبيلته - ممن لا يعطيه إلا لخوف ، أو لنكاية في العدو ، أو لكف
ضبرده عن المسلمين ، إذا لم ينكف إلا بذلك ..

ثم يقول ابن تيمية : « وهذا النوع من العطاء - أى المؤلفة قلوبهم -
وإن كان ظاهره إعطاء الرؤساء وترك الضعفاء ، كما يفعل الملوك - فالأعمال
بالنيات .. فإذا كان القصد بذلك مصالحة الدين وأهله ، كان من جنس
عطاء النبي ﷺ وخلفائه ، وإن كان المقصود به العلو في الأرض والفساد
كان من جنس عطاء فرعون ! »

ذلك هو ميزان التأليف للقلوب بالمال في شريعة الإسلام ، حين يكون
المال هو الدواء لبعض النفوس الجائعة ، التي يرى ولي الأمر في جذبها إلى
الإسلام قوة للمسلمين ، يوقفهم مع المسلمين ، أو كفي أيديهم عنهم -
فإذا لم يكن هذا أو ذاك ، فلا يحمل لوضع هذا المال في غير هذا الموضع !
وقد كان عمر - رضى الله عنه - أول من كشف عن هذا التدبير ككشفاً صريحاً .

(١) نهى أي عطائي ، والعبيد اسم قريشه ، وسمى عطاءه نهياً جرياً على ما كان في الجاهلية
من إطلاق كلمة النهب على ما يقع في اليد من مال لغيره !

واضحاً . . قطع عن أولئك الذين كان يتألفهم الإسلام ما كانوا يطمعون .
فيه ، من دوام هذا الوضع لم في الجماعة الإسلامية ، وما علموا أن هذا دواء .
وقتي ، يؤخذ منه عند الحاجة ، وبالتدر المناسـب لسـكل حالة . .

جاء عيينة بن حصن ، والأقرع بن حابس . . وهما ممن تألفهما
رسول الله ﷺ - جاءا إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فقالا : يا خليفة :
رسول الله . . إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلاً ولا منفعة ، فإن رأيت .
أن تقطعناها ، لعلنا نحرثها أو نزرعها !! ولعل الله ينفع بها بعد اليوم !!
قال أبو بكر لمن حوله من المسلمين : ما ترون ؟ قالوا لا بأس . .
فكتب لهما بها كتاباً ، وأشهد فيه شهوداً ، وعمر ما كان حاضراً . . فانطلقا .
إليه ليشهد في الكتاب ، فوجداه يهناً بغيراً^(١) ، فقالا ، إن خليفة رسول
الله ﷺ كتب لنا هذا الكتاب ، وجئناك لتشهد على ما فيه . . أفقرؤه ،
أم تقرؤه عليك ؟ قال : أعلى هذه الحال التي تريان^(٢) ؟ إن شئنا فاقراءه ،
وإن شئنا فانظرا حتى أفرغ !! قالوا ، بل تقرؤه عليك . فلما سمع ما فيه . .
أخذه منها ، ثم نفل فيه فحاه !! فنذمرا ، وقالوا مقالة سيئة !

قال لهما : إن رسول الله ﷺ ، كان يتألفكما والإسلام يومئذ ليل .
وإن الله تعالى قد أعز الإسلام ، فاذهبما فاجهدا جهدكما ، لا رعى الله .
عليكما إن رعيتم^(٣) .

فذهبا إلى أبي بكر - رضي الله عنه - وهما يتذمران ، وقالا : والله
ما ندرى . أنت أمير أو عمر ؟ فقال : بل هو ، لو شاء ، كان !!

(١) أي يدهنه بالقطران ، ليداويه من داء الجرب .

(٢) أي كيف أقرأ وأنتا تريان ما أنا فيه من معالجة البعير بالقطران ؟

(٣) أي أصلا ما تقدران عليه من كيد للإسلام ، ولا درعا كما أنه إن رعيتم للإسلام .
عهداً ! فيها أرياني كيدكما !

ثم جاء عمر ، وهو مغضب ، حتى وقف على أبي بكر ، فقال : أخبرني عن هذه الأرض التي أقطعتها هذين الرجلين . . أمى لك خاصة ، أم بين المسلمين عامة ؟ فقال : بل هي بين المسلمين عامة ؟ قال : فما حملك على أن تخصص بها هذين الرجلين دون جماعه المسلمين ؟ قال : استشرت الذين حولي ، فأشاروا بذلك ! قال : أفكل المسلمين أوسعهم مشورة ورضى ؟ فقال أبو بكر : فلقد كنت قلت لك أنت أقوى على هذا الأمر مني . لكنك غابتي !! » وموقف عمر في هذه الواقعة يكشف عن أمور :

أولاً : أنه مع علمه بأن الخير في هذه الأرض السبخة الجرداء ، أن تستصاح ، وتزرع ، بمن يقدر على إصلاحها وزرعها ، فهي أرض لا ينفع بها أحد ، وفي الصحراء متسع لا حدود له ، لمن يعمل مثل هذا . وهذا ما جعل أبا بكر - رضي الله عنه ، والمسلمين الذين أشاروا عليه ، يقبل بإقطاع هذه الأرض لهذين الزعيمين - إن عمر مع علمه بهذا لم ير أن يقطع الخليفة هذه الأرض لهذين الزعيمين ، حتى لا يحمل هذا على أنه اختصاص لهما بهذا الأمر ، ولو كان ذلك لغيرهما من عامة المسلمين ما توقف عمر !

وثانياً : أن عمر - وهو يرى هذا - يرى من جهة أخرى . أن في هــا تطلوذا من هـدين الرجلين على قبيلتهما ، وعلى من حولهما من انقبائل ، حيث يشعر الناس أن لهما مكانة وسلطاناً في الجماعة الإسلامية ليس لغيرهما ، وقد ذهب الإسلام بهذا الذي كان سائداً في الجاهلية !

ولهذا كان من عمر هذه الوقفة التي وقفها في وجههما ، ليقطع بها ما يدور في خاطرهما من أنهما يملكان من الجاه والسلطان ما لا يملكه

غيرهما من عامة المسلمين ، فلقنهما عمر هذا الدرس ، وعراهما من هذا السلطان ، وأنزلهما وعامة الناس على سواء !

ولا شك أن هذا تدبير حكيم من ابن الخطاب . إذ قضى به على أثر من آثار الجاهلية ، ونزع به ما كان قد لبس بمص الأفراد فيها من زعامة على الناس ، بحكم القوة والغلب ، وإن فوت ذلك إصلاح أرض لا ينتفع بها ، فتصبح ذات نفع خاص ، وعام ، في تلك المواطن القاحلة الجرداء ، لأن ذلك وإن كان فيه خير ، فإن فيه شراً أكثر من هذا الخير ، ودفع الشر مقدم على جلب الخير .

فأخطأ أبو بكر - رضى الله عنه - فيما صنع ، ولقد أصاب عمر - رضى الله عنه - فيما رأى . . وإن كانت نظرة أبى بكر قائمة على الواقع ، على حين كانت نظرة عمر على ما يتوقع ! ! وهذه فعلة من فعلات عمر - رضى الله عنه - وهذا موقف من مواقفه الحكيمة التى أمسك فيها بشريعة الله ، بقيمها على ميزان الحق والعدل ، الذى هو عند عمر فوق كل شيء ، وقبل كل شيء ؛ لا تأخذه فيه رافة فى دين الله ، ولا يخشى فيه من أحد لومة لائم . . فرحم الله عمر رحمة واسعة ، فقد ابيض به وجه الإسلام ، وأقام من دين الله شاهداً عياناً يشهد بأنه الدين الحق ، الذى يعلوب من استمسك به إلى هذا المستوى الإنسانى العظيم ، الذى بلغه عمر بإيمانه وتقواه .

النبأ بالخامس
عمر وحرود الله

الفصل الأول حدود الله

في كل شريعة سماوية ، أو وضعية ، مقررات وأحكام ، لضبط السلوك .
الإنسانى ، ولحماية المجتمع من طغيان بعضه ، على بعض ، وإنه - لى تؤدى .
الشريعة - سماوية أو وضعية - رسالتها ، وتترك فى الناس آثارها ، لابد من
أن تقيم فى الناس زاجراً يزرهم ، إذ هم خرجوا عن مقرراتها ، وجاوزوا
حدودها ، ولم يلتزموا بأحكامها . . والله تعالى يقول : ﴿ ولولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها
اسم الله كثيراً ﴾ ^(١) ويقول سبحانه : ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض
لفسدت الأرض ، ولكن الله ذو فضل على العالمين ﴾ ^(٢) .

والشرائع السماوية ، هى من وضع الخالق سبحانه وتعالى ، الذى يعلم من
خلقه ما لا يعلمون من أنفسهم ، فإذا وضع لهم سبحانه قانوناً يسيرون عليه .
كان هذا القانون هو الحارس لسلامتهم ، والدواء لعلّة من يعقل منهم ،
ولإصلاح لفساد ما يفسد من فطرتهم .

وإنه لى يكون لهذا القانون فاعلية ، فقد رصد الله تعالى للخارجين .
عليه ، عقوبتين :

عقوبة دنيوية ، يقوم على تنفيذها المجتمع ، وما يقوم فى هذا المجتمع من .
حراس على هذا القانون ، وحماة له ، يأخذون على أيدي المعتدين على حرمانه ،

(١) المآج : ٤١

(٢) البقرة : ٢٠٠

والخارجين على ناموسه ، وهذا ما يسمى بالسلطان الذى يراه الناس ، ويرى الناس .

وعقوبة أخروية ، يتولاها الله تعالى يوم الفصل بين عباده ، فيجزى..
كل بما عمل .. وهذا هو الوازع السماوى ، الذى لا يشعر به إلا المؤمنون .
بالله ، واليوم الآخر ، وكلا الوازعين ، وازع السلطان ، ووازع القرآن ، بكل .
الآخر : فإنه إذا أفلت الخارجون عن القانون من يد المجتمع ، ولم تنلهم
سلطانه القائمة عليهم ، فلم يغالوا العقاب الذى يستحقونه ، فإنهم لن يفلتوا
من عقاب الله ، الذى أحاط بكل شيء علماً ، ولم يخرجوا أبداً من سلطانه .
القائم على كل شيء !

ومن هنا كان المؤمن بالله بين وازعين ، وازع الإيمان بالله ، وسلطان
الله القائم عليه ، ووازع السلطان الدنيوى .. وإنه لا بد من الوازعين معاً ..
حتى يستقيم للناس أمرهم فى هذه الحياة الدنيا .. وذلك أن وازع الدين ،
أو سلطان الضمير الذى يقيمه الدين ، كثيراً ما يذهل عنه الإنسان ، لأنه
غير مرئى له ، لا يمشاه إلا أهل الإيمان الحق والتقوى .. ولهذا كان وازع
السلطان الدنيوى ، هو الذى يملك بهؤلاء الذين لا يخشون الله .. وفى
هذا يقول عثمان بن عفان - رضى الله عنه - « إن الله ليزع بالسلطان ما لا
يزع بالقرآن » .. فإذا اجتمع الوازعان ، وازع القرآن ، ووازع السلطان الذى
ينفذ أحكام قانون الله ، صلح أمر الناس ، وأظلم جناح الأمن والسلامة ،
وإلا فزأمن ولا أمان للناس إلا فى ظل هذين الوازعين ..

وقد رسمت الشريعة الإسلامية للحياة الإنسانية حدوداً ، يتحرك الناس .
فى مجالها ، ويتقلبون فى محيطها ، فى سعة ويسر ، لا حرج معه .. فنخرج ،

- على هذه الحدود ، بعد معتدياً ، وجب زجره ، وتأديبه ، وأخذه بالعقوبة .
التي رصدها الشريعة للذنب الذي اقترفه .

واختصت الشريعة الإسلامية في هذا ، بأنها تقوم على الاعتدال ،
سواء في تخطيط الحدود ، وتحديد معالمها ، أو في تقدير العقوبة
المناسبة لها ..

فهى - من جهة - شريعة سماحة ويسر ، رفعت عن المسلمين الحرج ،
ووسعت عليهم في كثير من الأمور التي كانوا قد أخذوا بها أنفسهم في
الجاهلية ، وفرضوا تحريمها عليهم ، كالسائبة والوصيلة والحام ، وهى لم
لها أوضاع خاصة عندهم ، كانوا يهبونها لآلهم ، فلا يتناولون من ألبانها ،
ولا يحملون عليها ، ولا يأكلون لحومها .. كذلك حرم الإسلام عليهم
ما أخذوا به أنفسهم من الطواف بالبيت عراة ، تأتماً من أن يطوفوا بالبيت
المحرام باللباس الذي عصوا الله فيها .. كما رفع عن هذه الأمة الخطأ والنسيان ،
بما استكروها عليه .. وفى هذا مافيه من رحمة واسعة ونعمة سابتة ! كما
يشير إلى ذلك قوله تعالى : « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى ، الذى
يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عن
المفكر ، ويحمل لهم الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم ،
والأغلال التى كانت عليهم » (١) .

ومن جهة أخرى ، فإن أحكام التأديب التى أوجبها الشريعة لأخذ
الجنات بها ، جاءت مقدرة على ميزان الحكمة والعدل ، لم يقصد بها الشارع
النكابة بالإنسان ، أو التفكيك به ، وإنما هى دواء يراد به الإصلاح

ن : (١) سورة الأعراف : ١٥٦ .

للمذنب ، والخير للمجتمع الذى يعيش فيه ، وإن كان هذا الدواء مرًا ..
فقد يحتاج المريض لشفائه ، إلى أن يبتز منه عضو لتسليم بقية الأعضاء !!
فكيف بأحكم الحاكمين رب العالمين ، وما يضع من دواء ؟ إن هذا الدواء
فيه الشفاء لأى داء يعرض للإنسان فى أفراد أو جماعاته .. والله تعالى يقول :
« ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »^(١) .. ويقول سبحانه :
« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »^(٢) .

فالعقوبة فى الشريعة الإسلامية تستهدف ثلاثة أمور : إصلاح الجانى ،
وإرضاء المجنى عليه ، وزجر الآخرين الذين قد تحدثهم أنفسهم بالجريمة ..
فالذنب من حيث هو ذنب ، فيه إفساد لطبيعة المذنب ، وإخراجه من عالم
الإنسان السوى ، وفى عقاب المذنب إصلاح له ، وتوجيه سديد سليم لسلوكه
المعوج !! والمجنى عليه مغيب محقق ، لا يفشأ غيظه ، ولا يشفى غليله إلا أن ..
ينتقم من الجانى ، وإلا أن يبالغ فى الانتقام ، ويتحول من مقتص
إلى معند ..

وفى قيام الشريعة بهذا الأمر - أمر القصاص - إرضاء عادل للمجنى
عليهم ، وتسكين لثائرة غضبهم ، فى غير ظلم أو عدوان ، إلى ما فى هذا من ..
إصلاح الجانى ، وزجر غيره .

ولا يدع الإسلام عملية العقوبات الواقعة فى الحدود والقصاص تمر دون .
أن يتخذ منها درسًا يعظ به الناس ، ويكون لهم منه مزدجر .. ولهذا جعلت
التشريع من متمات العقوبة أن تقع على ملأ من الناس ، وأن يشهدها
طائفة من المؤمنين ، وفى ذلك تشجيع على الجريمة من جهة ، وصرخة مدونة .

(١) سورة الاسراء : ٨٢ .

(٢) سورة الملك : ١٤ .

« في التحذير منها .. وفي هذا يقول الله تعالى « الزانية والزاني ، فاجلدوا كل
بواحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم
تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »^(١) .

تلك إشارة موجزة إلى طبيعة العقوبات المفروضة في الشريعة الإسلامية ،
لأهل الجرائم ، وإلى القصد المرجو منها في إصلاح الفرد والجماعة .. ثم لننظر
بعد هذا إلى عمر - رضى الله عنه - وموقفه الرائع العظيم ، من القيام على
حدود الله ، وإقامة العقاب الذى فرضته الشريعة لسكل من خرج على
حد منها ..

وعمر - رضى الله عنه - إذ يواجه الجريمة في المجتمع الإسلامى ، فإنما
يواجهها وبين يديه دستور كامل ، وبيان واضح ، قد رسم حدوده القرآن
« الكريم » ، وشرحته السنة النبوية قولاً وعملاً ، وطبقه الرسول الكريم ،
« وأمضاه أبو بكر بعده على هدى من الكتاب والسنة ، بمشهد من عمر ،
ومن صحابة رسول الله أجمعين ..

ومع هذا البيان الواضح على الحدود وأحكامها ، فإن الأمر عند
التطبيق يحتاج إلى بصيرة نافذة ، وإلى حكمة بالغة ، لمعرفة للدواء ، وإنما
لتشخيص الداء .. فكل جناية معروف حدها ، والعقوبة المقررة لها . ولكن
تسكييف الجناية وتحديد مكانها من الجاني ، والتعرف على الظروف المحيطة
به ، هو الذى تغاوت فيه الأنظار ، وتختلف عليه الآراء ، وهو الذى لا يقع
موقع الحق منه إلا أولو الفطنة والدكاء ، والحكمة ، ممن يجلسون مجلس
« الحكومة والقضاء »

ولعمري - رضى الله عنه - رسالة في القضاء تكشف عن أهليته الكاملة .
لولاية القضاء ، والفصل بين الناس ، والوصول إلى موطن الحق فيما يقضى .
فيه ، وذلك لما اشتملت عليه تلك الرسالة من نفاذ بصيرة ، ودقة نظر ،
وحكمة رأى ..

لقد ضمت هذه الرسالة ، المستقاة من بنابيع الشريعة السمحة ، على مبادئ .
هى اليوم شعارات القضاء فى أرفع منازلها ، وأكرم صورته وأكملها . وإن
أى قاض لا يتحلى بهذه الشعارات ، ولا يأخذ نفسه بها ، لا يحقق عدلاً أبداً ،
وإن أية ساحة من ساحات القضاء تتعري من تلك الشعارات ، لن يستقيم
فيها ميزان العدل بين الناس بحار أبداً ..

كتب عمر - رضى الله عنه - إلى أبى موسى الأشعري حين ولاه القضاء
رسالة طويلة جاء فيها :

« أما بعد ، فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى
إليك بحجة ، وأنفذ الحق إذا وضح ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا قاذله .
« آس بين الناس فى وجهك . . ومجلسك ، وعدلك ، حتى لا يأس
الضعيف من عدلك ، ولا يطمع الشريف فى حيفك .
« البيئة على من ادعى واليمين على من أنكر . .
« والصلح جائز بين المسلمين ، إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالاً .
« والفهم الفهم فيما يختلج فى صدرك ، مما لم يبلغك فى الكتاب
والسنة . .

« وإياك والقلق والضجر والتأذى بالناس ، والتنكر للخصوم فى
مواطن الحق . .

« ولا يمنعك قضاء قضيتك بالأمس ، فراجعت فيه نفسك ، وهديت فيه لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق ، قديم ، والرجوع إلى الحق خير من التماهى فى الباطل » .

* * *

هذا بعض من رسالة عمر . ودستوره فى القضاء ، وكل ققرة من ققراتها دعامة راسخة من دعائم القضاء . استوحاها عمر من دينه ، واستملاها من حصافته وعبقريته ، فجاءت على هذه الصورة المشرفة من الدقة ، والإحكام ، والعمق ، والشمول ..

وتعليمات عمر ، ووصاياه إلى ولاته الذين يجلسون مجلس القضاء ، تحمل دائماً هذا الطابع العمرى : الذى يضمن لمجلس القضاء تحقيق العدالة على مستوى رفيع ، يحفظ لميزانها استقامته ، ويمسك به أن يميل أو يضطرب .. كتب عمر إلى أبى عبيدة بن الجراح - وهو بالشام - كتاباً يقول فيه : « أما بعد ، فقد كتبت إليك بكتاب لم آالك ونفسى خيراً .. الزم الأربع لخال يسلم لك دينك ، وتحفظ بأفضل حظيك ^(١) ..

« إذا حضر الخصمان فعليك بالبينات العدول ^(٢) ، والأيمان القاطمة .

« ثم أذن الضميف ، حتى يبسط لسانه ويحترى قلبه ..

« وتماهد الغريب ، فإنه إذا طال حبسه - أى طال الوقت به قبل الفصل فى خصومته - ترك حاجته ، وانصرف إلى أهله ^(٣) ، وإما ضيع حقه من لم يرفق به ..

« واحرص على الصلح ما لم يستبين لك القضاء ..

* * *

(١) وهو حظ الآخرة ..

(٢) البينات العدول : هم الشهود ، لأن بهم يتبين حى المدعى ، كما يقول عمر : « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » .

(٣) يريد ألا يتولى انتظار الغريب انتظاراً لفصل فى خصومته ، حيث أن الانتظار والإقامة فى بلد غريب عن بلده يحمله مشقة كبيرة .

ولا شك أن الذى يقرأ توحيدات عمر ووصاياه فى القضاء ، ويعمن
النظر فيها ، يدرك أن فى كيان هذا الرجل حاسة قضائية ، من نوع فريد ،
تحس مواطن الحق ، وتضبط موازينه صبطاً محكمة ، فلا يفلت مجرم
بجريمته ، ولا يضل صاحب حق عن حقه !

إن للحق سلطاناً قوياً فى كيان عمر ، وذلك السلطان هو الذى أيقظ
مشاعر عمر كلها ، وأعطاه هذه القدرة على اكتشاف الطريق
المؤدية إلى الحق .

ومن هنا كانت عين عمر باحثة دائماً عن الرجال الذين يصلحون لمنصب
القضاء ، فإذا لحت عينه واحداً منهم ، أمسك به ، وشديده عليه ، وأقامه
فى هذا المنصب الخطير الجليل ، الذى لا ينتظم حال مجتمع إلا بانتظامه ..
ومن هنا قيل : « العدل أساس الملك » .

* * *

ومن المبادئ التى أرساها عمر فى القضاء ، عدم الأخذ بإقرار المتهم
الواقع تحت يد مسلطة عليه - بالضرب ، أو التهديد فى النفس أو المال ،
أو الأهل ، وفى هذا يقول عمر : « ليس الرجل بالمأمون على نفسه إذا
أجمته أو أخفته ، أو حبسته ، أن يقر على نفسه ؟ » فالرجل الواقع تحت
هذا القهر من الجوع ، أو الخوف ، أو الحبس أو الضرب ، ليس بالمأمون
على نفسه ، فقد يقر على نفسه بجنابة لم يجنأها ، تحت ضربات السياط ،
المسلطة عليه . . فيقر بإقراره على نفسه بما لم يكن منه ، فراراً من هذا
العذاب الواقع ، إلى العذاب المتوقع ، وإن كان أشد وأعتى .

فأين من هذا ما يعامل به الناس من عذاب ونكال فى كثير من
بلاد العالم ، وفى هذا العصر - عصر المدنية والحضارة - لأخذ إقرارهم على
أنفسهم تحت سياط العذاب .. ؟

ولقد شهدت مصر في فترة من فترات المعاصرة ، من هذا القهر ، من رأى كثير من المقبوض عليهم أن يقر على نفسه بجرمة القتل ، دون أن تقع منه ، ثم يظهر المدعى قتله أنه حى بين الأحياء ، وما ذلك إلا لترفع عنه يد الزبانية ، في لحظة تلك ، التي يعانى فيها ويلات العذاب ، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون ، ولو كان الموت !

• • •

ومن فراسة عمر - رضى الله عنه - في اختياره للقضاة ، ما يروى من توليته لشريح ، قضاء الكوفة ، وذلك أن عمر ساوم رجلا على شراء فرس له ، فركبه عمر ، وأجراه ليحربه قبل أن يشتريه ، فعطب الفرس ، بأن كسرت رجله ، فأراد عمر أن يرده إلى صاحبه على الحال التي هو عليها .. فأبى الرجل ، فقال له عمر : اجعل بيني وبينك حكما ، فاختار الرجل شريحا ، فتحاكما إليه ، فقال شريح بعد أن سمع وقائع الحادثة : يا أمير المؤمنين : خذ ما ابتعت ، أوردته كما أخذت ؟ فقال عمر معجبا ومؤيدا : وهل القضاء إلا هكذا !! ثم أقام شريحا على قضاء الكوفة ، فظل قاضيا عليها نحو ستين عاما !!

ومما يروى في هذا أن امرأة جاءت إلى عمر - رضى الله عنه - شاكية زوجها إليه ، فقالت : يا أمير المؤمنين .. إن زوجي يقوم الليل ، ويصوم النهار !! فقال لها عمر : زاده الله توفيقا ! فانصرفت المرأة ، فقال أحد الصحابة : يا أمير المؤمنين .. إن هذه المرأة تريد أن تشكو زوجها إليك ، وأنه منصرف إلى العبادة ليله ونهاره . ولا يؤدي حق الزوجية لها .. فدعا عمر بالمرأة وزوجها . وقال لهذا الصحابي : اقض بينهما : فقال : يا أمير المؤمنين .. له أن يتعبد ثلاثة أيام . ويخصص اليوم الرابع لزوجته ،

فقال له عمر : على أى شيء بنيت قضاءك ؟ قال : إن الله تعالى قد أحل للرجل أن يتزوج أربع نساء ، ولو أن هذا الرجل استعمل حقه ، لما كان لها إلا يوم واحد كل أربعة أيام .. فله أن يتعبد لله ؛ ليلة أيام خالصة لا يشغل فيها بزوجه . ولما اليوم الرابع ، يؤدي فيه لها حقها .. فقال له عمر : نعم ما قضيت !

ولا نحسب أن عمر - رضى الله عنه - لم يفهم قول المرأة عن زوجها وكثرة عبادته ، وأنها تشكو انصرافه عنها بالعبادة . ولكنه لم يرفى العبادة بما ينقص من الرجل ، ولم يغفل حق المرأة على زوجها . ولكنه آثر عبادة الله على حقها . ولعلها تنأسى زوجها .. فلما روجع عمر في هذا قبل المراحة ! وكان عمر - رضى الله عنه - لا يرى في مجلس قضاءه أن ينفرد بالرأى في الفصل بين المتخاصمين ، بل كان يستشير أصحابه ، ويأخذ بما يراه موافقاً ، للحق أو أقرب إلى الحق .

فإذا استبان له وجه الحق لم يتحول عنه ، ولو زلزلت الأرض زلزالها .. فإنه من قوة الحق لا يبالي أى شيء يعرض له ، ولا يفكر في العاقبة التي تجيء من وراء ما يعضيه من حكم ، فإن الحق لا يجيء من ورائه إلا الخير دائماً ، وإن حفت به المكارة . ففي الحديث الشريف : « حفت النار بالشهوات ، وحفت الجنة بالمكاره » !

روى أن جهالة بن الأيهم ، وهو من ملوك الغساسنة ، من آل جفنة ، لما أسلم هو وقومه ، وقد على عمر - رضى الله عنه - ثى نحو خمسمائة من وجوه قومه ، في مراكبهم العاخرة ، وملابسهم الزاهية المعجبة ، ففرخ بهم عمر ، وأنزلهم منزلاً كريماً عنده .. لأهم قوة جديدة تضاف إلى الإسلام ، فضلاً عن أن يتبعهم كثير من خاصة الناس وعامتهم .

وحدث أن خرج جبلة يطوف بالبيت الحرام ، فوطئ إزاره رجل من بني فزارة ، فلطم جبلة الفزاري ، وحطم أنفه . فاستهدى الفزاري عمر على جبلة . فقال عمر لجبلة : إما أن ترضى الفزاري ، وإما أن أقتص منك ! فقال جبلة ، وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ أما ملك وهو سوقه ، وهل يقتص سوقه من ملك ؟ فقال عمر : إن الإسلام قد سوى بينكما ، وليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى ! قال جبلة : قد طنت يا أمير المؤمنين . أنى أكون في الإسلام أعز منى في الجاهلية ؟ قال عمر : فذاك إن يكن في إيمانك وتقواك ، وما تعمل من صالح في الإسلام ! وإنك بما تبلغ من ذلك تكون عزتك ! فإن لم ترض الرجل اقتصصت منك ! قال : إذن أننصر ؟ فقال عمر : إن تنصرت ضربت عنقك^(١) ، لأنك قد أسلت . وخروحك من الإسلام يحل قتلك ! فقال جبلة إذن فدعنى الليلة أتدبر أمري ، فأذن لى بالإنصراف ، فأذن له عمر !

فلما جن الليل ، وهدأ الناس ، تحمل جبلة بأهله إلى الشام ، ثم فر إلى القسطنطينية ، وعرض نفسه على هرقل ملك الروم ، وأعلن نصرانيته . هو وقومه . !

* * *

هذا الموقف الذى وقفه عمر - رضى الله عنه - من جبلة هذا المدلل بسلطانه ، التمالك على الاحتفاظ به مهما تلطخ به من دنس وقذر ، الداخلى فى الإسلام ، الذى فتح الأمصار ، وأزال ملك الأكاسرة والقيصرة . - لأنه نظر فى الإسلام ، وعرف وجه الحق والخير فيه ، فأمن بالله .

(١) . لأنه يعتبر مرتدأ ، وحكم المرتد القتل .

واستجاب لدعوة الله . وإنما نظر إلى ما أقام الله على المسلمين من خير في ظل الإسلام ، فأراد أن يكون له في دولة الإسلام دولة ، بعد دولته التي ذهب الإسلام بها . نقول إن هذا الموقف يلخص شخصية عمر أدق تلخيص وأصدق . . إن الإسلام حق منزل من عند الله ، وجنود الإسلام هم جنود الله ، لن يغلبوا أبداً ما داموا على الولاء لله ، والدفاع عن دينه ، وعن الحق الذي نزل به . والله تعالى يقول : « وإن جندنا لهم الغالبون » .

فما كان اعتزاز الإسلام أبداً بالرجال وما في أيديهم من مال وجاه وسُلطان ، وإنما اعتز الإسلام ويعتز دائماً بالرجال وما في قلوبهم من إيمان . . وإن رجلاً كجلال الحبشي ، أو صهيب الرومي ، أو سلمان الفارسي ، لهُو أثقل في ميزان الإسلام من أمة ليس فيها مثل واحد من هؤلاء ، صدق إيمان ، وإخلاص نية ، على احتمال الأذى في سبيل الله !

فما يوزن الناس في الإسلام بميزان المال والجاه والسلطان ، وإنما يوزنون بميزان الإيمان ، وما أشرقت منه أضواؤه عليهم ، وما شاع في كياناتهم من آيات الحق التي جاء بها دين الله !

وصرامة عمر ، وشدة في الضرب على أيدي الجناة ، والخارجين على حدود الله ، لا تخلي قلبه من الرحمة والعطف ، وذلك فيما لا يجوز على حق ، ولا ينتقص من عدل ، لأنه لا يقيم حدود الله تشفياً ، وإشباعاً لشهوة انتقام لنفسه ، وإنما يقيم تلك الحدود تطهيراً للجنة ، وإصلاحاً لأمرهم ، ورحمة من الله بهم !

قدم على عمر - رضي الله عنه - أحد بني ثور ، فقال له عمر : « هل

من مغربة خبر^(١) ؟ سم أي خبر غريب - فقال الرجل : نعم . . أخذنا رجلاً من العرب ، كفر بعد إسلامه ، فقبضناه ، فضربنا عنقه !! « فقال عمر : « فهلا أدخلتموه جوف بيت ، فألقيم إليه كل يوم لقيمات ، ثلاثة أيام ، لعله يتوب ، أو يراجع ؟ » ثم قال : « اللهم لم أشهد ، ولم آمر ، ولم أرض . إذ بلغني » !

لأن جندز هنا أمام قضية خرج فيها مسلم عن دينه ، وجاهر بالكفر . . إنها أغلظ جريمة . ومع هذا ، فإن عمر لم ير إلا أن يأخذ هذا المحرم بسماحة الإسلام ، وأن يعطى الرجل الفرصة ليراجع نفسه ، ويرجع إلى دين الله . . فقد يكون الرجل واقعاً في تلك الحان الذي أعلن فيها كفره ، تحت ظروف نفسية ، أو عقلية حملته على هذه المعالنة بالكفر ، وإلا فإنه لو كان قد كفر عن إرادة حرة ، واعتقاد قلبى ، لأمسك ذلك في ضميره ، ولم يصرح به ، لأن العقيدة أساسها الضمير ، لا اللسان . . فجأهرته بالكفر في هذه الحال ، لا بد أن تكون ناتجة عن ظرف خاص ، بحيث لو ترك فترة مدتها ثلاثة أيام لكان من الممكن أن يخرج من هذا الظرف المحيط به — نفسياً أو عقلياً — ويعود إلى طبيعته ، ويرجع إلى دين الله ! . وهذا غير موقف عمر من جيلة بين الأيهم ، الذى هددته بالقتل ، بعد أن هدد هو عمر بالارتداد عن الإسلام ، وقد خيره عمر بين اقتصاص الفوارى منه ، وبين قتله ، إن هو ارتد عن الإسلام .

روى الليث بن سعد ، قال : « أتى عمر ، بنتى أبجد ، وجدت قتيلاً ، فاق على وجهه فى الطريق ، فسأل عن أمره . واجتهد ، فلم يقف له على خبر .

١ (١٦) أى هل عندك من خبر غريب يحدث فى جماعتكم ؟

فشق ذلك عليه ، فكان يدعو ويقول : اللهم أنصرنى بقائمه ، حتى إذا كان على رأس الحول أو قريباً من ذلك ، وجد طفل مولود ملقى في موضع ذلك القتل ، فأتى به إلى عمر . . فتل : ظنرت بدم ذلك القتل إن شاء الله تعالى !

« فدفع بالطفل إلى امرأة ، وقال لها : قومي بشأنه ، وخذي منا نفقته ، وانظري من يأخذه منك . فإذا وجدت امرأة تقبله وتضمه إلى صدرها ، فأعليني مكانها . فلما شب الصبي جاءت جارية ، قالت للمرأة : إن سيدتي بمنى لتبعني إليها بهذا الصبي ، فترة ، ثم ترده إليك ، قالت نعم ، اذهبي به إليها ، وأنا معك ، فذهبت بالصبي ، حتى دخلت على امرأة شابة ، فأخذت الصبي ، فجعلت قبله وتقديه ، وتضمه إليها ، وإذا هي بنت شيخ من الأنصار ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءت المرأة ، وأخبرت عمر .

فاشتمل عمر على سيفه ، وأقبل إلى منزلها ، فوجد أباها متكئاً على الباب ، فقال له عمر : ما الذى تعلم من حال ابنتك ؟ قال : أعرف الناس بحق الله ، وحق أبيها ، مع حسن صلاتها وصيامها ، والقيام بدينها .. فقال عمر : فإني أحب أن أدخل إليها ، وأزيدها رغبة في الخير .. فدخل الشيخ ، ثم خرج ، فقال : ادخل يا أمير المؤمنين ..

.. « فدخل عمر ، وأمر أن يخرج كل من في الدار إلا أباها .. ثم سألها عن الصبي ، فلجأجت ، فقال لها : لتصدقيني ، ثم انتصني السيف .. فقالت : على رسلك يا أمير المؤمنين ، فوالله لأصدقك ! !

.. « إن مجوزاً كانت تدخل على فاتحاتها أمّا ، وكانت تقوم على أمرى بما تقوم به الوالدة .. وأنا لما بمنزلة البنت ، فكثت كذلك حيناً .. ثم قالت : إنه قد عرض لى سفر ، ولى بنت أتخوف عليها بدمي الضيعة ، وأنا أحب :

أن أضحمها إليك حتى أرجع من سفرى . ثم عادت إلى ابن لها أمرد فهبأته ، وزينته كما تزين المرأة ، وأتقنى به . ولا أشك أنه جارية . فكان يرى منى ما ترى المرأة من المرأة . فاغتفلنى يوماً . وأنا نائمة . فاشعرت به حتى علانى وخالطنى . فددت يدى إلى شفرة كانت عندى فقتلته . ثم أمرت به فألقى حيث رأيت . فاشتملت منه على هذا الصبي . فلما وضعته ألقىته فى موضع أبيه . هذا والله خبرها على ما أعلمك !!

« فقال عمر ، صدقت .. بارك الله فيك ، ثم أوصاها ، ووعظها ، وخرج . »
« فما سأله أبوها : كيف وجدتها ؟ قال : خير فتاة ، بارك الله لك فيها ، فارعها ، وأكرمها !! » .

هذه وقعة من وقعات عمر الزائفة فى جزاء الحق ، وفى وضعه الموضع المناسب له ، ببصيرة نافذة ، وفهم ملهم ، فاقد عزل عنه شدة وصرامته ، إذ لا محل لهما فى مثل هذا الموقف . الذى ترى فيه الفتاة مظلومة لا ظالمة ، ومعتدى عليها غير معتدية !!

* * *

وروى أيضاً ، أنه جىء لعمر - رضى الله عنه - بشارب خمر ، فقال له : لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هواة ، فبعث به إلى مطيع بن الأسود العمري وقال له : إذا أصيبت غداً فاضربه الخلد . فجاء عمر وهو يضربه ضرباً شديداً ، فقال له عمر : قتلت الرجل !! كم ضربته ؟ قال ستين ، قال : أنقص عنه عشرين . أى : أن الستين سوطاً فى شدتها تعدل الثمانين ، التى هى حد شاربي الخمر !!

وهنا نرى بصرى يلقى هذه الجريمة بشدة . وصرامته ، فيبعث بالرجل إلى من يقيم الخلد عليه ، ويتخير لذلك رجلاً قوياً صليحاً لا يشتهر بالجلد العنيف ، الذى يكاد يجاوز الخلد .

ويراجع عمر نفسه ، ويرى أنه قد اشتد في الحكم على هذا الشارب ،
« فيغدو إليه وهو يجلد وإذ يرى جالده قد أخذه بهذا الضرب الشديد ،
قال له : قتلت الرجل !! ثم يسأله : كم ضربته ؟ فلما علم أنه ضربه ستين جلدة ،
أمره أن يكف ، ولا يجلده العشرين الباقية ، ويحمل الستين في مقام الثمانين
التي هي حد الشارب !!

* * *

ويسأل عمر عن حد الأمة التي تزنى ، فيقول : « إن الأمة قد ألفت
مخروءة رأسها من وراء الدار » .

ويعنى عمر - رضى الله عنه - بهذا ، أن الأمة قد ألفت القناع ، وترك
الحجاب ، وخرجت إلى حيث لا يمكنها أن تمتنع عن الفجور . . وإذن
فلا حد عليها ! .

والقرآن الكريم يؤيد عمر - رضى الله عنه في هذا ، فقد ذكر القرآن
الكريم ، حد الأمة إذا تزوجت ، وأحصنت بالزواج ، حيث يقول سبحانه :
« ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات ، فن ما مملكت
أيمانكم من فتياتكم المؤمنات ، والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض ،
فانكحوهن بإذن أهلن وآتوهن أجورهن بالمعروف ، محصنات غير
مسافحات ولا متخذات أخدان فإذا أحسن فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف
ما على المحصنات من العذاب ^(١) » .

فالأمة إذا أحصنت بالزواج ، ثم زنت ، فحدها أن تجلد خمسين جلدة ،
وهو نصف الحد الذى تحد به الحرة المحصنة بحريتها . . فالحرة محصنة من
حيث هى حرة ، فإذا تزوجت أحصنت إحصاناً آخر بالزواج . . ومن هنا

فرقت الشريعة الإسلامية بين الحرة نلتزوجة ، والحرة غير المتزوجة ، فأوجب رجم الأولى ، على حين جعلت حد الأخرى أن تجلد مائة جلدة لا . أما الأمة ، فلا تعد محصنة إلا بالزواج ، وإحصانها بالزواج ، ليس . إحصاناً كاملاً لما معها من امتنان الرق الذي لا تزال في قيده حتى بعد الزواج . ومن هنا كانت حكمة الشريعة في ملاحظتها وتقديرها لهذه الحال من الأمة ، فكان أقصى حد لها هو أن تجلد خمسين جلدة إذا كانت متزوجة . . ولا حد عليها إذا زنت ، وهي أمة ! تتزوج !

* * *

وروى أنه جاء رجل إلى عمر - رضى الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين : إن لى بنتاً واريثها^(١) فى الجاهلية ، فاستخرجناها قبل أن تموت ، فأدركت الإسلام ، فأسلمت ، ثم قارفت حداً من حدود الله ، فأخذت الشفرة لتذبح نفسها ، فأدركناها وقد قطعت بعض أوداجها . فداويناها حتى برئت ، وقابت توبة حسنة ، وقد خطبها قوم : فأخبرهم بالذى كان من شأنها ؟ فقال عمر - رضى الله عنه - أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه ؟ والله لئن أخبرت بشأنها أبداً لأجعلنك نكالا لأهل الأمصار ! أنكحها نكاح العفيفة السليمة ! .

وهو قد وقف بالفتاة عند حكم الشريعة . لأنها وقد اقترفت جريمة الزنا . فإنه لم يشهد عليها أربعة شهداء . ولم تقر هى بالزنا . وبغير هذا لا يقيم الحد على الزناة . وقد ندمت الفتاة فيما بينها وبين نفسها . فعمدت .

(١) أى دسها فى التراب ، على عادة بعض أهل الجاهلية فى وأد البات ، كما يقولون تعالى : « وإذا بشر أحدهم بالأشئ ظل وجهه مسوداً وهو كظيم ، يتوارى من النوم من سوء ما بشر به ، أيعسكه على هون أم يدسه فى التراب » ؟

إلى الانتحار ، وقد أخطأت إذ ظنت أن ذلك يكفر ذنبها ، بل هو ذنب إلى ذنب ! .

هذا هو عمر - رضى الله عنه - يجمع بين الشدة والرحمة .. فيستدحين لا يمد للرحمة موضعاً ، ويرحم حين يجد للرحمة مكاناً .. ثم هو مع هذا حصيف حكيم ، يقطع فيه صيب الحز ، ويضع المناء مواضع النقب ^(١) .

جاء رجل إلى عمر - رضى الله عنه - يطلب القود من رجل كسر عظماً له ، فأبى عمر أن يقتص له ، فقال الرجل : فكسر عظمى لذن كالأرقم ؛ إن يقتل ينقم ، وإن يترك يلقم ، فقال : عمر : « هو كالأرقم » ! وقد بيدو من هذا أن عمر - رضى الله عنه - لم ينصف الرجل ، ولم يقتص له بمن كسر عظمه .. ولكن الأمر على غير هذا ، فإن عمر لم ير القصاص فى كسر العظم ؛ لأنه إن كسر عظم الجانى لم يأمن أن يقضى ذلك إلى موته ، فيكون قتل نفساً بغير نفس ، وإنما الذى رآه عمر هنا ، هو الدية ، لا القصاص .. وهذا ما يقضى به الحق !

* * *

وعمر حين يجلس مجلس القضاء ، تلازمه صفته البارزتان فيه : الشدة والعدل ..

فهو صارم شديد الصرامة على المنحرفين ، والخارجين على حدود الله ، لا تأخذه فيهم شفقة ولا مرحة .

غير أن هذه الشدة الصارمة تحرسها عدالة قاهرة غالبية :

(١) المناء : العلاء الذى يطلى به البعير من الحرب ، والنقب : موضع الجرب ، وأنموه ..

فشدة عمر ، وعدله يأتلفان ، ويمتزجان في نفسه ، فإذا رأيت شدته ،
قلت : عدل صارم ، وإذا رأيت عدله ، قلت : شدة عادلة ..

وبين شدة عمر وعدله حجاز من الخوف يضرب بجناحيه جانب الشدة
إن اشتد ، وجانب العدل إن عدل ، فلا يبيت أبداً على طمأنينة ورضى !
إن دخل عدله على شدته ، حسب أنه لان وقصر في حقوق الله ،
ولم يأخذ الجرم بما يستحق من عقوبة وزجر .

وإن دخلت شدته على عدله ، خيل إليه أنه جار وظلم ، وتعدى الحد .
الواجب في العقوبة والزجر !

وإنه دائماً في هذا القلق النفسي الذي لا يدع لضميره لحظة من هدوء
واستقرار :.. فكلماً أمضى أمراً على وجه من هذين الوجهين ، امتلأت
نفسه خوفاً من أن يكون قد فرط أو أفرط ، فلا ينزاح هذا الهلم عن نفسه
إلا أن يفزع إلى الله تعالى بالبكاء والاستغفار !

روى أن عثمان بن عفان ، وطلحة ، والزبير ، وسعد بن أبي وقاص
تحدثوا إلى عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر في هيئته وشدته ، وأن
ذلك ربما يمنع طالب الحاجة من حاجته .. فجاء عبد الرحمن بن عوف
حكلمه في ذلك ، فكان جواب عمر :

« والله لقد لنت للباس حتى خشيت الله في اللين ، واشتدت حتى
خشيت الله في الشدة !.. فأين المخرج ؟ أين المخرج !! وقام يجر رداءه
ويبكي !!

وهل مخرج غير هذا الذي أنت فيه — يا باين الخطائب — من خوف

وخشية ومراقبة لله ، على كل حال من أحوالك ، وفي كل تصرف من تصرفاتك ؟ إنه السمو النفسى لا يرضى لك إلا أن تكون فى هذه اللحظة الدائمة ، لا تغفل أبداً حتى تلحق بصاحبك : النبى الكريم ، وأبى بكر الصديق !! وفى المثل : « من يخطب الحسنة لم يغلبها المهر » ولقد طلبت عظيماً ، فادفع المهر غالياً ، من سهر طويل ، وعمل دائب ، وجهاد متصل ، حتى تلحق بصاحبك !

* * *

الفصل الثاني

الحُدود وآل عمر

بهذا الإحساس كان عمر يقيم الحدود .. حيث يقوم عليه من نفسه
تشعوران : العدل والرحمة ..

فإذا كان الحد واقعاً في محيط آل عمر ، كان العدل الذي لم تخالطه
"الرحمة أبداً .. فلا يدخل على عدله شيئاً من الرحمة ، حذراً من أن يكون
في هذه الرحمة ما يجور على العدل ، الذي يريد أن يجريه خالصاً على نفسه وأهله ..
حيث لا يتعلق بشدته وقسوته حق لأحد عنده .. فإن اشتد فإنما يشهد على
نفسه ، وعلى من هم بعض نفسه من أهله !!

هنا نرى عمر صورة مجسدة للقسوة والغلظة .. إنه سيف ماض يضرب
في غير مرحلة ، ولننظر ونر :

كان عبد الرحمن بن عمر ، ممن كان مع عمرو بن العاص في مصر ،
مفأصاب يوماً شرباً فسكر ..

وندع عمرو بن العاص ، يذكر لنا هذه الحادثة ، وموقفه وموقف عمر
ابن الخطاب منها :

يقول عمرو بن العاص ، وقد ذكر عمر بن الخطاب ، فترحم عليه :
« والله ما رأيت أحداً أتقى منه ، ولا أحمل بالحق منه ، لا يبالي على من
وقع الحق ، من ولد أو والد .. إني لفي منزلي بمصر ضحى ، إذ أتاني آت ،

.. وقال : قدم عبد الله ، وعبد الرحمن ابنا عمر غازيين .. فقلت : أين نزلا ؟
قال : في موضع كذا ، وكان عمر قد كتب إلى : إليك وأن يقدم عليك أحد
من أهل بيتي ، فتجيزه أو تحبوه بأمر لا تصنعه مع غيره ، فأفعل بك ما أنت
أهله ! فضقت ذرعاً بقدميهما ، ولا أستطيع أن أهدي لهما ، ولأن آتيهما
في منزلهما ، خوفاً من أبيهما !!

قال عمرو : فوالله إني لعلّ ما أنا عليه ، وإذا قائل يقول : هذا
عبد الرحمن بن عمر بالباب وأبوسروعة يستأذنان عليك ، فقلت : يَدْخُلَانِ !
فدخلا ، وهما منكسران ، فقالا : أقم علينا حد الله ، فإننا أصبنا الليلة
شراباً فسكرنا ، فزبرتهما ، وطردتهما ، وقلت : ابن أمير المؤمنين ، وآخر
معه من أهل بدر !! فقال عبد الرحمن : إن لم تفعل أخبرت أبي إذا قدمت
عليه .. فملت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب عمر ، وعزاني .. فنحن على
ما نحن عليه ، إذ دخل عبد الله بن عمر ، فتمت إليه ورحبت به ، وأردت
أن أجلسه في صدر مجلسي ، فأبى علي وقال : إن أبي نهاني أن أدخل عليك
إلا إذا لم أجد من الدخول بداً ، وإني لم أجد من الدخول عليك بداً ..
إن أخى لا يحاق على رموس الناس أبداً^(١) .. فَمَا الصرب فاصنع ما بدا لك ..
فأخرجتهما إلى صحن الدار وضربتهما الحد .. ودخل عهد الله بن عمر بأخيه
إلى بيت الدار فخلق رأسه ، وخلق أباً سروعة ..

قال عمرو : فوالله ما كتبت إلى عمر بحرف ، وإذا كُتِبَ به قد
.. ورد ، وفيه :

« من عبد الله عمر ، أمير المؤمنين ، إلى العاصي بن العاصي .. »

(١) أي لا يحلق رأسه علنا عند إبانة الحد عليه ، وحلق الرأس كان من تمام
إقامة الحد

عجبت لك يا ابن العاصي ، ولجأأتك على ومخالعتك عهدي .

« أما إلى خالفت فيك أصحاب بدر ، ومن هو خير منك واخترتك »^(١)

ثم يقول عمر في كتابه : « تضرب عبد الرحمن بن عمر داخل بيتك ، وتحاق رأسه في داخل بيتك ، وإنما عبد الرحمن رجل من رعيته تصنع به ما تصنع بنيره من المسلمين .. ولكنك قلت : هو ولد أمير المؤمنين ، وقد عرفت ألا هوادة عندي في حق يحب الله عز وجل .. فإذا جاءك كتابي هذا ، فابعث به في عبادة على قتب^(٢) حتى يعرف سوء ما صنع ا

قال عمرو : فبعثت به كما قال أبوه ، وأقرأت أخاه عبد الله كتاب أبيهما ، وكعبت إلى عمر كتاباً أعذر فيه ، وأخبرته أني ضربته في صحن الدار ، وحلفت بالله الذي لا يحلف بأعظم منه ، أنه الموضع الذي أقيم فيه الحدود على السلم والذي .. وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر !!

ثم بكل القصة « أسلم » مولى عمر بن الخطاب « فيقول :

« قدم عبد الله بأخيه عبد الرحمن على أبيهما في عبادة ، وهو لا يقدر على المشي من مركبه الذي ركبه .. فلما رآه عمر ، قال : يا عبد الرحمن .. فعلت وفعلت ؟! السياط السياط !!

فكلمه عبد الرحمن بن عوف ، وقال : يا أمير المؤمنين ، قد أقيم عليه الحد مرة ، فلم يلتفت إليه وزره — أي دفعه — فأخذته السياط ، وجعل يصيح : أنا مريض ، وأنت والله قاتلي ، فلم يرق له حتى استوفى الحد ، وحبسه ، ثم مرض شهراً ومات !! » .

وهذه الحادثة في غنى عن كل تعليق ..

(١) يريد أنه اختاره لولاية مصر .

(٢) أي على ما يكون على طهر البعير من حشب ، دون حشبة .

فقد كانت جنابة عبد الرحمن بن عمر ، مثل جنابة صاحبه سروعة ..
وقد جلدهما عمرو بن العاص .. وقد ترك عمر أبا سروعة ، مكتفياً بما جلده به
ابن العاص .

أما ابنه عبد الرحمن ، فقد رأى فيه أن الأمر ليس مسألة حد وكفى ..
ولمّا هو كيف يقدم ابن عمر على شرب الخمر؟ إن ذلك مما يهون على الناس
شربها !!

ومن هنا كانت تلك العقوبة التي أنزلها عمر بابنه ، هي من حق الوالد
على ولده في تربيته ، وإقامته على الطريق الذي يريده أبوه .. وهو في هذا
التأديب يرى ما يراه صالحاً لتحقيق ما يريد !



هذه فعلة من فعلات عمر بولد من أولاده ..
وفعلة أخرى من فعلاته ، ومع ولد من أولاده أيضاً ..
عن مجاهد — رضى الله عنه — قال :

« تذاكرنا الناس في مجلس ابن عباس ، فأخذوا في فضل أبي بكر ، ثم
في فضل عمر ، فلما سمع ابن عباس ذكر عمر ، بكى بكاء شديداً ، ثم قال :
رحم الله رجلاً قرأ القرآن ، وعمل بما فيه ، وأقام حدود الله كما أمر ،
لا تأخذه في الله لومة لائم .. لقد رأيت عمر ، وقد أقام الحد على ولده ،
فقتله فيه .. »

ثم جعل ابن عباس — رضى الله عنه — يذكر وتائع هذا الحادث ،
فيقول :

« كنت ذات يوم في المسجد ، وعمر جالس والناس حوله ، إذ أقبلت
(٢٣ — عمر بن الخطاب)

جارية فقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين . . فقال : وعليك السلام ورحمة الله . . ألك حاجة ؟ قالت : نعم ، خذ ولدك هذا منى ! فقال عمر : إنى لأعرفك ، فبكت الجارية وقالت : يا أمير المؤمنين ، إن لم يكن ولدك من ظمرك ، فهو ولد ولدك ! فقال : أى أولادى ؟ قالت : أبو شحمة ؟ فقال : أبجزل أم بجرام ؟ قالت : من قبل فبجلال ، ومن جهته فبجرام ! قال عمر : وكيف ذاك ؟ اتقى الله ولا تقولى إلا حقاً !

« قالت يا أمير المؤمنين كنت مارة فى بعض الأيام ، إذ مررت بحائط لبنى النجار ، إذ أتى ولدك أبو شحمة يتمايل سكرأ ، وكان قد شرب عند نسيكة اليهودى ، ثم راودنى عن نفسى وجرنى إلى الحائط ، ونال منى ما ينال الرجل من المرأة ، وقد أغنى على ، فكنمت أمرى عن عمى وجيرانى حتى أحسست بالولادة ، فخرجت إلى موضع كذا ووضعت هذا الذلام وسممت بقتله ، ثم ندمت على ذلك ، فاحكم بحكم الله ييى وببنة ! !

« فأبر عمر منادياً ، فأقبل الداس يهرعون إلى المسجد ، ثم قام عمر فقال : لانتزقوا حتى آتاكم ، ثم خرج ، فقال يا ابن عباس أسمع منى . فلم يزل حتى أتى منزله ، فقرع الباب وقال : ها هنا ولدى أبو شحمة ؟ فقيل له إنه على الطعام ، فدخل عليه . ونال : كل يا بى . فيوشك أن يكون هذا آخر زادك ! .

ثم جعل عمر يسأله عن احادته ، وهو يجيب : نعم لقد فعلت ، وأنا تائب نادم !

فلم يستمع إليه عمر ، وقبض على يده . ولبيه ، وحره إلى المسجد . فقال : يا أبى لا تفضحى ، وخذ السيف واقطعنى إرباً إرباً . .

فقال عمر : أما سمعت قول الله تعالى : « ولينهد عذابهما طائفة من المؤمنين » . . ثم جاء به عمر إلى المسجد بين يدي أصحاب رسول الله ، وقال عمر : صدقت المرأة ، وأقر أبو شحمة بما قالت !!

ثم ها هو ذا عمر ، يأمر أحد الأقوياء الأشداء يجلد ولده ، وبأمره بأن ينزع عنه ثيابه ، فيفعل بهد تردد ، وتأخذ الشياطين الغلام فيصرخ ، ويقول : يا أبت ارحمني ، وعمر يقول ربك يرحمك !! وإنما أفل ذلك كي يرحمك ويرحمني ، وما زالت الشياطين تنهال على الغلام حتى بلغت سبعين سوطاً ، سقط بعدها الغلام مغشياً عليه ، وهو يقول : يا أبت أسقني شربة ، فيقول عمر : يا بني .. إن كان ربك يطهرك فيسقيك محمد ﷺ شربة لا نظاماً بعدها أبداً . . يا غلام اضربه ، ويستمر الضرب حتى بلغ الثمانين سوطاً ، فقال الابن : يا أبت السلام عليك ، ويقول عمر : وعليك السلام .. يا غلام اضربه ، فلما بلغ التسعين انقطع كلامه ، فقال من شاهده : يا أمير المؤمنين : انظر كم بقي فأخذه إلى وقت آخر . فقال عمر : لما لم يؤخر المعصية لا تؤخر العقوبة .. يا غلام تم الحد . وسقط الابن بين يدي أبيه ميتاً .. فقال عمر : يا بني محص الله عنك الخطأ .. ثم وضع رأسه في حجره ، وجعل يبكي ، وضح الناس بالبكاء ! .

هذا هو عمر ، بين العدل والرحمة !

إنه أب عطوف رحيم ، يفيض قلبه حناناً ورقة لولده .. شأن كل أب مع أبنائه . .

وإنه وال مستول أمام الله رب العالمين ، أن يرضى العدل ، ويقم الحد .

ولقد أعطى الله حقه ، فأقام الحد على أتم وجهه ، وجلده مائة جلدة ،

هى حد الزانى غير المحصن ، والعلام لم يكن قد تزوج بعد . وأعطى الأبوّة حقها ، فسكى إشفافاً ورحمة ..

ولو كان الجانى غير ابن عمر ، لما أقام عمر الحد عليه على تلك الصورة .
التى تذهب بحياة المجلود ، وإلا فما الفرق إذن بين الجلد والرجم ؟ وبين غير المحصن والمحصن ؟

وإذا كان الله تعالى قال فى رجم الزانى والزانية : « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » .. فإنه ليس من الرأفة إذا لم يجلد الضعيف الواهى ، بالقوة والشدة التى يجلد بها القوى ؟ ثم إنه إذا خشى التلف على المجلود ، خفف عنه الضرب وإن لم ينقص العدد ؟

وقد قلنا من قبل إن لعمر مع نفسه وولده وخاصة أهله ، شأنًا لا يكون منه مع غيرهم من سائر الناس ، فى الأخذ بالشدة والصرامة .. إنه مع نفسه وولده وأهله حذر أشد الحذر ، إنه لا يقبل أن ينظر فى شبهة تدرأ الحد ، ولو كانت الشبهة دانية قريبة .. فالسلامة عنده لدينه أن يحتاط كل الاحتياط وأن يأخذ بما لا شبهة فيه ، وإن كان فى ذلك الموت المحقق .. فالموت هين فى سبيل الحق والعدل ، والحياة رخيصة فى جانب مرضاة الله ، والطمع فى لقائه بنفس برئت من ذنوبها - وطهرت من آثامها ..

أما حين يكون الحد متجهًا إلى غير ولد وعمر وأهله ، فإنه يستحضر لذلك كل ما عنده من ذكائه وفراسته وفطنته ، فينقلب الأمر على وجوه كلها ، ويقابل بين الأدلة والقرائن ، فإذا استبان له الحق أمضى ، وإن وجد شبهة تمهل وتروى ، وراجع أصحابه ، فإن ظلت الشبهة قائمة درأ الحد بالشبهة .
علا بقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : « ادرءوا الحدود بالشبهات » .

عن ابن سبرة - رضى الله عنه - قال : « بينا نحن بمنى مع عمر - رضى الله عنه - وإذا امرأة ضخمة على حمار تبكى ، وقد كاد الناس يقتلونهم من الزحمة عليها ، وهم يقولون لها : زينت .. زينت !! فلما انتهوا بها إلى عمر قال : ما شأنك ؟ إن المرأة ربما استكرهت !! فقالت : كنت امرأة ثقيلة الرأس^(١) فصليت ثم نمت ، فوالله ما أيقظنى إلا لرجل قد علانى ، ثم نظرت إليه مقعياً^(٢) ما أدري من هو من خلق الله !! فقال عمر : لو قتلت هذه لخشيت على الأخشين النار^(٣) !! » .

فالشدة في عمر ، هي الشدة في إقامة ميزان الحق والعدل .. والرحمة في عمر ، إنما هي رحمة لا تنتقص العدل ، ولا تجور على الحق .. فإذا لم يكن ثمة عدوان على حد من حدود الله ، أو اعتداء على حق من حقوق العباد ، فعمر - رضى الله عنه - رحمة تتمشى في الناس ، وحنان يرف على الوجود ، ونسمة عطرة تنعش النفوس ، وتشرح الصدور ..

فرحم الله ابن الخطاب ، وألحقه بصاحبيه ، الرسول الكريم ، وأبى بكر الصديق !

* * *

(١) كناية عن أنها ثقيلة النوم .
(٢) الأخبثان : جيلان مطلقان على مكة ، وهما أبو قبيس والأحر ، وفي هذا كناية عن عذاب الله العام الشامل الذى يأتي على كل شيء لو قتل هذه المرأة .
(٣) أى جالساً المرفصاً .

الفصل الثالث

اجتهاد عمر فيما لا حد فيه

إذا كانت الشريعة الإسلامية قد بينت الجرائم التي أوجبت فيها الحد على مرتكبيها ، بعد التحقيق من مقارقتهم لها من عمد ، من غير قهر . أو خطأ أو نسيان ، وذلك في الزنا ، والسرقه ، والقتل والحراة والقذف وشرب الخمر - إذا كانت الشريعة الإسلامية قد بينت هذه الأنواع من الجرائم ، فإن هناك جرائم كثيرة تركت الشريعة للناس أن يعالجوها بتدبيرهم ، وأن يأخذوا مقترفيها بالعقاب المناسب لها ، ولم ، وذلك قياساً على تلك الجرائم التي بينت الشريعة حدها .

ويبدو وجه الحكمة في هذا في أكثر من جانب :

فأولاً : أنه لا يمكن حصر جميع المنكرات - صغيرها وكبيرها - التي تظهر في حياة المجتمعات ، في جميع الأزمان ، والأمكنة ، حيث تلد الحياة في كل زمان ومكان مواليد مشثومة من المنكرات ، مختلفة الأشكال ، والألوان ، ليس من الحكمة أن يكشف للناس عنها قبل أن تظهر فيهم ، لأن في ذلك إغراء لهم بالتعرف عليها ، واختبارها ، إرضاء لغريزة حب الاستطلاع الكامنة في الإنسان ..

وثانياً : ترك مجال للناس يعملون فيه عقولهم ، ويعالجون به الأدواء التي تعرض لهم ، وبين أيديهم الدليل الهادي من كتاب الله وسنة رسول الله .. فلا تمتلئ بذلك مدركاتهم ، ولا يحجر على اجتهادهم ، فيما يلقون

به مشكلات الحياة التي تعرض لهم ..

وهن هنا ، كان من الحكمة أن تدع الشريعة الإسلامية للناس معالجة هذه الجرائم العارضة ، التي هي في حقيقتها فرع من فروع تلك الجنائيات التي يينتها الشريعة ، ويبت العقوبة المناسبة لكل منها ..

يقول ابن نيمية — في كتابه : « السياسة الشرعية » — : « وأما المعاصي التي ليس فيها حد مقدر ولا كفارة .. كالذي يقبل الصبي ، والمرأه الأجنبية ، أو يباشر بلاجع ، أو يأكل ما لا يحل كالدّم والميتة ، أو يقذف الناس بغير الزنا ، أو يسرق من غير حرز^(١) ، أو يسرق شيئاً يسيراً^(٢) ، أو يخون أمانته ، كولاية أموال بيت المال ، أو الوقوف (أي الوقت) أو مال اليتيم ، ونحو ذلك إذا خانوا فيها ، وكالوكلاء والشركاء ، إذا خانوا ، أو يغش في معاملته ، كالذين يغشون في الأطعمة والثياب ، ونحو ذلك ، أو يطفف المكيال والميزان ، أو يشهد الزور ، أو ياتقن شهادة الزور . أو يرتشى في حكمة^(٣) ، أو يحكم بغير ما أنزل الله ، أو يعتدي على رعيته ، أو يعزى بعزاء الجاهلية ، أو يلبي دعوة الجاهلية إلى غير ذلك من أنواع المحرمات — فهؤلاء يعاقبون تعزيراً وتنكيلاً وتأديباً بقدر ما يراه الوالي ، على حسب كثرة الذنب في الناس وقلته ، فإذا كان كثيراً راد في العقوبة^(٤) بخلاف ما إذا كان قليلاً .. وكذلك

(١) أي يسرق ما لا تركه صاحبه من غير حراسة ، أو حفظ له في بيت أو نحوه ..
فالسارق لهذا المال يعزر ، ولا تقطع يده .

(٢) أقدر هذا السير بما لا يزيد على ربع دينار ، فالسارق هنا لا تقطع يده ، وإنما يعزر بما يراه ولي الأمر مناسباً ..

(٣) كما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم جلد في الحر أربعين ، وكذلك فعل أبو بكر ..
أما عمر ، فقد زاد جلد الشارب إلى ثمانين جلدة ، ملاحظاً هذا الاعتبار .

على حسب للذنب ، فإذا كان من المدمنين على النجور زيد في عقوبته ، بخلاف المقل من ذلك ، وكذلك على حسب كبر الذنب وصغره ، فمعاقب الوالى من يتعرض لنساء الناس وأولادهم ، ما لا يعاقبه من لم يتعرض إلا لامرأة واحدة أو صبي واحد . . » .

ما هو حد التعزير ؟

ويمنى ابن تيمية ، فى بيان حد التعزير ، وصوره المختلفة ، فيقول :
« وليس لأقل التعزير حد ، بل هو بكل ما فيه لإيلاف الإنسان ، من قول وفعال ، وترك فعل ، فقد يعزر الرجل بوعظه ، وتوبيخه ، والإغلاظ له . . وقد يعزر بهجره ، وترك السلام عليه حتى يتوب ، إذا كان ذلك هو المصلحة ، كما هجر النبي ﷺ وأصحابه الثلاثة الذين خانوا . . وقد يعزر بعزله عن ولايته ، كما كان النبي ﷺ وأصحابه ، يعزرون بذلك . . وقد يعزر بترك استخدامهم فى جمعة المسلمين ، كالجندي المقاتل إذا فر عن الزحف ، فإن الفرار من الزحف ، من الكبائر . . . وكذلك قد يعزر بالحبس ، وقد يعزر بالضرب . . وقد يعزر بتسويد وجهه وإركابه على دابة مقلوباً .

« كما روى عن عمر - رضى الله عنه - أنه أمر بذلك فى شاهد الزور ، فإن الكاذب سود الوجه ^(١) ، فسود وجهه ، وقلب الحديث ، قلب ركو به . .

« أما أعلاه - أى أعلا حد التعزير - فقد قيل : لا يزداد فيه على عشرة أسواط . . وقال كثير من العلماء لا يبلغ به الحد ^(٢) . . ثم هم - أى هؤلاء العلماء - على قولين : منهم من يقول : لا يبلغ به أدنى الحدود ،

(١) أى وجه من شهد عليه زوراً ، حيث أخزاه وفضحه

(٢) أى الحد المفروض للجريمة . . فلا يجلد مائة جلدة من قبل أجنبية مثلاً .

فلا يبلغ بالحر أدنى حدود الحر ، وهى الأربعون أو الثمانون — فى شرب
الخمر — ولا يبلغ بالعبد أدنى حدود العبد ، وهى العشرون أو الأربعون..
وقيل بل لا يبلغ بكل منهما حد العبد ، ومنهم من يقول : لا يبلغ بكل
ذنب حد جنسه ، وإن زاد على حد جنس آخر ، فلا يبلغ بالسارق من غير
سحرز ، قطع اليد ، وإن ضرب أكثر من حد القاذف ، ولا يبلغ بمن فعل
ما دون الزنا حد الزانى ، وإن زاد على حد القاذف .. كما روى عن عمر
— رضى الله عنه — أن رجلاً نقش على خاتمه ، وأخذ بذلك من بيت
المال ، فضربه مائة ، ثم ضربه فى اليوم الثانى مائة ، ثم ضربه فى اليوم
الثالث مائة ضربة ^(١) .



وقد واجه عمر — رضى الله عنه — مجتمعاً مفتوحاً على شعوب ومجتمعات
دخلت فى الإسلام ، وأاحتسكت به ، ومعها عاداتها وتقليدها ، وأساليبها
فى الحياة ، فدخل على المسلمين من هذا ما لم يكن لهم به عهد به فى حياة
الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — وفى خلافة أبى بكر — رضى الله عنه —
وكما كان عمر — رضى الله عنه — يمسك حياته الخاصة على ألا يغير منها شيئاً
كما كانت عليه فى حياة الرسول الكريم ، وفى خلافة أبى بكر ، فإنه أراد
أن يمسك المجتمع الإسلامى كله ، على ما كان عليه فى تلك الفترة الوضيئة
المشرقة ..

ولاشك أن أمراً كهذا ، هو تكليف للنفس بما لا يطاق ، فإن للزمن
دورته التى لا تتوقف ، ولا يمكن لأية قوة فى الأرض أن توقفها .. ومع

هذا فإن عمر - رضى الله عنه - وقف فى الميدان لم يتزحزح عن موضعه ، وإن كانت أرض الميدان تتحرك ، وتضطرب تحت قدميه ، حتى وقع شهيداً فى الميدان !!

رأى عمر أناساً يتبعون أبى بن كعب ، فرفع عليه الدرة - نغزراً له - فقال : يا أُمير المؤمنين اتق الله !! فقال عمر : « فها هذه الجوع حلتك بأبن كعب ؟ أما علمت أنها فتنة للمتبع » ، مذلة للتابع !! » ..

ولم يكن لأبى بن كعب - رضى الله عنه - ذنب فى هذا ، ولم يكن هو الذى دعائك الجوع إلى اتباعه ، وإنما كان قارئاً لكتاب الله ، حافظاً له ، قد اختصه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بأن يقرأ عليه القرآن بأمر من الله تعالى ، فرأى المسلمون يومئذ أن يأخذوا القرآن الكريم ، عن هذا الصحابى الجليل الذى اختصه الله تعالى بما اختصه به من فضل . فالتفوا حوله ، واجتمعوا عليه ..

ولم يغيب هذا عن عمر - رضى الله عنه - ولكنه كان يرى هذا مدخلا من مداخل الفتنة للناس ، لأبى - رضى الله عنه - ولئن يحدو حذوه افكان أن نبه أئبىا إلى هذا ، حتى يأخذ حذره من هذه الفتنة الخفية !!



وذات ليلة كان عمر - رضى الله عنه - يمس فى المدينة ، إذ سمع امرأة من سلع ، وهى تنشد :

تطاول هذا الليل وإزور جانبه وليس إلى جنبى خليل ألاعبه

فوالله ، لولا الله تخشى عواقبه لزحزح من هذا السرير جوانبه

مخافة ربى والحياة تصدى وأكرم بلى أن تنال مراكمه

وكان زوج المرأة غازياً في سبيل الله ، وقد طالت عييته عنها . . فقال .
عمر : لا حول ولا قوة إلا بالله ! ماذا صنعت يا عمر بنساء المدينة ؟
ثم جاء فضرب على ابنته أم المؤمنين حفصة بابها ، فقالت له : ما جاء بك
في هذه الساعة ؟ قال : ؟ أخبريني . . كم تصبر المرأة المغيبة عن بعملها ؟ قالت :
أقصاه أربعة أشهر !!
فلما أصبح كتب إلى أمرائه في جميع النواحي : « ألا تجمر^(١) البعوث ،
وآلا يغيب رجل عن أهله أكثر من أربعة أشهر !!

* * *

ولما أراد عمر — رضى الله عنه — أن يدون الدواوين . قيل له : إن
ها هنا رجلاً من الأحبار نصرانياً ، له بصر بالديوان ، لو اتخذته كاتباً ؟
فقال : لقد اتخذت إذن بطانة من دون الله !! يشير بهذا إلى قوله تعالى :
« يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ، لا يألونكم خبالاً ، ودوا
ما عنكم ، قد نددت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر^(٢) » .

* * *

هذه أمور قد تبدو عند بعض الناس هيمنة ، ولكنها في نظر عمر
خروق في ثوب الإسلام وأن هذه الخروق إذا تركت ولم تسد على صفرها ،
انسعت ، حتى تذهب بالثوب كله ..

* * *

يروى أن عمر — رضى الله عنه — استعمل رجلاً على اليمن ، فوفد إليه .
وعليه حلة مشهرة^(٣) ، وهو مرجل دهين^(٤) فقال له : أهكذا بعثناك ؟ ثم .

(١) أي محبس في النزو . .

(٢) سورة آل عمران : ١١٨

(٣) أي طقعة للنظر لحسنها . .

(٤) أي مرسل شعر الرأس مدهونة . .

أمر بالحلة فنزعت عنه ، وألبس جبة صوف !! ثم سأل عن ولايته ، فلم يذكرها إلا خيراً ، فردّه إلى عمله .. ثم وفد إليه بعد ذلك ، فإذا هو أشعث مغبر ، عليه أطلاس - أى ثياب مغبرة وسخة - فقال له عمر : « ولا كل هذا !! إن عاملنا ليس بالشعث ولا العافى - الذى يطلق لحيته - كلوا ، واشربوا ، وادهنوا .. إنكم لتعملون الذى أكره من أمركم .. »

• • •

عمر ونصر بن حجاج :

وقد عاب بعض السفهاء على عمر - رضى الله عنه - ما كان منه لنصر بن حجاج ، وقالوا : إن هذا مصادرة للحرية الشخصية وتدخل من الحاكم فى الشئون الخاصة للمحكومين !!

والحادثة كما ترونها كتب التاريخ ، أن عمر - رضى الله عنه - كان يعس ليلاً فى بعض طرق المدينة ، حتى انتهى إلى باب متجاف - أى لم يغلق تماماً - وإذا امرأة تغنى نسوة ، وتقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج !!
فقال عمر : أما ماعشت فلا ! - أى لا سبيل لك إلى هذا أو ذاك
ما دام عمر حياً !!

ولما أصبح ، دعا نصر بن حجاج ، فإذا هو من أصبح الناس وجهاً ، وأصبحهم وأملحهم حساً ، فأمر أن يطام شعره ^(١) فبرزت جبهته فازداد حسناً ، فقال له عمر : اذهب فاعتم ، فبدت وفرتة ^(٢) فأمر بحلقها ، فازداد

(١) أى يجمع ويضم ..

(٢) الورة : ما سال على الأذنين من الشعر ..

حسنها ، فقال له عمر : فتنت نساء المدينة يا ابن حجاج ، لا تجاورنى فى بلدة .
أنا مقيم بها .. ثم سيره إلى البصرة ١١

قيل : ولما كان نصر بن حجاج بالبصرة ، دس فى البريد إلى المدينة
بكتاب إلى عمر - رضى الله عنه - وفيه :

« لعبد الله عمر أمير المؤمنين .. من نصر بن حجاج ، سلام عليك ..
أما بعد يا أمير المؤمنين :

لعمري لئن سيرتني أو حرمتني لما نلت من عرضي عليك حرام
إن غنت الذلفاء يوما بمنية وبعض أمانى النساء غرام ،
طننت لى الظن الذى ليس بعده بقاء ، فالى فى الندى كلام .
وأصبحت منقياً على غير ريبة وقد كان لى بالمسكتين^(١) مقام .
سيمنعنى مما تظن تكرمى وآباء صدق سالفون كرام
ويمنعها مما تمت صلاتها وحال لها فى دينها وصيام
فها تان حالانا ، فهل أنت راجع فقد جب منى كاهل وسنام^(٢)
فلما قرأ عمر كتاب نصر ، قال : أما ولى ولاية ، فدا ، وأقطعه أرضاً
بالبصرة وداراً ..

وقيل : إن أم نصر بن حجاج قد اشتدت عليها غيبة ولدها ، فتمرست .
لعمري بين الأذان والإقامة ، فقدمت له على الطريق ، فلما خرج يريد الصلاة
هتفت به وقالت : يا أمير المؤمنين .. والله لأجائينك^(٣) غداً بين يدي الله .
عز وجل ، ولأخاصمك إليه .. يبيت عاصم ، وعبد الله - ولدا عمر - إلى .

(١) هما مكة والمدينة ، مثنى على تغليب مكة على المدينة .

(٢) كناية عن حاله من الضعف ، وما فعلت الغربة به .

(٣) الجنو : الجلوس على الركبتين فى موقف الخصومة .

حيث يستعد للجدل وبطول .
ويكل المصالح ومن الوقوف ، فيجلسان ويجهزان على الركب .

جانبك ، وبينى وبين ابني النياقي والقفار ، ولتقاوز والجمال ؟ فقال عمر :
من هذه ؟ فقيل : هذه أم نصر بن حجاج . فقال : يا أم نصر : إن عاصمًا
وعبد الله لم تهتف بهما العواتق^(١) من وراء الخدور !

.. هذا ، وقد نسج من خيوط هذه الحادثة كثير من الأحاديث والأخبار
شعراً ونثراً ، وذلك لأنها تعد من أبكار الأحداث التي لم يسبقها ما يماثلها ،
حيث تصبح حديث الناس ، وما يفضون من خواطرهم عليها ..

وإذا كان عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — قد صنع مع نصر بن
حجاج هذا الذي صنعه معه . فذلك مما تقتضى به الحكمة في علاج هذه الفتنة
التي أظلت برأسها في المدينة ، حيث كان جمال هذا العربي وشبابه المحدث
حيوية وحسناً ، مما يلفت الحرائر إليه ، ويفريهن به على تعفهن ، واتقاء
الله في دينهن .. ولكن مع طول الزمن في مواجهة هذه الفتنة ، قد تضعف
بعض النفوس ، وتفحل بعض العزائم ، فيقع الخذور !

إن سد الذرائع شريعة من شريعة الإسلام . فالخمر مثلاً ، وإن كان
الحرام واقعاً على شربها أصلاً ، فإنه قد وقعت الحرمة على كل ما يؤدي
إلى شربها .. فحرمت لذاتها ، ولذلك وجب إتلافها ، وكسر آنيةها ، كما
حرم عصرها ، وحرم تقديمها لشاربيها . وحرم حضور مجلس شربها .. وكل
هذا ليس حراماً في أصله ، ولكنه إذ كان ذريعة مؤدية إلى أصل الحرام
وهو الشرب ، فقد ألحق بهذا الأصل . عملاً بالقاعدة الشرعية : ما أدى
إلى حرام فهو حرام !

وما فعله عمر — رضى الله عنه — مع نصر بن حجاج — لا يعدو

(١) الحرائر ذوات الحسب من النساء . والعواتق جمع عتقة ، من العنق وهو الكرم .

في حقيقة ما كان يجب أن يفعله مع الخمر ، وتحريم دخولها إلى دار الإسلام ،
فإذا دخلت وجب عليه إتلافها ..

وعمر - رضي الله عنه - لم يتلف نصر بن حجاج ، وما كان له أن
يتلفه . لأنه لم يقترب ذنباً ، ولم يدع حرة إلى أن تفرم به ، وتتوله في حبه ،
فكان أن حوله عمر من المدينة إلى البصرة ، وضمن له حياة أمن واستقرار
فيها ، إدا قطعه أرضاً وداراً بها ..

وقد يقول قائل : لماذا لم يلحق عمر نصر بن حجاج ببجوش المجاهدين ،
فيكون ذلك انتقاء من أن يفتن أو يفتن من جهة ، ثم تعرضه لثواب المجاهدين
عند الله من جهة أخرى ؟

ونقول : إن عمر - رضي الله عنه - لم يكن ليفعل عن هذا ، ولكنه
لم يفعله - فيما نظن - لأمر منها :

أولاً : أن الجهاد في الإسلام أصله التطوع ، وليس الإيجاب ، وخاصة
في هذا الوقت الذي تم فيه فتح الشام ، والعراق ، ومصر ، ولم يكن المسلمون
في وجه هجوم عليهم من العدو .. وإنما يكون للمجاهد ثوابه كاملاً عند
الله ، إذا خرج بدافع من إيمانه ، للدفاع عن دين الله ، والاستسهاد في
سبيل الله ..

ثانياً : لو بعث عمر - رضي الله عنه - بنصر بن حجاج إلى الجهاد ،
وألحقه بجيش المجاهدين لبدأ ذلك ودأبه عقوبة يعاقب بها .. وهذا لاشك
انتقاص من قدر الجهاد ، الذي لا ينتظم في ركبه إلا الصفوة المتخيرة من
المؤمنين .. أما أن يهتق به أصحاب التهم ، أو الريب كعقوبة لهم ، فهذا
- كما قلنا - إضرار بالجهاد ، واستخفاف به وبالمجاهدين .

وثالثاً : كان عمر - رضي الله عنه - قد جعل للمجاهدين أمداً

لا يفتبون فيه عن أهلهم في موقع جهادهم. وهو أربعة أشهر.. فكيف يكونه.
الموقف مع نصر بن حجاج ، لو أنه ألحق بجيش المجاهدين ، ثم عاد إلى
المدينة بعد أربعة أشهر؟ ألا تعود الفتنة به من جديد كما كانت ، بل وأكثر
مما كانت ؟

ورابعاً : أن مدينة الرسول لها حرمتها وجلالها ، بحيث يجب أن تظل
أرضها طاهرة ، وسماؤها صافية من كل غبار ، أو دخان ، ولو كان قليلاً..
الأمر الذي إن كان في غيرها ، وغير مكة من بلاد المسلمين ، كان أخف..
وقعاً.. ولهذا كان أن حول عمر نصر بن حجاج ، وما أثير حوله من غبار..
ودخان إلى البصرة التي هيئات أن تخلو من مثل هذا الغبار والدخان !

وعلى هذا ، فإن الذي كان من صنيع عمر - رضى الله عنه - مع نصر..
ابن حجاج ، هو الأسلوب الحكيم ، والدواء الناجح لهذا الداء العارض .



الباب السادس عمر ومطاع الطاعين عليه

لا تخلو حياة عظيم في أى مظهر من مظاهر العظمة والنبوغ ، دون أن تسلم من الغمز والتجريح ، أو من الاستخفاف والاستخفاف ، ذلك أن الحسد داء يشيع في الناس ، والصعود إلى القمم يغرى الذين تحت السطح برجم الصاعدين بالحصا ، وبالتذف بالألسنة . . هكذا الناس ، وهكذا مقام العظماء فيهم ، ابتداء من أعلى قمة يقوم عليها الأنبياء والمرسلون ، إلى مادونها بما يرنق سله الراشدون ، والمصلحون ، والناهبون من أرباب العلوم والفنون..

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه فالكل أعداء له وخصوم
كضرائر الحسنة قلب لوجهها حسداً وبغضاً ، إنه لدميم

فكيف إذا كان العظيم يضم في كيانه أشتاتاً من العظمة الموزعة في كثير من العظماء ؟ ثم كيف إذا كان هذا العظيم حاكماً في الناس ، قائماً على أمرهم ، مدبراً لشئون سلمهم وحربهم ، مسئولاً عن طعامهم وكسائهم ، موكلاً بأمنهم وحفظهم ؟ إنه إن أرضى فريقاً ، فبهيات أن يرضى كل فريق ، وإن أرضى في جانب ، فلن يحقق الرضا لجميع الجوانب . .

يقول ابن أبي الحديد في الجزء الثالث عشر ، من شرح نهج البلاغة :
« واعلم أن من تصدى للعيب وجده ، ومن قصرت همته على الطعن على الناس انفتحت له أبواب كثيرة » .

وعمر - رضى الله عنه - قام على سياسة دولة مترامية الأطراف ، قد
(م ٢٤ - عمر بن الخطاب)

ثم قيامهما على دين ، ولم يكن قد استقر لها نظام سياسى ، أو اجتماعى ، أو اقتصادى .. فكان عليه أن يقيم هذه الأنظمة ، وأن يعمد قواعدها ، مستهدياً فى هذا بكتاب الله ، وسنة رسول الله ، مسئلتها ما يوحى إليه دينه ، فى كل لبنة يضعهما لإقامة صرح هذه الأنظمة الجديدة ..

ثم إنه ليس بضير عمر ، ولا ينتقص من منزلته المالية الشاخصة القائمة على قبة عظماء الرجال - أن يخطئ ، فهو بشر غير معصوم من جهة ، ثم هو مجتهد ، متحرر للحق من جهة أخرى ، يخطئ ، ويصيب ، وهو فى كلا الحالين مأجور .. إن أخطأ فله أجر على اجتهاده ، وإن أصاب فله أجران : أجر على اجتهاده ، وأجر على إصابته !

والذى يلاحظ هنا ، أن ما يعاب على عمر - رضى الله عنه - إنما كان من جهة الشيعة ، حيث يرون أن علياً - رضى الله عنه - هو أولى المسلمين بالخلافة بعد رسول الله - ﷺ - وأن عمر ، هو الذى كان له الدور الأول فى صرفها عن آل البيت ..

وهانحن أولاء ، نعرض أهم تلك المآخذ ، التى كان لبعض الناس قول فيها .. نعرضها أولاً مع مقولات أصحابها ، ثم نعرض ماورد من ردود عليها ، ثم نعرض رأينا فى القضية كلها ، من جانبي المختصين فيها .

* * *

الفصل الاول

موقف عمر من خلافة علي

توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم : دون أن يبايع المسلمين على خليفة يخلفه عليهم من بعده .. هذه حقيقة يعلمها المسلمون جميعاً ، لم تغب عن أحد منهم .. والشاهد على هذا :

أولاً : . ما كان من عمر - رضى الله عنه - من إنكار موت النبي ﷺ ، حين جاء خبر موته ، من بيت عائشة - رضى الله عنها - الذى كان على فراش المرض فيه ، حيث كان صحابة رسول الله مجتمعين حول الدار .. وعندها قام عمر - رضى الله عنه - شاهراً سيفه ، مهدداً من يقول إن رسول الله - ﷺ - قد مات ، وهو يقول : إن الرسول قد ذهب إلى ربه ، كما ذهب موسى إلى ربه ، وغاب عن بنى إسرائيل أربعين ليلة . وإنه ﷺ - عائد ، وسيقطع أيدي رجال قالوا إنه قد مات !!

وما كان عمر - رضى الله عنه - ينكر أن يموت الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - لأنه بشر ، وكل الناس سيموتون ، وقد مات رسل الله ، وإنه لابد أن يموت رسول الله .

ولمّا الذى أنكره عمر - رضى الله عنه - هو موت رسول الله ﷺ من غير أن يتحقق قوله تعالى : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » .. ولذلك نفى عمر خبر موته - ﷺ - لأنه حال

الآية على أنها خبر في حال حياة النبي ، حتى قال له أبو بكر - رضى الله عنه - إن الله وعده بذلك وسيفعله .. ثم إن عمر - رضى الله عنه - كان . يقدر أنه لا يموت الرسول الكريم ، حتى يقيم على المسلمين من يخلفهم من بعده ، حتى لا يقع الاضطراب ، والاختلاف بينهم ..

وثانياً : أن من الشواهد القوية الواضحة على أن الرسول ﷺ لم يشر إلى الشخص الذى يخلفه من بعده على أمور المسلمين - هو ما كان من اجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة ، ليختاروا من بينهم من يتولى الأمر بعد رسول الله ، ذلك ورسول الله ﷺ لم يدفن بعد .. فلو أنه كان هناك شخص أوصى الرسول له بالخلافة من بعده ، لما دعا الأنصار إلى مثل هذا الاجتماع ، ولما اجتمع إليهم المهاجرون ينازعونهم الأمر ، ويرون أنهم أحق به . من الأنصار ، حتى تم الأمر بإقامة أبى بكر خليفة على المسلمين .

فالمقطع به إذن هو أن رسول - ﷺ - لم يوص لشخص معين بالخلافة: على المسلمين من بعده .. ومع هذا ، فإن الشيعة يقولون إن الرسول ﷺ ، قد أوصى لعلى كرم الله وجهه بالخلافة من بعده ، ويأتون على هذا بشواهد من أقوال الرسول الكريم ، كقوله لعلى ، وقد خلفه على أهله فى غزوة تبوك ، فقال له على : يا رسول الله ، قد يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض إنك إنما خلفتني استئقالاتي ، فقال له ﷺ : « أما ترضى أن تخلفني فى أهلى ؟ أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هرون من موسى ، إلا أنه لاني بعدى ؟ » .. وكذلك قوله ﷺ ، عند غدير خم على مشهد من الصحابة : « من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه » .

وإذا صح هذان الخبران وأمثالهما ، فإن ذلك لا يعنى إلا أن يكون

تنويعها بفضل على ، كما نوه عليه السلام بكثير من صحابته ، أبي بكر ، وعمر ،
وعثمان ، وأبي عبيدة ، وأبي ذر ، وغيرهم ، كقوله عليه السلام : « وزنت بأمتي
فرجعت ، ووزن أبو بكر بها فرجح ، ووزن بها عمر ، فرجح ، ثم رجح ،
ثم رجح » .

ومعنى هذا أن الرسول عليه السلام وزن بأمته ، وفيها أبو بكر ، وعمر ،
فرجح ، ووزن بها أبو بكر ، وفيها عمر فرجح ، ووزن بها عمر وليس فيها
أبو بكر فرجح ، ثم رجح ، ثم رجح .

وكتوله عليه السلام : « قد كان في الأمم قبلكم محدثون ، فإن يكن في أمتي
محدثون ، فإن عمر منهم » ^(١)

فهذه الصفات التي وصف الرسول الكريم بها بعض أصحابه ، ليس
فيها دلالة قاطعة لأحد بأن يقوم على خلافة المسلمين بعد رسول الله عليه السلام ،
فكل ذي صفة أو أكثر من هذه الصفات صالح لأن يتولى الخلافة ، وللمسلمين
أن يختاروا من يروونه لسياسة أمورهم ..

يقول ابن أبي الحديد شارحاً رأيه في توجيه مثل هذه الأخبار التي
رويت في فضل علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - والتي فهم منها الشيعة
أنها نص في خلافة علي بعد رسول الله عليه السلام - يقول ابن أبي الحديد :
سألت النقيب أبا جعفر يحيى بن محمد بن أبي زيد ^(٢) ، وقد قرأت عليه هذه
الأخبار ، فقلت له : ما أراها إلا تكاد تكون دالة على النص ، ولكي
أستبعد أن يجتمع الصحابة على دفع نص رسول الله عليه السلام وآله ، على شخص

(١) والحدث : بالدال المشددة المفتوحة ، هو من يلهم الحديث بما يلقي في روعه من

الملك (بفتح اللام) .

(٢) من قهاء الشيعة .

يعنيته ، كما استبعدنا من الصحابة ردنصه على الكعبة وشهر رمضان وغيرها
من معالم الدين ..

فقال (١) لى رحمه الله : أبى إلا . . . إلا إلى المعتزلة ، ثم قال لى : إن
القوم - أى الصحابة - لم يكونوا يذهبون فى الخلافة إلى أنها من معالم
الدين ، ولكنهم كانوا يجرونها محرى الأمور الدنيوية ، ويذهبون لهذا ،
مثل تأمير الأمراء ، وتدبير الحروب ، وسياسة الرعية ، وما كانوا يبالون
فى هذا من مخالفة نصوصه ﷺ وآله ، إذا رأوا المصلحة فى غيرها . . ألا
ترأه - أى النبى ﷺ - كيف نص على إخراج أبى بكر وعمر فى جيش
أسامة ، ولم يخرج لما رأيا أن فى مقامهما مصلحة للدولة ، وللملة ، وحفظاً
للبيضة ، ودفعاً للفتنة ، وكان ﷺ يخالف وهو حى فى أمثال ذلك ، فلا
يفكره ، ولا يرى به بأساً ! ألا ترى أنه نزل فى غزوة بدر منزلاً على
رأس محارب قريباً فيه ، فخالفه الأنصار ، وقالت له : ليس الرأى فى نزولك
هذا للمنزل ، فاتركه ، انزل فى منزل كذا ، فرجع إلى آرائهم . . وهو -
ﷺ - الذى قال للأنصار عام قدم إلى المدينة : « لا تؤبروا النخل » (أى
لا تلحقوه) فعملوا على قوله ، فحالت نخلم فى تلك السنة ولم تثمر ، حتى
قال لهم : « أنتم أعلم بأمور دنياكم ، وأنا أعرف بأمر دينكم » . . وهو -
ﷺ - الذى أخذ الفداء من أسارى بدر ، فخالفه عمر ، فرجع إلى تصويب
رأيه ، بعد أن فأت الأمر ، وخلص الأسرى ، ورجعوا إلى مكة ! وهو
صلى الله عليه وسلم وآله - الذى أراد أن يعالج الأحزاب على ثلث تمر المدينة
ليرجعوا عنه ، فأتى سعد بن معاذ ، وسعد بن عوادة ، فخالفاه ، فرجع
إلى قولها

(١) يشير إلى الدبيب القبيح .

ثم يقول النقيب :

« وقد أطبقت الصحابة إطباقاً واحداً على ترك كثير من النصوص ، لما رأوا المصلحة في ذلك ، كإسقاطهم سهم ذوى القربى ، وإسقاط سهم المؤلفة قلوبهم .. وهذان الأمران أدخل في باب الدين منهما في باب الدنيا ، وقد عملوا بأرائهم أموراً لم يكن لها ذكر في الكتاب والسنة ، كحد الخمر ، فإنهم عملوه اجتهداً ، ولم يجد رسول الله ﷺ وآله ، شارب الخمر ، ولقد شربها إجماع النكير في زمانه بعد نزول آية التحريم ^(١) . . وقد أوصاهم في مرض موته ؛ أن أخرجوا نصارى نجران من جزيرة العرب فلم يخرجوهم ، حتى مضى صدر من خلافة عمر ، وعملوا في أيام أبي بكر في ذلك باستصلاحهم وهم - أي الصحابة - الذين هدموا المسجد بالمدينة ، وحولوا القام بمكة ، وعملوا بمقتضى ما يغلب على ظنونهم من المصلحة ، ولم يقفوا على موارد النصوص ، حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد ، فرجح كثير منهم القياس على النص ، حتى استحال الشريعة ، وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة !!

ثم يقول النقيب :

« وأكث ما يعملون - أي الصحابة - بأرائهم فيما يجرى مجرى الولايات ، والتأثير ، والتدبير ، وتقرير قواعد الدولة ، وما كانوا يقفون مع نصوص الرسول ﷺ وآله وتديبراته ، إذا رأوا المصلحة في خلافها ، كأنهم كانوا يقيسون نصوصه المطلقة بقيد غير مذكور لفظاً ، وكأنهم كانوا يفهمون من قرآن أجواله ، وتقرير ذلك القيد : « افعلوا كذا إن رأيتم فيه مصلحة » !!

(١) انزلت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جلد في الخمر أربعين جلدة .

ويعفى النقيب قائلا :

« وأما مخالفتهم له - أي للرسول - ﷺ - فيما هو محض الشرع والدين وليس بمتعلق بأمور الدنيا وتديراتها ، فإنه يقل جداً .

نحو أن يقول : « الوضوء شرط في الصلاة » فيجمعوا على رد ذلك ، ويميزوا الصلاة من غير وضوء ، أو يقول : « صوم شهر رمضان واجب » فيطهروا على مخالفة ذلك ، ويحملوا شوال عوضاً عنه - فإنه بعيد ، إذ لا غرض لهم فيه ، ولا يقدرّون على إظهار مصلحة عثروا عليها ، خفيت عنه ﷺ وآله .

ثم يخلص النقيب من هذا إلى موقف الصحابة من على كرم الله وجهه ، فيقول :

« والقوم الذين كان قد غلب على ظنونهم أن العرب لا تطيع علياً عليه السلام ، فبعضها للحسد عليه ، وبعضها للوتر والنار ، وبعضها لاستحداثهم سنه ، وبعضها لاستطالته عليهم ورفعهم عنهم ، وبعضها كراهة اجتماع النبوة والخلافة في بيت واحد ، وبعضها للخوف من شدة وطأته وشدته في دين الله ، وبعضها خوفاً لرجاء تداول قبائل العرب لـخلافة إذا لم يقتصر بها على بيت مخصوص عليه ، فيكون رجاء كل حي لوصلهم إليها ثابتاً مستمراً ، وبعضها ببعضه لبعضهم من قرابته لرسول الله صلى الله عليه وآله ، وهم المناقون من الناس ، ومن في قلوبهم مرض وزيف من أمر النبوة - فأصق^(١) الكل إصفاً واحداً على صرف الأمر منه إلى غيره » وقال رؤساؤهم^(٢) : « إنا خفنا الفتنة ، وعلينا أن العرب لا تطيعه - أي علياً -

(١) أي أجمع .

(٢) يتنون رؤساء الصحابة ، وعلى رأسهم في هذا المؤلف عمر - رضي الله عنه - .

«ولا تتركه ، وتأولوا عند أنفسهم الغص ، ولا يفكرون النص ، وقالوا : إنه النص ، ولكن الحاضر ، يرى ما لا يرى الغائب ، والغائب قد يترك لأجل المصلحة الكلية ، وأعانهم على ذلك مسارعة الأنصار إلى ادعائهم الأمر ، وإخراجهم سعد بن عباد ، من بيته وهو مريض ، لينصبوه خليفة — فيما زعموا — واختلط الناس ، وكثر الخبط ، وكادت الفتنة تشتعل نارها ، فوثب رؤساء المهاجرين فبايعوا أبا بكر ، وكانت فلتة^(١) ، كما قال قائلهم ، وزعموا أنهم أطفئوا بها نائرة الأنصار ...

ثم يمضى النقيب قائلاً :

«وسكت الناس على الإنكار — أى إنكار الافتيات على عليّ — كرم الله وجهه — فإنهم كانوا متفرقين ، ففهم من هو مبغض شأني لعل عليه السلام ، فالذي تم من صرف الأمر عنه ، هو قرة عينه ، وبرد فؤاده ، يومئذ ذوالدين وصحة اليقين ، إلا أنه لما رأى كبراء الصحابة قد اتفقوا على صرف الأمر عنه — أى عن عليّ — ظن أنهم إنما فعلوا ذلك لنص سمعوه من رسول الله ﷺ وآله ، ينسخ — أى هذا النص — ما قد كان سمعه من النص على أمير المؤمنين عليه السلام ، لا سيما ما رواه أبو بكر حين قول النبي ﷺ وآله : « الأئمة من قريش » — فإن كثيراً من الناس توهموا أنه ناسخ للأصل الخاص ، وأن معنى الخبر أنكم مباحون في نصب إمام من قريش ، من أى بطن كان ، فإنه يكون إماماً . . . وأكد أيضاً رفض النص الخاص ما سمعوه من قول النبي ﷺ وآله : « ما رآه المؤمنون حسناً ، فهو عند الله حسناً » وقوله ﷺ : « سألت الله ألا يجمع أمتي على ضلال ، فأعطانيها » فأحسنوا الظن بما قدى البيعة ...

(١) أى كانت بيعة أبي بكر فلتة ، أى نادرة ومهمة على غير توقع لوقوعها . . .

ثم يبين النقيب موقف عمر في هذا الأمر ، فيقول :

« وما جرأ عمر على بيمه أبي بكر ، والعدول عن علي - مع ما كان يسمعه من الرسول ﷺ في أمره - أنه - أي عمر - أنكر مراراً على الرسول ﷺ - أموراً اعتمدها ، فلم ينكر عليه الرسول إنكاره ، بل رجع في كثير منها إليه ، وأشار عليه بأمر كثيرة نزل فيها القرآن بموافقتها ، فأطمعه ذلك في الإقدام على اعتماد كثير من الأمور التي كان يرى فيها المصلحة ، بما هي خلاف النص ... »

« ولولم يكن إلا إنكاره - أي عمر - قول رسول الله ﷺ وآله في مرضه : « ائتوني بدواة وكتف أكتب لكم ما لا تضلون بعدي ! » وقوله - أي عمر - ما قاله ، وسكوت رسول الله ﷺ وآله عنه .. وأعجب الأشياء أنه - أي عمر - قال ذلك اليوم : « حبنا كتاب الله » فافترق الحاضرون من المسلمين في الدار ، فبعضهم يقول : القول ما قال رسول الله ، وبعضهم يقول القول ما قال عمر ، فقال رسول الله ﷺ ، وقد كثر اللفظ ، وعلت الأصوات : « قوموا عني ، فإني أرى أن يكون عنده هذا التنازع » . فاهل يقي للنسبة مزية أو فضل ، إذا كان هذا الاختلاف قد وقع بين القولين ، رجع المسلمون بينهما ، فرجع قوم هذا ، وقوم هذا ؟ أفليس ذلك دالاً على أن القوم سوا بيتة - أي الرسول الكريم - وبين عمر ، وجعلوا القولين متساوية خلاف ، ذهب كل فريق إلى نصرة واحد منهما ، كما يختلف اثنان : فمن عرض المسلمين في بعض الأحكام ، فينصر قوم هذا ، وينصر آخرون ذلك ؟ فمن بلغت قوته وحمته هذا - يقصد عمر - كيف ينكر منه أنه يناهي أبا بكر لمصلحة رآها ، ويعيدله عن النص ؟ »

وينهى النقيب حديثه بقوله :

« على أن الرجل - أي عمر - ما أهمل أمر نفسه ، بل أعد أعذاراً وأجوبة .. وذلك لأنه قال لقوم عرضوا له بحديث النص - أي النص على خلافة علي - فقال : إن رسول الله ﷺ رجع عن ذلك بإقامته أبا بكر في الصلاة مقامه ، وأوهمهم أن ذلك جار مجرى النص عليه - أي مع أبي بكر - بالخلافة ، وقال - أي عمر - يوم السقيفة : « أيكم يطيب نفساً أن يتقدم قدمين قدميهما رسول الله ﷺ في الصلاة ؟ ثم قال لأبي بكر ، وقد عرض عليه البيعة : أنت صاحب رسول الله ﷺ في المواطن كلها ، شدتها ورخائها ، رضيك لديننا ، ألا نرضاك لدنيانا ؟ » .

« ثم غاب - أي عمر - علياً بخطبته بنت أبي جهل ، فأوهم أن رسول الله ﷺ وآله ، كرهه لذلك ، ووجد عليه ، وأرضاه - أي أرضى عمر بن عمرو - ابن العاص فروي له حديثاً افتعله واجتلقه على رسول الله ، قال عمر وسمعه . يقول : « إن آل أبي طالب ليسوا لي بأولياء ، إنما ولي الله وصالح المؤمنين » ففعلوا ذلك كالناسخ لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : « من كنت مولاه . فعلى مولاه » !!

ويعلق ابن أبي الحديد ، على هذا الذي رواه عن النقيب أبي جعفر ، بقوله :

« وقد ذكرنا في هذا الفصل بـ خلاصة ما حفظته عن النقيب أبي جعفر ، ولم يكن إمامي المذهب (١) ، ولا كان يروى عن السلف ، ولا ينفق قول

(١) أي من إمامية الشيعة الذين يقولون بإمامة علي ، وذريته من بعده ، ولا يقولون أبا بكر وعمر : »

فالمسرفين من الشيعة ، ولا كنهه كلام أجراه على لسانه البحث والجدل بيني
وحينه . على أن العلوي لو كان كرامياً ^(١) لابد أن يكون عنده نوع من
ميل وتعصب على الصحابة وإن قل .

* * *

وقد حرصنا على نقل هذا الرأي لواحد من أئمة الشيعة المعتدلين ، الذين
لا يبرءون من الصحابة ، ولا يقولون ببطلان خلافة أبي بكر وعمر . .
هو ذلك لنرى أن عمر - رضى الله عنه - هو عند الشيعة عموماً ، صاحب
الموقف الأول في إقامة أبي بكر - رضى الله عنه - خليفة لرسول الله ﷺ ،
وأنه بهذا هو الذى قطع الطريق على علي - كرم الله وجهه - وحجب الخلافة
عنه بعد وفاة الرسول - ﷺ - وأهدر النص الذى جعل فيه الرسول الكريم
الخلافة لعلي من بعده !

تلك أم التهم التى تبهم بها الشيعة عمر - رضى الله عنه - وأنه عمد
إلى نص من نصوص السنة النبوية ، فأبطله .

ونقول فى إيجاز : إنه لو كان رسول الله - ﷺ - أراد أن يقضى فى أمر
الخلافة من بعده لأعلن ذلك صراحة ، قولا وعملا ، ولما ترك هذا الأمر
خافياً على أحد من المسلمين ، خاصتهم وعامتهم ، حتى لا يدع مجالاً لخلاف
« بين المسلمين فى أمر يتعلق به ضبط مسيرة الحياة بهم ، بعد أن يحظى الرسول
الكريم مكانته من بينهم .. هذا من جهة .. ومن جهة أخرى ، فإن الحكمة
كانت تقضى ألا ينص الرسول الكريم على الخليفة من بعده فيجتمع عليه ،
المسلمون جميعاً ، وإلا لكان ذلك قاضياً بأن ينص الرسول ﷺ على

(١) الكرامية طائفة من طوائف الشيعة ، ومهم النقيب ابن جعفر :

خلفاء المسلمين واحداً ، واحداً إلى ما شاء الله .. وهذا أمر غير ممكن لا تحمله الحياة . فالنص على الخليفة التي يخلف الرسول لا مفعولية له بعد موت هذا الخليفة .. وإذن يعود الأمر إلى الإطلاق ، إذ لا نص على الخليفة من بعد هذا الخليفة .. فكان الإطلاق من أول الأمر ، هو عين الحكمة ، وهو ما فعله الرسول الكريم ، فترك الأمر المسلمين يتولونه بأنفسهم ، كلما ذهب حاكم اختاروا حاكماً .. «سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً».



الفصل الثاني

مخالفة كتاب وسنة رسول الله ﷺ

ومما يأخذه الشيعة على عمر - رضى الله عنه - أنه أحدث كثيراً من الأمور المتصلة بالدين ، مخالفاً في هذا سنة رسول الله ﷺ . صادراً في هذا عن رأيه ، دون وقوف عند ماقرره الشارع الحكيم من قول الرسول الكريم - أو فعله ، أو تقريره .

(أولاً) إبطال زواج المتعة ، ومتعة الحج :

ويقول الشيعة في هذا : إنه كان هناك متعتان ، في عهد رسول الله ﷺ ، هما متعة النكاح ، بمعنى أن يتزوج المسلم بالمرأة زواجاً مؤقتاً ، أى محدد الأجل ، ولو ليوم أو بعض يوم ، ثم يخلى سبيلها ..

أما المتعة بالحج : فهي التحلل من الإحرام ، بعد الطواف والسعى ، حتى قبل يوم عرفة .. وقد كان ذلك مما فعله النبي ﷺ في حجة مع أصحابه ، رضوان الله عليهم ..

ويقول الشيعة ، إن عمر أبطل هاتين المتعتين ، ويروون عنه قوله : «متعتان كانتا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا أنهى عنهما ، وأعاقب عليهما» .

ويقولون : إن عمر في هذا القول أضاف النهى إلى نفسه ، ولو كان بالرسول - ﷺ - نهى عنهما لأضاف النهى إليه ، فكان أكد وأولى ،

وذلك بأن كان يقول : فهي عنهما رسول الله أو نسخهما ، وأنا من بعده
أنهى عنهما ، وأعاقب عليهما ..

هذا من حيث دلالة الصورة اللفظية لقول عمر : « وأنا أنهى عنهما ،
وأعاقب عليهما » حيث أضاف النهى إليه ، كما أضاف العقاب
إليه أيضاً ..

وقد رد « ابن أبي الحديد » في شرح نهج البلاغة على هذه الشبهة من
ظاهر كلام عمر - رضي الله عنه - بقوله :

« لا شبهة أن الظاهر من كلام عمر إضافة النهى إلى نفسه ، لسكنا
بمحب علينا أن نترك ظاهر اللفظ ، إذا علمنا من قائله ما يوجب صرف اللفظ
عن الظاهر ، كما يعتمد كل أحد في القرائن المقتربة بالألفاظ .. والمعلوم من
حال عمر أنه لم يكن يدعى أنه ناسخ لشريعة رسول الله - ﷺ - . وأنه كان
ممتدنياً بالإسلام ، وتابعا للرسول الذي جاء به ، فوجب أن يعتمد كلامه
على أنه أراد أن المتعتمدين كاننا ، ثم حرمتا - أي في عهد رسول الله ﷺ - ثم
هو يعاقب الآن من فعلهما .. »

أما قاضى القضاة « ابن عبد الجبار » فيقول في كتابه « الشافى » :
« إنه - أي عمر - إنما عفى بقوله : « وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما »
كرأته لذلك ، وتشدده فيه ، من حيث نهى رسول الله ﷺ عنهما ، بعد أن
كانتا في أيامه ، منبهاً - أي عمر - بذلك على حصول النسخ فيها وتغير
الحكم ، لأننا نعلم أن عمر كان متبعاً للرسول ، متديناً بالإسلام ، فلا يجوز
أن نحمل قوله على خلاف ما تواتر من حاله .. وقد حكى عن أبي علي : أن
ذلك القول من عمر بمنزلة أن يقول : « إني أعاقب من صلى إلى بيت
المقدس - وذلك بعد أن نسخت الصلاة إليه ، وتوجه المسلمون إلى البيت

الحرام — وإن كان قد صلى إلى بيت المقدس ، في حياة الرسول — صلى الله عليه وآله وسلم .

هذا من حيث الصورة اللفظية لكافة عمر — رضى الله عنه — من حيث ما يفهم من ظاهرها ، أنه هو الذى ينهى عن المتعتين ، ويعاقب عليهما ، منشأً بذلك حكماً جديداً فى الشريعة من عنده . . . وقد ظهر أن محمل هذا : اللفظ على ظاهره ممتنع ، لا يكون من مسلم يدين بالإسلام ، فضلاً عن خليفة من خلفاء المسلمين . وفضلاً عن عمر بالذات ، الذى كان يمثل فى حياته منذ أسلم ، الصورة الكاملة للإسلام ، بعد رسول الله — ﷺ ، وبعد خليفة رسول الله أبى بكر — رضى الله عنه .

أما من حيث الحل والحرمة فى المتعتين ، فيقال : إن هذا الأمر من عمر — رضى الله عنه — كان على مشهد من صحابة رسول الله — ﷺ — وقد أقره عليه المسلمون جميعاً ، لم يفكره عليه أحد ، ولم يراجع فيه أحد ، وما كان لأحد من صحابة رسول الله ، يرى فى هذا خلافاً لسنة رسول الله ﷺ ثم يسكت فى هذا الموقف وإلا كان آثماً ، وقد روجع عمر فى كثير من المواقف والأحوال ، فيذكر إذا كان قد نسى ، وينبه إذا كان قد أخطأ فيأخذ بما ذكر به ، وينهى إلى ما نبه إليه ، حتى إنه ليقول للمرأة التى راجعته ، وهو ينهى عن المخالاة فى المهور فتقول له يا عمر : وأين تذهب عن قوله تعالى : «وآتيتهم إحداهن قنطاراً ، فلا تأخذوا منه شيئاً» — فما أن تتلو المرأة هذه الآية ، حتى يمسك عمر عن قوله هذا ، ويقول : «كل الناس أعلم منك يا عمر» !! .

ومن جهة أخرى ، فإن هذا الأمر — أمر المتعتين ، لا شأن لشخص عمر فيه ، ولا مصلحة لذاته منه . . . وإنما هو ناصح المؤمنين ، يأخذهم بما

شرع الله تعالى لهم ، فكيف يعدل عن أمر أباحه الرسول ﷺ ، دون أن يكون ذلك الأمر مستمداً من سنة رسول الله ؟

ونعم إن زواج المتعة ، كان مباحاً في فترة من حياة رسول الله ﷺ ، وذلك في إحدى الغزوات التي غزاها الرسول الكريم بأصحابه وقد بعدوا عن أزواجهم وطال مقامهم في تلك الغزوة ، فكان من الحكمة أن يبيح الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - بأمر من ربه هذا الزواج ، حتى لا يفتن المسلمون ، وحتى لا يكون منهم ما يكون من الجيوش الغازية من هتك الأعراض والاعتداء على الحرمات ..

فزواج المتعة في تلك الحال ، على ما فيه من خروج عن الزواج الشرعي الذي أول شروطه ألا يوقت بزمن ، طال أو قصر - هذا الزواج - على هذا الذي به - هو مما ينزل على حكم الضرورة .. فهو وإن كان فيه ضرر ، هو أخف - في تلك الحال - من الضرر المترتب على منعه .. فالضرر القليل ، إذا دفع به ضرر أكبر منه ، كان مباحاً مثل ، أكل الميتة ، وشرب الخمر ، مثلاً ، عند تعرض الإنسان للموت جوعاً ، أو ظمأً ، وليس بين يديه إلا للميتة ، أو لحم الخنزير ، أو الحمر .. فإذا كان ذلك ، جاز مقارنة هذه الحرمات ، بالقدر الذي يحفظ على المسلم حياته .. فإذا زالت حال الضرورة والاضطرار ، رجع الأمر في هذه الحرمات إلى الحرمة التي كانت عليها ..

هذا ، وقد كان ابن عباس - رضى الله عنه - ممن يقولون بالعمل بالمتعة ، في حال الاضطرار ، وغير الاضطرار ، حتى إذا سمع في هذا شعراً جرى على السنة الناس يقول :

قد قلت للشيخ لما طال مجلسه

يا صاح هل لك في فتوى ابن عباس

(م ٢٥ - عمر بن الخطاب)

في رخصة الأعطاف مائة تكون مثواك حتى آخر الناس

فلما سمع ابن عباس هذا الشعر ، رجع عن فتواه هذه ، وقال
بجرمة المتعة .

يقول قاضي القضاة : « ابن عبد الجبار » : « واعتمد - أى عمر - في
تصويبه ، في تحريم زواج المتعة ، على كف الصحابة عن التكثير عليه ، وأن
علياً - رضى الله عنه - أنكر على ابن عباس ، لإحلال المتعة ، وروى
عن النبي ﷺ تحريمها .. »

« وأما متعة الحج ، فإنما أراد عمر بمنعها ، ما كانوا يفعلونه من فسح
الحج - أى قطعه بالمتعة - لأنه كان يحصل لهم عنده التمتع - أى التحلل من
كل ما يوجبه الإحرام - ولم يرد عمر بذلك ، التمتع الذى يجرى بجرى تقدم
العمرة ، وإضافة الحج إليها بعد ذلك ، لأنه جائز لم يقع فيه قبح » .

ثم يقول قاضي القضاة : « إن الحج بهاء من بهاء الله ، وإن التمتع - بغير
العمرة - يكسفه ، ويذهب نوره ورونته ، وأهم - أى الحجاج - يظنون
معرسين تحت الأراك ^(١) ثم يهلون بالحج وروءوسهم تقطر ^(٢) » .

هذا ، ويتمسك الشيعة محل زواج المتعة إلى اليوم ..

يقول الشريف المرتضى في الرد على قاضي القضاة من أن علياً - كرم الله
وجهه - أنكر على ابن عباس قوله بإحلال المتعة ..

يقول الشريف المرتضى في الرد على هذا : « فالأمر بخلافه وعكسه ،
فقد روى عنه - أى عن علي عليه السلام - من طرق كثيرة ، أنه كان يفتي بها ،
وينكر على محرّمها والناهي عنها ، وروى عمر بن سعد الهمداني . عن حبيش

(١) أى يظنون قائمين تحت الأراك ، أى هجر الأراك

(٢) أى تقطر ماء من العسل بعد الجنابة .

ابن المعتز ، قال : سمعت علياً - عليه السلام ، يقول « لولا ما سبق من ابن الخطأ - في المتعة . مازنى إلا شتى » . وروى أبو بصير قال : سمعت أبا جعفر محمد بن علي الباقر - عليه السلام ، يروى عن جده أمير المؤمنين عليه السلام : « لولا ما سبق من ابن الخطأ - أى في تحريمه المتعة ، مازنى إلا شتى » وقد أفتى بالمتعة جماعة من الصحابة والتابعين ، كابن عباس ، وعبد الله بن مسعود ، وجابر بن عبد الله الأنصارى ، وسلمة بن الأكوع ، وأبي سعيد الخدري ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد .. » .

ونقول : إذا كان علي - رضى الله عنه - يرى حل المتعة ، فكيف يقبل على دينه ألا يعترض على عمر - رضى الله عنه - وهو ينادى بحرمتها ؟ أكان علي - رضى الله عنه - مما يخاف أن يحجر بكلمة الحق في أى وجه من وجوه الناس ، ولو كان عمر - رضى الله عنه ؟ .

وإذا كان علي - رضى الله عنه - يخشى أن يحجر بكلمة الحق - في وجه عمر - رضى الله عنه - وحاشاه - فكيف يقبل - وهو خليفة على المسلمين - أن يظل على رأى رآه عمر ، في أمر المتعة أو المتعتين ، وهو يعلم أنهما من سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا يغير ما يراه منكراً ، ولا يعلن هذا على الملأ من المسلمين حين ولى الخلافة ؟

إن هذا الذى تتهج به الشيعة - على حل المتعة - وأن علياً - رضى الله عنه - كان يرى حلها لولا أن عمر - رضى الله عنه - أنكر أن تكون حلالاً - إن هذا هو حجة عليهم في أحقية على للخلافة ، وأنه الوصى على المسلمين بعد رسول الله ﷺ ، بل هو حجة عليهم في أن يكون علي - رضى الله عنه - أهلاً للخلافة أصلاً !

وأما ما يدعونه على علي - رضى الله عنه - من قوله : « لولا ما سبق

من ابن الخطاب في المتعة ما زنى الأشقي « فإنه يحمل في معناه الدليل على بطلانه .. فإن المتعة في ذاتها لا تحجز من لا يحجزه دينه وتقواه عن الزنا .. وذلك أنها على أحسن ما يفترص فيها أن تكون زواجاً شرعياً !! وهل عصم الزواج الشرعى من لا يعصمه دينه عن أن يزنى ؟

أما أن تكون المتعة - في غير اضطرار ، كذلك الاضطراب الذى أباح فيه النبي ﷺ المتعة في الحال التى أباحها فيه - فإنها لا تعدو أن تكون من الزنا ، وأنها تلبس ثوباً من الشرعية الزائف ، وعلى هذا فلا يعد مرتكبها زانياً . . وإذن فليس ثمة من يزنى ، وهو متستر بهذا الستر الزائف ! .

* * *

وإذن ، فقد كان موقف عمر - رضى الله تعالى عنه - من زواج المتعة ، ومن التمتع في الحج بغير العمرة - هو الموقف الذى تقتضيه سنة رسول الله ﷺ ، وقد أقره على ذلك الصحابة رضوان الله عليهم ، وأما ما يقال من أن كثيراً من الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا يرون ما يراه ابن عباس من حل زواج المتعة ، فإنه لا يعدو أن يكون رأياً رأوه ، كما رأى ابن عباس ، ثم عدلوا عنه ، كما عدل عنه ابن عباس .

* * *

هذا ، ويتمسك الشيعة في حل زواج المتعة ، وجعله زواجاً شرعياً بالآية الكريمة : « وأحل لكم ما وراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين ، فما استمتعتم بهن فأتوهن أجورهن فريضة ، ولا جناح عليكم فيما تراضيتن به من بعد الفريضة » (١)

ولا حجة للشيعية في هذا ، فالآية السكرية واردة في سياق ، ما حرم على المسلمين الزواج منهن ، وما أحل لهم مما وراء ذلك .. والمراد بالأجور هنا المهور ، في زواج صحيح ، لا يحده أجل ، زواج يكون منه السكن والولد ، كما يقول سبحانه : « ومن آياته أنه خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة » ^(١)

* * *

ولا شك أن زواج المتعة ، الموقوت بأجل ، يعلم منه كل من الرجل والمرأة ، أنه زواج متعة جسدية طارئة ، لا يمكن أن يكون منه سكن ، ولا تتخلق منه مشاعر الرحمة والمودة بين كل منهما .

يقول الله تعالى : « والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ، وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ، ورزقكم من الطيبات ، أقبالباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون » ^(٢) .

فأين البنون الذين يكونون من زواج المتعة ؟ بل أين الحفدة ؟ إن ذلك لا يكون إلا من زواج صحيح ، غير موقوت بوقت حتى يثمر البنين والحفدة ، الذين هم زينة الحياة الدنيا ..

فرحم الله عمر بن الخطاب ، وأحسن جزاءه ، إذ قطع رأس هذه الفتنه التي توقع المرء في الزنا ، وهو يرى أنه يأتي أمراً مشروعاً .. إن

(١) سورة الروم : ٢١ .

(٢) سورة النحل : ٧٢ .

الذى يزنى ، وهو يعلم أنه يأتى أمراً منكراً . يلقي عليه جزاءه من عذاب الله ومقتته ، لهو على طريق الندم ، والتوبة ، حتى يتخلص من هذا البلاء ..
أما الذى يقضى أربه بهذا الزواج الصورى ، فإنه يزنى ، وقد خلا قلبه من كل أثر للمعصية ، فيموت مصراً عليها ..

* * *

الفصل الثالث

جعل الثلاث في الطلاق طلاقاً بائناً

يقول الله تعالى : « الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان »^(١) . ومعنى هذا أن الطلاق يتم على مرحلتين ، لمرحلة واحدة .. فالمرحلة الواحدة مرحلة من مرحلتى الطلاق ، ثم تكون المرحلة الثالثة وهى التى أشار إليها سبحانه بقوله : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » . وقد كان الطلاق فى الجاهلية ، يجرى بلا حدود ، فكان الرجل يطلق ثم يراجع ، والمرأة فى العدة ، ثم يطلق ويراجع ثم يطلق ويراجع ، وهكذا إلى ما لا نهاية .. يقول ابن جرير فى تفسيره : « إن هذه الآية أزلت ، لأن أهل الجاهلية ، وأهل الإسلام - قبل نزول هذه الآية - لم يكن لطلاقهم نهاية تبين بالانتهاء إليها امرأته منه ، فجعل الله تعالى ذكره لذلك حداً ، حرم بانتهاء الطلاق إليه على الرجل مراجعة امرأته المطلقة إلا بعد زواج وجعلها حينئذ أملاً بنفسها منه » .

وروى عن قتادة أنه قال : كان أهل الجاهلية ، كان الرجل يطلق الثلاث والعشر ، وأكثر من ذلك ، ثم يراجع ما كانت فى العدة ، فجعل الله حد الطلاق ثلاث تطليقات .

فلما كان عهد عمر - رضى الله عنه - ورأى كثرة توارد الناس على الطلاق ، والتعجيل بالانحلال من زوجاتهم ، بأن حرت على ألسنتهم كلمة

« الطلاق ثلاثاً » على غير ما كان ينطق به من قبل نزول الآية ، وهو قولهم :
« فُت طالق » ..

رأى عمر - رضى الله عنه - حينئذ أن يأخذهم بما نطقت به ألسنتهم ،
فجعل التلفظ بالثلاث طلاقاً بائناً ، لا رجعة فيه . . فقد جاء فى صحيح مسلم
عن ابن عباس أنه قال : « كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ ، وأبى بكر ،
وسنتين من خلافة عمر ، طلاق الثلاث واحدة » فقال عمر بن الخطاب :
« إن الناس قد استعجلوا فى أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم ؟ !
فأمضاه عليهم » .

وفى قول ابن عباس - رضى الله عنه - « كان الطلاق فى عهد رسول
الله ﷺ ، وأبى بكر ، وسنتين من خلافة عمر ، طلاق الثلاث واحدة » .
لا يعنى بحال أن طلاق الثلاث ، كان معروفاً فى الجاهلية ، ولا فى الإسلام
قبل نزول قوله تعالى : « الطلاق مرتان » ، فإمساك بمعروف أو تسريح
بإحسان » إذ لم يكن معنى لتقييد الطلاق بالثلاث ، إذ لم يكن للطلاق حد
من العدد يقف عنده .. فالتلفظ بالثلاث ، إنما جاء بعد نزول الآية الكريمة
لإنهاء عملية الطلاق بالتلفظ بالثلاث .. ولكن الآية ظلت بمفهومها ، وهى
أن يكون الطلاق على مرتين ، مهما كان العدد الذى يتلفظ به المطلق ،
وذلك لحكمة أرادها الله تعالى من ذلك ، وهى أن يكون للزوجين فرصة
يراجع كل فيها نفسه ثم يذكر فيها ما بعد الطلاق من فراق لالتقاء بعده ،
وما قد يعقب هذا الفراق من ندم على هدم الحياة الزوجية ، وما يلحق
الأبناء منها ..

ولكن فى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وبعد سنتين من

خلافته ، كانت فنوحات الشام والعراق قد تمت ، ووقع ليد كثير من المسلمين أعداد غير قليلة من الإمام ، من بنات فارس والروم ، فرغب كثير من المسلمين التخلص من زوجاتهم العربيات ، ليتزوجوا بنات فارس والروم ، فيطلق أحدهم زوجته ؛ لأننا بلفظ واحد ، وربما وقع في نفسه أن هذا الطلاق ينهى العلاقة الزوجية في الحال ..

وقد رأى عمر - رضى الله عنه - أن يأخذ المتلفطين بالطلاق ثلاثاً بما خلقوا به ، وذلك لأمرين :

أولهما : أن يكون ذلك عقاباً لهم من جنس عملهم ، كما يشير إلى ذلك قوله : « إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة ، فلو أمضيناه عليهم !! فأمضاه عليهم ، وبذلك لاتخذه من طلقها ، ولا من تزوجها .. »

ثانيهما : أن يمسك الذين يطلقون زوجاتهم مرة واحدة بالثلاث عن التلفظ بهذا اللفظ الخادع ، وبذلك يطلقون - إن أرادوا - بلفظ واحد ، حتى يكون هناك سبيل إلى المراجعة ، وبهذا لا ياتمت المسلمون كثيراً إلى الفارسيات والروميات . فقد كان عمر - رضى الله عنه - يخشى على نساء العرب من هذا الغزو الوافد عليهن من بنات الفرس والروم .

وهذا عمر - رضى الله عنه - يبلغه أن واليه على المدائن من بلاد فارس وهو حذيفة بن اليمان - رضى الله عنه - أنه تزوج امرأة من نساء أهل الكتاب ، فكتب إليه عمر كتاباً يقول له فيه :

« بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن ، من أهل الكتاب ،

خُطِّقْهَا ! »

فكان رد حذيفة على أمير المؤمنين عمر :

« لا أفعل ، حتى تخبرني : أحل ذلك أم حرام ، وماذا أردت بذلك ؟ »
فكتب إليه عمر : « لا بل حلال ، ولكن في نساء الأعاجم خلافة (١) » .
فإذا أقبلتم عليهن ، غلبنكم على نسائكم » .
فلما جاء كتاب عمر إلى حذيفة ، طلق زوجته هذه .

فهذا الزواج من الكتابية حلال ، لاشبهة فيه بنص القرآن الكريم :
« اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم » .
وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات . والمحصنات من الذين أوتوا
الكتاب من قبلكم إذا آتيموهن - وورهن محصنين ، غير مسافحين ولا
متخذى أخدان » (٢) .

فعمرو - رضى الله عنه - واقف عند حدود الكتاب والسنة ، لا يحل إلا -
ما أحل الله ورسوله ، ولا يحرم إلا ما حرم الله ورسوله ، وقد جعل الله
تعالى زواج المسلمين من الكتابية - حلالا ، وأدخل هذا الحلال في الطيبات .
ولكن الطيبات درجات .. فهناك الطيب ، وهناك ما هو أطيب منه ،
ولاشك أن المرأة المسلمة ، أطيب من الكتابية ، ولهذا لم يبيح الله تعالى زواج
الكتابي من المسلمة ..

ولهذا ، فإن عمر - رضى الله عنه - قال لحذيفة رضى الله عنه : « بل
حلال ، ولكن في نساء الأعاجم خلافة ، فإذا أقبلتم عليهن غلبنكم على
نسائكم » .. ومعنى هذا أن يترك كثير من نساء العرب بلا زواج ، حيث
يرغب عنهن الرجال فيتزوجن بالأجمقيات من أهل الكتاب ، وفي هذا
فقنة لمن !

(١) أى اغراء بمسئنه وجاهلنه .

(٢) سورة المائدة : ٥٥ .

إن عمر إنما يعالج في هذا الموقف أمراً عارضاً ، فيقتله ، بما فيه المصلحة
للمسلمين ، فإذا زالت تلك الحال العارضة رجع الأمر إلى ما كان عليه . .

ولهذا رجع المسلمون - في مصر ، وفي كثير من أمصار المسلمين - إلى ما كان
جارياً في عهد النبي ﷺ ، وعهد أبي بكر ، والسنتين الأوليين من خلافة
عمر ، باعتبار التلفظ بالطلاق بأكثر من عدد ، طلقه واحدة . .

وطبيعي أن الشيعة ، لم يأخذوا بما رأى عمر في تلك الحال العارضة ،
بل عدوا هذا من افتيات عمر على الشريعة . .

وقد بان لك ما كان من رأى عمر في هذه الحال العارضة ، وكيف
سد بها كثيراً من المناسد التي كان يتعرض لها نساء المسلمين من -
بنات العرب . .



الفصل الرابع مجاوزته حدود الله

ومما تشنع به الشيعة على عمر - رضى الله عنه - أنه كان يتهمج على
مشرع الله تعالى بدون علم ، متبعاً في ذلك رأيه ، وما يمليه عليه هواه .
ويضربون لهذا أمثالا ..

منها ، ما كان منه - رضى الله عنه - من منع المغالاة في مهوور النساء ،
وقد أعلن ذلك على الملأ في خطبة له بمسجد رسول الله ﷺ ، حتى قامت
امرأة ونهته بقوله تعالى : « وآتيتم إحداهن قنطاراً »^(١) حتى قال : « كل
الناس أفقه من عمر » !

وقد أجاب قاضي القضاة « ابن عبد الجبار » على ذلك بقوله :
« علمنا بتقدم عمر في العلم ، وفضله فيه ضرورى ، فلا يجوز أن يقدح
فيه بأخبار أحاديث غير مشهورة ، وإنما أراد في المشهور^(٢) أن المستحب
الافتداء برسول الله ﷺ ، بما كان منه ﷺ في صداق « فاطمة » رضى الله
عنها ، وأن المغالاة في المهور ليس بمكرمة .. ثم عند التعنیه ، علم - أى عمر -
أنه - أى للمهر الكثير - مبنى على طيب النفس .. فقال ما قاله ، وهو كل
الناس أفقه من عمر ، على جهة التواضع ، لأن من أظهر الاستفادة من غيره ،
وإن قل علمه ، فقد تعاطى الخضوع ، ونبه على أن طريقته أخذ الفائدة أينما

(١) سورة النساء ٢٠

(٢) أى من الأحاديث المشهورة .

وجدوها ، وصير نفسه في ذلك أسوة وقدوة ، وذلك حسن من الفضلاء ..
وقد اعترض الشريف المرتضى على هذا التعليل من قاضي القضاة
بقوله :

« أما موبلك على العلم الضروري بكونه - أى عمر - من أهل الاجتهاد
والعلم ، فذلك إذا صح لم يتفكك ، لأنه قد يذهب على من هو بهذه الصفة
كثير من الأحكام حتى ينهب عليها ويحتد فيها ، وليس العلم الضروري ثابتاً
بأنه عالم بجميع أحكام الدين ^(١) فيكون قاضياً على هذه الأخبار (أى مبطلاً
لهذه الأخبار التي رويت عن عمر - رضى الله عنه - فيما نسبته الشيعة له من
أخطاء في الاجتهاد) ..

ثم يفيض الشريف المرتضى . فيقول :

« فأما تأويله الحديث ^(٢) - أى قاضي القضاة - وحمله على الاستحباب ،
فهو دفع للعيان ، لأن المروى أنه - أى عمر - منع من ذلك وحظره ، حتى
قالت المرأة ما قالت ، ولو كان غير حاذر له غلالة - في المهور - لما كان في
الآية حجة ، ولا كان لكلام المرأة موقع ، ولا كان يترف لها بأنها أفقه
منه ، بل كان الواجب أن يرد عليها ويوبخها ، ويعرفها أنه ما حظر لذلك ..
وإنما تكون الآية حجة عليه لو كان حاضراً مانعاً .. فأما التواضع فلا

(١) يرى الشيعة أن الإمام القائم بالأمر ، يجب أن يكون عالماً بجميع أحكام الدين ،
معصوماً من الخطأ ، لأنه يتلقى علمه من الله تعالى ، بوحي أو إلهام ، ومن هنا فلا يقع في خطأ
أبداً ، ولهذا فإنهم يرون في أئمتهم العصمة .. والعصمة في شرعنا لا تكون إلا للرسول —
صلوات الله وسلامه عليه — فيما يتصل بشريعة الله ، لأنه في هذا المقام لا يتطرق من الهوى ..
وعمر ليس معصوماً من الخطأ ، شأنه شأن البشر جميعاً — هذا رسل الله للذين بالوحي —
فلا حرج من أن يخطئ عمر في اجتهاده ، ثم يتبدل إذا استبان له وجه الخطأ !!

(٢) أى هذا الخبر المروى عن عمر والمرأة ،

يقتضى إظهار القبيح ، وتصويب الخطأ ، ولو كان ماتومه صاحب الكتاب - ابن عبد الجبار - لكان هو المصيب ، والمرأة مخطئة ، فكيف يوم أنه المخطيء ، وهي المصيبة ؟

ونقول : إن هذا من الرضى ، تعنت في هذا التخريج لهذا الخبر ..
فإن الموقف ليس موقف مجادلة ومناظرة بين عمر - رضى الله عنه - وبين المرأة .. فعمر - رضى الله عنه - ينظر إلى المسألة من جانب ، وهو عدم المغالاة في المهور ، اقتداء بالرسول ﷺ وبزواجه ابنته فاطمة - رضى الله عنها - من على - رضى الله عنه - الذى كان مهره لا يجاوز دربهات معدودات .. والمرأة إنما نظرت إلى الآية السكرية ، من حيث ظاهرها .. فالله تعالى يقول : « وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً ، فلا تأخذوا منه شيئاً ، تأخذونه بهتانا وإثماً مبيناً ، وكيف تأخذونه ، وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً » .

فذكر القنطار هنا ليس المراد منه حقيقة القنطار ، وإنما المراد منه التأكيد على عدم أخذ أى شيء مما أعطيت المرأة من مهر ، ولو كان ما أعطيته المرأة قنطاراً من ذهب .. فإذا امتنع أخذ شيء من هذا الكثير ، كان الأولى عدم أخذ أى شيء من القليل !!

ثم أين هو الذى كان يعطى للقنطار من الذهب أو الفضة مهرأ ، في زمن عمر من المسلمين ؟ إن الآية السكرية إنما تشير - كما قلنا - إلى التحذير من أخذ شيء من المهر المفروض للمرأة ، وخاصة في حال استبدال امرأة بأمرأة أخرى في الزواج ، بأن يتزوج أحد الرجلين بأخت الرجل الآخر ، فيتزوج هذا أخته في مقابلها بدون مهر .. فجاءت الآية لتقرر حق كل من المرأتين في المهر ، إذ هو حق خالص لها ، ولا يصح أن يأخذ الزوج شيئاً

منه إلا برصاها ، كما يشير إلى قوله تعالى : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة . فإن طبن لكم عن شيء منه ، فكلوه هنئلاً م » (١) .

ونسأل بعد هذا : أيكون عمر — رضى الله عنه — لم يقرأ هذه الآية . . . الكريمة : « وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً » ؟ هذا محال !! . . . وإذا كان قد قرأها — وهو المتطوع به — ألم يدرك معناها وهو بين ظاهر لا خفاء فيه ، على النحو الذى مهمتها عليه ! رأة التى راجعت عمر !

وإذن فإن الذى ذهب إليه عمر فى عدم المغالاة فى المهور ، لم يكن خروجاً على معنى الآية ، إذ لم يحدد — رضى الله عنه — قدراً معيناً للمهر ، وإعما كل الذى كان منه هو ألا يشتط أولياء الأمور فى المهور ، حتى ليمعجز كثير من الشباب عن الزواج ، الأمر الذى يعطل قول رسول الله — ﷺ : « تناكحوا تناسلوا فإنى مباه بكم الأمم يوم القيامة » . . . وخاصة ، فإن كثرة النسل العربى ، كانت مطلوبة فى زمن عمر — رضى الله عنه — لأكثر من وجه :

فأولاً : أن العرب قد خاضوا معارك كثيرة ، استشهد فيها كثير منهم ، فكان لابد من تعويض هذا بالزواج ، والإكثار من النسل ، حتى يظل العرب — وهم وجه الدولة الإسلامية — هم العنصر الغالب فى جيوش المسلمين . . .

وثانياً : ففتح العرب كثيراً من الأمصار ، فاستولوا على مملكتى فارس والروم ، كما استولوا على مصر ، وفى هذه الأمصار أعداد كثيرة من الفرس والروم ، تتجاوز أعداد العرب الفاتحين بأصعاف المرات . . . فكان لابد

من أن يكثر سواد العرب في هذه البلاد بالزواج والتناسل ، حتى يتوازن .
عدد العرب من الأعاجم ، فالعرب هم مادة الإسلام . ولسان شريعتهم !

فالذى ذهب إليه عمر - رضى الله عنه - من عدم المغالاة في المهور ،
هو عدم تعجيز الراغبين في الزواج . ومطالبتهم بمهور لا يقدرون عليها . .
فإذا كان الزوج ذامال كثير وثراء عريض ، فله أن يقدم من المهر ما يشاء ،
ولو كان قنطاراً ، أو أكثر من قنطارا من المال . . والله تعالى يقول :
« لينفق ذو سعة من سعته ، ومن قدر عليه رزقه ، فلينفق مما آتاه الله ،
لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ، سيجعل الله بعمد عسر يسراً » ^(١) .

ومع هذا ، فإن الإسلام يحض على التقصد والاعتدال ، ويهوى عن
السرف حتى في الطيبات ، بل وفي العبادات ، فيقول الله تعالى : « والذين
إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواماً » ^(٢) ويقول سبحانه :
« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات ، والنخل والزرع
مختلفاً أكله ، والزيتون والرمان متشابهاً وغير متشابه ، كلوا من ثمره إذا
أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده ، ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » ^(٣) .
فالتهى عن الإسراف هنا ، واقع على الأكل من هذه الطيبات ، كما هو
واقع على الزكاة المفروضة في هذه الزروع ، حتى إذا أخرج المرء الزكاة
المفروضة فيها ، كان عليه بعد هذا ، إذا تصدق ألا يسرف في الصدقة ،
بحيث لا يجوز على حق من يعول من أهل وولد .

(١) سورة الطلاق : ٧ .

(٢) سورة الفرقان : ٦٧ .

(٣) سورة الأنعام : ١٤١ .

الفصل الخامس تطيل حدود الله

من أعجب ما يؤخذ على عمر ، أنه يمتل حداً من حدود الله ، فلا يقيم حد الزنا على أحد ولاته ١١ .

وهذه قولة مفضوحة تنادى بالخزى على من يقولها على عمر ، الذى أقام الحد على ولده ، حتى مات تحت ضربات السوط بيد عمر نفسه ! والولد مريض يصرخ تحت ضرباته ، وينادى : يا أبى ارحمنى ، والصحابة يضجون : ارحمه ، فإنه مريض !

وإذا كان عمر يرى أنه إن رحم الناس جميعاً ، فإنه لا يرحم ابنه ، لما له من حق فى تأديبه ، بعد ما لله تعالى من حق فى إقامة الحد عليه ، وفى تأجيل إقامة الحد إلى أن يعافى من مرضه - فلم ينتظر عمر بإقامة الحد على ولده إلى أن يشفى ، إلا لغيرته الشديدة على حرمان الله . . وإنه إذا كان ذلك العدوان على حدود من ولده ، فإن الغيرة على حرمان الله تشتد ، وتتضاعف ، فلا يأخذه بما يأخذ به غيره ، ممن يقتفون مثل ما اقتrof . . عمر وهذا شأنه فى ولده ، أ يكون منه تقريط فى إقامة الحد على من وجب عليه الحد ؟ إنه لا يقول بهذا منتصف أبداً ، ولا يقبله ذو عقل أبداً . .

والرجل الذى يقال إن عمر - رضى الله عنه وأرضاه - عطل إقامة حد الله عليه - هو المعيرة بن شعبة ، الذى كان والياً على البصرة ، لأمير

المؤمنين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - . فاتهم هناك بأنه زنى بامرأة
كان يتردد على بيتها ..

والروايات في هذا كثيرة ..

فهذا محمد بن جرير الطبرى ، يروى الحادثة في تاريخه ، فيقول :

«وفى هذه السنة - أى سنة سبع عشرة من الهجرة - ولى عمر أبا موسى
(الأشعري) البصرة ، وأمره أن يشخص إليه المغيرة بن شعبة ، وذلك
لأمر بلغه عنه ! قال الطبرى : حدثني محمد بن يعقوب بن عتبة قال : حدثني
أبى ، قال : كان المغيرة يخالف إلى أم جميل ، وهى امرأة من بنى هلال بن
عامر ، وكان لها زوج من ثقيف هلك ، قبل ذلك ، يقال له الحجاج بن عبيد ،
وكان المغيرة - وكان أمير البصرة - يختلف إليها سرا ، فبلغ ذلك أهل
البصرة ، فأعظوه^(١) .. فخرج المغيرة إلى المرأة يوماً ، فدخل عليها ، وقد
وضعوا عليهما الرصد ، فانطلق القوم الذين شهدوا - بعد ذلك - عند عمر ،
فكشفوا الستر ، فرأوه قد واقعها ، فكتبوا بذلك إلى عمر ، وأوفدوا
بالكتاب أبا بكرة ، فأنهى أبو بكرة إلى المدينة ، وجاء إلى باب عمر ،
فسمع عمر صوته ، ويده وبينه حجاب فقال ، أبو بكرة ؟ فقال : نعم ، فقال
عمر : لقد جئت لسر^(٢) ! قال : إنما جاء به المغيرة ! ثم قص عليه القصة .
وعرض عليه الكتاب ، فبعث عمر أبا موسى عاملاً ، وأمره أن يبعث إليه
للمغيرة .. فلما دخل أبو موسى البصرة ، وقعد في الإمارة ، أهدى إليه

(١) أبى وجدوا هذا الأمر عظيماً من الوالى المسلم .

(٢) حيث لم ينتظر حتى يلقى عمر خارج بيته و المسجد ، وحتى جاء إلى بيته ، وهذا
مما ينفى عن شره أنه جاء به .

المغيرة عقيلة^(١) . وقال : إني قد رضيتها لك ، فبعث أبو موسى بالمغيرة إلى عمر .

قال الطبري : قال الواقدي : حدثني عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر ابن عمرو بن حزم الأنصاري ، عن أبيه عن مالك بن أوس بن الحدثان ، قال : قدم المغيرة على عمر ، فتزوج في طريقه امرأة من بني مرة ، فقال له عمر : إنك لفارغ القلب ..

قال الطبري : وكتب إلى السري عن شعيب ، عن سيف : أن المغيرة ينفذ أبا بكر^(٢) ، وكان أبو بكر ينفذه ، وينأى كل منهما صاحبه -- أي يباريه ويفارقه -- وينافره ، عند كل ما يكون منه ، وكانا متجاورين بالبصرة ، بينهما طريق ، وهما في مشربتين متقابلتين . . فاجتمع إلى بكره رجال يتحدثون في مشربته ، فهبت ريح ففتحت باب الكوة ، فقام أبو بكر ليصفقه -- أي يرده -- فبصر بالمغيرة ، وقد فتحت الريح الباب الذي في مشربته ، وهو بين رجل امرأة ، فقال : قوموا ، فانظروا فنظروا ، ثم قال : شهدوا قالوا : ومن هذه ؟ قال : أم جميل ، إحدى نساء بني عامر بن صعصعة . فقالوا : إنما نرى أبحاراً ، ولا نرى وجوهاً . . فلما قامت صمتوا . . وخرج المغيرة إلى الصلاة ، فقال أبو بكر بينه وبين الصلاة وقال : لاتصل بنا . . وكتبوا إلى عمر بذلك ، وكتب المغيرة أيضاً ، فأرسل عمر إلى أبي موسى فقال : يا أبا موسى : إني مستعمالك وإني باعثك إلى الأرض التي باض فيها الشيطان وفرخ . . فإزعم ما تعرف ولا تستبدل فيستبدل الله بك ا فقال : يا أمير المؤمنين ،

(١) هي فتاة ذات شباب وجمال من الموالي ، وعقيلة اسمها . .

(٢) وأبو بكر هذا ، هو الذي قاد الحملة بآتهام المغيرة ، وأول الشاهدين عليه ، وهو

الذي حل كعاب الدين شهدوا على المغيرة ، إلى عمر . .

أعنى ببدء من أصحاب رسول الله ﷺ ، من المهاجرين والأنصار ، فإنهم وجدتهم في هذه الأمة وهذه الأعمال ، كالملاح لا يصلح الطعام إلا به ! قال فاستعن بمن أحببت ، فاستعان بتسعة وعشرين رجلاً ، منهم أنس بن مالك ، وعمران بن حصين ، وهشام بن عامر . . . وخرج أبو موسى بهم حتى أناخ بالبصرة في الربد^(١) . . . وبلغ المغيرة أن أبا موسى قد أناخ بالمربد . فقال : والله ما جاء أبو موسى زائراً ، ولا تاجراً ، ولكنه جاء أميراً . . . فإنهم لفي ذلك إذ جاء أبو موسى حتى دخل عليهم . فدفع إلى المغيرة كتاباً من عمر ، وإنه لأوجز كتاب كتب به أحد من الناس : أربع كلم ، عزل فيها ، وعاتب ، واستحث ، وأمر !

« أما بعد ، فإنه قد بلغني نبأ عظيم ، فبعثت أبا موسى ، فسلم ما في يدك إليه ، والمجل ! » .

وكتب عمر إلى أهل البصرة : « أما بعد ، فإنني بعثت أبا موسى أميراً عليكم ، ليأخذ لضعيفكم من قويمكم ، وليقاتل بكم عدوكم ، وليدفع عن ذمتكم ، وليجبي لكم فيثكم ، وليقسم فيكم ، وليحمي لكم طرقكم » .
« فأهدى المغيرة إلى أبي موسى ، وليلة من مولدات الطائف تدعى عقيلة ، وقال : إني رضيته لك ، وكانت فارهة^(٢) . . »

« وارتحل المغيرة ، وأبو بكر ، ونافع بن كلدة ، وزيد ، وشبل بن معبد البجلي ، حتى قدموا على عمر » . . هذا ما رواه الطبري في تاريخه . .
ولابد من وقفة هنا قبل أن نرى ما كان من عمر من نظري هذه القضية .
قضية اتهام المغيرة بالزنا ، وهؤلاء هم الشهود الأربعة غليه ونظر قري :

(١) المرید : مكان على أطراف البصرة ، أشبه بالسوق .

(٢) أي طويلة .

أولا : أن أبا بكره ، وهو الشاهد الأول في هذه القضية ، قد كان يمينه وبين الوالى « المغيرة » منافسة ، ومنافرة ، وأنهما كان متجاورين في السكنى ، وهذا من شأنه أن يطلع أبا بكره على كثير من خفايا المغيرة ، حيث كان راصداً لحركاته ، متربصاً به ، ملتصقاً بالعثرات له .. ورجل كهذا لا بد أن يقع على عثرة ، وعثرات ، ما دام جاعلاً ذلك همه ، وقد بما قيل : « من طلب عيباً وجده » .

وثانياً : أن أبا بكره ، حين رأى ما رأى من المغيرة ، وهو مع المرأة ، لم يكف نظره عن النظر ، ولعل المغيرة يكون مع امرأته ، لأن البيت يمينه ، لا بيت المرأة التى اتهم فيها بالزنا .. لم يفعل أبو بكره هذا ، بل دعا الجالسين معه إلى أن ينظروا .. فلما نظروا ، قالوا : إنا نرى أمجازاً ، ولا نرى وجوهاً !! أى أنهم لم يتبينوا إن كان الرجل هو المغيرة أو غيره ، وإن كانت المرأة هى زوجته أو غيرها . ولكنهم انتظروا حتى قامت المرأة ، فصمتوا .. أى لم يقولوا شيئاً ، وهذا الصمت قد يدل على أنهم رأوا المرأة ، فعرفوا أنها التى كان المغيرة يهواها ، ويتردد عليها ، فكان صمتهم إمساكاً عن إذاعة الفاحشة .. وقد يدل هذا الصمت على أنهم لما رأوا المرأة وجدوها امرأة المغيرة ، فحجبوا من أنفسهم فسكتوا خزيًا ...

وعلى أى ، فإن أبا بكره : هو القائد لهذه الحملة ضد الوالى ، والمنشع عليه ..

وثالثاً . أن الوالى - المغيرة - حين خرج للصلاة ، حال أبو بكره يمينه وبين الصلاة .. وهذا لاشك إسقاط لحق الوالى ، ممن لا يملك هذا الإسقاط ، وتمطيل لأداة الحكم ، وعزل له عن أهم وظيفته له ، وهو إمامة الصلاة لا

وإذا كان الوالى متهما ، فإن التهمة لم تثبت عليه ، إذ لا سبيل إلى إثباتها إلا بعد عرض الأمر على الخليفة ، وشهادة الشهود ، ثم الحكم بما يرى . الخليفة ، حسب عدل الشهود ، أو تبريهم ، أو نكولهم . . . وكل هذا قد جعله أبو بكر من حقه ، فيتهم ، ويحاكم ، ويحكم ، وينفذ ! ثم ماذا لو أن الوالى قد أخذ على يد أبى بكر وأدبه ؟

إن أبا بكر - فيما يظهر - كان معتزاً بقيافته بالبصرة ، الأمر الذى جعله يتحدى الوالى هذا التحدى ، ويتعقب خطواته ، ثم يبلغ به الأمر إلى أن يحول بين الوالى وبين الصلاة . ولو أن الوالى أخذه بشيء من التأديب ، فربما كان هذا مثار فتنة تراق فيها الدماء .. ولكن المغيرة كان من دهاة العرب المعروفين ، فأمسك بالأمر على مضض . وكتب إلى الخليفة بما حدث .

هذا هو أبو بكر الذى قاد هذه الفتنة ، وقذح شرارتها ، ثم ما زال يفتن فيها ، ويبقى إليها بالخطب ، حتى صارت ناراً تتوهج ! وننظر الآن ما كان من أمر عمر - رضى الله عنه - وهو ينظر فى هذه القضية !

ونمضى مع الطبرى - شيخ المؤرخين - فى روايته لهذه الحادثة . . .
هيقول :

« فجمع عمر بينهم - أى بين الشهود الأربعة الذين جاءوا من البصرة . وعلى رأسهم أبو بكر - وبين المغيرة ..

« فقال المغيرة : يا أمير المؤمنين . . سل هؤلاء الأعبدة ^(١) : كيف

كانوا

(١) وصفهم المغيرة بأنهم أعبدة ، أى عبيد ، لأنهم كانوا منقادين لأبى بكر .

رأوى ؟ مستقبلهم أم مستدبرهم ؟ وكيف رأوا المرأة وعرفوها ؟ . فإن كانوا مستقبلين ، فكيف لم أستمروا ، وإن كانوا مستدبرين فبأى شيء استحلوا النظر إلى في منزلي . وعلى امرأتى .. والله ما أتيت إلا امرأتى ! » .

ونقول : إن هذا دفاع منطقي . يدفع التهمة على المنيرة ، وإن كان زانياً . . إنهم لو رأوه وهو مستقبلهم لاستمروا منهم ، ولو رأوه مستدبرهم ، لكان الحق يقتضيهم ألا ينظروا إليه !

ويمضي الطبري قائلاً :

|||

« فبدأ أبو بكر ، فشهد عليه ، أنه رآه بين رجلين أم جميل . وهو يدخله ويخرجه ؟

« قال عمر : كيف رأيتهما ؟ قال مستدبرهما ؟ قال . كيف استنبت رأسها ؟ قال : تجافيت » (١) .

وهذه الشهادة مشبوهة ، غير مقبولة .. إذ كيف يكون قد رآها وهو مستدبرها ، حيث لم يتبين وجهها . ثم إذا سئل : وكيف عرفت وجه المرأة . قال : تجافيت !! أي ظل يدور ويدور ، يميناً ويساراً ، حتى رأى رأس المرأة ! وهذا ما لا يحل له ، ولو كان الخليفة ذاته . والله تعالى يقول : « ولا تجسسوا » وهذا عين التجسس ، للاطلاع على عورات الناس !

ثم يمضي الطبري قائلاً :

« فدعا عمر بشبل بن معبد . فشهد مثل ذلك . . وقال : استقبلتهما واستدبرتهما - بمعنى أنه دار حولهما - .

« وشهد نافع بمثل شهادة أبي بكر .. ولم يشهد زياد بمثل شهادتهم :

(١) تجافى ، أي مال بجانبه ، حتى رأى رأس المرأة .

قال : رأيت جالساً بين رجل امرأة ، ورأيت قدمين مرفوعتين تحتها .
وسمعت حفراً شديداً^(١) فقال عمر . هل رأيت فيها كالميل^(٢) في المسحلة؟
قال : لا . قال : فهل تعرف المرأة ؟ قال : لا . ولكن أشبهها .

وهنا نجد أن أبا بكرة واثنين معه ، قد شهدوا بأنهم رأوا ، وأنهم
داروا حول الرجل والمرأة ، حتى تثبتوا منهما . . أما الشاهد الرابع ،
فإنه لم يتحقق من الرجل والمرأة . وإن كان قد رآهما في وضع الرجل
مع امرأته . .

وبصرف النظر عن تجريع شهادة أى بكرة ، فإنه على فرض قبولها .
وقبول شهادة صاحبيه . فإن ذلك لا يثبت جريمة الزنا على المغيرة . بحيث
يقام عليه حد الرجم ، بل يقع هؤلاء الشهود الثلاثة تحت حكم الحد
بالقذف . .

ولهذا أمر عمر - رضى الله عنه - بالثلاثة فجلدوا . وقرأ الآية الكريمة
«لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فإذا لم يأتوا بالشهداء ، فأولئك عند الله
هم الكاذبون»^(٣) . . فقال المغيرة : الحمد لله الذى أخزاكم . فصاح عمر :
أسكت ، أسكت الله نأيك^(٤) . . أما والله لو تمت الشهادة لرجمتك
بأحجارك .

هذه رواية الطبرى - شيخ المؤرخين - قد رأينا أن نقف عندها وإن
كانت هناك روايات كثيرة . كالروايات التى نقلها صاحب الأغاني فى الجزء

(١) أى سمع أصواتاً من أنفاسهما ، من الجهد .

(٢) الميل - للرود .

(٣) سورة النور - ١٣ .

(٤) الأنة - الحس للنبعث من الحركة ، والمراد به هنا الموت .

السادس عشر من كتاب الأغاني ، فقد جمع روايات كثيرة ، حول هذه الحادثة ، ولكنها قريبة من بعضها ، لا تخرج عما جاء في تاريخ الطبرى .

* * *

هذا ، وقد شنع الشيعة على عمر - رضى الله عنه - بأنه لم يقم الحد على المغيرة ، وقد اشتهر أمره بالزنا ، وأن عمر - رضى الله عنه - حين شهد الثلاثة : أبو بكر وأخويه ، ثم جاء الرابع وهو زياد ليشهد ، قال عمر : « أرى وجه رجل لا يفضح الله به رجلاً من المسلمين » .. فهذا الذى قاله عمر لزياد - إن صح نسبه إليه - إنما لما رأى من خلل فى شهادة الشهود الثلاثة ، ومن تحاملهم على المغيرة ، وخاصة أبا بكر ، الذى قاد هذه الحملة ضد المغيرة ..

ولكن عمر - رضى الله عنه - لم ير أن يرد شهادة هؤلاء الثلاثة ، إذ لم يكن بين يديه الدليل المادى على تجريح شهادتهم .

وإن كانت دلائل الحال تنطق بتحاملهم ، وهذا أمر تنطوى عليه القلوب التى لا يعلم مستودعاتها إلا علام الغيوب .. فلما جاء الشاهد الرابع ليشهد ، رأى عمر - رضى الله عنه - أن يحذره من أن يشهد بغير ما رآه محققاً ، وأن شهادته على المغيرة ، إذا جرى فيها على نحو ما شهد به الثلاثة : قبله ، كان فيها الحكم على المغيرة بالرجم ، وفى هذا قتل لنفس ، وفضح بوخزى لصاحبها ..

إن هناك شبهة كثيرة بين يدى عمر - رضى الله عنه - فى شهادة الثلاثة ، وما كان لعمر ألا يدرك الحد بالشبهة ، والرسول ﷺ يقول : « ادروا الحدود بالشبهات » !

ولأنه لولا ما قام بين يدي عمر من شبهة في هذه الواقعة ، لأخذ المديرة بالحد ولرجله . . فليس المغيرة أعز على عمر من ولده الذي أقام عاياه الحد ، وهو مريض ، حتى مات بضربات السوط بيد عمر نفسه !

وليس يعني هذا براءة المغيرة من الزنا ، فذلك أمر قد شاع عنه ، ولكن إثبات الزنا لا يكون إلا بشروط محددة . واضحة ، وهي أن يشهد أربعة شهود أنهم رأوا من الرجل والمرأة ما يكون بين الرجل ورجلته ، من مباشرة مكشوفة ، يراها الشهود رأى العين ، من إيلاج الرجل في المرأة كإيلاج الليل في المسحطة .. وهذه الصورة المفضوحة ، من النادر أن تكون ، وإذا كانت فلا تقع على ملائمة الناس . .

أما ما يقال وما يشاع من هذا الأمر ، فلا يوجب الحد أبداً . .

وفي السياسة الشرعية - لابن نيمية رضى الله عنه - أنه كان في زمن النبي ﷺ امرأة تعلن الفجور ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « لو كنت راجعاً أحداً بنير بينة لرجمت هذه » ^(١) والمراد بالبينة هنا ، هو أن يشهد عليها أربعة شهود ، يرونها رأى العين مع من تزنى به ، على تلك الصورة المفضوحة العارية . .

إن الإسلام وهو يحرص أشد الحرص على إقامة الحدود ، فإنه يحرص كذلك أشد الحرص على درء هذه الحدود بأية شهنه تعرض في الشهادة على من يقدم للتجريم . . ذلك أن للإسلام لا يتشبهى فضح الناس ، وإسقاط مروءاتهم ، فإذا لم تقم بينة قاطعة ، لا لبس فيها على المتهم ، فإن هذا المتهم واقع تحت رحمة الله في الدنيا ، وأمره إلى الله فيما أجرم يوم العرض على .

(١) السياسة الشرعية لابن نيمية ص ٩٠ - ٩٨

رب العالمين ، إن شاء سبحانه عفا ، وإن شاء عاقب .. وقد روى أن النبي ﷺ أتى بسارق ، فقال له : « لا تقرر » . . حيث لا شهود يشهدون بأنه سرق ! الكا روى أنه ﷺ لما جاء صفوان بن أمية بسارق سرق عباؤه ، ومعه ما سرق ، فأمر النبي ﷺ بقطع يده ، قال صفوان : يا رسول الله ، هي له .. فقال صلوات الله وسلامه عليه : « هلا قبل أن تأتيني به » ؟
ولهذا يقول قاضى القضاة - ابن عبد الجبار - فى حادثة المغيرة :

« فلا يمتنع من عمر - رضى الله عنه - ألا يجب أن تستكمل الشهادة ، وينبى الشاهد - الرابع - على ألا يشهد .. لأن الحيلة فى إزالة الحد على المغيرة ولما تستكمل الشهادة عليه ، ممكنة ، بتلقين ، وتنبية ، وغيره ، ولا حيلة فيما وقع من الشهادة ، فلذلك حذمهم .. وليس فى إقامة الحد عليهم من الفضيحة ، ما فى تكامل الشهادة على المغيرة ، لأنه يتصور بأنه زان ، ويحكم بذلك ، وليس كذلك حال الشهود !

« وحكى عن أبى على ، أن الثلاثة كان القذف منهم للمغيرة قد تقدم بالبصرة ، لأنهم صاحوا به من نواحي المسجد ، بأننا نشهد أنك زان . . . فلو لم يعيدوا الشهادة - أمام عمر - لكان يحذمهم لا محالة^(١) ، فلم يمكن فى إزالة الحد عنهم ما أمكن فى المغيرة » .

ثم يقول قاضى القضاة :

« وإعما قلنا : إن عمر - رضى الله عنه - لم يخطئ فى درء الحد عن المغيرة ، لأن الإمام يستحب له ذلك ، وإن غلب على ظنه أنه قد وجب الحد عليه .. فقد روى المدائنى أن أمير المؤمنين علياً - كرم الله وجهه - أتى برجل قد وجب عليه الحد ، فقال : أها هنا شهود ؟ قالوا : نعم .. قال :

(١) لأنهم قذفوا مؤمناً بالزنا ، وهم ثلاثة ليس معهم رابع ، ولأن المذوف لم يكن فى حالة عاكة .

مخاتوني بهم إذا أمسيتم ، ولا تأتونى إلا معتدين^(١) فلما أعتصموا جاءوه ، فقال لهم : نشدت الله رجلا مالى عنده مثل هذا الحد^(٢) إلا انصرف . . قال : فما بقى منهم أحد ، فدرأ عنه الحد .

ويمضى قاضى القضاء ، فيقول :

« والخبر المشهور ، الذى كاد يكون متواتراً أن رسول الله ﷺ قال . . « إدرءوا الحدود بالشبهات » ..

« ومن تأمل المسائل الفقهية فى باب الحدود ، علم أنها بنيت على الإسقاط ، عند أدنى سبب وأضعفه » ..

« ألا ترى أنه لو أقر الزانى بالزنا ، ثم رجع عن إقراره ، قبل إقامة الحد ، أو فى وسطه - أى وهو يقام عليه الحد - قبل رجوعه ، وخلى سبيله ؟ »

« وقال أبو حنيفة وأصحابه : يستحب للإمام أن يلحق المقر الرجوع^(٣) » ويقول له : تأمل ما تقول .. لعلك مستتها ، أو قبأتها - كما فعل الرسول الكريم مع « ماعز » .. ويجب على الإمام أن يسأل الشهود : ما الزنا ؟ « وكيف هو ؟ وأين زنى ، وبمن زنى ؟ ومتى زنى ؟ وهل رأوه وطأها فى » فرجها كالليل فى المكحلة . . فإذا ثبت ذلك ، سأل عن الشهود - من « حيث عدلهم وأمانتهم - فلا يقيم القاضى الحد ، حتى يعدلهم - أى يتحقق « من عدلهم - فى السر والعلانية »^(٤) .

(١) أى فى وقت العتمة ، وظلام الليل .

(٢) أى غير منهم فى مثل هذه التهمة .

(٣) ول هذا ما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أنه أتى بسارق ، فقال له . .

« لا تفر » .

ذلك هو «عمر» في قيامه على شريعة الله ، وفي شدته في أخذ الخارجين .
عليها دون رحمة أو هوادة .. وذلك هو «عمر» حين تبدوا له شبهة يدراً .
بها حدود الله . ويبقى بها على إنسانية المسلم وكرامته بين المسلمين .. وقد .
روى أنه - رضى الله عنه - رأى قوماً يتبعون رجلاً ، قد أخذ في ريبة ،
فنهزم قائلاً : « لا مرحباً بهذه الوجوه التي لا ترى إلا في الشر » ..

فرحم الله ابن الخطاب ، رحمة واسعة ، وجاد على المسلمين بمثله ، في .
زماننا هذا الذي نحن فيه أشد ما نكون حاجة إلى نسمة من أنسام عمر ،
في عدله ، وحزمه ، وتقواه .

وإذا كان يمكن أن يؤخذ على عمر شدته في أخذ الخارجين على حدود .
الله - كما فعل مع ابنه الذي مات تحت ضربات يده - فإنه لا يمكن أبدأ .
أن يؤخذ عليه أى تفريط - ولو قيد شعرة - في حد من حدود الله ..

وعمر - رضى الله عنه - لا يقبل عدله أن يأخذ الولاية بالظنة ، ولا بما
يدبر لهم من تهم ، أو يشنع عليهم بها ، لأن الولاية قائمون على أمر .
الناس ، وهيئات لقائم على أمر الناس أن يسلم من سخط بعضهم ، وشئان .
بعضهم ، فيشكونه بالحق والباطل .. فكان من الحكمة والعدل ، التوقف .
الطويل ، والتثبت الدقيق في هذا المقام ، حتى يتبين الحق ، ويتضح
الأمر ..

فهذا أبو موسى الأشعري - رضى الله عنه - كان والياً من ولاته
الشام لعمر ، وقد جاء إلى عمر أحد الأعراب يتهم عنده أبا موسى ،
بجيلة من التهم .. منها :

أنه اتقى لنفسه من أبناء الدهاقين^(١) ، ستين غلاماً ، وأن له جارية

(١) أى أبناء المرس ، واحد دمقان .

تدعى عقيلة - وهى جارية كان أهداها المغيرة بن شعبة إليه ، عندما أرسله عمر ليمتولى البصرة - تغذى جفنة ، وتعشى جفنة ، وليس بين القوم رجل غيره يقدر على ذلك ، وأن له - أى لأبى موسى - قفيزان وخاتمان^(١) وأنه فوض الأمر إلى زياد بن أبيه (أى ابن أبى معاوية) وأنه أجاز الخطيئة بألف درهم !

هذه هى التهم الموجهة من هذا الأعرابى ، إلى أبى موسى الأشعرى .. وقد استدعى عمر - رضى الله عنه - أبى موسى ومعه الجارية ، وسأله عن هذه التهم ، واحدة واحدة ، فى مواجهة هذا الأعرابى .. فقال أبى موسى أما الستون غلاما ، فإنى أعلم أن لم فداء كبيراً ، فنداهم ، وأخذ القدية ، - تقسمها بين المسلمين ..

وأما القفيزان ، فأحدهما لوالى والثانى للمسلمين يأخذون به أرزاقهم . وأما نفويض زياد ، فإنه رأى زياد نبلاً ، وعقلاً ، فاستعان به . وأما أنه أجاز الخطيئة بألف درهم ، فلكى يمكك بذلك لسانه عن الهجاء له ، وللمسلمين ..

ولكن أبى موسى لم يقدم عذراً مقبولاً عن الجارية ، وما يساق إليها من طيب الطعام ، غداء وعشاء ..

ولما لم ير عمر فى هذه التهم دليلاً عليها ، فقد رد أبى موسى الأشعرى إلى عمله .. ثم استدعى زياداً فسأله ، فوجده عالماً بالفرائض والسنن ، بليغاً فصيحاً ، ذكياً . فرتبه ليعمل مع أبى موسى .. وأما الجارية فقد استبقاها عمر فى المدينة ..

(١) القفيز - مكيال بكال به .

(٢) الخطيئة : شاعر فحل معروف ، أدرك الجاهلية والإسلام .

هذا ، وقد كتب عمر إلى ولاته بالشام في شأن هذا الشاهد ، واسمه « ضبة العنزي » فقال :

« إن ضبة العنزي ، غضب على أبي موسى في الحق أن أصابه مراغما ، وفارقه أن فاته أمر من أمور الدنيا ، فصدق عليه وكذب ، فأفسد كذبه صدقه ، فأياكم والكذب ، فإن الكذب يهدي إلى النار » .
أى أن هذا الشاكي لم يشك للحق ، وإن أصاب بعض الحق في شكواه ، وقد جاء ذلك على غير قصد للحق منا ، وقد دفعه بنضه للوالب ، أن يخلط الحق بالباطل .. فكذب وصدق .. صدق في أمور - كما هو الحال في أمر الجارية - وكذب في أمور ، فأفسد كذبه صدقه ، وبهذا فشهادته مجردة لا تقبل !!

وإذا كان عمر - رضى الله عنه - قد توقف في إقامة الحد على المغيرة . بعد أن لاحت له كثير من الشبهات حول شهادة الشهود ، وخاصة شهادة أبي بكر ، فإنه لم يتوقف في إقامة الحد على قدامة بن مظعون ، وهو ممن شهد ببراءة ، ثم هو خال عبد الله بن عمر ، وحفصة بنت عمر - زوج النبي ﷺ .

وكان عمر قد استعمل قدامة على البحرين ، وقد جاء « الجارود » إلى عمر يشكو قدامة أنه شرب الخمر ، فقال له عمر : من يشهد على ما تقول ؟ فقال : أبو هريرة ، فقال : علام تشهد يا أبا هريرة ؟ فقال : لم أره يشرب ، وقد رأيت سكرانا يقى^(١) ، فقال عمر : لقد تنطعت أبا هريرة في الشهادة^(٢) ، وتردد عمر في الأخذ بشهادتهما ، ولكن امرأة قدامة « هند بنت الوليد » شهدت عليه ، فلما ثبتت التهمة أقام عمر الحد عليه .

(١) تنطع في شهادته : أى دأب وفلسف ، وكان عليه أن يقول في شهادته على « ابن مظعون : إنه شرب الخمر ، لأن السكر أصدق شهادة على ذلك » .

وتوقف عمر بعد شهادة الشاهدين في إقامة الحد ، إنما كان ذلك لأنهما لم يتفقا على أمر واحد في شهادتهما ، فشهادة أبو هريرة أنه رآه سكران بقاء ، وشهادة الجارود أنه يشرب الخمر ، وقد تكون الحال التي رأى فيها أبو هريرة قدامة سكران بقاء غير الحال التي رآه الرجل الآخر يشرب الخمر .
فلا شهدت امرأة قدامة عليه بأنه يشرب الخمر ، كانت نهادهما مؤيدة لشهادة الرجل الآخر ، فتمت بذلك شهادتان على قدامة ، فأقيم الحد عليه .



الفصل السادس

ما قيل من أنه أبدع في الدين

ومما تشنع به الشيعة على عمر - رضى الله عنه وأرضاه - أنه أبدع في الدين ، أى أحدث بدعاً في الدين ، ويستشهدون على هذا بما كان من عمر في صلاة التراويح ، وفي جعلها جماعة في المسجد ..

يقول الشريف المرتضى : « أما التراويح ، فلا شبهة أنها بدعة ، وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أيها الناس : إن الصلاة بالليل في شهر رمضان من النافلة لجماعة ، بدعة ، وصلاة الضحى بدعة : ألا فلا تجتمعوا ليلاً شهر رمضان في النافلة ، ولا تصلوا صلاة الضحى .. فإن قايلًا في سنة ، خير من كثير في بدعة ، ألا وإن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة سبيلها في النار » .. وقد زوى - والكلام للمرتضى - أن عمر خرج شهر رمضان ليلاً ، فرأى المصاييح في المسجد ، فقال : ما هذا ؟ فقيل له : إن الناس قد اجتمعوا لصلاة التطوع فقال : « بدعة !! فنعمت البدعة » !! فاعترف - كما ترى - بأنها بدعة وقد شهد رسول الله ﷺ أن كل بدعة ضلالة .

« وقد زوى - والكلام للمرتضى أيضاً - أن أمير المؤمنين علياً لما اجتمعوا إليه بالنكوفة ، فسألوه أن ينصب لهم إماماً يصلى بهم نافلة رمضان - أى صلاة التراويح - زجرهم ، وعرفهم أن ذلك خلاف الشفة ، فتركوه ، واجتمعوا لأنفسهم وقدموا بعضهم ، فبعث إليهم ابنه الحسن رضى الله عنه ، (م ٤٧ - عمر بن الخطاب) .

فدخل عليهم المسجد ومعه الدرة ، فلما رأوه تبادروا الأبواب ، وصاحوا :
واعمره !! » .

وإذ ننظر في هذا الذى يأخذه الشريف المرتضى على عمر - رضى الله
عنه - وما يسوقه من أخبار ، نرى :

أولاً : أن النبى ﷺ قال عن صلاة النافلة في شهر رمضان في جماعة ،
بدعة .. وقد أعلن النبى ﷺ هذا على المسلمين في خطبة عامة ، إذ بدأ ذلك
بهذا الخطاب : « أيها الناس » ..

وثانياً : يقول المرتضى : إن عمر خرج في شهر رمضان ليلاً فرأى
المصاييح في المسجد ، فقال : ما هذا ؟ فقيل له : إن الناس قد اجتمعوا
لصلاة التطوع - أى التراويح - فقال : بدعة .. فنعمت البدعة ..

والسؤال هنا : كيف ينهى الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - عن
صلاة التراويح جماعة ، وكيف يصرح بأن ذلك بدعة ، ثم يصلحها المسلمون
جماعة بالليل ، ويوقدون لذلك المصاييح في المسجد ؟ وهل كان هذا الاجتماع
بأمر من عمر - رضى الله عنه - ؟ ونقول : كلا ، فإن عمر خرج ، فرأى
الناس يصلون التراويح جماعة .. ! . وهل كان ذلك في أول رمضان من
خلافة عمر ؟ أم كان ذلك متبعاً في خلافة أبى بكر ، فهل يرضى أبو بكر
بهذا لو لم يكن الأمر - أرياً هكذا في عهد الرسول - صلوات الله وسلامه
عليه - ؟ أسئلة كنا نود لو أن الشريف المرتضى أجاب عليها ..

ثم إن قول عمر - رضى الله عنه - حين رأى المسلمين يصلون التراويح
جماعة - كما يقول المرتضى - قال : بدعة ! ومعنى هذا أنه أنكر هذا الأمر
أول ما برآه ، فقال عنه بدعة .. ثم إنه راجع نفسه حين رأى اجتماع المسلمين
وم يحيمون ليل رمضان بهذه الصورة ، فقال : فنعمت البدعة ! .. فعمد هنا

لأنما يرد على نفسه في قوله أول الأمر «بدعة» ثم استدرك فقال : ولكن ذلك شيء طيب لا بأس به !

هذا فيما نراه في هذا الخبر الذي رواه المرتضى ..

ونأتي بعد ذلك بما رد به قاضي القضاة - ابن عبد الجبار - على الشريف المرتضى ، حيث يقول :

«أما كون صلاة التراويح بدعة ، وإطلاق عمر عليها هذا اللفظ ، فإن لفظ البدعة يطلق على مفهومين :

أحدهما : ما خولف به الكتاب والسنة ، مثل صوم يوم النحر وأيام التشريق ، فإنه وإن كان صوماً ، إلا أنه منهي عنه ..

والثاني : ما لم يرد فيه نص ، بل سكوت عنه ، ففعله المسلمون بعد وفاة سالتى ﷺ .. فإن أريد بكون صلاة التراويح بدعة بالمفهوم الأول ، فلا نسلم أنها بدعة بهذا التفسير ..

والخبر الذي رواه المرتضى غير معروف ^(١) ولا يمكن أن يسنده إلى كتاب من كتب المحدثين ، ولو قدر على ذلك لأسنده ..

ولعله من أخبار أصحابه ^(٢) من محدثي الإمامية ، والإخباريين منهم .. والألفاظ في آخر الحديث وهي : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة في النار » - مروية مشهورة ، ولكن على تفسير البدعة بالمفهوم الأول .. وقول عمر : « إنها لبدعة » خبر مروى مشهور ، ولكن أراد به البدعة بالتفسير الثاني ، والخبر المروى عن أمير المؤمنين على - كرم الله وجهه - ينفرد هو - أي المرتضى - وطائفة بنقله ، والمحدثون لا يعرفون ذلك ، لا يثبتونه !

(١) ينسب إلى الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن التراويح وصلاة الضحى .

(٢) أي أصحاب المرتضى .

ثم يمضى ابن عبد الجبار ، فيقول :

« فأما إنكاره - أى المرتضى - أن تكون - صلاة التراويح - نافلة شهر رمضان ، صلاها رسول الله ﷺ في جماعة ، فإنكار لست أرتضيه لمثله ، فإن كتب الحداث مشحونة برواية ذلك ، وقد ذكره أحمد بن حنبل في مسنده غير مرة بعدة طرق ، ورواه الفقهاء وذكره الطحاوى في كتاب اختلاف الفقهاء » وذكره أبو الطيب الطبرى الشافعى ، في شرحه كتاب المزنى ، وقد ذكره المتأخرون أيضاً ، وذكره الغزالى في كتاب « إحياء علوم الدين » . وقال إن رسول الله ﷺ صلى التراويح في شهر رمضان ليلتين ، أو ثلاثاً ، ثم ترك ذلك ، وقال : « أخاف أن يوجب عليكم » وأجاز لى الشيخ أبو الفرج عبد الرحمن بن على الجوزى ، بروايته عن شيخه محمد بن ناصر ، عن شيخه ورجاله ، أن رسول الله ﷺ صلى نافلة شهر رمضان في جماعة يأتون به ليلياً ، ثم لم يخرج وقام في بيته ، وصلى الناس فرادى بقية أيامه وأيام أى بكر ، وصدرأ من خلافة عمر ، فخرج عمر ليلة فرأى الناس أوزاعاً - أى فرادى - يصلون في المسجد ، فقال : لو جمعهم على إمام ؟ فأمر أى بن كعب أن يصلى بهم ، فصلى بهم تلك الليلة ، ثم خرج فرآهم مجتمعين إلى أى بن كعب يصلى بهم ، فقال بدعة ، ونعمت البدعة ، أما لأنها لتفضل ، والتى ينامون .^(١) نفعها أفضل .

وفى هذا الخبر أمور :

أولاً : أن النبى ﷺ صلى صلاة التراويح بالمسلمين جماعة في رمضان .

(١) يقصد الى ينامون عنها ، قيام اخر الليل ، فانها أفضل من قيام أوله .

ليالى .. ثم قام فى بيته بعد ذلك ولم يخرج لصلاة هذه النافلة بهم جماعة ، خشية أن تفرض عليهم .. ثم مضى الأمر على ذلك فى حياة النبي ﷺ ، وخلافة أبى بكر ..

« وثانياً : أنه لما كان فى أول خلافة عمر ، رأى عمر الناس يصلونها فرادى فى المسجد ، فرأى أن اجتماعهم فى الصلاة خير من تفرقهم ، فدعا أبى بن كعب أن يصلى بهم جماعة .. ولم يصل عمر معهم ، لأنه لو صلى معهم لكان هو الإمام ، كما كان الحال يومئذ . . وهذا يعنى أن عمر لم يكن يرى صلاة التراويح فى جماعة ، إلا حين جاء المسلمون يصلونها فرادى فى المسجد .

وثالثاً : أن عمر - رضى الله عنه - قال عن هذه الصلاة فى جماعة أفضل ثم فضل عليها الصلاة فى آخر الليل على انفراد .. ومعنى هذا أنه وقد جاء المسلمون يصلون التراويح فى المسجد فرادى ، فإن صلاتهم إياها جماعة أفضل من صلاتهم فرادى .. وقد صلاها رسول الله ﷺ جماعة بالمسلمين ، ولكنه رحمهم من أن تفرض عليهم ، فأمسك عن صلاتها جماعة ! ثم يعترض الشريف المرتضى على أن تكون صلاة النافلة فى جماعة^(١) ..

ويرد عليه قاضى القضاة ابن عبد الجبار ، بقوله :

« فإن قال - أى المرتضى - كيف تكون نافلة ، وهى جماعة ؟ قيل له : قد رأينا كثيراً من النوافل ، تصلى جماعة ، نحو صلاة العيدين ، وصلاة الكسوف ، وصلاة الاستسقاء ، وصلاة الجنائز ، إذا لم يتعين المصلى بأن يقوم غيره مقامه فيها »^(٢).

وقد اختلف الفقهاء فى أيهما أفضل : أن تصلى التراويح فى جماعة ،

(١) لأن صلاة الجماعة لا تكون إلا فى الصلاة المفروضة ، وصلاة العيدين ، الجنائز ، والاستسقاء .

(٢) القاضى ، لابن عبد الجبار ص ٢٦٢ .

أم أن تصلى فرادى ، فقال قوم : الجماعة أفضل ، لأن الاجتماع بركة ، وله فضيلة ، ولولا فضيلته لم يسن في المكتوبة ، ولأنه ربما يكسل المرء في الانفراد وينشط عند مشاهدة الجمع . .

وقال قوم : الانفراد أفضل لأنها سنة ، ليست من الشعائر كالعيدين . فالحاقها بتحية المسجد أولى ، وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع ما ، ثم لا يصلون تحية المسجد جماعة . . وقد روى القائلون بهذا القول عن النبي ﷺ أنه قال : « فضل صلاة المتطوع في بيته ، على صلاة المتطوع في المسجد كفضل صلاته المكتوبة في المسجد على صلاته في البيت » . . وقد روى عنه ﷺ قوله : « إن أفضل النوافل ركعتان يصليهما المسلم في زواية بيته لا يعلمها إلا الله وحده » .

قالوا - أى القائلون بصلاتها فرادى - إذا صليت فرادى ، كانت الصلاة أبعد من الرياء والتصنع . .

وبالجملة ، فإن الاختلاف محصور في أيهما أفضل ، صلاتها - أى التراويح - . . في جماعة أو صلاتها فرادى . . فأما تحريم هذه الصلاة ، ولزوم الإثم بفعلها ، فهو ما لم يذهب إليه أحد إلا الإمامية . . وقد روى أن علياً - كرم الله وجهه - خرج ليلاً في شهر رمضان في خلافة عثمان ، فرأى المصاييح في المساجد ، والمسلمون يصلون التراويح ، فقال : نور الله قبر عمر ، كما نور مساجدنا . . والشيعه يروون هذا الخبر ، ولكن يحملون لفظه على معنى آخر !!

* * *

وبعد ، فإذا يكون حظ عمر من هذه المخالفة لرسول الله ﷺ ، وفي إحداث هذه البدعة - كما يقول الشيعة ؟ أهو مجرد الخلاف ، وإحداث . .

البدع في دين الله ؟ هذا أبعد ما يكون من مسلم ، فضلا عن أن يكون عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - وهو الذى عاش حياته متأسيا برسول الله ﷺ ، فلم يأخذ من الحياة الجديدة التى طلعت على المسلمين فى عهده قليلا ، أو كثيرا ، فكان لباسة المرقعات . وكان إدامه الخل أو الزيت ، فإذا اجتمع الإدامان . رفع يده وقال : إدامان فى طدام واحد ؟ .

ولكن حين ينظر إلى الإنسان بعين كارهة مبهضة . فإنها ترى الحسن قبيحا ، والطيب خبيثا ، والحق باطلا . .



الفصل السابع

عزل خالد بن الوليد

هذه مسألة كثر فيها القول ، واختلف عليها الرأي ، حتى لقد غمز فيها بعض الناس عمر - رضى الله عنه - ونسبوا عزل عمر له إلى أمور شخصية بينه وبين خالد ، بعضها فى الجاهلية ، وبعضها فى الإسلام .. قالوا إنه كان بين عمر وخالد مشاحنة فى الجاهلية . وأنها تصارعا ، وأن خالدًا نال من عمر ، وصرعه ! !

وقالوا : إن خالدًا غلبت عليه طبيعته العسكرية ، وهو يقود جيوش المسلمين ، فى عهد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وكذلك فى خلافة أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - فكان يأخذ الموقف الذى يراه ، ويمجرى أموره على غير سابقة معروفة ، أو استشارة لولى الأمر !

وقال المعتزرون لعمر - رضى الله عنه - : إن خالدًا لم يستبرئ لدينه بالتروى والتوقف عند ورود الشبهات عليه ، وأنه كان يستعمل رأيه كما يستعمل سيفه ، من غير لين ولا هوادة !

ويعدو على خالد فى هذا أموراً ، منها :

أولاً : موقفه من جزيمة^(١) حين بعثه الرسول ﷺ إليهم ليخبر حالهم : إن كانوا على الإسلام ، أو على الشرك ، فقتلهم خالد ، وأخذ أموالهم

(١) قبيلة عربية معروفة من قبائل العرب ، ذات شرف ، وحسب ، وكان منها أمراء الجاهلية .

لرأى رآه ، قبل أن يستوثق ويستيقن . . وقد فزع رسول الله ﷺ لهذا ، ورفع يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد » .

ومع هذا ، فقد كان خالد عند رسول الله ﷺ بالمكان الذي لا يغنى فيه كثير غيره من الرجال ، حتى لقد أطلق عليه الرسول الكريم : « سيف الله » . .

وثانياً : أن خالداً في خلافة أبي بكر ، قتل مالك بن نويرة على وجه شبهه . ثم تزوج امرأته . . كما قتل في خلافة أبي بكر أيضاً ، ضرار بن الأزور وتزوج امرأته وهي في عدتها ، وكان ذلك في حروب الردة . بل إن خالداً - على ما قيل - لم تشغله دماء آلاف من المسلمين ، قتلوا في معركة اليمامة ، حتى لقد تزوج غداة المعركة بفتاة بكر ، أراق دم بكارتها على حين كانت الدماء تجري أنهاراً من قتلى صحابة رسول الله ، وحفظة كتاب الله ، حتى لقد أفزع ذلك الخليفة أبا بكر ، وأخرجه عن حله المعروف ، فكتب إلى خالد كتاباً جاء فيه :

« لعمري يا ابن أم خالد ، إنك لفارغ ، تذكح النساء ، وبفناء بيتك دم ألف ومائتي رجل من المسلمين لم يحف بعد » !! وحين قرأ خالد الكتاب تألم لغضب أبي بكر ، ولكنه سرعان ما نظر إلى أبي بكر ، وحله ولينه ، فرأى إلى جواره عمر بن الخطاب ، في شدته وصرامته ، ورأيه في خالد ، فنسب هذا الأمر إلى عمر ، وأنه هو الذي حمل أبا بكر على كتابة ما كتب إقبال خالد : « هذا عمل الأعسر » ^(١) !

:

(١) يريد عمر بن الخطاب ، لأنه - رضى الله عنه - كان أيسر ، وكان يعمل بكلمات يديه .

وقد راجع عمر أبا بكر - رضى الله عنه - فى أمر خالد ، حين تمل مالك ، ابن نؤيرة وتزوج امرأته ، وأشار عليه بعزله ، فأبى أبو بكر - رضى الله عنه - وقال : أترانى أعمد سيفاً سله رسول الله ﷺ . ؟

* * *

والذى يعرف شيئاً من سيرة عمر ، ويعرف عدله ، وخوفه من الله ، ومراقبته الشديدة لنفسه ، وتحريمه الدقيق لخير الإسلام والمسلمين ، لا يبحث فى عزل عمر لخالفه عن سبب أو أسباب ، وحسبه أن عمر قد عزله ، ولن يعزله إلا لمصلحة راجحة رآها لخير الإسلام والمسلمين .

وهل ينتظر من عمر أن يفعل غير هذا ؟

وهل يعرض عمر جيوش المسلمين لهذه الهزة العنيفة التى ربما انكسرت بها موجة الإسلام ، وانكشف ظله ، وضاع جيش المسلمين - هل يعمل عمر هذا ، إرضاء لهوى فى نفسه ، أو إرواء لغل فى صدره ؟

وهل كان عمر ممن يستجيب لشهوة كانت تدعوه إليها نفسه ؟ وهل عرف فى صحابة رسول الله ﷺ من أمسك نفسه عن أى مورد من موارد الشهوات ، وهى حاضرة بين يديه ، تدعوه إليها ، وتهتف به - مثل هذا الذى كان من عمر ، وقد واجه هذه التجربة القاسية من تلك الدنيا التى فتحت أبوابها له ، وجاءت بين يديه بدولتى فارس والروم ؟

عمر الذى يرى تاتل أخيه زيد بن الخطاب ، فلا يزيد على أن يقول له : « والله لا يحبك قلى أبداً حتى تحب الأرض بالدم المنفوح » . فيحبيه المقاتل . « وهل يمنع ذلك حقاً لى ؟ » فيقول عمر : « أما هذا فلا » فيقول الرجل : « لا ، لأننى لا أبالى ، إنما يبكى على الحب النساء ! » .

وعمر الذى يعرض نفسه كل ساعة من ساعات الليل والنهار ، يناقشها :
الحساب ، ويسوق إليها التهم ، فتجيش وتضطرب ، وتستدرف دموعه ، .
حتى لقد رسم الدمع على وجهه خطين أسودين من كثرة البكاء !
وعمر الذى يحمل القربة على عاتقه يسقى بها الناس ، فيسأله الصحابة فى
هذا ، فيقول : « إن نفسى أعجبتنى ، فأردت أن أذلها » !!

عمر ، وهذا قليل من كثير مما عنده من ورع وخشية ، وتواضع ، .
يستبقى فى نفسه ثأرا من أيام الجاهلية يثار لها به ، ليرضاها ، وليقيم لشهوتها
مما لم الزهو والنصر بين جنبيه !!

أعمر يفعل هذا ؟ وعلى حساب من ؟

على حساب الإسلام كله . . الإسلام كمقيدة ، يكون أو لا يكون . .
والإسلام كدولة تقوم أو لا تقوم . . فإن المعركة الفاصلة بين المسلمين والروم
والتي يقرر فيها مستقبل الإسلام ، والتي يتولى قيادتها خالد ، لا تزال
قائمة ، وسيف الله « خالد » فيها هو الراية التي تتحقق بالأمل فى الظفر
بالعدو ، والعدو يبيت مفزعا مكروبا ، وهو يرى خالد يتأهب للانقضاض .
عليه ! .

أيقامر عمر بمستقبل الإسلام هذه المغامرة الكبرى ليرضى هوى ،
أو يشبع شهوة ؟ .

إن أقل المسلمين ديننا ، وأكثرهم غفلة ، بل وأشدهم جرأة على المعصية . .
لا تسول له نفسه . . فى مثل تلك الحال التي يقرر فيها مصير الإسلام . . أن
يفعل هذه العلة المنكرة ، إن لم يكن قد وزن الأمر بين يديه ، وقلبه على .
جميع وجوهه ، ثم رجح عنده أن عزل خالد فى هذا الموقف الحرج المتأزم . .
هو لمصلحة الإسلام ، ولا شئ غير مصلحة الإسلام ؟

أما تقدير هذه المصلحة ، وأما ضمان تحقيقها ، فهو ما يراه عمر ، وإن خفى ذلك على غيره ، حتى جاءت الأيام بتأويله ، فكشفت عن وجه جديد . من الكياسة ، والعبقرية ، عند عمر !

عمر الذى أعطى الإسلام كل لحظة من لحظات حياته ، حتى أقام صرحه عالياً شامخاً على قواعد راسخة من العدل والحق والإحسان .

عمر الذى قطع حياته ، ساهراً ، جائعاً ، باكياً وهو قائم على حراسة الإسلام والمسلمين . . عمر يفعل هذا الذى كان منه لخالد من غير أن يرى فى ذلك مصلحة راجعة للإسلام ؟ .

لا ، إن فى عزل خالد ، وجهاً آخر غير هذا الوجه ، وجهاً ترجح فيه المصلحة بعزله على الخير المرجو المرتقب فى بقائه !

فما هو هذا الوجه ؟ وما حساب هذه المصلحة ؟

فلننظر !!

خالد فارس الإسلام غير مدافع . اجتمع له مع القوة والبأس . يمن . النقيبة ، فما دخل معركة إلا كان النصر له ، والغلب فى جانبه ، وما قاد جيشاً إلا أدار به المعركة على أحكم الخطط وأبرعها ، ما هزم فى معركة قط ولا شك أن لسوابق هذا النصر العقود تحت لواء خالد ، أثراً عظيماً فى مشاعر المحاربين معه ، حيث يقامون والنصر مطلوبهم ، والظفر بالعدو يهتف بهم !!

وحسب خالد من الشجاعة ، ونفاذ البصيرة ، وحسن التدبير ، أنه أنقذ جيش المسلمين فى غزوة « مؤتة » وقد كاد الجيش كله يقع فى يد العدو . . ولم يكن خالد فى هذا الجيش إلا جندياً من جنوده ، ولم يكن قائداً من قواده الثلاثة الذى غيبنهم الرسول - صلوات الله وسلامه عليه . .

فقد كان ﷺ سير جيشاً إلى مؤتة في ثلاثة آلاف رجل ، وجعل القيادة .
لزيد بن حارثة ، وقال : « إن أصيب زيد ، فجعفر بن أبي طالب ، فإن
أصيب جعفر ، فعبد الله بن رواحة » ولم يشر الرسول ﷺ إلى أحد بقيادة .
الجيش بعد ابن رواحة .

وكان الروم قد استعدوا للقاء هذا الجيش في مئتي ألف مقاتل بالعدد
والعتاد الذي لا عهد للعرب به .. فالنقى الفريقان .. وقتل قواد جيش
المسلمين الثلاثة ، واحداً بعد واحد على الترتيب الذي رتبته النبي - صلوات
الله وسلامه عليه .

وهنا يطلع خالد من بين هذا الجيش الذي قتل قاداته ، وذهب كثير
من جنده ، شهداء في سبيل الله .. ولم يكن مفر من أن يستشهد الجميع لا يرجع .
منهم أحد . . وهنا أشارت الأصابع كلها إلى خالد : أن كُن أنت
لهذا الموقف !!

وقد كان خالد رجل هذا الموقف ، فأحكم خطته ، وخادع العدو حتى
تمكن من الإفلات بالبقية الباقية من الجند ، وعاد بهم إلى المدينة ، وحين .
علم الرسول الكريم بأنباء المعركة ، وما كان لخالد من هذا الموقف العبقري
فيها قال : « لقد أمر خالد نفسه » !!

وقد لقي المسلمون جماعة المجاهدين الذين عاد بهم خالد ، لا يمين لهم على أن
لم يقاتلوا حتى يستشهدوا جميعاً ، وكانوا يقولون عنهم : هؤلاء الفرار !!
فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، قال : « ليسوا الفرار ، ولكن الكزاز
إن شاء الله » .

وقد صدق الرسول الكريم ، فاهى إلا سنوات معدودات ؛ حتى عاد .
المسلمون ، وفيهم بقية هؤلاء المجاهدين إلى بلاد الروم ، فاتحين !

والرسول الكريم رأى في خالد . . فإنه مع تلك الهنات التي كانت تقع من خالد في الحرب ، لم ير الرسول الكريم أن يفت في عضده ، وأن يكسر من شوكته ، وأن يحرم المسلمين هذه القوة التي تعدل جيشاً كثيفاً ، بل أبقاه حيث هو قائداً من قواد المسلمين ، يبلى بلاؤه لنصرة الإسلام ، ورفع رايته . . ولهذا كان الرسول الكريم ﷺ يقول : « إن خالداً سيف سله الله على المشركين » .

ولبلاء خالد وشجاعته ، ورأى رسول الله ﷺ فيه ، ولأه أبو بكر حروب الردة التي كانت تهدد الدعوة الإسلامية - ولم يستمع لرأى عمر فيه - على كثرة ما كان يستجيب لرأى عمر ، لأنه كان يرى أن ينتفع المسلمون بهذا السيف في هذا الموقف الحرج ، وقد كان ، فأطلقاً خالد تلك النار ، وأحاطها . رماداً ، ودفن تلك الفتنة في هذا الرماد !!

* * *

هذا هو خالد بن الوليد ، وتلك مكاتته في مواقف الحرب ، وهذا . . بلاؤه في الإسلام . . فهل كان عمر يجهل هذا من خالد ؟ كلا ، فعمر أعرف الناس بالرجال ، وهو أعرف الناس بخالد !!

فلم إذن عزل عمر ، والموقف بين المسلمين وعدوهم موقف فاصل ، بتقرر من فيه مصير الإسلام ومستقبله ؟ أمّا كان من الحكمة أن ينتظر عمر بخالد ، حتى تنتهى المعركة ، ثم يعزله ؟ ولم يعزله في هذا الموقف الذي هو أخرج موقف للإسلام ؟

وأود أن أنبه هنا إلى أن كلمة « عزل » كلمة غليظة ، أكبر من الواقع

الذى لها فى هذا الوقت من مسيرة الإسلام ٠٠ والذى هو أقب إلى الحق
أن نقول : استبدل به غيره ، بدلا من القول بأنه عزنه !

طيب هذا !!

ولم استبدل به غيره ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال ، يجيب أولا على سؤال آخر ، هو
من هو المستبدل بخالد ؟ وما حظه من الصفات التى تؤهله لهذا المكان
بالنسبة لخالد ، أو بالنسبة لخالد إليه ، وللاخرف الذى يواجهه
أبى منهما ؟ .

ونعرف أن أبا عبيدة بن الجراح هو الذى ولاه عمر القيادة العامة للجيش
المسلمين بدلا من خالد !

فن هو أبو عبيدة ؟ وما ملامح شخصيته ؟ وما أهليته لهذه
القيادة العامة ؟

ع فنا من قبل أن أبا عبيدة بن الجراح ، هو أحد العشرة المبشرين
بالجنة ، وأنه من السابقين الأولين إلى الإسلام ، وفيه يقول الرسول
- صلوات الله وسلامه عليه - : « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة
أبو عبيدة بن الجراح » !

ولهذه الصفات ، وإيثار النبى ﷺ لأبى عبيدة بالحب ، ووصفه بأنه
أمين هذه الأمة - أجله عمر ، ووثق صاعته المظاقة به ، ولم يكن عمر ليردد
أبدأ فى أن يوليه الخلافة من بعده ، لو أمتد به أجله ، وحضر وفاة عمر -
بل إن أبا بكر - رضى الله عنه - بعد أن احتج على الأنصار بأحقية
المهاجرين بالخلافة ، أشار إلى الجميع ، بأن يبايعوا الأحد الرجلين : عمر ،
وأبى عبيدة .

هذا هو أبو عبيدة بن الجراح ، الذى حل محل خالد . . إنه مؤهل لمنصب الخلافة عند أبي بكر ، ثم عند عمر من بعده . . ولا شك أن منصب الخلافة أعظم وأجل من أى منصب من مناصب الدولة ، ولو كان قيادة الجيوش ، وإدارة الحروب . . لأن الخليفة هو الرأس المدبر لكل القوى العاملة فى الدولة الإسلامية ، وإليه ، وإلى حسن رأيه وتديره ، يرجع صبط أمور الدولة كلها ، فى السلم والحرب على السواء .

وقد يقول قائل : إن قيادة الجيوش ، وإدارة الحروب ، تحتاج إلى مواهب وصفات خاصة ، قد لا تتوفر فيمن يؤهل للخلافة أو يقوم عليها ، وإنه ليس من الضروري أن يكون الخليفة رجل حرب ، وإن كان رجل حق وعدل ، وحسن سياسة وتدير !!

فأبو بكر - رضى الله عنه - لم يعرف عنه أنه كان رجل حرب ، ولا ذا مكانة معروفة فى مواقع القتال ، وإن كان له من الصفات الروحية ، والنفسية ، والعقائمية ، ما كان به فقه على أصحاب رسول الله . . ومع هذا ، فقد كان خليفة رسول الله ﷺ ، وأوله قد سد الثغرات كلها التى تنبأت فى الجبهة الإسلامية ، بعد وفاة الرسول الكريم . . ومع هذا فإن أبا بكر الذى صلح للخلافة كل الصلاحية ، لا يقوم مقام خالد فى الحروب ! وكذلك الأمر بالنسبة لعمر ، فهو كأبى بكر ليس رجل حرب .

وإذن ، فأبو عبيدة الذى رجح خالد فى كثير من الصفات ، قد لا تسكون فيه الميزات التى تؤهله لخوض المارك وقيادة الجيوش .

قد يقول قائل هذا ، ومحوه . .

وردنا على هذا من وجوه :

فأولاً : أن أبا عبيدة - رضى الله عنه - كان في المحاربين البارزين مع رسول الله ﷺ وشهد غزوات الرسول وشارك فيها بسيفه ، وكان رسول الله ﷺ يبعثه على رأس السرايا في كثير من الأحيان . فبعثه ﷺ على رأس أربعين رجلاً في سرية « ذى القصة » . كما بعثه على رأس ثمانمائة من المهاجرين والأنصار إلى حى من جهينة ، في غزوة تسمى غزوة « الخبط » .

فأبو عبيدة من هذه الجهة - فارس من فرسان الحرب - وإن لم يشتهر شهرة على بن أبى طالب ، أو خالد بن الوليد مثلاً .

وثانياً : لمكانة أبو عبيدة التى عرفت له في الحرب في غزوات الرسول ﷺ ، فقد ندبه أبو بكر - رضى الله عنه - قائداً لجيش من جيوش المسلمين الأربعة التى وجهها لحرب الشام . وإذنه فلم يكن أبو عبيدة دخيلاً في المعركة الهائلة بين المسلمين والروم هناك ، بل هو مشارك فيها ، عارف بالكثير من خباياها ، على حين كان خالد قائداً لجيوش المسلمين في فتح فارس ، ثم جاء إلى الشام نجدة للمسلمين المحاربين هناك .

فلما جاء خالد إلى الشام تشاور مع قواد الجيوش هناك لتوحيد القيادة فاختروه قائداً عليهم .

وإذنه فلم يكن خالد قائداً عاماً لجيوش الشام بأمر من الخليفة أبى بكر ، وإنما كان باختيار القواد له .. ونذكر هنا قول الرسول الكريم في خالد عندما تولى أمر المسلمين في غزوة مؤتة : « لقد أمر خالد نفسه » .

وثالثاً : أن أبا عبيدة ، وقد كان محارباً للروم من أول قتال المسلمين لهم ، فقد كان أعلم بمواقع العدو ، ومكائده في الحرب من الذى كان محارباً للفرس .

ومع هذا ، فإن السؤال ما زال قائماً ، وهو : هل يعد أبو عبيدة على الرغم من كل ماله من صفات تؤهله للخلافة ومع بلائه في الحرب ، هل يعد في منزلة خالد ، أو أصلح منه ليحل محله ، ويأخذ مكانه في القيادة ؟

ونقول في غير تردد : إن خالد لا يقوم مقامه قائد آخر ، أياً كان في هذا المرقف ، خاصة وقد بلغت أخباره الروم ، وما كان منه في الانقضاض على دولة فارس ، وتقويض صرحها ، واستيلاء المسلمين عليها .

وهنا نعود إلى السؤال الأول ، الذي أرجأنا الإجابة عليه - وهو : لم استبدل عمر بخالد غيره ، وإن كان هذا الغير أبا عبيدة بن الجراح ؟ ونقول : إن عمر - رضى الله عنه - مع تقديره للرجلين - خالد ، وأبي عبيدة ، كان يرى أن أبا عبيدة يرجح خالداً ، ويفضله في قيادة هذه المعركة بالذات ، وذلك لوجوه ، منها :

أولاً : أن جيش خالد ، قد جاء من العراق ، مثقلاً بالغنائم ، مزهواً بالنصر ، مفتوناً بخالد ، وكان هذا جديراً بأن يقيم بين جيوش المسلمين عزلة نفسية . . فهناك فريق قد أنهى معاركه ، وقضى على أعظم دولة ، ممثلاً في جيش خالد ، وهناك فريق آخر لم يصل بعد إلى نتائج حاسمة في المعارك الدائرة في الشام ، ممثلاً في جيوش الشام . . فإذا تولى خالد قيادة الجيوش كلها في الشام أوقع هذا - دون شعور - انكساراً في نفوس الجنود والقادة الذين كانوا يواجهون الروم ، في الجبال التي يوقع فيها - ومن غير شعور أيضاً - زهواً في جيش خالد ، الذي جاء ظافراً غانماً .

وكان خير علاج لهذا أن يقوم على معركة الشام قائد من قواد جيوش الشام ، وأن يكتب الله تعالى نصر المسلمين على يد . . وذلك من شأنه أن

يرى الروم أن المسلمين الذين ندبوا لحربهم من أول الأمر ، هم هم الذين سيلقونهم في المعركة ، وأن الجيش القادم من فارس ، وقائده ليس إلا مجرد مدد للمسلمين ، بعد أن فرغ من مهمته ، ليشارك في الغنائم الذي تنتظره في الشام !!

وثانياً : لو ظل خالد هو قائداً معركة الشام ، لدخل على نفوس كثير من الجند الذين وجهوا لحرب الروم أول الأمر بعض الفتور ، وأنه إن تحقق النصر للمسلمين على الروم بقيادة خالد ، لما شك أحد في أنه لو لا خالد لما كتب للمسلمين النصر . . هذا شيء أو شبهه ، لا بد أن يدور في كثير من النفوس !

وأما ما يقال من أن المعركة معركة عقيدة ، وأن المشتركين فيها من المسلمين إنما يجاهدون في سبيل الله ، ويبذلون لذلك الأرواح في سخاء ، غير ناظرين إلى ما وراء ذلك من نصر أو هزيمة ، وإنما الذي يعنيههم أولاً ، وقبل كل شيء ، هو إخلاص النية ، وصدق البلاء في الجهاد ، ثم ليكن ماشاء الله وقدر .

وذلك حق ، ولكن مثله من الحق أن النفوس البشرية لا يمكن بحال أن تدرك أن تنفصل عن طبيعتها ، وإحساسها بوجودها . . فهؤلاء الجنود — أيًا كانوا من إخلاص النية وصدق البلاء — فيهم طبيعتهم البشرية ، ويمحون أن يروا مكانهم وآثارهم في المعركة ، وألا يضاف النصر إلى غيرهم !!

وثالثاً : كان خالد في هذه الفترة يحتل مكاناً عظيماً من نفوس الجند . وبخاصة جنده الذين جاءوا معه من العراق — وهذا المكان يكاد يبلغ حد الانضمام به وانتمت في النصر تحت رايته ، وأنه لو أخل مكانه لرزنت هذه الحالة من كثير من النفوس . . أنه اكتسح دولة مترامية الأطراف

دولة الفرس ، ثم هو قبل هذا قضى على جيوش المرتدين في الجزيرة العربية التي كانت تهدد الإسلام . . ثم ها هو ذا مقبل على التهام دولة أخرى مترامية الأطراف ، هي دولة الروم . فأي إنسان هذا ؟ وماذا يكون رأى الجهد فيه ؟ إنه معجزة ، وإن النصر معقود بيمينه دون غيره . من قادة الجيوش الإسلامية . .

أفلا يرى المستبصرون في هذا ، أن خالد أسى يكون بعد أن يكسب الحزب مع الروم ، ويستولى على دولتهم في الشام ، سيكون موضع افتتان بل وفطنة للمسلمين ؟ فربما افتتن خالد نفسه ، وربما دعاه ذلك إلى أن يخالف الخليفة في يوم من الأيام ، ويخرج عن سلطانه ، إن وقع بينه وبين الخليفة ما يقتضى الخلاف ، فثشون هذه الدولة التي أقامها بسيفه ؟ إن لم يكن ذلك في خلافة عمر ، فقد يكون في خلافة من يخلفه ! ! ولو امتد أجل خالد سنوات فرأى بعينه كيف كان موقف معاوية من الخليفة على بن أبي طالب ، وكيف رضع راية العصيان في وجهه ، ونجد السيف لمحاربه ؟ .

فهل كان خالد يقف متفرجاً في هذا الموقف ؟ ألا تنزع به نفسه أنه يقف جبهة وحده — وسيفه معه — لينازع علياً ومعاوية معاً ؟ ثم ألا يرى أنه أولى من معاوية الذي أصبح والياً على الشام الذي هو إحدى الدول التي فتحتها خالد بسيفه ؟

لقد وضع عمر — رضي الله عنه — هذه الصورة في نفسه لخالد ، ونظر إليه من هذه الجوانب كلها ، بما تنفذ إليه بالعميقة ، وبصيرته في الاستعداد إلى مواطن القوة أو الضعف في الرجال ، وربطهم بالتبهمات التي يحملونها . أو إعنائهم منها ، فرأى من المصاححة أن يحل خالداً من هذا المكان ، إذ رأى فيمن بين يديه من الرجال ، من يقوم مقامه ، ولا يتوقع منه شيء مما يمكن أن يتوقع من خالد ! !

وتقدم رسول الله ﷺ من قبل ، أن يعزل « خالداً » لما كان منه .
ولكن الإسلام في ذلك الوقت كان في حاجة شديدة إلى القوة ، كي يشتد
ويقوى ، وخسارة الإسلام في تخلي خالد عن مكانه إذ ذاك ، أكبر من
المفاسد التي كانت تقع منه . . . ورسول الله ﷺ يقول : « إن الله يؤيد
هذا الدين بالرجل الفاجر » . . . ذلك أن للإسلام نصره ، وعليه هو مجوره . . .
يكن يحارب المغنم ، أو شهرة ، أو حمية !

وكذلك كان الشأن في خالد في خلافة أبي بكر - رضي الله
عنه - فلقد هم أبو بكر بعزله ، وكاد يمضي هذا العزل لو وجد من يسد
مكان خالد ؛ ويفضي غناؤه ، وخاصة في حروب الردة ، التي لو لم يقف لها
أبو بكر بحزمه ، وبقاها خالد بسيمه ، لوهنت قوة المسلمين ، ولما تحققت
للإسلام تلك الفتوحات التي تمت في عهد الخليفين : أبي بكر وعمر ،
رضي الله عنهما . . .

يقول ابن تيمية في كتابه « السياسة الشرعية » وهو يتحدث عن
القوة ، وما لها من حساب في موازين الرجال :

« ولهذا - أي والقوة - كان النبي ﷺ ، يستعمل خالد بن الوليد على
الحرب ، منذ أسلم ، مع أنه كان - أي خالد - يعمل ما ينكره النبي ﷺ ،
حتى إنه - أي النبي - رفع مرة يديه إلى السماء ، وقال : « اللهم إني أبرأ
إليك مما فعل خالد » ! ومع هذا فما زال ﷺ يقدمه في إمارة الحرب ، لأنه
كان أصلح في هذا الباب من غيره »

« وهكذا كان أبو بكر ، خليفة رسول الله ﷺ ، يستعمل خالداً في
حروب أهل الردة ، وفي فتوح العراق والشام ، وبذت منه هفوات كان له
فيها تأويل ، وقد ذكر له عنه أنه كان له - أي خالد - فيها هفوات ، فلم

يُعْزَلُهُ ، فَلْ عَتَبْ عَلَيْهَا ، لِرَجْحَانِ الْمَصْلَحَةِ عَلَى الْمَفْسَدَةِ فِي بَقَائِهِ ، وَأَنْ غَيْرَهُ لَمْ
يَكُنْ يَقُومُ مَقَامَهُ ١١

التقت نظرة عمر ، مع نظرة رسول الله ﷺ ، ومع نظرة أبي بكر ، في
خالد ، في أنه قوة مسعفة للمسلمين حين الحاجة إليه ، وإن كان في هذه
القوة موضع لدم ، أو عتب ! فإنه مع الضرر القليل إلى النفع الكثير ..
يجاوز عن هذا الضرر لكثرة النفع !

ولو وجد الرسول ﷺ قوة يستغنى بها عن خالد لنجاه عن موضعه !
ولو وجد من يغنى غناه لنجاه عن موضعه ، ولكنه أبقاه على هنائه لغلب
الخير في بقاءه على الخير في عزله .

وكذلك كان شأن أبي بكر مع خالد إلى جانب الخير فيه ، ورجحان
هذا الجانب على ما كان يقع منه من هنات !

أما في عهد عمر ، فإن الوضع قد اختلف :

فأولا : قويت شوكة الإسلام ، وخلصت الجزيرة العربية كلها من
الشر ، وأصبح العرب جميعا يداً واحدة مع الإسلام .. ثم فتح الله على
المسلمين دولة القرس ، وملك كسرى .. وهام أولاء يدقون أبواب مملكة
« قَيْسَر » .. فالإسلام اليوم يملك من قوة الرجال والعتاد ما لم يكن له من
قبل ، وحاجة الإسلام اليوم إلى خالد دون حاجته إليه بالأمس .

ثانياً : هناك الرجل الذي يقوم مقام خالد - وهو أبو عبيدة - وهو
وإن فاتته شئ من قوة خالد ، وبعمره بالحروب ، فإن هذا الشئ لا يقوم

(١) السياسة الشرعية ، في إصلاح الراعي والرعية ، لابن تيمية ..

إلى جانب الأضرار التي قد تنجم من الاحتفاظ بخالد في مكانه ، والتي
تجملها فيما يلي :

١ — خلق جو من الانفصال النفسي بين الجنود القادمين من العراق
بقيادة خالد ، وما بين أيديهم من مغنايم ، وما في صدورهم من اعتزاز
بالغلب والظفر - وبين إخوانهم الحاربيين في الشام الذين لم يظفروا
بعدوهم بعد .

٢ — ما يدخل على نفوس الجند وقادتهم الموجهين لحرب الشام من
فتور وانكسار في معالجة الحرب ، إذ يقدرون أنهم إذا انتصروا في
المعركة على الروم ، فإن هذا النصر إنما يضاف إلى خالد ، وجيش خالد !

٣ — ما يتسرب إلى نفوس الجنود ، وغيرهم من الافتتان بخالد ، وما قد
يدخل على نفس خالد من الافتتان بنفسه .

٤ — ما قد يقع في صفوف المسلمين من انكسار ، وضعف لو أن خالداً
قد مات ، أو قتل ، قبل المعركة ، أو أثناءها ، وهذا أمر محتمل وقوعه في
آية لحظة ، وما قد يدخل على جند الروم من طمع في المسلمين ، وقد مات
أو قتل قائدهم الذي يعملون النصر عليه . من أجل هذا ، رأى عمر أن ينحى
خالداً ، وأن يعطى زمام المعركة ، وقيادتها لأبي عبيدة بن الجراح ، وفي
حسابه أنه إذا خسر شيئاً في عزل خالد ، فإنه سيكسب أضعاف هذا الشيء
في عزل خالد أيضاً .

والذي يكسبه المسلمون المواجهون للروم من عزل خالد ، واستبدال
أبي عبيدة بن الجراح به ، هو :

أولاً : أن الروم ، الذي سمعوا الكثير عن خالد ، وما فعله في حربه

مع الفرس - إذ سمعوا بعزل خالد ، وتوليته قائد آخر مكانه ، دخل عليهم أن عند المسلمين من هو أعظم من خالد ، وأقدر في مواجهة الأعداء ، وأنهم إذا كانوا قد سمعوا عن خالد ما سمعوا من أفانين بطولاته في الحروب ، فإن ما خفي عنهم من أمر القائد الجديد أعظم .. وهذا من شأنه أن يلقى الرعب والفرع ، من هذا المجهول الذى رماهم به خليفة المسلمين !!

وثانيا : أن يرى الروم ، والمسلمون أيضاً ، قوة السلطان القائم على أمر الدولة ، وأن هذا السلطان الممثل فى الخليفة ، سلطان نافذ الأمر مطاع الحكم ، لا يراجع أحد ، حتى ولو كان أكبر قائد عرفه المسلمون .. وفى هذا دلالة على قوة الدولة ، وتماسكها ، وأنها جسد واحد : رأس يفكره ، وأعضاء تعمل .. وهذا من شأنه أن يرهب العدو ، ويريه أنه إن كسب معركة ، فإنه سرعان ما تلقاه الدولة كلها بقوى مهيأة لمعالجة مثل هذا الأمر المتوقع ، والذى لا يفغل عنه القائد الحكيم ، القائم على أمور الدولة !

وثالثاً : أن خالداً - رضى الله عنه - كان عظيماً ، حين تلقى الأمر بأن ينزل عن القيادة ، ليتولاها أبو عبيدة .. حيث استجاب خالد على الفور ، ودخل فى صفوف الجيش جندياً من جنود المسلمين .. وهذا بما أكد للروم أن تولية أبى عبيدة وراءها خطر دونه الخطر الذى كانوا يتوقعونه من خالد .. خاصة وأنه لم يقع فى صفوف الجند الذى كانوا مع خالد أى تدمر ، ولم يستثمر الروم الراصدون لجيش المسلمين أية بادرة تدل على أن شيئاً ما قد حدث فى صفوف المسلمين !!

الفصل الثامن

عمر وجمع القرآن الكريم في عهد أبي بكر الصديق

توفي رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - ولم يكن القرآن مكتوباً
كتابة جامعة ، وإن كان عند بعض الصحابة الكتاب كله ، في نسخ خاصة
بهم ، في حين أنه كان محفوظاً حفظاً كاملاً في صدور كثير من صحابة
رسول الله ﷺ .

فلما كانت خلافة أبي بكر ، وحروب الردة ، التي استشهد فيها كثير
من حفظة القرآن ، كانت الحال داعية إلى كتابة كتاب الله ، في نسخة
تكون عند خليفة المسلمين ، يرجعون إليها ، إذا اختلفوا في آية ، أو كلمة
من آية . .

أخرج البخاري ، عن زيد بن ثابت - رضي الله عنه - قال :

« أرسل إلى أبو بكر - رضي الله عنه - لئقتل أهل اليمامة ، وعنده
عمر ، فقال أبو بكر : « إن عمر أتاني فقال : إن القتل قد استحر - أي
اشتد وكثر - يوم اليمامة بقراء القرآن ، وإني أخشى أن يستحر القتل
بقراء القرآن في المواطن كلها ، فيذهب قرآن كثير ، وإني أرى أن يجمع
القرآن » قال أبو بكر فقلت لعمر : كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله
ﷺ ؟ فقال عمر : هو والله خير ، فلم يزل عمر يراجعني في ذلك حتى شرح .

وصدقت فراسة عمر - رضى الله عنه - في هذا الموقف في أكثر من أمر :
فأولاً : في تقديره لقوة المسلمين الروحية ، والنفسية ، وقوة عدوهم ،
نفسياً وروحياً ، كالمح بفراسته وألمعيته ، أن موجة الزحف الإسلامي لن
تنكسر ، بعد أن بلغت ما بلغت ، وخاصة بعد أن هوى عرش كسرى ،
واهتز عرش قيصر !

وقد تحقق هذا فعلاً بانتصار المسلمين بقيادة أبي عبيدة على "ريم" في
المعركة الفاصلة ، التي انتهت بحصار بيت المقدس ، ثم تسليمه ، واستسلام
أهله للمسلمين ، وليد الخليفة عمر بالذات .

ثانياً : فيما أحس به عمر - رضى الله عنه - من افتتاح الجند بخالد ،
وما حسب لهذا من نتائج خطيرة على مستقبل الإسلام ، مضافاً إلى هذا ،
تلك النكسة التي تحدث في الجبهة الإسلامية ، فيما لو أخلى خالد مكانه بالموت
أو الاستشهاد !

ولقد ظهرت بوادر هذا فعلاً حين أبطأ فتح الشام ، وتأزمت الأمور
في يد أبي عبيدة ، بعد أن تولى القيادة العامة ولم تأخذ المعركة طريقها إلى
الأمام ، كما كان يقدر لها .. حتى لقد تلفت المسلمين ، وسمعت أصوات -
كثيرة تقول : لو كان خالد ! لو كان خالد !

روى عن معاذ بن جبل - رضى الله عنه - وكان جندياً في جيش أبي
عبيدة القائد العام - أنه سمع رجلاً يقول : لو كان خالد بن الوليد ما كان
بالناس ذوكان^(١) . . فقال معاذ منكراً هذا القول : « فإلى أبي عبيدة .

(١) ذوكان ، أي الذي كان ، فذو عند بعض قبائل العرب - وهي قبيلة طيء -
بمعنى الذي . . يقول هاجرهم :

كان الماء ماء أبي وجدي وبثري ذو حفرته وذو طوبيت
أي وبثري الذي حضرته ، والذي طوبته .

تجر المعجزة^(٢) لا أبالك؟ والله إنه لخير من على الأرض! وتلك شهادة
لأبي عبيدة من هذا الصحابي الجليل ، حسب بهما من شهادة
ولا يقف هذا الشعور بالحاجة إلى خالد في ساعة العسرة عند قوله تعالى ..
ثم تمضى .. بل لقد تنادى الناس بهذا ، وارتفعت به أصواتهم في ميدان
للحركة ، حتى لقد بلغت أسماع الخليفة في المدينة !!

ولهذا ، فإنه - رضى الله عنه - حين استقبال بشارة الفتح والنصر على ..
يد أبي عبيدة ، لم يملك شعوره في هذه اللحظة ، فهتف قائلاً : «الله أكبر ..»
وب قائل لو كان خالد ؟! «وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم» ..
فلو كان النصر بالرجال والعتاد لكان الروم أولى به ، ولكنه النصر الذى
وعده الله تعالى به المؤمنين من عباده ، الذين باعوا أنفسهم لله .. والله تعالى ..
يقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

وثالثاً : فيما كان قدره عمر ، وتخوف منه ، هو أن شيئاً من الزهو
والفرور ، قد يلبس خالداً ، فتسول له نفسه أن يشق عصا الطاعة ، أو يخرج
على الجماعة ، بما اجتمع له من حب وولاء في نفوس المجاهدين ، وذلك إذا
لم يجد القوة التى تصده ، وتحد من سلطانه ، وتنزله وهو فى أوج عظمته من
مكانه ، الذى تجلت فيه قوته وشخصيته فى أرفع منازلها ..

وقد ظهر صدق هذه الفراسة العمرية ، حين كشف خالد عن بعض نفسه -
فإذا هو كما قدر عمر .. نفور بمسكاته ، معتز بأجاده ، يطاول الخليفة
ويجادله !

وأى خليفة يطاوله خالد ، ويجادله ؟ .. عمر ؟ فكيف بغير عمر إذن ؟

روى أنه حين عزل خالد ، وتولى أبو عبيدة القيادة العامة مكانه ،
قام خالد ، فخطب في الناس ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : « إن أمير
المؤمنين أبا بكر استعملني على الشام ، حتى إذا كانت بثنية ^(١) وعسلا ،
عزلني أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وآثر بها غيره . » فقام إليه رجل
فقال : صبراً أيها الأمير ، فإنها الفتنة إذن ؟ فقال خالد : أما وابن الخطاب
حتى فلا !!

« أما وابن الخطاب حتى ، فلا ؟ » إذن فالفتنة كانت محتملة لو كان
للخليفة غير عمر !!

ظاهرة جديدة في ولاية عمرو قواده ، تلك التي كانت من خالد في موقفه
هذا ! فما وقف أحد من الخليفة عمر هذا الموقف الذي يشبه التعدي
والعصيان !! وأى شيء في أن يعزل الخليفة أحد ولاته أو قواده ؟ لقد
فعل عمر ذلك عشرات المرات ، فما راجعه أحد !! ولكن المزعول في هذه
المرة ، خالد بن الوليد !!

فما هو ذا خالد يجمع الجند ، ويخطبهم ويتهم الخليفة بالظلم والحقارة..
هذا ؟ أليس ذلك دعوة سافرة إلى العصيان والتمرد ؟ أليس ذلك الصوت
المنبعث من بطن جنوده : « صبراً أيها الأمير ، فإنها الفتنة !! » أليس
هذا نذير حرب بإعلان التمرد على الخليفة ؟ وكيف ينادى خالد المزعول
بخطب الإمارة بعد عزله ؟ أليس هذا رفضاً لقرار العزل ؟ وخالد لا يسكت
هذه الصيحة ، ولا ينكرها ، ولا ينير صفتها بأنها فتنة ، وإنما يرجئها إلى
الوقت المناسب .. فعمرو هو الخليفة .. وهيئات أن ينال أحد من عمر !

(١) البثنة : نوع من دقيق المنطة الناعم ، يريد أن الشام قد أصبحت لحمة سدانة
على يد العرب !

«لما ومهر حتى فلا» !! فتى إذن؟ لاندري .. ولكن قد حسم عمر الداء ..
وأملت هذه الفتنة !!

* * *

إن ما فعله عمر - رضى الله عنه - مع خالد ، هو الذى تمليه المصلحة ..
وتتطلبه الحكمة ، ويقضى به النظر البعيد ، فى تقدير الرجل المستول عن
صيانة الدولة ، ودفع ما قد يهدد سلامتها ، ووحدتها ، وطابعها الذى طبعت
به ، ونظامها الذى قامت عليه !

وإذن ، فإن الذى ينبغى أن نطمئن إليه كل الإطمئنان ، هو أن عزل
خالد لم يكن عن هوى فى نفس عمر ، كما أنه لم يكن عن انتقاص لفضل
خالد ، وما أبلى فى سبيل الإسلام .. فعمر فى دينه ، وخلقه ، ومروءته أجل
من أن يغلبه هواء ، وما غلبه هواء أبداً ، فى قائد من قواد المسلمين ، أو فى
وال من ولايتهم - فكيف يغلبه هواء فى أبرز قواد المسلمين وأشدهم بأساً
على العدو ، ونكاية فيه ؟ وخالد فى خلقه ، ودينه ، ومروءته ، أكبر من أنه
يكون موضع ظنة أو تهمة عند عمر !!

ولكن مقتضيات الأمور ، ورعاية الصالح العام ، كان لهما الشأن
الأول فى هذا الحدث ، ومنهما استعمل عمر رأيه ، وعنهما أصدر
عمر حكمه !

وقد شهد الواقع بهذا ، فجاءت النتائج كلها مصدقة ، لما كان يتخوفه
عمر أو يتوقعه ..

وانتصر المسلمون بإيمانهم ، ولم ينتصروا بخالد ، الذى كاد يطفى الشعور
به فى بعض النفوس على الشعور بالدين الذى يدافعون عنه ، ويقاثلون تحت

رايته ، وينتصرون بما يمدح الله تعالى به من روحه . . . فلم من لم يكن يعلم
أن الله ينصر دينه بخالد ، أو بغير خالد !

ثم لقد سلم لخالد إيمانه بهذا التدبير الحكيم من عمر بعزله ، فلم يفتن
بانتصاراته ، وقد شهد بعينيه انتصار المسلمين العظيم بقيادة أبي عبيدة
بن الجراح .

* * *

وواقع الحال في هذه الحادثة لم يكن يستوجب الخوض فيها ، والجلد
حولها على هذا النحو الذي وقع في كتب السيرة ، وجرت به أقلام كتابها
من قدامى ومحدثين . . . فالأمر في ذاته قد مر في حينه ، غير مخلف وراءه
أثراً في نفس كل من صاحبيه : عمر وخالد . .

فعمر كان يعرف قدر خالد وفضله ، فإذا ذكر خالداً ، فلا يذكركم إلا
بمخير . . . يحمده بلاءه في المنافة عن الدين ، ويمجد بطولاته في المعارك التي
كسبها للإسلام . . . وإذا سأله خالد عن سبب بعزله قال له : « إن الناس قد
افتتنوا بك ، فخشيت أن تفتن بالناس !! » .

ويذكرنا هذا بما فعله عمر مع نصر بن حجاج . إن كل جنابية نصر ،
هو جماله الذي فتن الحرائر به . . . وقد نفاه عمر إلى البصرة خشية أن يفتن
حرائر مدينة الرسول ، وخوفاً على نصر ذاته أن يفتن !! فالعقوبة الجزية
عند خالد ، تعدل هذا الجمال الأسر عند نصر بن حجاج . . . كلاهما مصدر
افتتان وفتنة للناس ؛ ولصاحبها !

ثم إن عمر - رضى الله عنه - يستبرى لدينه في عزل خالد ، فيكتف
بإلى أبراء الأمصار بالسبب الذي من أجله عزل خالد ، فيقول : « لم أعزله

نسخطة • ولا غليظة ، ولكن الناس فتنوا به ، وخشيت أن يوكلوا ^(١) ويبتلوا • فأحببت أن يملأوا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بمعرض . فتنة !! » .

أما خالد - رضى الله عنه - فإنه يعلم عن يقين أن عمر لم يعزله عن هوى فى نفسه ، ولالسابق عداوة فى الجاهلية . كانت بينه وبينه ، وإن تمكن من خالد غضبة لهذا العزل ، فهى غضبة طارئة ، أمجلها فى نفسه بعض ماله من يجد فى صناعة الحرب • • ولكنه سرعان ما فاء إلى دينه ومروءته ، فوجد أن للخليفة ما يرى ، وعليه هو الامتثال والطاعة • • وقد فعل ، فانضوى إلى جيوش المسلمين جندياً من الجنود ، يقاتل تحت إمرة أبى عبيدة الذى كان هو أميراً عليه بالأمس • • إنه يجاهد فى سبيل الله ، حيث كان مكانه بين المجاهدين ، جندياً أو قائداً ، سواء أكان الخليفة عمر أو غيره : ويسوى الحساب على هذا ، بين الرجلين • • فيلقى كل منهما ربه راضياً عن صاحبه • •

فهذا عمر - رضى الله عنه - يقف بين جنود المسلمين فى الجابية بالشام . ويخطب فيهم ، فيقول : « إني أعتذر إليكم عن عزل خالد ، فإني أمرته أن يحبس هذا المال - أى مال الفئ - على ضعفة المهاجرين فأعطى ذا البأس . وذا الترف ، وذا اللسان ، فأمرت أبا عبيدة ! !

ولمكانة خالد من نفس عمر ، فإن عمر - رضى الله عنه - لم يمنع نساء قرش البكاء عليه ، وكان يقول : « وما على نساء قرش أن يبكين أبا سليمان ، ما لم يكن تمنع أو نقلته ^(٢) على مثل خالد تبكي البواكي » • • وسمع عمر أم خالد تنذبه بقولهاته

(١) أى يتكلموا على عمر خالد وعبريته ، فقد نفوسهم عن الحرب وهو معهم .
(٢) المراد بالنقع ، هو أن يثرن الثبار ، على وجوهن ، والنقلة : الندب على الخنود ، ورضى الجيوب .

الله صدرى للذى شرح له صدر عمر ، ورأيت فى ذلك الذى رأى . . فقال زيد ، قال أبو بكر : « وإنك رجل شاب عاقل ، لا تهملك ، فتد كنت تكتب الوحى ، لرسول الله ﷺ ، فتنبع القرآن ، فاجمه » .

قار زيد : فوالله لو كلفنى قتل جبل من الجبال ما كان بأثقل على ، مما كلفنى به من جمع القرآن .. قفلى : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ ؟ قال أبو بكر : هو والله خير !! . . فلم يزل يبحث مراجعتى ، حتى نصح الله صدرى للذى شرح له صدر أبي بكر وعمر ، ورأيت فى ذلك الذى رأى .. فتبعت القرآن أجمعه من العشب (أى جريد النخل) والرقاع ، واللخاف (الخرف) وصدور الرجال فوجدت آخر سورة التوبة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » إلى آخرها مع أبي خزيمة . فألحقها فى سورتها ، وكانت الصحف عند أبي بكر حياته ، حتى توفاه الله عز وجل ، ثم عند عمر حياته حتى توفاه الله ، ثم عند حفصة بنت عمر ، وعنهما نسخ عثمان مصاحفه التى أرسلها إلى الأمصار .

هذا ما كان من عمر - رضى الله عنه - فى كتابة المصحف ، أيام خلافة أبي بكر . وقد كان ذلك عملاً جليلاً ، لم يكن يمرؤ عليه أحد غير عمر ، رجع به الخلاف بين المسلمين ، وسد على ذوى الأهواء أن يدخلوا فى كتاب الله ، كلمة ، أو يحذفوا كلمة ، وإن كان الله تعالى قد تولى حفظ القرآن الكريم إذ يقول سبحانه . « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » (١) .

فإن هذا الذى كان من عمر - رضى الله عنه - هو مما حفظ الله تعالى به كتابه .

عمر وموقفه من السنة :

يروى عن رسول الله ﷺ قوله : « لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب شيئاً سوى القرآن فليمحاه » . . وذلك حتى لا يخالط القرآن شيء من حديث رسول الله ، من حديث قدسي ، أو غير قدسي ، وحتى لا يشغل المسلمون بتيء غير القرآن ، كتابة وحفظاً ، وفهماً وعملاً . . وذلك حسبهم ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — قائم فيهم ، مرشداً ومعلماً ومقوماً .

فلما أخلى رسوله ﷺ مكانه من بينهم ، كان لا بد من أن يظل — صلوات الله وسلامه عليه — قائماً فيهم بأقواله ، وأفعاله ، وأوامره وزواجره . . فإذا جاءهم أمر لم يجدوا في كتاب الله بياناً له ، رجعوا إلى سنة رسول الله ﷺ الذي هو مبين لما في كتاب الله ، كما يقول الله سبحانه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » ^(١) .

وقد رأينا كيف أقدم عمر على جمع القرآن ، وكيف أنه مازال يراجع أبا بكر في هذا الأمر حتى وافقه على ذلك !!

ولكن عمر — رضي الله عنه — كان في موقفه من جمع السنة وكتابتها ، حذراً ، بل ومحذراً ..

وذلك ، لأن رسول الله ﷺ كان قد نهى عن كتابة سنته ، بل وأمر من كتب شيئاً منها أن يمحوه ..

نم إن أبا بكر — رضي الله عنه — ألزم الناس ذلك مدة خلافته .. فقد

(١) سورة النحل : ٤٤ .

روى أنه - رضى الله عنه - جمع الناس بعد وفاة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وقال : « إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ ، أحاديث تختلفون فيها ، والناس بكم أشد اختلافاً ، فلا تحدثوا عن رسول الله شيئاً ، فمن سألكم فقولوا : بيننا وبينكم كتاب الله ، فاستحلوا حلاله ، وحرموا حرامه » .

وليس يعنى هذا من أبى بكر ألا يستحضر الشاهد ما يحضر من أقوال رسول الله وأفعاله فى أى أمر يعرض للمسلمين مما ليس فى كتاب الله .. وكيف؟ وقد كان أبو بكر - وعمر ، وغيرهما من الصحابة ، يطلبون أقوال رسول الله وأفعاله فى الأمر الذى لا يجدون له مثولاً فى كتاب الله ، وينشدون أصحاب رسول الله أن من كان عنده من رسول الله ﷺ شيئاً من هذا ، فليأت به؟ فإذا جاء بالخبر من يوثق به فى ديقه ، وخلقه ، كان ذلك مقطع الحكم فى الأمر الذى بين أيديهم .

ولما كانت خلافة عمر سار سيرة أبى بكر فى شأن السنة النبوية ، وأمر الناس ألا يحدثوا عن رسول الله ﷺ لئلا يختلفوا !!

وإما يقع الاختلاف هنا ، حين يكون الهوى ، حيث لا يمكن أن يقع اختلاف فى حديث عن رسول الله ، قد صحت روايته عنه ، لأنه لا يكون إلا بياناً لما فى كتاب الله ، ينزل من قلب كل مسلم رداً وسلاماً !!

وقد كان من حرص عمر ، على ألا تكثر الأحاديث عن رسول الله ﷺ فى هذا الوقت الذى لم يكن بعد عن زمن النبوة ، ولم تجد أحداث كثيرة ، تتطلب أحكاماً لم تكن جارية فى عهد الرسول الكريم . فكان منه — رضى الله عنه — هذا المنهج لئلا يكثر من كبار الصحابة ، حين أكثروا

من الحديث عن رسول الله ، وهم ابن مسعود ، وأبو الدرداء ، وأبو مسعود الأنصاري ..

ومن وصاة عمر - رضى الله عنه - لبعض الصحابة ، وهم ذاهبون إلى العراق ، قوله لم : « إنكم تأتون أهل قرية لم دوى بالقرآن كدوى النحل فلا تصدومم بالأحاديث ، فتشغلوم ، ولكن جودوا القرآن ، وأقلوا من الرواية عن رسول الله ، وأنا شريككم » أى وأنا أفعل هذا الذى أدعوكم إليه ..

فالذى نهى عنه عمر - رضى الله عنه - هو الإكثار من رواية الأحاديث النبوية فى غير الحال الداعية إلى ذلك ، أما إذا دعت الحال إلى استحضار حديث أو أكثر لرسول الله فى واقعة من الوقعات ، فذلك أمر واجب لا بد منه ، لأن غير ذلك بعد من كتمان الحق فى مقام الشهادة على هذه الواقعة وهذا ما قصد إليه عمر - رضى الله عنه - من دعوته إلى الإقلال من التحديث بأحاديث الرسول - صلوات الله وسلامه عليه .

والحق أن عمر - رضى الله عنه - كان ينظر إلى سنة رسول الله - نظره إلى كتاب الله تعالى ، من حيث إنها الميمنة لكتاب الله ، والمصدر الثانى من مصادر التشريع الإسلامى . وأنه - رضوان الله عليه - فكر طويلاً فى أن يجمع السنة كما جمع القرآن بمشورته ، فى عهد أبى بكر - رضى الله عنه - ولكنه ، فكر - من جهة أخرى - فرأى أن ذلك مما قد يازع القرآن مكانته من المسلمين ، حفظاً ، وتلاوة ، وفهماً ..

ولم يشأ عمر - رضى الله عنه - أن يقطع فى هذا الأمر برأى ، فعرض الأمر على الصحابة - رضوان الله عليهم - فواقفه أكثرهم على جمع الحديث .. ولكنه مع هذا ظل زمناً يراجع نفسه ، ويطلب للراجعة ، ويستخير الله

— عز وجل - في أن يبقى هذا الأمر ، أو يدعه على ما هو عليه ؟ ثم إنه انتهى إلى الرأى الذى ارتضاه ، فجمع الناس ، وقال لهم : « إني كنت ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم إني ذكرت أن أناساً من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً ، فأكبوا عليها ، وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا أشوب كتاب الله بشيء أبداً » ١١ وعدل عن كتابة أحاديث الرسول ، وأعلم الأمصار بذلك ..

وقد كانت نظرة عمر في هذا من النظرات الصائبة ، فإن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، قد ألحقوا بالتوراة والإنجيل ، كثيراً من الكتب المنسوبة إلى الأنبياء ، والحواريين ، حتى انكش ظل التوراة والإنجيل بين هذه الكتب ، التى عمل بها اليهود والنصارى ، وتركوا العمل بالتوراة والإنجيل ، وحتى لقد حملهم ذلك على أن يغيروا كثيراً من نصوص التوراة والإنجيل ، حتى يستقيم وجهها على ما فى هذه الكتب من حفريات وأباطيل ..

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما أحدثه « بولس » الملقب بالرسول عند المسيحيين ، وما أودعه من رسائل ألحقت بالأناجيل ، مخالفة للكثير مما فيها - على ما لحقها من تحريف - فقد أصبحت هذه الرسائل وغيرها مما ضم إلى الإنجيل منها ، هى الحاكمة على الإنجيل ، والمصححة لمفاهيمه ، حيث أحل للمسيحيين فيها أكل الخنزير ، المحرم فى التوراة والإنجيل ، كما حرم عليهم فى هذه الرسائل « الختان » إذ قال بولس : « إنما الختان بالقلب » .. مع أن الختان هو شريعة التوراة ، التى هى شريعة كل من يدين بالمسيحية ، وقد اختن المسيح نفسه ، كما اختن الحواريون ، اتباعاً لشريعة التوراة ،

وإمضاء للعهد الذي أخذه الله تعالى على إبراهيم - عليه السلام - وذريته من بعده ، بأن يمتحنوا جميعاً ..

وهكذا ترك المسيحيون العجل بالإنجيل ، وعملوا بمافي رسائل « بولس » وغيره ، مما ألحق بالإنجيل من رسائل دعاة المسيحية الأولين ١١

وإذن ، فقد كان عمر - رضى الله عنه - يمتشى على المسلمين ، حين يستكثرون من رواية الأحاديث النبوية ، أو في جمعها في كتاب أو كتب - أن يقعوا فيما وقع فيه أهل الكتاب من اليهود والنصارى . من أن يكذبوا على رسول الله ، وأن يروى عنه - ﷺ - عمداً ، أو غير عمد - ما لم يقله ، وهنا تفتح أبواب الفتنة على المسامين ، الأمر الذي حذر منه الرسول ﷺ وتوعد للمفتولين عليه . وذلك في قوله : « من كذب على متعمداً ، فليتبوأ مقعده من النار » .

وقد وقع ما حذر منه رسول الله . وتوعد عليه . فإنه ما إن وقع الخلاف بين المسلمين ، وما إن تفرقت فرقهم ومذاهبهم ، حتى كثروا الموضوعات التي تقولوا على الرسول الكريم ، حتى لقد كان الذي افتراه المفترون على النبي أكثر مما صح عنه . حيث ذهبت كل فرقة وكل جماعة تؤيد مذهبها بأقوال تنسبها إلى رسول الله ﷺ فإذا أعوزها الحديث الصحيح ، جاءت بالمفتريات على رسول الله . وخاصة إذا كان افتراقها عن هوى ، لنانية تنضياها من مال أو سلطان . . فهذا الذي كان يجتاح عمر - رضى الله عنه - حين نهى عن جمع أحاديث الرسول - صلوات الله وسلامه عليه .

ونسأل : لو أن عمر - رضى الله عنه - جمع أحاديث الرسول ﷺ ، فبعد خلافه ، وختم عليها بحيث لا يهلل حديث يضارب إلى هذا المكتوب .

المختوم - أكان يمكن أن تدخل هذه الأحاديث الموضوعة التي تبلغ عشرات الألوف على الأحاديث الصحيحة ، كما حدث هذا ، بعد عمر ؟
ونجيب على هذا من وجهين :

الوجه الأول : أنه ما كان يمكن - في أيام عمر - جمع ماصح عن رسول الله - ﷺ - من سنته القولية والفعلية ، والتقديرية ، وذلك لأن الذين سمعوا من رسول الله ورأوا من أفعاله وتقريراته ، هم أعداد كثيرة ، لا تحصر ، وأن كثيراً من هؤلاء ، قد تفرقوا في جهات كثيرة ، في مصر ، والشام ، والعراق .. ومنهم الرجال ، والنساء .. فجمع الأحاديث التي كان يمكن أن تجمع في عهد عمر ، والوقوف عند هذا الذي جمع ، يذهب بكثير من السنة النبوية ، التي تحمل كثيراً من الهدى النبوي ، في الأحكام ، والأخلاق ، والآداب !

والوجه الثاني : أنه لو جمع عمر الأحاديث النبوية ، وحصرها في العدد الذي جمعه ، فإن ذلك لا يمكن أن يمنع صحابة رسول الله - ﷺ ، أن يتعبدوا بما سمعوا ، ورأوا من رسول الله ، في أية حال تعرض لهم ، بما فيه خير الناس ، لأنهم بهذا إنما يحملون علماً ، من أصدق العلم وأنفعه ، فكيف يكتفون به ، والرسول - ﷺ يقول : « من علم علماً فكتمه ، ألقمه الله يوم القيامة بلجام من النار » .

هذا ، وقد عرض المرحوم الدكتور محمد حسين هيكل ، في كتابه : « الفاروق عمر » - عرض لهذه القضية ، وناقشها مناقشة العالم الباحث عن الحقيقة ، لا يبنى غيرها ..

يقول المرحوم « هيكل » : أكان عمر على حق حين عدل عن كتابة السنن ، وأمر بمحو ما كان مكتوباً منها ، أم كان مخطئاً ، فكان لمخطئه نتائج من بعده ؟ .

ويجب للرحوم هيكل على هذا التساؤل بقوله :

« تستطيع أن تقول إنه أخطأ ، وإن مر الزمن على خطئه ، فقد بدأت الأحاديث من بعده تتوالد ، وتتداول إلى غير حد .. فمنذ عادت الخوصومة بين بنى أمية وبين بنى هاشم إلى الظهور ، في أعقاب مقتل عثمان ، ثم لما قامت الحرب الأهلية بين علي ومعاوية ، نفاخت عائشة علياً ، وأيد علياً من أيده ، كثرت الأحاديث الموصوعة لعلي وعليه كثرة أنكرها على في حياته ، فقال : وقد سئل : هل عددكم من علم اختصكم به رسول الله - ﷺ « ما عندنا من كتاب نقرؤه عليكم إلا ما في القرآن ، وما في هذه الصحيفة التي أخذتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفيها فرائض الصدقة » - أي الزكاة - .

ثم يقول الدكتور هيكل :

ولم يمنع هذا القول - من على رضى الله عنه - واضع الحديث عن وضعه ، لموى يدعون الناس إليه ، أو لفضائل يحسبون أن الناس أحرص عليها ، حين ينسب إلى رسول الله حديثها .. وكثرت الأحاديث للوضوعة لأغراض سياسية أو غير سياسية ، كثرة راعت - أي أخافت - المسلمين ، لمنافاة الكثير منها ، لما في كتاب الله ..

ويعضى « هيكل » فيقول :

« تستطيع أن تقول هذا - أي أن عمر قد أخطأ في موقفه هذا من تدوين السنة - وأن تكون لك شبهة في هذا » .

ونلاحظ أن للرحوم هيكل إنما يجعل هذا الذي يقال في حق عمر - رضى الله عنه - جاريًا على لسان غير لسانه وهو الذي لا يرى هذا الرأي « الذي قد يراه غيره ..

ولهذا نرى المرحوم هيكمل ، يتصدى لتفنيد هذا الرأى الذى يخطئ به عمر -
رضى الله عنه - فى عدم تدوينه السنة ، ونهيه الناس عن ذلك . فيقول :
« ولكنك تكون غير منصف فى هذا الحكم ، وإن قامت لك الشبهة فيه .
قد كان عمر يحسب أن الذين يخلفونه من أمراء المسلمين سيسيرون سيرته
فى النهى عن رواية الحديث ، وسيحبسون مثله من يكثر من الحديث
من رسول الله ، فإذا لم يفعل هؤلاء الخلفاء ، بل تفاضوا - متعمدين - عن
الأحاديث التى توضح لأسباب سياسية وغير سياسية ، فالذنب ليس ذنب
عمر ، بل ذنب أولئك الخلفاء ، والذين شجعوا منهم على وضع الأحاديث
أكبر جريمة وأعظم وزراً . . أفيمكن من العدل - والأمر كذلك - أن
ينسب الخطأ إلى عمر ؟

ثم يقول المرحوم « هيكمل » :

« وهب أن عمر أمر بكتابة السنة ، ثم حدثت الفتنة من بعده ، وقامت
الحرب الأهلية بين على ومعاوية ، وبين الأمويين وبنى هاشم ، واتخذت
رواية الحديث عن رسول الله أداة للدعاية فى هذه الحروب وهذه الفتنة -
أتري أن الناس كانوا يصدون عن كتابة الحديث الموضوع وروايته ؟ أم
تتري كان الدعاة السياسيون ، يشجعون عليه ، ويجمعون منه مثل الذى
جمع عمر ، ثم يضيفون عليه أصحاب المصلحة فيه من سلطانهم الرسمى ما لم
يضيف مثله أحد ؟ ولا يكون عجيباً بعد ذلك أن يصبح لهذه اللدونات الرسمية
من القيمة الدينية ، ما خشيه عمر ، حين قال : « والله لا أشوب كتاب
الله بشئ أبداً » ..

ثم يتنهى المرحوم هيكمل إلى هذه النتيجة ، فيقول :

« أحسبك بعد هذا الذى سبق ، ترى أن اجتهاد عمر فى تدوين السنة ،
وانتهائه إلى العدول عنه ، اجتهاده ما يسوغه ، وافقته أنت على رأيه-
أو خالفته فيه » .

* * *

وندع القضية الآن بين يديك ، لترى رأيك ، ولتحكم بما ترى ، بعد
أن اجتمعت لك الأدلة والشواهد ، التى لها أو عليها ..

* * *

الفصل التاسع

موت عمر

إذا كان مما قضى الله تعالى به في خلقه أنه « كل نفس ذائقة الموت » ،
و « لكل أجل كتاب » فقد ذاق عمر - رضی الله عنه - الموت ، واستوفى
أجله المقدر له ، ولقى ربه بما قدم من عمل ، يرجو من الله سبحانه -
قبوله ومثوبته ..

وقد أكرم الله تعالى عمر - رضی الله عنه - فأت الميثة التي كانه
يشتهيها ، إذ مات بطعنة من أبي لؤلؤة المجوسى .. لعنه الله - وهو - رضی
الله عنه - يؤم المسلمين في صلاة الصبح .. وكان - رضی الله عنه - يدعو
الله أن يموت شهيداً ، فقيل له : وكيف ذلك وأنت هنا ؟ فقال : يفعل
الله الخيرا

عن عمرو بن ميمون ، قال .. فيما رواه البخارى في صحيحه .. : إني لقاتم ..
في الصف ، ما بيني وبين عمر إلا عبد الله بن عباس ، غداة أصيب ، وكان إذا
مر بين الصنفين قال : استنوا ، حتى إذا لم يرفيهم خلا تقدم ، فسكبر ..
وربما قرأ بسورة يوسف والنحل ، ونحو ذلك في الركعة الأولى ، حتى يجتمع
الناس .. قال فما هو إلا أن كبر ، حتى سمعته يقول : قتلنى - أو أكلنى -
الكلب ، حين طعنه أبو لؤلؤة ، فطغر العليج ^(١) بسكين ذات طرفين ، لا يمر على ..
أحد ، يمينا ، ولا شمالا إلا طعنه .. حتى طعن ثلاثة عشر رجلا مات منهم
تسعة - وفي رواية سبعة - فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه ثوبه ..

فلما ظن الملج أنه مأخوذ ، نحر نفسه .. وتناول عمر - رضى الله عنه - عبد الرحمن بن عوف ، قدمه للصلاة .. قال : فأما من كان يلى عمر ، فقد رأى الذى رآيت ، وأما من كانوا فى نواحى المسجد ، فإنهم لا يدرون ما الأمر ، غير أنهم فقدوا صوت عمر ، وهم يقولون : سبحان الله .. سبحان الله !! فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة .. فلما انصرفوا ، قال عمر : يا ابن عباس : انظر من قتائى ، فجال ساعة ، ثم قال : غلام المغيرة بن شعبه !! فقال الصنَّع^(١) . قال : نعم ، فقال عمر : قاتله الله ، لقد أمرت به معروفًا ، ثم قال : الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل يدعى الإسلام . . قال ، ثم حملوا عمر إلى بيته ، وكُنَّ الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ .. فقائل يقول : لا بأس ، موقائل يقول : أخاف عليه . . فأتى بنميم^(٢) فشر به ، فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت !

قال : فجاء الناس يثنون عليه ، فقال شاب : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله عز وجل ، لك من صحبة رسول الله ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة !! فقال عمر : وددت أن ذلك كان كفافًا ، لا على ولا لى .. ثم نادى ابنه عبد الله ، فقال له : انظر ما على من دين ، فحسبوه فوجدوه ستة وثمانين ألف درهم ، أو نحوها ، فقال : إن وفى به آل عمر ، فأده من أموالهم ، وإلا فسل بنى عدى - قبيلة عمر - فإن لم تف أموالهم فسل قريشًا ، ولا تعُدُّهم إلى غيرهم . . انطلق إلى عائشة أم المؤمنين ، فقال اقرأ عليك عمر السلام ، ولا تقل أمير المؤمنين ، فإنى لست

(١) أى الذى يحسن صنعة من الصنائع . .

(٢) أى تمر مخلوط بماء ، واللواء الذى خلط بالتمر يسمى نبيذا ، وهو غير النبيذ المعروف الذى يشمر ويسكر . .

اليوم المؤمنين أميراً . . . وقل يستأذنك عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه ، فضى عبد الله بن عمر إلى أم المؤمنين عائشة ، واستأذن ، وسلم ، ثم دخل عليها ، وقال : يقرأ عمر عليك السلام ، ويستأذنك أن يدفن مع صاحبيه ، فقالت : كنت أريد له لنفسى ، ولأثره به اليوم على نفسى . . وجاء عبد الله إلى أبيه ، فأخبره الخبر ، فقال عمر : الحمد لله ، ما كان شيء . أم هدى من ذلك الموضع ، فإذا أنا قبضت فاحملوني ، فإن ردتني فردوني . إلى مقابر المسلمين » .

لقد كان من أعز أمنيات عمر أن يلقى بصاحبيه ، رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق - رضى الله عنه - وكان يقدر أن ذلك لن يكون له حتى يتأسى بهما ، وينهج نهجهما ، فإن هو خالف طريقتهما خولف به ، ولم يصحبهما ميتاً ، كما كان يصحبهما حياً ، وهذا الشعور الذى كان مستولياً على عمر - رضى الله عنه - كان ذا أثر كبير فى سياسة عمر ، وما أخذ نفسه به ، من أن يحيا حياة الرسول ، وحياة أبي بكر ، لا يلبس إلا ما كانا يلبسان ولا يأكل إلا ما كانا يأكلان ، على الرغم من أن ظروف الحياة قد تغيرت فى عهده تغيراً كبيراً ، فكان وقوفه حيث هو أمراً لا يحتمله إلا أولو العزم من الرجال ، أولئك الذين كان عمر واحداً فذاً فيهم .

هذا ، ويروى ابن أبي الحديد ، عن وفاة عمر — رضى الله عنه —

فیتقول :

« فأما تاريخ موته ، فإن أبا لؤلؤة - لعنه الله - طعنه يوم الأربعاء .
لأربع بقين من ذى الحجة ، منذ ثلاثة وعشرين ، ودفن يوم الأحد صباح-
هلال المحرم سنة أربع وعشرين . . وكانت ولايته عشر سنين ، وسبعة
أشهر . . وهو ابن ثلاثة وستين سنة ، في أطهر الأقوال ..

ثم يقول ابن أبي الحديد :

« وقد كان عمر - رضى الله عنه - قال على المنبر يوم الجمعة ، وقد ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله ، وأبا بكر : إني قد رأيت رؤيا أظنها . لحضور أجلي ، رأيت كأن ديكا قرني تفرتين ، فقصصتها على أسماء بنت عيسى ، فقالت : يقتلك رجل من العجم !! وإني فكرت أن أسفخنك ، ثم رأيت أن الله لم يكن ليضيع دينه ، وخلافته التي بعث بها رسوله »^(١) .

وروى ابن شهاب قال : كان عمر - رضى الله عنه - لا يأذن لصبي من غلمان العجم - قد احتلم في دخول المدينة ، حتى كتب له المغيرة ، وهو على الكوفة ، يذكر له غلاماً صنعاً عنده ، ويستأذنه في دخول المدينة ، ويقول عنه ، إنه ذو أعمال كثيرة فيها منافع للناس .. إنه حداد ، نقاش ، نجار ، فأذن له عمر أن يرسل به إلى المدينة ، وضرب عليه المغيرة مائة درهم في كل شهر .. فجاء إلى عمر يوماً يشتكى إليه الخراج ، فقال له عمر : ماذا تحسن من الأعمال ، فعد له الأعمال التي يحسنها ، فقال له : ليس خراجك

يكثير في كنه عملك !!

« وروى أن هذا الرومي ، لبث أياماً ، بعد شكاته إلى عمر ، ثم مضى فدعاه وقال له : قد حدثتك أنك تقول : لو أساء صنعت رحي تطحن الريح !! فالتفت العبد عابساً ساخطاً إلى عمر ، ومع عمر رهط من الناس ، وقال : لأصنعن لك رحي يتحدث الناس بها ، فلما ولى العبد ، قال ، عمرو للرهط الذي معه : ألا تسمعون إلى العبد ، ما أظنه إلا أوعدن آتياً فلبث ليالي ، ثم اشتعل أبو لؤلؤة على خنجر ذي رأسين ، نصابه في وسطه ، فيكن في زاوية من زوايا المسجد ، في غلس السحر ، فلم يزل هناك حتى جاء

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد جزء : ١٢ - ص ١٨٤ وما بعدها .

عمر يوقظ الناس لصلاة الفجر ، كما كان يفعل ، فلما دنا منه طعنه ثلاث طعنات ، إحداهن تحت السرة ، قد خرقت الصفاق^(١) ، وهى التى قتلتة .. قال ابن عباس . . فلما نزل عمر إلى البيت ، وهو مغشى عليه ، لم يزل فى غشية واحدة ، حتى أسفر الصبح ، فلما أسفر الصبح أفاق ، فنظر فى وجوه من حوله ، وقال : أصلى الناس ؟ فقيل : نعم ، فقال : لا إسلام لمن ترك الصلاة .. ثم دعا بوضوء ، فتوضأ وصلى .

وروى عن عبد الله بن عمر أنه قال : سمعت أبى يقول : لقد طعننى أبو لؤلؤة طعنتين ، وما أظنه إلا كلباً ، حتى طعننى الثالثة .

وروى معمر ، عن الزهرى ، عن سالم عن عبد الله بن عمر ، قال : دخلت على أبى فقلت : سمعت الناس يقولون مقالة ، وآليت أن أقولها لك ، زعموا أنك غير مستخلف ، وأنه لو كان لك راعى لابل أو غنم ، ثم جاءك وتركها ، رأيت أنه ضيع ، فرعاية الناس أشد ، قال : فوضع رأسه ثم رفعها ، فقال : إن لم أستخلف ، فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف ، وإن استخلفت ، فإن أبابكر قد استخلف .. يقول ابن عمر : فوالله ما هو إلا أن ذكر رسول الله ، وأبابكر ، فعلمت أنه لم يكن يعدل برسول الله ﷺ أحداً ، وأنه غير مستخلف ! .

وروى أنه - رضى الله عنه - قال : وقد أذنت له عائشة رضى الله عنها فى أن يدفن فى بيتها ، مع رسول الله ﷺ ، وأبى بكر ، قال : إذا مت . فاستأذنها مرة ثانية ، فإن أذنت وإلا فتركوها ، فإنى أخشى أن تكون . قد أذنت لسلطاني^(٢) فاستأذنها بعد موته فأذنت !

(١) أى الجلد ، الذى تحت الجلد الذى عليه الشعر . .

(٢) أى وهو حى . .

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال : كذا فى بيت عمر ، وهو يعالج الموت من الطعنات التى طعن بها ، فسمعنا صوت أم كلثوم : واعمره .. وكان معها نسوة يبكين ، فارتج البيت بكاء ، فقال عمر : ويلم عمر ، إن الله لم يغفر له . . يقول ابن عباس : فقلت ، والله إنى لأرجو ألا تراها - أى النار - إلا مقدار ما قال الله تعالى : « وإن منكم إلا واردها »^(١) . إن^(٢) كنت - ما علمنا - إلا أمير المؤمنين ، وسيد المسامين ، تقضى بالكتاب - وتقسى بالسوية . . قال : فأعجبه قولى ، فاسنوى جالساً ، فقال : أأشهد لى بهذا يا ابن عباس ؟ فكعمت - أى توقفت خوفاً - فضرب « على » رضى الله عنه - بين كتفى ، وقال : اشهد ! وأنا معك ، فقلت : نعم اشهد !!

وفى صحيح البخارى ، عن ابن عباس وعن جعفر بن محمد عن أبيه ، قال : لما غسل عمر وكن وحمل على سريريه ، وقف عليه « على » - كرم الله وجهه - فقال : والله ما على الأرض رجل أحب إلىَّ أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى بالثوب .

وعن سعيد بن زيد أنه كان كلما ذكر عمر - رضى الله عنه - بكى .. فيقال له ما يبكيك ؟ فيقول : أبكى على الإسلام ، إن موت عمر ، ظلم الإسلام ثلثة لا ترتق إلى يوم القيامة .

وعن أبي طلحة قال : « ما من بيت حاضر ولا باد ، إلا وقد دخل عليه . من موت عمر نقص » ا

وعن أنى عبيدة بن الجراح - رضى الله عنه - أنه كان يقول : « إن . . مات عمر رقى الإسلام ، ما أحب أن يكون لى ما تطلع عليه الشمس .

(١) سورة مريم : ٧١ .

(٢) « إن » هنا نافية ، بمعنى « ما » .

أو تغرب ، وأن أبقى بعد عمر ! فقال قائل : ولم ؟ قال سترون ما أقول
إن بقيتم .. إن ولى بعده وال فأخذهم بما كان عمر يأخذهم به لم يطمه الناس ،
وإن ضعف عنه قتلوه ! » وقد مات أبو عبيدة — رضى الله عنه —
قبل عمر !

وعن حذيفة بن اليمان — رضى الله عنه — قال : « كان الإسلام في زمن
عمر كالرجل المقبل ، لا يزداد إلا قرباً ، فلما مات صار كالرجل المدر ، لا يزداد
إلا بعداً » .

وعن ابن مسعود — رضى الله عنه — : « ود الله لو أن كلباً كان يحب عمر
لأحببته ، ولوددت أنى كنت خادماً لعمر حتى أموت ، ولقد وجد قدته
حتى العشاء — وهو شجر ضعيف — وإن هجرته كانت نفعاً ، وإن سلطانه
كان رحمة » .

وكما أن حياة العظيم من الرجال ، يجتمع حولها الكثير من التناقضات ،
وتستجلب له الغرائب ، من الفضائل والمعايب على السواء .. كذلك يكون
موت هذا العظيم حدثاً من الأحداث ، يحىء على غير مألوف الحياة ، حتى
لكأن الموت غير وارد على كل حى ، وحتى كأن هذا العظيم مستثنى من
هذا الحكم العام على الناس جميعاً ..

لقد مات عمر — رضى الله عنه — شهيداً بطعنات من يد غادر أثيم .. وما
أكثر الذين ماتوا بمنزل هذه الطعسات الغادرة ؟

ولكن موت عمر ، دخل على الناس منه ، ما أدار رؤوسهم ، وقلب
(م ٣٠ — عمر بن الخطاب)

وجوه الحياة عليهم ، وخيل إليهم أنهم مقبلون على مواجهة عواصف عاتية ، تهب عليهم من كل اتجاه ، فتعصف بكل شيء ، وتأتى على كل شيء ..

ومن هنا سمح الناس في بحر متدافع الأمواج ، من التصورات والخيالات .. حول موت عمر ، وما بدا من ظواهر الحياة عند موته . ونحن إذ نذكر شيئاً من هذا الذى قيل من تلك الظواهر ، فإننا لا نذكرها على أنها واقع فعلاً ، بقدر ما نستدل بها على ما يقع فى مشاعر الناس من موت الرجل الذى كانت تدور حياتهم فى فلكه .. وأقرب شاهد لهذا ما كان من عمر نفسه ، حين قيل له إن النبى - ﷺ - قد مات ! فلقد أنكر هذه الحقيقة ، وشهر سيفه مهدداً به كل من يقول هذا القول ، فى رسول الله !

فمن ذلك ما يروى عن كعب الأحبار ، أنه جاء إلى عمر - رضى الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين ، اعهـد فإنك ميت بعد ثلاثة أيام . فلما قضى ثلاثة أيام طعنه أبو لؤلؤة ، فدخل عليه الناس ، ودخل عليه كعب فى جملتهم ، فقال - عمر - : القول ما قلت يا كعب ، وما بى حذر الموت ، ولكن حذر العذاب .

وهذا خبر — إن صحت نسبته إلى كعب الأحبار ، فإننا لا نستبعد أن يكون كعب ضالعاً فى هذه المؤامرة ، محرصاً عليها ، وخاصة إذا علمنا أنه يهودى ، دخل الإسلام ، ورأى ما فعل المسلمون باليهود ، الذى كادوا للمسلمين بالمدينة ، حتى أجلاهم الرسول ﷺ منها ، ثم أجلاهم عمر - رضى الله عنه - من الجزيرة العربية كلها ..

ومن جهة أخرى ، فإن كعب الأحبار هذا ، إذ يتحدث بهذا الخبر ،

الذى يعلم أنه واقع لا محالة بتنديره هو ، فإنما ليدل على أنه ذو علم من التوراة ، وفي هذا ما يدير بعض العقول إلى اليهودية ، المتأصلة في نفس هذا اليهودى ..

ومن ذلك ما يروى عن الحسن بن أبى جعفر أنه قال : لما قتل عمر أظلمت الأرض ، فجعل الصبي يقول : يا أمه أقامت القيامة ؟ فتقول : لا ، ولكن تقاتل عمر بن الخطاب .

والحق أنه ما أظلمت الدنيا لموت عمر ، ولا تغير وجه الشمس والقمر لموت رسول أو نبي ، ولكن الفواشى التى تغشى الناس عند موت من يحبون ، هى التى تغير وجه الحياة لديهم ..

ومن ذلك ما يروى من أن الجن رثت عمر .. حيث يروون عن السيدة عائشة - رضى الله عنها - أن الجن ناحت على عمر قبل أن يموت بثلاثة أيام فقالت الجن فى رثائه :

أبعد فتيل بالمدينة أظلمت له الأرض تهتز العضا بأسوق
جربى الله خيراً من إمامٍ وباركت . يدُ الله فى ذاك الأديم الممزقِ
فمن يَسْعَ أو يركب جناحى نعمةٍ ليدرك ما قدّمت بالأمس يُسبقِ
قضيتُ أموراً ثم غادرت بعدها بوائق فى أكامها لم تُفتَقِ
ونسبة هذا الشعر إلى الجن نسبة مكذوبة ، كما أن نسبة روايتها إلى عائشة - رضى الله عنها - أكذب الكذب ، والذى يصح فى هذا المقام أن هذا الشعر بما قد يكون من شاعر ، وثى به عمر - رضى الله عنه - ثم عزاه إلى الجن ، حتى يشيع فى الناس ، ويجرى على الألسنة .

ومن هذا القبيل ، ما يروى عن معروف الموصلى ، أنه قال : لما قتل عمر ، سمع صوياً يقول :

لَيْتِكَ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ كَانَ بَاكِيًا
قَدْ أَوشَكُوا هَلَكِي وَمَا قَدِمَ الْعَهْدُ
وَأَدْبَرَتِ الدُّنْيَا ، وَأَدْبَرُ خَيْرَهَا
وَقَدْ مَلَّهَا مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِالْوَعْدِ

وهذا الخبر مثل سابقه ، فإِذَا هَذَا الشَّعْرُ إِلَّا لِشَاعِرٍ مِنْ شُعْرَاءِ الْإِنْسِ .
قَدْ نَسَبَ إِلَى الْجَنِّ لِيَذَاعَ وَيَتَشَرَّفَى النَّاسُ !

* * *

وَمَعَ هَذَا ، فَإِنَّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ، أَنَّ مَوْتَ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -
كَانَ هَزَّةً عَظِيمَةً لِلْإِسْلَامِ ، وَمَدْخَلًا جَدِيدًا لِلْمُسْلِمِينَ إِلَى حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ مَلِيئَةٍ
بِالْأَحْدَاثِ ، الَّتِي كَانَ عُمَرُ سَدًّا مُنِيْعًا دُونَهَا ، فَلَمَّا خَلَا مَكَانَهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ بَعْدِهِ
مَنْ يَكُونُ سَدًّا فِي وَجْهِ هَذِهِ الْأَحْدَاثِ ، فَكَانَ الَّذِي جَرَى بَعْدَ عُمَرَ ، مِمَّا
تَحَايَ مِنْهُ الْأُمَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ إِلَى الْيَوْمِ ..

فِيَا لِرَحْمَةِ اللَّهِ لِعُمَرَ ، وَيَا لَطْفَ اللَّهِ بِالْإِسْلَامِ ، وَأُمَّةِ الْإِسْلَامِ !

* * *

[خاتمة]

(١)

وإذا كان ما أخذناه من سيرة عمر ، لا يعدو أن يكون قطعاً من حواشي الرياض المونقة الفسيحة لسيرته المباركة . . التي تظل على امتداد الزمن ، طلاء ممدوداً ، يفيء إليه المصلحون كلما أضناهم المسير ، ونمهم سموم الصراع بين الحق والباطل ، والخير والشر ، فيجدون من هذا الطل الوارف الظليل ما ينعش نفوسهم ، ويقوى عزائمهم على مواصلة السيرة نحو العاية المنشودة . . نقول : إذا كان ما أخذناه من سيرة عمر ، هو تلك التطوف التي طالتهم أيدينا من مجاني سيرته العظيمة الرحبية . . فإن ذلك هو عاية جهدنا ، في هذا الإطار المحدود ، الذي كانت غايتنا منه ، هو التذكير بخياة هذا الإنسان الكريم ، العظيم ، الذي تمتلئ في شخصه أروع صورة لشريعة الإسلام ، وما تجدد النفوس المهيأة لقبولها ، والتجاوب معها من قدرة على احتواء العظمة من جميع جوانبها ، فتملأوا بذاتها عن الصفائر ، وتمف عن الدنايا ، وتقهروا نوازع الهوى ، وترسم الإنسانية طريقاً مستقيماً آمناً ، تجد فيه وجودها الحق ، حيث لا يهضم لضعيف حق ، ولا يباح لقوى أن يتخذ غير ما له من حق ، فلا جور ، ولا بنى ، ولا عدوان ، حيث تنطلق طاقات الجماعة كلها إلى العمل في هذا الجو المواتي لكل عامل أن يعمل ما وسعته القدرة ، وما واثته العزيمة ، ونزعت إليه الهمة . .

ففي حياة عمر - رضى الله عنه - حندياً من جنود الإسلام ، في عهد الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - وفي حياته صاحباً لخليفة رسول الله ، أبى بكر - رضى الله عنه ، وفي حياته خليفة وقائماً على أمر المسلمين - في

هذه الحيات كلها صحف كريمة منسورة ، يتلقى من آياتها الطالبون للكمال الإنسانى ، فى أى حال يكونون عليها ، ما يجعلهم قما فى المجتمع الذى يعيشون فيه ، يتمثل فيهم خير ما فى الجماعة من مكارم الأخلاق ، وحميد الفعال ، و ذا العيون شاخصة إليهم ، وإذا المهم نازعة إلى التعلق بهم ، و انتخلق بأخلاقهم .. وذلك لما طبع على النفوس من التنافس على مواقع القيادة والزعامة ، وإن لم تسعفها القوى الكامنة فيها ، وذلك على أى حال هو كسب عظيم للإنسان ، فإنه إن لم يبلغ الغاية التى ينشدها ، فبحسبه أنه خطأ خطوات نحوها ، أو بحسبه أنه لم ينزل عن مستواه الذى هو فيه إلى مستوى دونه !!

(٢)

وفى هذا الذى قدمناه من السيرة العمرية ، داعية تدعو المصلحين ، والباحثين ، والدارسين ، وطلاب السمو الإنسانى ، أن يقلبوا صحف التاريخ الإسلامى ، فى عصر النبوة والخلافة الراشدة ، ليشهدوا كيف قامت دولة الإسلام ، وكيف علا صرحها ، بأيدى رجال ، قبسوا من هدى رسول الله ، وتأسوا بسيرته العظيمة ، فلأوا ساحة الأمة الإسلامية بصور من البطولات ، فى كل ميدان من ميادين الحياة : فى القوة والشجاعة ، فى الحكم والسياسة ، فى الدين والدنيا ، فى العفة والأمانة ، فى الزهد والتقناعة ، فى التضحية والنداء ، فى الإيثار والمواساة ، فى الرحمة والمودة ، فى الحب والإخاء : فى كل هذه المغانى الكريمة ، وفى كثير غيرها ، قدم الإسلام من رجالاته أبطالاً ، سيظلون على امتداد الأزمان ، ملء العيون ، والقلوب ، مهابة ، وإجلالا ، وإكباراً ، عند الأولياء ، والأعداء على السواء ..

وقد جمع عمر - رضى الله عنه - من البطولات ما يضم هذه المعاني كلها ، على حال من التآخى والتوازن بينها جميعاً ، فلم يجر فيها معنى على معنى ، ولم تتجيف منها صفة على مكان صفة .. ومن هنا حق لنا أن نصفه بأنه : « الوثيقة الخالدة ، للدين الخالد » . . فهو بحق وثيقة خالدة ، كاشفة عن حقائق هذا الدين ، فى أكمل صورة يمكن أن يبلغها بشر غير نبي - من الكمال الإنسانى ، فى حدود البشرية .

(٣)

وإذا كانت الشدة والصرامة ، فقد أخذت لونا ظاهراً فى سيرة عمر - رضى الله عنه - فكانت بهذا مدخلا من مداخل الدين أملى عليهم الهوى أن يقفوا موقف العداوة منه ، وأن يشنعوا عليه ، تارة بالخروج على سنة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - لإرضاء منه لنزعة السلطان والتسلط ، وتارة بالعدوان على أهل البأس والعجدة ، حتى يخفض رءوسهم عن مساماته ، ومنازعة هذا السلطان - نقول : إذا كانت شدة عمر وصراحته قد فتحت لأعدائه باباً للتقول عليه ، والطعن فيه - فإن ذلك لا يضيره فى شيء ، فما كان ينتظر من عدو صاحب هوى أن يقول فى خصمه غير الكذب والافتراء ، ليترضى هواه ، وليغذى عداوته من هذا الطعام الحرام ..

ونعم ، إنه كان فى عمر شدة وصرامة ، ولكنها فى مواقع الحق أن يجار عايه ، وفى مجال حرمان الله أن يعتدى عليها .. فإذا لم يكن شيء من هذا ، فعمر - رضى الله عنه - هو اللين كله ، والرفقة كلها ، والتواضع كله . أما أن يقال إن عمر - رضى الله عنه - كان يجانى سنة رسول - صلوات الله وسلامه عليه - ويعطى نفسه الحق فى نقضها والأخذ بغيرها ، استجابة لهوى متسلط عليه ، فهذا قول لم يستطع أعداء الإسلام أنفسهم أن يحملوا أنفسهم على

النطق بكلمة منه ، لأن بين أيديهم من شواهد التاريخ الناطقة ، ما يرد ذوى الحياء عن أن ينكروا الشمس في رابعة النهار . . أما إذا تجرد المرء من الحياء ، فلا شيء يمسكه عن أن ينزع ثيابه ، وأن يلتقى الناس عرياناً . . ورسول الله ﷺ يقول : « من لا حياء فيه لا خير فيه » وفى الأمر : « إذا لم تستح فاصنع ما شئت » !

وهل كانت شدة عمر ، وصرامة عمر ، إلا حفاظاً على سنة رسول الله ، وإلا غيرة على هذه السنة ؟ وهل كان موت ابن عمر بيد عمر إلا حفاظاً على هذه السنة وغيرة عليها ؟

روى أنه كان للعباس - عم النبي - ميزاب يسيل منه المطر على مسجد رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - فما كان من عمر إلا أن اقتلعه بيده . .

فهذا لا شك من شدة عمر ، ومن صرامته . . وقد كان من الممكن أن يدعو العباس نفسه إلى اقتلاع هذا الميزاب ، بعد أن يرى آثاره فى المسجد ولو فعل عمر هذا ، لما كان للعباس - رضى الله عنه - إلا أن ينتزع هذا الميزاب !

ولكن هل وقف الأمر عند هذا ؟ وكلا . .

فهذا هو العباس ، يحىء إلى عمر ، بعد أن فعل بالميزاب ما فعل ، فيقول له : « والذى بعث محمداً بالحق ، إنه - ﷺ - هو الذى وضع هذا الميزاب فى هذا المكان ، فنزعته أنت يا عمر ! !
فماذا كان من عمر ؟

إنه يعزم على العباس أن يصعد على كتفه ، حتى يعيد الميزاب إلى مكانه . . وقد فعل العباس !

أذ كانت شدة عمر وصرامته هنا إرضاء لهوى ، أو استجابة لداعى
السلطان ؟ إنه لو كان الأمر كذلك ، لما كان من عمر أن يرجع عن هواه ،
أو ينزل عن شيء من سلطانه ، حتى يعطى ظهره للعباس ، فيضع العباس
رجليه على ظهر عمر ، ليعيد الميزاب إلى مكانه !! إن أياً من الناس لو فعل
بالميزاب ما فعل عمر ، لما كان منه إلا أن يدع العباس ليعيد الميزاب إلى
مكانه ، أو يعيده هو بنفسه ، أو بأحد من الناس غيره !
هذه واحدة !!

وأخرى ، وهى أن عمر أكان بطوف فى طرقات المدينة ليلاً ، فسمع
صوت رجل وامرأة فى بيت ، وقد علا صخبهما ، وضحكهما على غير
المألوف ، فوقع فى نفس عمر أن الرجل والمرأة على حال سوء . . فتسور
عليهما الحائط ، فإذا هما وبين أيديهما زق خمر ! فقال عمر للرجل : يا عدو
الله ، أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على المعصية ؟ فقال الرجل : يا أمير
المؤمنين : إني عصيت الله فى واحدة ، وأنت فى ثلاث : فإله يقول :
« ولا تجسوا » وأنت تجسست علينا . والله يقول : « وأنوا البيوت من
أبوابها » وأنت صعدت إلى الجدار ونزلت منه !! والله يقول : « لا تدخلوا
بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها » وأنت لم تفعل !
فقال عمر هل عندك من خير إن عفوت عنك ؟ قال : نعم ، والله لا أعود !
فقال عمر : اذهب فقد عفوت عنك !!

فهذا عمر - رضى الله عنه - يأخذ الحق من نفسه ، ولا يرى أن من
حقه أن يهجم على الناس فى بيوتهم ، وإن طن أنهم على معصية ! فإن
للناس حرمة ، وللبيوت حرمة .. فلقد دنعته غيرته على حرمة الله ، أن يتسور
الدار ، وأن يهجم على أهله .. ثم ينبه إلى ما ليس له حق فيه ، فيرجع إلى الحق !
وهذه أخرى ..

وثالثة .. عن أبي سلامة . قال : انتهيت إلى عمر ، وهو يضرب نساء ورجالا في الحرم ، قد اجتمعوا على الحوض ، يستقون ويتوضئون منه ، حتى فرق بينهم ، ثم قال للقائم على الحوض : ألم آمرك أن تمنع حياضاً للرجال ، وحياضاً للنساء ؟ .

ثم مضى عمر ، وفي نفسه شيء من هذا الذي فعله بالمجتمعين على الحوض ، فلقبه على بن أبي طالب ، فقال له عمر : أخاف أن أكون قد هلكت ؟ فقال على : وما أهلكك ؟ قال : ضربت نساء ورجالا في حرم الله عز وجل ، فقال على : يا أمير المؤمنين : أنت راع من الرعاة ، ترد الشارد !! .

فهذا هو عمر ، في غيرته على حرمة الله ، وفي خوفه من الله !! فأين هو السلطان للتسلط ، ممن يخاف الله ؟

لقد كان عمر ، يحرض الناس على مراجعته ، وتقده ، والتصدى له ، إذا هو خرج ولو قيد شعرة على شريعة الله ..

فهذا حذيفة بن اليمان ، يقول : دخلت على عمر بن الخطاب ، فرأيتة مهموماً حزينا ، فقلت له : ما يهيك يا أمير المؤمنين ؟ قال : إني أخاف أن أقع في منكر ، فلا ينهاني أحد منكم تعظيماً لي !! فقال حذيفة : والله يا أمير المؤمنين : لو رأيته خرجت عن الحق لنهيته .. قال : ففرح عمر ، وقال : الحمد لله الذي جعل لي أصحاباً يقومونني إذا عوججت ا .

ويقوم عمر على المنبر ، فيخطب الناس ، ويقول : يا معشر المسلمين : ماذا لو ملت برأسي إلى الدنيا هكذا - وميل رأسه - فقام إليه رجل ، فقال : كنا نقول بالسيف هكذا - وأشار إلى رقبته بالقطع - فقال عمر :

أما إياي تعني ؟ قال الرجل : نعم ! فقال عمر : رحك الله ، الحمد لله الذي جعل في رعيي من إذا تعوجت قومني ! » .

وهذا عمر ، يقوم إليه رجل من المسلمين ، فيقول له : اتق الله يا عمر !
ويعيد هذا القول مرة ومرة ، فيقول له قائل : أنت تص أمير المؤمنين . .
فيقول عمر : دعه ، فلا خير فيكم إذ لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبل ! !

وهذه امرأة ، قد زنت ، وجاءت إلى عمر وأقرت بالزنا ، فلما استوفت الإقرار أمر عمر برجمها ، ونظر على إلى المرأة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لعل لها عذراً فيما فعلت . . ثم سألها على : ما حلاك على الزنا ؟ قالت : كان لي خليط - أي جار - وفي إبله ماء وابن ، ولم يكن في إبلتي ماء ولا لبن ، وطمئت فاستسقيته ، فأبى أن يسقيني إلا إذا أعطيته نفسي ، فأبيت عليه ، ثلاثاً ، فلما ظمئت ، وظننت أن نفسي ستخرج ، أعطيته الذي أراد فسقاني ، فقال على : الله أكبر « فن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم » فأخلى عمر سبيلها .

وهكذا نقض عمر حكمه ، حين استبان له الحق ، من وجه لم يكن قد كشف عنه . .

فالذين يقولون عن عمر - رضى الله عنه - إنه كان يكره المراجعة من أحد فيما يفعل أو يقول ، هم أهل اختلاق وافتراء ، تكذبهم الأخبار الكثيرة المشهورة التي تشهد بأن عمر : كان يدعو الناس ويحرضهم على مراجعته !

ثم كيف أبى عمر على الناس أن يراجعوه ، وهو الذي كان يراجع
رسول الله ﷺ في كثير من المواقف ؟

ألم يراجع عمر رسول الله ﷺ في صلاته على عبد الله بن أبي ، وقد كان مناقماً ، ظاهر النفاق ؟ وقد نزل في هذا قوله تعالى : « ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله ، وماتوا وهم فاسقون »^(١) ؟ ألم يراجع عمر رسول الله ﷺ ، في حجب نسائه ؟ ثم نزل بعد هذا قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إياه ، ولكن إذا دعيت فادخلوا ، فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث ، إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحي منكم ، والله لا يستحي من الحق ، وإذا سألتهم عن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن »^(٢) .

ثم ألم يراجع عمر رسول الله ﷺ في صاح الحديدية ، حتى لقد أثقل في ذلك على رسول الله ﷺ وحتى لقد قال له الرسول الكريم : « يا ابن الخطاب ، إني رسول الله ، وإن يضيئني الله أبداً » وعندها علم عمر أن الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أنه يعمل في هذا الأمر بوحي من ربه ، فأمسك عمر ، وثاب إلى رشده ! وطل حياته يستغفر الله لموقفه هذا ؟ فكيف يكون من عمر ، وهذا موقفه في مراجعة رسول الله ، أن يستنكف من مراجعة الناس له ؟ ذلك هو المستحيل بعينه !

ليس بعمر - رضى الله عنه - شدة أو صرامة إلا في الحق ، الذي لا يدخل عليه شبهة ، فإذا لاحت لعمر شبهة ، توقف طويلاً ، يحاسب نفسه ، ويراجعها ، ويسأل من حوله ، حتى يمسك بحجة قاطعة ، فإن لم تكن حجة قاطعة ، عاج الأمر بالحكمة ، والوعظة الحسنة .

(١) سورة التوبة : ٨٤ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥٢ .

روى أنه - رضى الله عنه - سأل عن أحد المسلمين المجاهدين من أهل النجدة والبأس ، فقيل له : إنه يشرب الخمر ! ولما لم يكن من الرجل إقرار ، أو لم يقم عليه شهود ، فقد كتب إليه عمر كتاباً يقول له فيه :

« من عمر بن الخطاب ، إلى فلان بن فلان .. سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله ، الذى لا إله إلا هو ، غافر الذنب ، وقابل التوب شديد العقاب ، ذى الطول ، لا إله إلا هو ، إليه المصير » .

فلما قرأ الرجل كتاب عمر ، جعل يقرأ ويميد « غافر الذنب » ! وقد وعدنى الله أن يغفر لى ، و « قابل التوب شديد العقاب » قد حذرنى من عقابه .. فلم يزل الرجل يردد الآية الكريمة ، ويقف عند كل مقطع من مقاطعها ، ويبكى ، ثم رجع إلى الله تائباً !!

ولما بلغ عمر خبر الرجل ، وما كان منه ، قال لأصحابه : هكذا ، فاصنعوا إذا رأيتم أخاً لكم زل زلة ، فسددوه ، وادعوا الله أن يتوب عليه ، ولا تكونوا أعواناً للشيطان عليه .

وهذا الذى فعله عمر ، هو من هدى النبي ﷺ .. فقد أتى إلى رسول الله - برجل شرب خمرأ وقامت عليه البينة ، فأمر الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - أن يقام عليه الحد .. قالوا ففنا الضارب بثوبه ، ومنا الضارب بيده . فلما ولى الرجل ، قال أحد الناس : لعنه الله .. قالوا ، فغضب رسول الله ، وقال : لا تقولوا هكذا ، فتمينوا الشيطان عليه !

ومن عريات عمر - رضى الله عنه - أنه ظل فى خلافته ، كلما لقي أسامة ابن زيد ، يقول له : السلام عليك أيها الأمير ، ويقول : إني لا أدعوك إلا بالأمير ، لأن النبي ﷺ مات وأنت على أمير !!

وذلك أن أسامة - رضى الله عنه - كان على رأس الجيش الذى أعده رسول الله ﷺ قبيل وفاته ، لغزو أطراف الروم ، وكان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - جندياً فى هذا الجيش ، تحت إمرة أسامة !

وهكذا ظل عمر - رضى الله عنه - فى مكانه من زيد ، الذى أمره النبي عليه ، فلا يناديه إلا بقوله : يا أميرى !! وهو الخليفة على المسلمين ! أف يكون هذا من رجل محب للسلطان ، نزاع إلى التعالى والتسلط ؟ ما يكون لنا أن نقول بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ..

(٤)

من الميراث الطيب ، الذى ترثه الإنسانية من عطاء الرجال ، فوق ما يرثونه من أفعالهم العظيمة ، وسيرتهم الحميدة - ما يجرى على ألسنتهم من كلمات فى كثير من مواقفهم ، تظل آثاراً خالدة بعدهم ، وأمثالا سائرة ، يمثّلها الناس كلما عرضت لهم حال ، يكون المثل منها كاشفاً لها ، قاضياً بالحكم فيها ..

فالكلمات التى ينطق بها أولوا الرشاد من الناس ، هى نضيج أفكارهم ، وثمرات عقولهم . . وما الناس فى هذا إلا أشبه بالأشجار ، وما تحمل من ثمارها .. فالعطاء الحكياء الراشدون من الناس ، تثمر أفواههم ثمرات طيبة مباركة . . فهم فى حياتهم ظل طليل ، وثمر حاضر ، وهم بعد مماتهم ثمر مدخر للطالبيين .. وفى الناس من لا ظل له ولا ثمر !!

وقد كان عمر - رضى الله عنه - من هذا الشجر المبارك الطيب ، الممدود : الظل ، الكثير الثمر ، الحاضر منه والمدخر ..

فكما ترك عمر - رضى الله عنه - من سيرته العطرة ، الأسوة الحسنة ،
والقدوة الطيبة للحاكم العادل المصلح ، ترك من بعده تراثاً عظيماً طيباً من
الكلمات الحكيمة ، ذات المضمون المبارك ، الذى يحمل علماً نافعاً ،
وحكمة بالغة ..

ولا يمكن حصر هذا التراث العظيم من كلمات عمر ، التى أودعها
رسائله إلى عماله ، بما فيها من مقاطع القول ، ودستور العمل .. وحسبنا
هنا ، أن نقطف بعضاً من هذه الثمرات المباركة ، التى تمثل جوانب من علم
عمر وبقه ، وحكمته ، وسياسته .

فمن ذلك قول عمر :

« إياكم والراحة ، فإنها غفلة » ..

وقوله :

« إن للناس حدوداً ومنازل ، فأنزلوا كل رجل منزلته ، وضموا كل
إنسان فى حده ، واحملوا كل امرئ ببعله على قدره » ..

وقوله :

« من يأس من دىء استغنى عنه ، وعز المؤمن استغناؤه عن الناس » ..

وقوله :

« لا تضعفوا هممكم ، فإنى لم أرى شيئاً أقعد برجل عن مكرمة ، من
ضعف همته » ..

وقوله :

« ترك الخطيئة ، أيسر من معالجة التوبة » ..

وقوله :

« رب نظرة زرعت شهوة ، ورب شهوة أورثت حزناً دائماً » ..

وقوله :

« إذا أسأت فأحسن ، فإنى لم أر شيئاً أشد طلباً ، ولا أسرع إدراكاً
من حسنة حديثة ، لذنوب قديم » ..

وقوله :

« كل عمل كرهت من أجله الموت ، فاتركه ، ثم لا يضررك
متى مت » ..

وقوله :

« احذروا عاقبة الفراغ ، فإنه أجمع لأبواب المكروه ، من السكر » ..
وقوله :

« ثلاث خصال من لم تكن فيه ، لم ينفعه الإيمان ، حلم يرد به جهل
الجاهل ، وورع يحجزه عن المحارم ، وخلق يدارى به الناس » ..
وقوله :

« إياكم وهذه المجازر ، فإن لها ضراوة كضراوة الخمر »^(١)
وقوله :

« أقلل من الدين تعش حراً . وأقلل من الذنوب يهن عليك الموت »^(٢)

(١) يريد البعد من المحازر ، والنظر إلى ما فيها من لهم ، هذا يحرك الشهوة إليها ،
ثم لا يملك المرء لها دفعا ، فيحمل على ما لا يدر عليه ..
(٢) لأن المرء في تلك الحال يحب لقاء الله ، فيحب الله لقاءه ، كما في الحديث الشريف :
« من أحب لقاء الله ، أحب الله لقاءه » ..

هذه بعض من كلمات عمر - رضى الله عنه - وهى بعض من دستور الحياة عنده . . فما كلمة من هذه الكلمات إلا وكان عمر عاملاً بها ، وملتزماً حدودها . فكان - رضى الله عنه - من الذين يقولون ما يفعلون ، ويفعلون ما يقولون » .

فرضى الله تعالى عنه وأرضاه ، ونعم به أمة الإسلام ميمناً ، كما نفعها به حياً . .

• • •

وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله وخاتم النبيين وعلى آله وأصحابه والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . . . وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين . . .

المؤلف

القاهرة في محرم ١٣٧٨ هـ
يناير ١٩٦٨ م

القرين

صفحة

المقدمة	٣
تمهيد	١٧

الباب الأول

جاهلية عمر

نسبه : ٤٥١ و لقبه	٢٨
صفاته الجسمانية	٤٢
صفاته النفسية	٤٢

الباب الثاني

عمر في الاسلام

الفصل الأول : كيف دخل عمر في الاسلام	٥٤
اسلام عمر	٥٨
الفصل الثاني : ما بعد اسلام عمر	٦٧
الفصل الثالث : هجرة عمر	٧٢

الباب الثالث

عمر في صحبة الرسول ﷺ

الفصل الأول : في دار الهجرة	٨٠
الفصل الثاني : في السلم والحرب	٩٣
الفصل الثالث : مع شمس النبوة الباقية	١٢٦
الفصل الرابع : يوم المشقة . . وما بعده	١٤٩

صفحة

١٤٨	رسول الله . ومن يحمله
١٦٧	الشيعة وموافقهم من عمر
١٧٢	الشيعة والخلافة
١٧٥	الفصل الخامس : مع أبي بكر
١٧٧	حرب الردة
١٧٨	عمر وحرب الردة

الباب الرابع

٢٨٧٢١٨ . ٢٨١٢١

١٩٤	
٢٠١	
٢٠٨	
٢٠٨	
٢١٣	
٢٢٠	
٢٢٦	
٢٣٥	
٢٣٥	
٢٤١	
٢٤٤	
٢٤٩	
٢٥٠	

الفصل السابع

خاتمة الإله

٢٠٨٠	عام الترماده
٢١١	طاعون عمرواس
٣١٣	الجهل في كتاب الله
٣٢٣	رابعاً - المؤلفة قلوبهم

الباب الخامس

عمر وحدود الله

٣٣٠	الفصل الأول : حدود الله
٣٥٠	الفصل الثاني : الحدود وآل عمر
٣٥٨	الفصل الثالث : اجتهد عمر فيما لاحد فيه
٣٦٠	ما هو حد التعزير
٣٦٤	عمر ونصر بن حجاج

الباب السادس

عمر ومطاعن الطاعنين عليه

٣٧١	الفصل الأول : موقف عمر من خلافة علي
٣٨٢	الفصل الثاني : مخالفته كتاب الله ورسنة رسول الله ﷺ
٣٩١	الفصل الثالث : جعله الثلاث في الطلاق طلاقاً بائناً
٣٩٦	الفصل الرابع : مجاوزته حدود الله
٤٠١	الفصل الخامس : تعطيل حدود الله
٤١٧	الفصل السادس : ما قيل من أنه أبدع في الدين
٤٢٤	الفصل السابع : عزل خالد بن الوليد

الفصل الثامن

في عهد أبي بكر الصديق.

عمر وجميع القرائن للتكريم ٤٤١

الفصل التاسع

موت عمر

خاتمة ٤٦٩

دار التراث العربي للطباعة والنشر
ميدان الشهيد الحسيني
تلفون ٩٣٦١٤٥